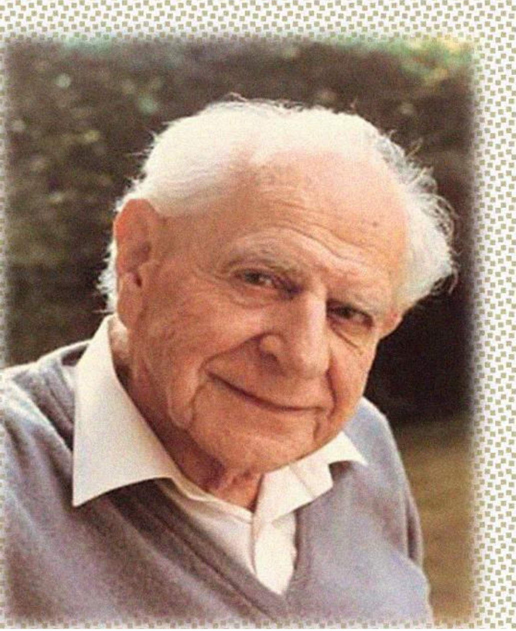
الحياة بأسرها ... حلول لمشاكل !

كارل بوبر



ترجمة
د.بهاء درويش

الناشر: منشأة المعارف
بالإسكندرية

العنوان الأصلى للكتاب

Alles Leben ist Problemlösen .

1994

الحياة بأسرها حلول لمشاكل

ترجمه عن الألمانية

د. بهاء درويش

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى النــور الذى يضئ حياتــى

إلى إبنى :

جــلال ويحيى

حفظهما الله

مقدمة المترجم :

لا أحسبنى فى حاجة للتعريف بفيلسوف العلم الألمانى الشهير كارل بوبر ولا بالحديث عن مكانته فى مجال فلسفة العلم ، فلقد سبقنى إليها الكثير ، سواء من الكتاب الغربيين أو العرب[1] ، ولكن يبدو مع هذا أن إسهاماته الغزيرة وآراءه الوفيرة فى مجال فلسفة العلم ــ العلوم الطبيعية والانسانية على السواء ــ قد جعلت منها مادة لايجف مداد القلم بإزائها ، مادة لم يختلف المؤيدون والمعارضون لها حول قيمتها .

تأتى أهمية هذا الكتاب فى أن معظم المقالات الستة عشرة التى يضمها بين جنباته لم تنشر من قبل ، فهو يعرض فى هذا الكتاب ــ وهو آخر كتاب تم نشره قبل وفاته بفترة قصيرة ــ لمواقفه من نظرية ومنهج العلم الطبيعى ومن التاريخ والسياسة تلك التى ذكرها فى كتبه السابقة والتى لم يذكرها ، بحيث يأتى هذا الكتاب جامعا حاويا لشتى آرائه الفلسفية مشكلا بذلك مجمل فلسفته ، كما لو كان فيلسوفنا قد أحس أنه آخر كتاب سيرى النور فى حياته فأراد أن يلملم فى داخله نظرياته جميعا بشكل مركز ووافٍ فى نفس الوقت .

تأتى أهمية هذا الكتاب أيضا من أن فيلسوفنا لايعرض لأفكاره بطريقة مجردة لايفهمها سوى المتخصص صاحب الخلفية العلمية والفلسفية الكافية لفهمها ، ولكنه يعرض لأفكاره بطريقة مبسطة يمكن للقارئ العادى أن يفهمها ، فهو لايعرض أفكاره وحسب ولكنه يعرض تاريخها ، أى متى

---

(١) ماصدر فى الغرب عن كتب أو مقالات عن كارل بوبر عديد ومتنوع بحيث لا مجال لذكره هنا . يمكن على سبيل المثال ــ لا الحصر ــ الإشارة إلى أهم ما كتب عن كارل بوبر باللغة العربية : ــ

١ ــ السيد نفادى " إتجاهات جديدة فى فلسفة العلم " مجلة عالم المعرفة . ديسمبر ١٩٩٦ ص ٨٩ ــ ١١٤ .

٢ ــ محمد السيد " التمييز بين العلم واللاعلم " منشأة المعارف ١٩٩٦ .

٣ ــ محمد قاسم " كارل بوبر . نظرية المعرفة فى ضوء المنهج العلمى " دار المعرفة الجامعية ١٩٨٦ .

٤ ــ ياسين خليل " مقدمة فى الفلسفة المعاصرة " منشورات الجامعة الليبية ، كلية الأداب ــ ١٩٧٠ .

٥ ــ يمنى طريف الخولى " فلسفة كارل بوبر . منهج العلم . منطق العلم " الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .

وكيف آمن بهذه الأفكار وما الذى دعاه إلى اعتناقها وذلك فى أسلوب روائى جعل الكتاب يبدو وكأنه سيرة ذاتية للمؤلف .

إذا أردنا مثالا لذلك نجد أن فيلسوفنا فى تفنيده للنظرية الماركسية لايكتفى بتفنيدها بتطبيقه عليها معياره حول متى تكون النظرية نظرية علمية ومن ثم بالنتيجة التى خرج بها وهى أن النظرية الماركسية لاتندرج ضمن النظريات العلمية وهو سبب كاف بالنسبة له لرفضها ولكنه يقص علينا كيف آمن بها وما هى الدواعى الأخرى ــ الاخلاقية والإنسانية ــ التى دعته إلى رفضها ــ وهى فترة لم تتجاوز فى حياته الستة أشهر ، لم يكن وقتها قد أتم السابعة عشر من عمره ولم يكن بالطبع قد وصل إلى مبدأه فى القابلية للتكذيب .

من هنا جاءت أهمية هذا الكتاب الذى صدر بالألمانية فى أغسطس ١٩٩٤ . قرأه المترجم حال صدوره ــ أثناء بعثته للدكتوراه بمدينة إرلانجن بدولة ألمانيا ــ فشعر بأهمية هذا الكتاب وضرورة نقله لقارئ العربية ، وعزم على أن يتم هذه المهمة فور أن يفرغ من تقديم رسالة الدكتوراه ، وها هوذا يفى بالوعد الذى قطعه على نفسه .

يرى المترجم أن فلسفة كارل بوبر تشكل فى مجموعها حلقة دائرية ، بمعنى أنه من الصعب الفصل بين نظرياته أو الحديث عن إحداها بمعزل عن الأخرى ، فكل منها إما أنه يؤدى إلى غيره أو أنه نتيجة لهذا الغير (وهو ما سأحاول أن أبينه فى هذه الدراسة) ، من هنا نزعم أنه من الممكن للباحث فى فلسفة كارل بوبر أن يبدأ من ايها .

يمكن أن نجمل آراء بوبر الرئيسية فى النقاط التالية :

١ – العقلانية النقدية .

٢ – موقفه من الاستقراء (رفض مبدأ الاستقراء)

٣ – مبدأ القابلية للتكذيب .

يشكل رفض بوبر للاستقراء وأخذه بمبدأ القابلية للتكذيب المنهج العلمى كما يراه بوبر . من هنا نجد أن بوبر قد بدأ معظم كتبه ذات الطابع

المنهجي بمناقشة الاستقراءوينتهي بنقده أو بتفنيده ثم ينتقل بعد ذلك إلى عرض منهجه[1] ، أما في الكتاب الذي بين أيدينا هذا فنجد أنه يفعل العكس ، يعرض للمنهج العلمي الذي وفقا له يتطور العلم ، بمنهج الاستبعاد أو القابلية للتكذيب أو المحاولة والخطأ ، وهي وفقا لبوبر مرادفات يمكن احلالها محل بعضها ثم ننتقل من هذا المنهج إلى تبرير رفضه لمنهج الاستدلال الاستقرائي وهو ما فعله في المقالات الأولى والرابعة والخامسة نجد في هذا تبريرا لزعمنا بأن آراء كارل بوبر آراء مكملة لبعضها يمكن أن نبدأ من أيها .

فإذا كان الاستدلال الاستقرائي هو الانتقال من قضايا جزئية ــ وهي القضايا المعبرة عن الملاحظات ــ إلى قضايا عامة وكلية وهي النظريات التي نخلص إليها أو نستدلها من القضايا المفردة والتي هي صياغة لملاحظاتنا ، فالعلم أي النتاج البشري ــ بل والمعرفة بصفة عامة ــ بما في ذلك المعرفة الحاصل عليها سائر الكائنات الحية ــ لاتتكون على هذا النحو .

فالعلم أو المعرفة يبدأ من مشكلة ما تقابل الكائن الحي ، وليست الملاحظة هي نقطة بداية العلم . تؤدي هذه المشكلة بالكائن العضوي إلى محاولات لحلها عن طريق منهج المحاولة والخطأ . هذا المنهج هو المنهج المنطقي الوحيد الممكن لإكتساب معرفة جديدة ، ثم يقوم الكائن الحي باستبعاد لكل محاولة حل خاطئة ــ أي لكل محاولة حل لاتصل به إلى حل المشكلة ــ مما يعطي الفرصة لظهور محاولات حل جديدة .

هذا المنهج تستخدمه سائر الكائنات الحية ــ من الأميبا أدنى الكائنات العضوية ذات الخلية الواحدة ، إلى أرقى الكائنات العضوية (الإنسان) . يكمن التمييز في استخدام هذا المنهج بين الكائنات العضوية الدنيا والكائنات العضوية العليا في أن :

---

(١) أنظر على سبيل المثال :

Popper.Karl : 1- The Logic of Scientific Discovery,Hutchinson & Co.Ltd. London,1959.

2 - Conjectures and Refutations , Routledge & Kegan Paul, London, 1972.

3 – Objective Knowledge, An Evolutionary Approach, Oxford, 1972.

١ – الكائنات العضوية العليا تقوم بهذه الخطوة الأخيرة (الاستبعاد) بطريقة واعية ، فالعالم يقوم بإخضاع فروضه المستقلة عنه – بفضل صياغتها صياغة لغوية – للنقد أو للاستبعاد هادفا من هذه العملية إلى اختبار قوة النظرية وذلك عن طريق محاولة تكذيبها •

٢ – تتعلم الكائنات العضوية العليا من خلال هذا المنهج كيف يمكنها حل مشكلة معينة ، أى أنها لاتعرف فقط أن نظرية ما خاطئة ولكنها تعلم أيضا لماذا تكون هذه النظرية خاطئة ومن ثم تكسب بذلك مشكلة جديدة مفهومة بشكل أفضل تكون بمثابة نقطة انطلاق تقدم علمي جديد •

أما الكائنات العضوية الدنيا فتمارس هذا المنهج بطريقة آلية ، أو بطريقةغير واعية ، حيث تقوم الطبيعة بعملية استبعاد المحاولات الخاطئة ويهلك بالتبعية معها حامل هذه المحاولات ، أما الإنسان – أو العالم – فبصياغته لفروضه صياغة لغوية – قد أكسب هذه الفروض استقلالا وموضوعية ، من هنا كانت المعرفة البشرية معرفة موضوعية وكان العلم ظاهرة بيولوجية •

فإذا كان هذا الإطار ثلاثى المراحل " المشكلة – محاولات الحل – الاستبعاد " هو المنهج الذى تمارسه سائر الكيانات الحية فى اكتسابها للتعلم ، كان العلم – وفقا لبوبر – ظاهرة بيولوجية ، بمعنى أنه قد خرج من عباءة المعرفة قبل العلمية ، أى أنه تطور لطريقة معرفة الفهم الانسانى الصحيح والتى هى بدورها تطور للمعرفة الحيوانية ، وحق للبعض وسم نظريته فى المعرفة بأنها نظرية فى المعرفة التطورية •

يسير المنهج العلمي وفقا لبوبر على هذا النحو : تنشأ النظريات الحديثة عن النقد الواع للنظريات – محاولات الاستبعاد – بالتفنيد – • هذا النقد يؤدى إلى إظهار صعوبات معينة تكون النظريات الحديثة نتاجها ، فمن المشكلات التى يظهرها نقد نظرية ما نصل إلى نظرية جديدة تؤدى مناقشتها إلى ظهور مشكلات جديدة تنتج عنها نظرية أخرى جديدة ••• وهكذا •

ولكن ما الذى تهدف إليه المناقشة النقدية لنظرية ما ؟ لاتهدف المناقشة

النقدية لنظرية ما إلى مجرد استبعاد النظريات الخاطئة ولكنها تهدف إلى البحث عن النظرية الصادقة •من هنا كانت فكرة الصدق إحدى الأفكار الثلاث الموجهة للمناقشة النقدية • تشكل فكرتا المحتوى الامبيريقى لنظرية ما وفكرة محتوى صدق النظرية الفكرتين الآخرتين الموجهتين للمناقشة النقدية • يعنى بوبر بالمحتوى الامبيريقى لنظرية ما فئة القضايا التجريبية التى تمنعها النظرية ، فالنظرية التى لاتمنع ظهور أى حوادث ملاحظة كنظرية فرويد فى التحليل النفسى نظرية محتواها الامبيريقى صفر • النظرية " كل الغربان سوداء اللون" ذات محتوى أمبيريقى أكبر من النظرية " لايوجد غراب أبيض " ذلك أنه إذا كانت الثانية تمنع ظهور غربان بيضاء اللون ، فالأولى لاتمنع فقط ظهور غربان بيضاء اللون ولكنها تمنع أيضا ظهور غربان بأى لون خلاف اللون الأسود ، ففئة القضايا التى تمنعها أكبر بكثير من فئة القضايا التى تمنعها النظرية الأولى •

وكلما صمدت النظرية أمام الاختبارات بصورة أقوى من غيرها كلما كان محتوى صدقها أكبر • بهذا المعنى يرى بوبر أن نظرية أينشتين فى الجاذبية ــ أقرب إلى الصدق من نظرية نيوتن •

على هذا النحو يتطور العلم وعلى هذا النحو تنشأ المعرفة • فلا المعرفة ــ ولا العلم ــ ينشأ أيهما عن الاستقراء • فالاستقراء وفقا لبوبر هو الاجابة عن السؤال : كيف نعرف ؟ والتى تأتى عادة على هذا النحو : " ما عليك سوى أن تفتح عينيك وتنظر ومن ثم تعرف " • أى أن المعرفة تتكون بإختصار عن طريق الإدراك الحسى وهو ماسبق وذكرنا أنه تفسير يرفضه بوبر • ولكن لم يرفضه ؟

يرى بوبر أن ٩٩,٩ % من معرفتنا معرفة فطرية ــ وإن كانت فى نفس الوقت ــ غير يقينية •هذه المعرفة تسبق المعرفة البعدية والتى هى بالمثل بمعرفة غير يقينية • البحث عن المعرفة اليقينية وهم كان أرسطو أول من بحث عنه وهو مامن أجله اخترع الاستقراء •

لتوضيح وجهة نظر بوبر هذه نقول :

يرى بوبر أن العلم ــ أو المعرفة بوجه عام ــ المعرفة التى تحصل عليها سائر الكائنات الحية ــ تبدأ بمشكلة ما تقابل الكائن العضوى الحى ، عندما تقابل الكائن الحى هذه المشكلة فإنه يقوم بوضع فرض ما أو حدس أو تخمين يعتقد أنه هو ما شأنه أن يحل له هذه المشكلة ، هذا الفرض ، أو هذه المعرفة الفرضية عبارة عن تخمين يضعه الكائن العضوى قبل أى ملاحظة ، من هنا كانت هذه المعرفة معرفة قبلية ، ثم تأتى بعد ذلك المعرفة البعدية التى هى تصحيح أو تعديل لفروضنا ، فإذا كان الكائن الحى يتعلم عن طريق المحاولة والخطأ ، فمحاولاتنا هى فروضنا التى تنبع من داخلنا وليس من العالم الخارجى ، نتعلم من العالم الخارجى فقط أن بعض محاولاتنا خطأ .

يرى بوبر أن تكيف الكائن الحى مع بيئته شكل من أشكال المعرفة القبلية ، فالزهور على سبيل المثال لديها معرفة بتعاقب الليل والنهار ، من هنا نجد أنها تنغلق على نفسها وتنفتح ، إذن فهى تعرف شيئا عن الاطرادات العامة ، دون أن يعنى هذا أن لها عقلا ولكن بمعنى أنها تتكيف مع البيئة بطريقة معينة ، فالفرض الأساسى الذى يختلف به بوبر عن غيره من أصحاب نظريات المعرفة هو فى قوله بأن التكيفات العامة تسبق التكيفات اللحظية فهى تحدث قبلها ، أى أنها قبلية .

تكيفات الحيوانات إذن توقعات ، فالأعين على سبيل المثال توقع فطرى ، هذا التوقع هو ماجعل أعيننا مثلا على النحو التى هى عليه ، بينما لا تلعب الأعين دورا لدى بعض الكائنات من هنا كانت عمياء بالوراثة .

فسائر الكيانات فى بحثها عن البيئة الأفضل والعالم الأفضل بحركات المحاولة التى تقوم بها لاشك أنها متكيفة على نحو ما ، أى لديها معرفة عامة إلى حد ما .

لايتكون العلم إذن ــ وفقا لبوبر ــ بالإعتماد على منهج الاستقراء ولكن بالإعتماد على مبدأ التكذيب، وفى تدعيمه لفكرته ــ يخصص بوبر المقالة السادسة للحديث عن عالم الفلك " يوهان كبلر " الذى لم يصل إلى قوانينه الثلاثة ــ كما يقول بوبر ــ بالاستقراء كما اعتقد نيوتن ، ولكنه كان الحدس هو الموجه والمرشد لكبلر ــ مثله فى ذلك مثل كل عالم ــ فلقد

وصل كيلر ـ كما يقول بوبر ـ إلى مبدأه فى التكذيب ، وقام بتفنيد وتكذيب فرض المدار الدائرى بعد مناقشته مناقشة نقدية ، ومن ثم تمكن من الوصول بعد عدة عمليات من التفنيد إلى فرض المدار البيضاوى .

العقلانية النقدية إذن هى المبدأ الذى يوجه العالم ـ بل المبدأ الذى يميز الإنسان عن سائر الكيانات فى منهجهم المشترك للوصول إلى المعرفة الصحيحة . هذا المبدأ لا يوجهنا فقط فى بحثنا فى المعرفة الطبيعية ـ المعرفة العلمية ـ ولكن فى سائر ميادين المعرفة . وهو ما يطبقه بوبر فى مجالى فلسفة التاريخ والسياسة والتى تأتى على هذا النحو مكملة للمعرفة الطبيعية والتى تشكل فى مجموعها المعرفة الإنسانية التى تميزها عن المعرفة الحاصل عليها سائر الكائنات الأخرى . ولكن قبل أن نتطرق لتطبيق بوبر لمبدأ العقلانية النقدية المتضمن فى مرحلة " الاستبعاد " فى فلسفة التاريخ والسياسة يجدر بنا أن نشير لما يعنيه بالعقلانية .

يحدد بوبر بنفسه ما يعنيه بالعقلانية فيوضح أنه لايعنى بها نظرية فلسفية معينة كنظرية ديكارت مثلا ، ولكنه يعنى بها أن الإنسان يتعلم من خلال نقد أخطائه ، نقد الغير له ونقده لنفسه . فالعقلانى إنسان مستعد للتعلم وليس إنسانا متمسكا بآرائه ، إنسان يسمح لغيره بنقد آرائه وينتقد آراء الآخرين . هنا تكمن فكرة النقد أو المناقشة النقدية ، فليس العقلانى من يضع نفسه موضع العارف ، ولايجب أن يعتقد أن مجرد النقد يوصلنا إلى أفكار جديدة ، ولكن أن يعتقد أن المناقشة النقدية هى ما تساعدنا على التمييز فى ميدان الأفكار بين ما هو غث وما هو سمين . المناقشة النقدية وحدها هى ما يمكنها أن تقدم لنا النضج اللازم الذى يمكننا من رؤية الفكرة من وجوه شتى ومن ثم من الحكم عليها حكما صحيحا .

والعقلانى من جانب آخر لايهدف إلى هداية الناس لعقيدة معينة ، فالعقلانية دعوة للآخرين للإختلاف مع الشخص ، من هنا كان العالم ـ وفقا لبوبر ـ الذى يضع فروضه موضع التكذيب داعيا الآخرين لمحاولة تفنيدها وتكذيبها (أى للإختلاف معه) هو العالم بالمعنى الصحيح ، ومن هنا كان تأكيد بوبر فى أكثر من موضع من هذا الكتاب على نبذ الاعتقاد وهو " الوهم

الذى خلقته الحاجة للمعرفة " كما يقول ، وتنبيهه القراء على ألا يأخذوا ما يقوله مأخذ الاعتقاد والتصديق ، بل أن يتعاملوا معه دائما بعقلانية نقدية .

فإذا إنتقلنا إلى تطبيق بوبر لمبدأ العقلانية النقدية على آرائه فى فلسفة السياسة فإنه يمكن تلخيص آراء بوبر على النحو التالى :

دون فكر فردى حر لايمكن للمناقشة النقدية أن تقوم ، وبدون الحرية السياسية فإن حرية الفكر غير ممكنة ، فالحرية السياسية شرط مسبق لإستخدام الفرد لعقله استخداما حرا . هذه الحرية السياسية هى ماتسمح للمواطنين داخل الدولة من تغيير حكومة قائمة بالفعل دون سفك دماء وذلك متى كان هذا الفعل معبرا عن رغبة الأغلبية . فالحرية السياسية المكفولة للمواطنين فى تغيير حكوماتهم دون إراقة دماء متى رأت الأغلبية أن هذه الحكومة تنتهج سياسة خاطئة أو غير معبرة عن آمالهم هى المعيار أو التصور الذى وضعه بوبر للديمقراطية .

ليست الديمقراطية وفقا لبوبر هى " حكم الشعب " وذلك فى مقابل الأرستقراطية " حكم طبقة النبلاء " أو الموناركية " حكم الفرد " ولكن " الديمقراطية " وفقا لبوبر هى محكمة الشعب .

يرى بوبر أن السؤال " من الذى يجب أن يحكم ؟ " كان السؤال الذى شكل محور فلسفة السياسة منذ أن وضعه أفلاطون حتى ماركس ، هل هو الشعب ؟ أم طبقة النبلاء ؟ أم طبقة أصحاب رأس العمال أم العمال الخيرون؟ يرى بوبر أن هذا السؤال سؤال خاطئ أو مشكلة زائفة تؤدى إلى حلول مزيفة ، وأن هذه المشكلة تؤدى إلى الكراهية ، كما تؤدى إلى التأكيد دائما على قوة الحكام بدلا من أن تعالج كيف يمكن تقييد هذه القوة .

يقترح بوبر إبدال هذا السؤال بسؤال آخر هو : هل هناك شكل لحكومة يسمح لنا بالتخلص من حكومة مستهجنة ؟ فإذا كان الديكتاتور يفرض علينا موقفا لايمكن أن نكون مسئولين فيه ولايمكن أن نغيره ، وكان واجبنا الاخلاقى أن نمنع حدوث مثل هذه المواقف وذلك عن طريق شكل الحكم الذى يسمى " الديمقراطية " ، لم تكن الديمقراطية فى معناها الصحيح تعنى

"سيادة الشعب " ولكنها فى المقام الأول مؤسسة تقف ضد الشخص الديكتاتور، بمعنى أنها لاتسمح بأى شكل لحكم ديكتاتورى ولكنها تحاول الحد من عنف الدولة ، فالديمقراطية بهذا المعنى هى امكانية التخلص من الحكومة دون إراقة دماء وذلك متى أخلت بحقوقها وواجباتها ، أو متى حكمنا على سياستها بأنها سياسة خطأ • من هنا ليست المسألة الهامة تكمن فى (من) الذى يحكم ولكن فى (كيف) يحكم •

يتبنى بوبر الرأى القائل بأن أهم شكل للديمقراطية يكمن فى أن يكون من الممكن اسقاط الحكومة دون إراقة دماء على أن تتولى حكومة أخرى مقاليد الحكم • ولكن كيف يحدث هذا الإحلال ؟ عن طريق البرلمان أم عن طريق الانتخاب الجديد ؟ هذه مسألة يراها بوبر غير هامة نسبيا ، المهم أن يأتى هذا الإحلال من الأغلبية ودون إراقة دماء •

من هنا رفض بوبر النظام النيابى فى بلاده (ألمانيا) ، إذ أنه وفقا له لايمثل الديمقراطية الحقيقية كما يفهمها • النضام النيابى فى بلاده يسير وفقا لما يسمى بحق التمثيل النسبى ، حيث تكون كل الأحزاب ممثلة فى البرلمان بنسبة العدد الذى حصل عليه كل حزب فى الإنتخابات • ومن مميزات هذا النظام ضمان تمثيل سائر الأحزاب بما فى ذلك أحزاب الأقلية فى البرلمان ومن ثم اشتراكها فى القرارات التى يمكن اتخاذها •

المآخذ التى يأخذها بوبر على هذا النظام تكمن فى أن العدد الكبير من الأحزاب يؤدى إلى حكومات ائتلافية حيث لايحمل أحد بعينه المسئولية أمام الشعب من حيث أنه المنوط به محاكمة الحكومة ، مادامت سائر القرارات ستكون حلولا وسطا ومن حيث تأثير الأحزاب الصغيرة فى قرارات الحكومة، أما متى كان عدد الأحزاب صغيرا ــ كالنظام المتبع فى الولايات المتحدة مثلا والقائم على التنافس بين حزبين فقط يصل أحدهما إلى الحكم ، فستكون الحكومات عندئذ حكومات أغلبية وستكون مسئولياتهم مسئولية واضحة وجلية ، يصبح من الممكن للشعب محاكمتها وهو المعنى الصحيح للديمقراطية ــ وفقا لبوبر ، فالمعنى الصحيح للديمقراطية وفقا لبوبر أنها (محكمة الشعب) وليس (سيادة الشعب) •

فإذا انتقلنا لآراء بوبر في فلسفة التاريخ فإنه يمكن أن نوجزها في عبارة واحدة " ليست فلسفة التاريخ – ولايجب أن تكون – فلسفة تنبوية

تفصيلا لذلك : يرى بوبر أن الرأى الذى يذهب إلى أن المفكر في مجال فلسفة التاريخ يتم تقييمه وفقا لجودة التنبؤات التى يضعها رأى خاطئ، التاريخ وفقا لبوبر ليس تيارا متصلا ينساب أمامنا يمكن منه أن نتنبأ بالمستقبل . نعم يمكننا أن نتعلم منه لا أن نتنبأ منه ، فالمستقبل ليس بالضرورة امتدادا للحاضر ، من هنا راح ينتقد فلسفة التاريخ عند هيجل التى كانت ترى أن مهمتها أن تكون فلسفة تنبؤية ، وراح ينتقد النظرية الماركسية التى كانت ترى أن التاريخ سينتهى بالوصول إلى المرحلة الاشتراكية . ماجعل بوبر يتمسك بمبدأه الرافض للتنبؤ بمستقبل التاريخ أنه شهد بنفسه – كما يقول – إنهيار الماركسية وموتها وذلك بإنحلال الإتحاد السوفيتى ، وتفتته إلى أجزاء ولم تتحقق نبوءة النظرية الماركسية بوصول البشرية للمرحلة الشيوعية بل تعارضت النظرية الماركسية مع وقائع التاريخ وماتت الدولة التى كانت تمثلها ، وحدث تماما عكس ماتوقع ماركس وتنبأ به ، فأحوال العمال لم تتحول من سيئ إلى أسوأ ، لم يتحقق ما أسماه ماركس قانون الافتقار المتزايد الذى وفقا له يقل عدد أصحاب رؤوس الأموال وتتضخم ثرواتهم بينما يزداد عدد العمال وتزداد حالاتهم سوءا ، بل حدث عكس ذلك أن اصبحت أحوال العمال فى تحسن مستمر وأصبحنا نعيش فى عصر الانتاج الغزير والضخم . وإذا كان رجال السلطة فى الاتحاد السوفيتى والنظم الممثلة للنظام الشيوعى كألمانيا الشرقية سابقا يحاولون مداواة أخطاء النظرية الماركسية بأكاذيب كثيرة وبالعنف حتى تحولت الممارسات الوحشية للسلطة السياسية هناك إلى العملة اليومية المتداولة بينهم ، فإن بوبر يرى – فى مقابل هذا – أن نتعامل مع التاريخ بأن نتعلم منه ، أى بأن نحافظ على المجتمعات المفتوحة – فى مقابل المجتمع الروسى الذى كانت تحكمه قبضة حديدية – وأن يتم ممارسة أقل قدر ممكن من العنف وأن تحاول سلطة المجتمعات المفتوحة تقليل المعاناة بقدر الإمكان .

فى إطار حديثه عن تقليل المعاناة بقدر الإمكان ، يرى بوبر أن

الإنفجار السكانى عن أهم المشكلات التى يجب حلها حلا أخلاقيا . هنا يرى بوبر أن يتم تحديد النسل بإستخدام حبوب الإجهاض لمنع ميلاد الأطفال المحتمل أنهم سيولدون مصابون بأمراض كالإيدز ، أو الأطفال الذين سيولدون فى مجتمعات فقيرة لن تتوفر لديهم فرصة الحياة الكريمة . تحديد النسل بمنع الإنجاب من البداية أو بإستخدام حبوب الإجهاض بعد الحمل مشكلة يرى بوبر أن يتم حلها لا بقوانين حكومية ولكن عن طريق التربية والتثقيف ، أى بإقناع الناس إقناعا عقليا بضرورة ذلك . من هنا رأى أن الكنيسة التى تمنع استخدام حبوب الإجهاض مثلا ستقتنع متى استطعنا أن نقدم لها التبريرات العقلية الكافية ، فالمسألة كما يراها مسألة وقت .

من الواضح أن بوبر الذى ينادى بضرورة التعامل مع المستقبل دون إرتداء نظارات أيديولوجية هو ذاته يرتدى نظارات أيديولوجيا محددة ، ألا وهى التعصب التام للمجتمعات الغربية ، فبدلا من أن ينادى بعدالة توزيع الثروات ومساعدة المجتمعات الفقيرة على الرقى لتلحق بالمجتمعات المتقدمة فى ركب التطور ، نجده ينادى بإقناعهم لا بتحديد النسل ولكن بمنع الإنجاب بدعوى حمايتهم من المعاناة من الفقر ومن شظف العيش الذى ينتظرهم .

وبعد :

هل كان من الممكن فى إطار حديثنا عن العقلانية النقدية أن نفصل بين فلسفة بوبر فى العلوم الطبيعية وفلسفته فى السياسة والتاريخ ؟ أليست العقلانية النقدية ـ وفقا لبوبر ـ هى المبدأ الموجه للعالم والذى يمكنه من ممارسة المرحلة الثالثة من منهجه العلمى " الاستبعاد " ممارسة واعية وهى فى نفس الوقت المبدأ الموجه للمفكر فى مجال فلسفة السياسة والتاريخ وذلك فى مقابل "الاستقراء" الذى هو أداة المعرفة التنبؤية فى مجال العلم والسياسة والتاريخ ، وفى مقابل " الاعتقاد " الذى رفضه بحله للمشكلة السيكولوجية للاستقراء . هل كان من الممكن فى إطار الحديث عن المنهج العلمى الفصل بين موقفه من الاستقراء ومبدأ القابلية للتكذيب ، حيث يؤدى الأول إلى الثانى أو حيث الثانى نتيجة الأول وحيث العقلانية النقدية هى الخاصية المميزة لهذا المنهج العلمى بل والخاصية التى يجب أن يتصف بها ـ لا

العالم فحسب فى إطار بحثه عن النظرية العلمية الصحيحة ـ بل كل من أراد أن يصل إلى المعرفة الصحيحة ؟

على هذا النحو يتضح لنا بشكل جلى – وهو ما أزعمه - تكامل فلسفة كارل بوبر، تلك الفلسفة التى يجمعها خط فكرى واحد، ومن هنا جاءت دعوانا بأن سائر المفاهيم التى يعرضها بوبر تصب فى قالب واحد، ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب الذى بين أيدينا، من حيث تناوله لشتى جوانب فلسفة كارل بوبر مجتمعه.

الإسكندرية فى ٣٠ سبتمبر ١٩٩٨

مقدمــة الكتاب :

يمكن اعتبار مجموعة المقالات والمحاضرات التى يضمها هذا الكتــاب "تكملة" لكتابى " البحث عن عالم أفضل " والذى صدر أيضاً عن هذه الــدار نفسها فى ميونيخ[١] . والكتابان يحويان إسهامات فى علم الطبيعة والتـاريخ والسياسة ، عنوان هذا الكتاب " الحياة بأسرها حلول لمشاكل " وهــو نفـس عنوان الفصل الثانى عشر ، وهو الفصل الذى تعد هذه المقدمة تلخيصاً له . وإذا كنت قد اعتدت فى الماضى لن أصدر كل كتاب بمقدمة فلقد حاولت هنـا أن أعطى هذه المقدمة أهمية أكبر مما أعتدت أن أفعله فى الكتب الســابقة . ولايفوتنى أن أتوجــه بالشــكر لكــلاً مــن مســاعدتى الســيدة مليتــاميو Mrs.Melitta Mew والدكتور كلاوس شتادلر Dr. Klaus Stadler مــن دار نشر Piper ، إذ إليهما يعود الفضل فى إختيار فصول هذا الكتاب .

I

إذا كنت أضع القسم الأول من هذا الكتاب تحت عنوان " مســائل فــى المعرفة الطبيعية " ، فإن علم الأحياء وثراء صور الحيــاة التــى لايمكــن الإحاطة بها هو ما أركز عليه القول والفكر . فإذا غصنا بعمق فــى أحـد ميادين علم الأحياء العديدة ، بل وفى جانب واحد من هذا الميــدان ، فإنــه سرعان ما يتبين لنا أن صور التركيبات البيولوجية من الكثرة بحيث لايمكــن الإحاطة بها أو فهمها ، إلا أنها مع هذا متجانسة بطريقة مثيرة للعجب

ولقد خصصت الفصل الأخير من القسم الأول ليوهانز كبلر Johannes Kepler ، أعظم من بحثوا فى التجانس الفيزيقى للخلق والمكتشف الأعظــم للقوانين الثلاثة التى تحدد حركات الكواكب فى تجــانس هــائل وإن كــانت بطريقة عالية من التجريد ، إذ أنه يعد أعظم ثلاثة عقول أبست معــاً علــم الطبيعة وهى " جاليليو ــ كبلر ــ ثم نيوتن " فلا شك أنــه كــان أكــثرهم وضوحاً وجانبية وتواضعاً فى الشخصية .

---

(١) يشير المؤلف إلى دار نشر Piper بميونيخ والتى صدر عنها كلا الكتابين " البحث عن عالم أفضل " سنة ١٩٠٠ وهذا الكتاب (المترجم) .

لقد أنجز الثلاثة عملا فى غاية الصعوبة ، ظل لفترة طويلة مخيبا للآمال ولكنهم نالوا تقديرا وثناء وفيرا بسبب الحظ الذى صادف كبلر الذى رأى العالم (بعيون جديدة)، رآه أجمل وأفضل وأكثر تجانسا مما رآه كل من قبله والذى عرف عندئذ أن الحظ قد بارك عمله الشاق ، حظا لم يكن حتى يستحقه، إذ كان من الممكن أن تتخذ الأمور مسارا مختلفا ٠

يتميز كبلر وحده من بين هؤلاء الثلاثة بأنه كان يكتب بإجتهاد ووضوح وأنه قد وعى مالم يعه غيره من أن الفكر اليونانى القديم من طاليس إلى أرسطو وبطليموس هو ماقدم لكبرنيقوس ـ وهو من يعتبره كبلر مثله الأعلى ـ أفكاره الجريئة ٠

هذا التواضع الذى كان كبلر يتصف به ساعده ـ أكثر من زميليه الآخرين ـ على أن يكون دائما على وعى بأخطائه وأن يتعلم منها وهى الأخطاء التى لايمكن التغلب عليها إلا بصعوبة بالغة ٠ فقد كان كل من الثلاثة يحكمه بعمق وبطريقته الخاصة اعتقاد مسبق (الإعتقاد المسبق Aberglaube كلمة لايمكننا إستخدامها إلا بحرص بالغ أى مع علمنا بكم هو قليل ما نعرفه وأنه من المؤكد أن لدينا جميعا إعتقادات مسبقة بصور مختلفة) فجاليليو مثلا كان يحكمه الإعتقاد بحركة دائرية طبيعية ، وهو الإعتقاد الذى دحضه كبلر بعد صراع طويل داخل ذاته وفى علم الفلك ٠

أما نيوتن فقد كتب كتابا ضخما عن التاريخ التقليدى للبشرية (المستمد أصلا من الإنجيل) وهو التاريخ الذى صححه وفقا لمبادئ من الواضح أنها اشتقت من اعتقادات مسبقة فى زمانها ٠

أما كبلر فلم يكن فقط عالم فلك ولكنه كان أيضا فى التنجيم ولهذا رفضه جاليليو ورفضه الكثيرون ٠

ولقد حارب كبلر التنجيم ـ اعتقاده المسبق ـ فى صوره الجماطيقية ، إذ كان كبلر عالما فلكيا ناقدا لذاته ، وعى أن أقدارنا ليست مسطورة فى النجوم ولكن ارادتنا هى ما تحكمها وهو مايعد تنازلا هاما لصالح ناقدى التنجيم ٠ من هنا فإنه من الأرجح أن كبلر كان أقل العقول الثلاثة الكبار دجماطيقية ٠

II

أما الجزء الثانى من هذا الكتاب فيأتى تحت عنوان " أفكار فى التـــاريخ والسياسة " ، ولقد خلقته مناسبات معينة ، لم أقصد بـــه تقديـــم نصـــائح أو وصفات علاجية ولكنه يعبر عن موقف من مواقف المسئولية . من الطبيعى أننى أؤيد الديمقراطية ولكنها ليست الديمقراطية التى يعـــبر عنـــها معظـــم ممثليها. يقول ونستون تشرشل " الديمقراطية هى أسوأ شكل مـــن أشـــكال الحكومات " . لايوجد لدينا ما هو أفضل من قـــرار الأغلبيـــة ، فحكومـــة الأغلبية حكومة مسئولة أما الحكومة الائتلافية فحكومة أقل مسئولية.وتـــأتى حكومة الأقلية أدنى الحكومات مسئولية .

لقد وجدت الديمقراطية بمعنى " سياسة الشعب " ولكنها عندمـــا وجـــدت أصبحت دكتاتورية تعسفية غير مسئولة ، فالحكومة يجب أن تكون مســـئولة أمام الشعب ، ولايمكن لسيادة الشعب أن تكون كذلك ومن ثـــم فـــهى غـــير مسئولة. من هنا فأنى أؤيد الحكومة الدستورية المختارة بطريقة ديمقراطية ، وهو مايختلف عن سيادة الشعب ، حكومة مسئولة بالدرجـــة الأولـــى فـــى مواجهة مختاريها ، بل وماهو أكثر من ذلك مسئولة أخلاقيا فـــى مواجهـــة البشرية .

لم يحدث أن امتلكت أيادى كثيرة غير مسئولة أسلحة كثـــيرة ومرعبـــة مثلما هو حادث بعد الحربين العالميتين .

فإذا كان هذا هو حال السياسيين الآن ، فإنهم يجب لهذا السبب أن يكونوا مسئولين أمامنا ولهذا السبب يجب علينا جميعا أن نتهمهم .

نعم يريد معظم زعمائنا السياسيين الحاليين تغير هذا الحال ، إلا أنـــهم حين تولوا مسئولية العالم الذى يزداد كل يوم سوءا بسبب ما يسمى بســـباق التسلح ، يبدو أنهم قد رضوا عن وضعه على هذا النحو وائتلفوا معه ، بـــل وقد أضحى فى مخالفة سير العالم على هذا النحو خطورة وصعوبة .

وتحدث الناس بعد الحرب العالمية الثانية عن نزع السلاح الذى سارعت إلى تنفيذه إلى حد بعيد حكومات الغرب الديمقراطية وحدها . ثم ظهر مطلب

ضمان السلام فى العالم وهى الفكرة التى بدأتها عصبة الأمم ، ثم تولتهـــــا الأمم المتحدة بعد الحرب الثانية والتى تقضى بأن تضمن الأمم المتحدة السلام فى العالم بمقتضى قوتها العسكرية والأخلاقية إلى أن تعرف بــــاقى الــدول واجب الأمم المتحدة وتعترف به •

من الواضح إننا بصدد عدم الإلتزام بهذا الموقف وهو مالا تعلـــن عنــه الحكومات لشعوبها خشية وقوع ضحايا • نحن نفضل عدم الخوض فى أية " مغامرة " وهو المصطلح الذى نطلقه على واجبنا •

III

إذا حاولت أن أتأمل تاريخ أوروبا وامريكا الحالى ، فإنى سريعا ما أصل إلى نتيجة تشبه العبارة التى اشتقها هنا من أقوال المؤرخ الإنجليزى فيشــــر H.A.L. Fischer والتى يمكن تلخيصها على النحـــو التـــالى " التقـــدم ـــ تاريخيا ـــ واقعة مصاغة بوضوح ودلالة ، إلا أن هذا التقدم ليـــس قانونــــا طبيعيا ، بمعنى أن هذا التقدم الذى حققه جيل ما يمكن لجيل تال أن يضيعه "

يمكننى بل ويجب على أن أوافق على كل عبارة من هذه العبارات الثلاث التى يذكرها فيشر ولكن فيم يكمن هذا التقدم الذى يتحدث عنه فيشر والــــذى يذكر أن التاريخ يبلغنا عنه والذى هو أيضا ليس موضع ثقة ، إذ من الممكن أن يضيع ؟

الإجابة على هذا السؤال واضحة وذات دلالة • التقدم الذى يتحدث عنــه فيشر والذى نعنيه جميعا تقدم أخلاقى ، ينحو نحو تحقيق السلام على الأرض والذى وعد به العهد الجديد والذى بمقتضاه تختفى كل أشكال أفعال العنف فى العلاقات الداخلية والخارجية فى كل الدول ، أنه التقدم الذى يؤدى إلى تحقيق مجتمع بشرى متحضر وإلى قيام دولة الحق وإلى إجتماع كل دول الحق على هدف واحد ألا وهو الحفاظ على السلام •

هذا هو واجبنا الأخلاقى ـــ كما يقول كانط ، واجب كـــل الأفـــراد ذوى الإرادة الطيبة ، أنه الهدف الذى يجب أن نحدده للتاريخ ، الهدف الذى أصبح

ضرورياً منذ اختراع الأسلحة النووية ، فهذا الهدف ليس فقط هدفــا واعــدا ولكنه أيضاً هدف ضرورى ، أدت الأسحة النووية إلى ضرورتـــه • هــذه الضرورة هى بصفة خاصة لهؤلاء الذين يريدون للبشــرية اســتمرارا فــى البقاء، لأن البديل هو الفناء •

يعود تحديد هذا الهدف إلى عهد يوليوس قيصــــر فــى الإمبراطوريــة الرومانية وإلى " العهد الجديد " " السلام على الأرض لكل البشر ذوى النوايا الطيبة " •

فمن الحرب العالمية الأولى والتى أدت إلـــى Kellog-Pakt [١] ومــن الحرب العاملية الثانية والتى أدت إلى قيام الأمم المتحدة نشأت حركة سياسية قوية لكل البشر ذوى الأرادة الطيبة •

إلا أن فيشر يقول "مايمكن لجيل أن يحققه ، يمكن لجيل تال أن يضيعه"• إذن فضياع التقدم ممكن ، وعندئذ سيكون علينا أن نكسبه من جديد • من هنا فإنه يجب أن نتذكر دائماً واجبنا ونذكر زعماءنا السياسيين بأن مســـئولياتهم لاتنتهى بالموت ولا بالإعتزال •

مدينـــة كنلى Kenley

١٢ يوليو ١٩٩٤

(١) وهى اتفاقية باريس التى تم ابرامها يوم ٢٧ أغسطس ١٩٢٨ ، بموجبها تم الإتفـــاق تقريبا بين سائر العالم على نبذ الحرب كأداة لحل النزاعات وأن يتم حل سائر النزاعـــات بين الدول بالطرق السلمية •(المترجم) •

المقالة الأولى

مذهب المعرفة من وجهة منطقية ونظرية تطورية

Wissenschaftslehre in entwicklungtheoretischer und in logischer Sicht

محاضرة ألقاها بوبر فى الإذاعة الألمانية بتاريخ ٧ مارس ١٩٧٢

يمكن صياغة المسائل الأساسية التى أريد أن أنقلها اليكـــم فـــى هـــذه المحاضرة على النحو التالى : تنطلق العلوم الطبيعية ـــ مثلها فى ذلك مثـــل العلوم الإجتماعية ـــ دائماً من " مشكلات " ، بمعنى أن هناك شيئا قد أثـــار دهشتنا ـــ كما ذهب إلى ذلك فلاسفة اليونان القدمـــاء ٠ لحـــل مثـــل هـــذه المشكلات فإن العلوم الطبيعية تستخدم نفس المنهج الذى يســـتخدمه العقـــل البشرى السليم ألا وهو منهج " المحاولة والخطأ " ، أو بتعبير أدق " المنـــهج الذى يقدم حلولاً كثيرة للمشكلة ثم يقوم بإستبعاد كل حـــل يثبـــت أنـــه حـــل خاطئ٠ هذا المنهج يفترض أن هناك حلولاً كثيرة ، يتم اختبار كل منها ومن ثم استبعاده إذا ثبت خطئه ٠

يبدو أن هذا هو المنهج المنطقى الوحيد الممكن ، إذ أنه المنـــهج الـــذى تستخدمه حتى أدنى الكائنات العضوية ألا وهو الأميبا ذات الخلية الواحدة فى محاولتها لحل مشكلة من المشكلات ٠ هنا يمكننا أن نتحدث عـــن حركـــات محاولة من خلالها تحاول الكائنات العضوية حل مشكلة ما ٠ أما الكائنـــات العضوية العليا فإنها " تتعلم " من خلال هذا المنهج ـــ منهج المحاولة والخطأ ـــ كيف يمكنها حل مشكلة معينة ٠ هنا أيضاً يمكننـــا القـــول أن الكائنـــات العضوية العليا تقوم بحركات محاولة ، إلا أن هذه الحركات فى هذه الحالـــة حركات عقلية ، يعنى فيها التعلم تجربة كل حركة من حركات المحاولة إلـــى أن تكتشف الحركة التى من خلالها يتم حل المشكلة ٠ فالحل النـــاجح الـــذى يصل إليه الحيوان يمكننا مقارنته " بالتوقع " أى " بالفرض " أو " النظرية " ، فسلوك الحيوان يظهر لنا أنه يتوقع (وإن كان التوقع هنا توقعاً غـــير واع) أنه بإمكانه فى حالة مشابهة أن يحل نفس المشكلة بنفس حركة المحاولة التى أدت إلى حل المشكلة فى الحالة الأولى ٠

يمكننا القول أن سلوك الحيوان والنبات يظهر لنا أن ســـلوك الكائنـــات

العضوية يحكمه الإنتظام والاطراد فهى " تتوقع " الإنتظام واطراد الحوادث في بيئتها ، ومعظم هذه التوقعات أعتقد أنها موجودة فيها وراثيا أى منذ الولادة .

تنشأ " المشكلة " لدى الحيوان عندما يخطئ أحد هذه التوقعات والتى تؤدى بالحيوان إلى حركات المحاولة ومن ثم إلى محاولة إحلال توقع آخر بالتوقع الخاطئ . أما إذا خُدع كائن عضوى أعلى فى توقعاته بصورة متكررة ، فإنه ينهار تماماً ، إذ لايمكنه حل المشكلة ولكنه ينهار تماما .

هنا فإننى أريد أن أضع ما قلته بخصوص " التعلم من خلال منهج المحاولة والخطأ " بشكل ملخص فى إطار ثلاثى المراحل على النحو التالى :

١ - المشكلة .

٢ - محاولات الحل .

٣ - الإستبعاد .

تكمن المرحلة الأولى إذن فى " المشكلة " والتى تنشأ مع حدوث أى خرق فى التوقعات سواء أكان خرقاً لتوقع موجود منذ الميلاد أو لتوقع تعلمه الكائن العضوى من خلال المحاولة والخطأ .

أما المرحلة الثانية فتكمن فى " محاولات الحل " أى فى محاولة " حل المشكلة " . أما المرحلة الثالثة فهى " الإستبعاد " ، أى استبعاد محاولات الحل الخاطئة .

ماهو جوهرى فى هذا الإطار أنه إطار جمعى ، فالمرحلة الأولى ــ المشكلة ــ يمكن أن تظهر بشكل فردى وذلك على عكس المرحلة الثانية التى أسميتها " محاولات الحل " بصيغة الجمع ، فنحن نتحدث فى محاولة الحل التى يقوم بها الحيوان عن " حركات محاولة " وهى الكلمة التى أضعها بصيغة الجمع ، إذا لن يعطى التعبير " حركة محاولة " سوى معنى ضعيف .

المرحلة الثالثة ــ الإستبعاد ــ مرحلة سالبة ، فالاستبعاد فى جوهره "استبعاد للمحاولات الخاطئة " فباستبعادنا لكل محاولة حل خاطئة أو غير

ناجحة ، تظل المشكلة قائمة ، لم يتم حلها بعد مما يعطي الفرصة لمحاولات حلول جديدة •

ولكن ماذا يحدث عندما تنجح أخيراً إحدى محاولات الحل ؟

يحدث أمران : تصبح هناك معرفة بمحاولة الحل الناجحة ، وهو مايحدث لدى الحيوان ، فعندما تظهر مشكلة كانت قد ظهرت من قبل ، فإن الحركات التي يجرب بها الحيوان حل مشكلته تتكرر مرة أخرى إلى أن تظهر محاولة الحل الناجحة •

يكمن التعلم إذن فى أن محاولات الحل غير الناجحة أو المستبعدة تتناقص إلى أن تحدث أخيراً المحاولة الناجحة من أول مرة • هذا هو إذن سلوك الاستبعاد الذى يقوم بصورة أساسية على تعدديه محاولات الحل •

هنا يمكننا القول أن الكائن العضوى قد تعلم بهذه الطريقة توقعاً جديداً • يمكننا وصف سلوكه بالقول أنه يتوقع حل المشكلة من خلال حركات المحاولة أومن خلال الحركة الأخيرة التى لم تعد مستبعدة •

إن صياغة فروض أو وضع نظريات يطابق على مستوى النظرية العلمية ــ كما سنرى الآن ــ تعلم الكائن العضوى التوقع •

وقبل أن أبدأ فى مناقشة بناء النظرية العلمية فإنى أود أن ألفت الانتباه إلى تطبيق بيولوجى آخر للإطار الذى وضعته ذى الثلاث مراحل •

يمكن فهم هذا الإطار ذى الثلاث مراحل ــ المشكلة ، محاولات الحل ، الإستبعاد ــ على أنه اطار نظرية التطور الداروينية ، إذ أنه لاينطبق فقط على تطور الوجود العضوى الفردى ولكن أيضاً على نشأة الأنواع • إن تغير ظروف البيئة أو البناء الداخلى للوجود العضوى يخلق ــ وفقاً لإطار المراحل الثلاث هذا ــ " مشكلة " ، مشكلة تكيف النوع ، بمعنى أن النوع لن يستطيع البقاء إلا إذا استطاع حل مشكلة من خلال تغير بنائه الجيناتى genetischen ولكن كيف يحدث هذا وفقاً لفهم دارون ؟ إن جهازنا الجيناتى مبنى بحيث أن التغيرات الفجائية فى البناء الجيناتى تحدث دائماً • يفترض الإتجاه الداروني فى أن هذه التغيرات الفجائية تقوم ــ بلغة إطارنا ذى

المراحل الثلاث ــ بمهمة " محاولات الحل " ٠إن معظم التغيرات الفجائية هذه حتمية ، فهى قاتلة لحاملها ، للكائن العضوى الذى تظهر فيه ، لهذا فهى " تستبعد " ــ وفقاً للمرحلة الثالثة من إطارنا ــ ومن ثم يجب علينا مرة أخرى أن نشير إلى الخطوة الثانية ــ محاولات الحل ــ فى إطارنا ثلاثى المراحل، إذ لو لم تحدث تغيرات فجائية كثيرة جداً ، لما كان هناك معنى " لمحاولات حل " فلا بد أن يحدث تغيراً كبيراً لكى يعمل جهازنا الجيناتى • وهو ما يجب أن نفترضه •

الآن فقط يمكننى أن أتناول موضوعى الأساسى وهو مذهب أو منطق العلم •

النقطة الأولى التى أود قولها هى أن العلم ظاهرة بيولوجية ، فلقد خرج العلم من عباءة المعرفة قبل العلمية ، بحيث يمكن فهمه على أنه تطور عال لطريقة معرفة الفهم الإنسانى الصحيح والتى هى بدورها تطور للمعرفة الحيوانية •

أما النقطة الثانية فهى أن منهجنا ثلاثى المراحل ينطبق على العلم • فلأن ينشأ العلم ــ كما لاحظ بالفعل فلاسفة اليونان ــ من مشكلة ما ، أى من الدهشة من شئ معين فى ذاته يحدث يومياً ونعتاد عليه ولكنه بالنسبة للفكر العلمى مثير للدهشة ومن ثم للتساؤل ، فهذا ما أشرت إليه من البداية ، إلا أن النقطة التى أود الإشارة إليها هى أنه يجب فهم كل تطور علمى على هذا النحو ، بمعنى أن نقطة بدايته تمثل " مشكلة " أو " موقف مشكل " •

هذه النقطة بالغة الدلالة ، فلقد علمتنا نظرية العلم القديمة ومازالت تعلمنا أن الإدراك الحسى أو الملاحظة الحسية هى نقطة بداية العلم • قد يبدو هذا معقولاً ومقنعاً فى نفس الوقت إلا أنه أساس خاطئ وهو مايمكن أن نوضحه على النحو التالى : " بدون مشكلة لا وجود للملاحظة" ، فعندما أتوجه إليك بالخطاب : " من فضلك لاحظ " فإنك تجيب " نعم ولكن ماذا ألاحظ " ؟ أو بعبارة أخرى فإنك تطلب منى أن أحدد لك المشكلة التى يمكن حلها من خلال ملاحظتك • فإذا لم أحدد لك مشكلة ما ولكن فقط شيئاً معيناً ، فإن هذا قد يكون أفضل ولكنه ليس مرضياً على الإطلاق • عندما أقول لك على سبيل

المثال " من فقط لاحظ سمعتك " فإنك مازلت لاتفهم ما الذى أريدك أن تلاحظه . أما إذا حدثت لك مشكلة تافهة ، فإن الأمر يختلف ، فقد لاتهتم بالأمر إلا أنك على الأقل تفهم مالذى يجب عليك أن تحدده من خلال الملاحظة أو الإدراك الحسى (وكمثال يمكنك أن تتناول مشكلة هل القمر فى صعود أم هبوط ، أو فى أى دولة تم طبع هذا الكتاب الذى تقرأه فى هذه الأيام)٠

ولكن ما منشأ هذه الفكرة الخاطئة والتى أتت بها نظرية المعرفة القديمة والتى تذهب إلى أن منشأ العلم هو الملاحظة أو الإدراك الحسى وليس مشكلة معينة ؟ ٠

لقد اعتمدت نظرية العلم القديمة ــ فى هذه النقطة ــ على نظرية المعرفة الخاصة بالفهم البشرى السليم ، والتى ترى أن معرفتنا بالعالم الخارجى تعتمد بوضوح على انطباعاتنا الحسية ٠

وإذا كنت شخصياً من الذين يبجلون ويوقرون الفهم البشرى السليم ، وأزعم أنه الناصح الأمين فى كل المواقف المشكلاتية الممكنة إلا أنه مع هذا ليس دائماً موضع ثقة ، ذلك أنه متى كان الأمر يتعلق بمسائل نظرية العلم أو نظرية المعرفة فإنه من الضرورى والهام أن نقف منه موقفاً نقدياً حقيقياً ٠

نعم يصدق بالطبع أن أعضاءنا الحسية هى مصدر معرفتنا بالعالم الخارجى وأننا نحتاج لها بالضرورة لهذا الغرض ٠ إلا أن هذا لايعنى أن نستنتج من ذلك أن معرفتنا تبدأ بالإدراك الحسى ، على العكس فحواسنا إذا نظرنا إليها من وجهة نظرية تطورية ــ أدوات تم تدريبها على حل مشكلات بيولوجية معينة ٠ على هذا النحو تدربت العيون البشرية والحيوانية على تحذير الكائن الحى الذى يستطيع تغيير مكانه فى التوقيت السليم وتجنب الإصطدام الخطير بأجسام صلبة يمكن أن تؤذيه ٠ فالأعضاء الحسية ــ من وجهة نظرية تطورية ــ هى نتيجة المشكلات ومحاولات الحل ، مثلها فى ذلك مثل مكبرات الصوت أو المناظير ، مما يوضح أن المشكلة ــ منظورا إليها من الوجهة البيولوجية ــ سابقة على الملاحظة أو الإدراك الحسى ٠ فالملاحظات والإدراكات الحسية أدوات مهمة لمحاولاتنا للحل وتلعب دورها

الأساسى فى الاستبعاد • من هنا كان اطارنا ثلاثى المراحل ينطبق على منطق العلم أو الميثودولوجيا على النحو التالى :

١ – تشكل نقطة البداية دائماً مشكلة معينة أو موقفاً مشكلاً معينا •

٢ – ثم يتبعها محاولات الحل ، والتى تنشأ دائماً عن نظريات معينة • هذه النظريات والتى هى محاولات تكون غالباً نظريات أو محاولات خاطئة •

٣ – نحن نتعلم أيضاً فى العلم من خلال استبعاد أخطائنا ، أو من خلال استبعاد نظرياتنا الخاطئة •

إطارنا ثلاثى المراحل إذن ـ المشكلة ، محاولات الحل ، الاستبعاد ـ ينطبق على وصف العلم ، وهو مايصل بنا إلى نقطتنا الرئيسية •

أين تكمن خصوصية المعرفة البشرية ؟

ما الذى يميز بالتحديد " أميبا " عن عالم عظيم كنيوتن أو اينشتين ؟

الإجابة : تكمن خصوصية العلم فى الإستخدام الواعى للمنهج النقدى ، ففى المرحلة الثالثة لمنهجنا ، فى استبعاد اخطائنا ، نحن نقوم بمهمة نقدية واعية•

فالمنهج النقدى وحده هو ما يوضح التطور السريع غير العادى للصورة العلمية للعلم والتقدم العلمى غير العادى • فكل معرفة قبل علمية ـ سواء أكانت حيوانية أو بشرية ـ معرفة اعتقادية وبإكتشاف المنهج غير الإعتقادى، أى المنهج النقدى ، يبدأ العلم •

إن اكتشاف المنهج النقدى يفترض مسبقاً لغة بشرية وصفية يمكن للإنسان أن يطور فيها حججه النقدية ، بل ويفترض أيضاً كتابة معينة ، وذلك أن المنهج النقدى يكمن بصورة جوهرية فى أن محاولات الحل والنظريات والفروض التى نضعها جميعاً يجب أن يكون من الممكن صياغتها بلغة معينة ووضعها بصورة موضوعية تجعل منها موضوعات بحث نقدى واع •

من المهم جداً أن نضع تمييزاً واضحاً بين الفكرة الذاتية أو الخاصة ـ البناء السيكولوجى ـ وبين نفس الفكرة ولكن مصاغة بلغة تجعل منها مثار

فالإنتقال من فكرتى غير المنطوقة " ستمطر اليوم " لنفس القضية "ستمطر اليوم " ولكن منطوقه تعد من وجهة نظرى خطوة فى غاية الأهمية. نعم قد لاتبدو هذه الخطوة ذات أهمية ولكن الصياغة اللغوية تعنى أن ماكان يعد جزءاً من شخصيتى ومن توقعى وربما من مخاوفى قد أضحى الآن موضوعاً بصورة موضوعية بحيث يمكن أن يكون موضع نقاش نقدى عام . إلا أن التمييز مع هذا مازال بالنسبة لى على قدر كبير من الأهمية ، فالقضية المنطوقة قد نالت من خلال الصياغة اللغوية استقلالاً تاماً عنى ، أصبحت مستقلة عن تحديداتى وآمالي ومخاوفى . لقد تموضعت . لقد أصبح من الممكن لغيرى بل ولى أيضاً أن يوافق أى منا عليها أو يرفضها ، فالأساس الذى عليه ينبنى قبولها أو رفضها أصبح موضع نقاش .

هنا نصل إلى تمييز هام بين دلالتين لكلمة " المعرفة " ، المعرفة بالمعنى الذاتى والمعرفة بالمعنى الموضوعى ، فالمعرفة عادة ماينظر إليها كحالة عقلية أو ذاتيه ، فنحن ننطلق عادة من الصياغة " أنا أعرف " ومن ثم نشرح المعرفة كشكل من أشكال الاعتقاد الذى يقوم على أساس السبب الكافى . فتفسير كلمة " معرفة " نال تأثيره من نظرية العلم القديمة بحيث لم تعد نظرية العلم فى حاجة إليه مادام العلم ينشأ من قضايا مصاغة صياغة لغوية، موضوعية وليس من توقعات ذاتيه .

العلم نتاج للعقل البشرى ، ولكنه نتاج موضوعى مثله فى ذلك مثل الكاتدرائية . فعندما نقول أن القضية فكرة معبر عنها تعبيراً لغوياً ، فإن هذا صحيح ولكنه لايحدد بدقة معنى موضوعية القضية . يرتبط هذا بازدواج دلالة الكلمة " فكرة " . ـ يجب علينا ـ كما أكد الفيلسوف " برنهارد بولزانو Bernhard Bolzano [1] . ومن بعده " جوتلوب فريجه " ـ أن نميز بين حادثة التفكير الذاتية والمحتوى الموضوعى أو بين الأولى

---

(١) برنهارد بولزانو ، فيلسوف ولاهوتى وعالم رياضى ، ولد فى براغ ١٧٨١ من أب ايطالى الجنسية وتوفى عام ١٨٤٨ ، ومن أهم أعماله " نظرية المعرفة " أربعة مجلدات ، و " أسس المنطق " الذى هو فى الحقيقة مقالات مختارة من عمله الأول " نظرية المعرفة".

والمحتوى المنطقى للفكرة . فعندما أقول أن أفكار محمد[*] تعبر عن أفكار بوذا ، فإننى لا أتحدث هنا عن حادثتى تفكير مختلفتين ولكن عن المحتوى المنطقى لمذهبين أو نظريتين .

فحوادث التفكير يمكن أن تقوم بينها علاقات علّية . فعندما أقول " تأثر مذهب سبينوزا بمذهب ديكارت " فإننى هنا أضف علاقة عليه بين رجلين وأحدد شيئاً عن حوادث تفكير سبينوزا .

ولكن عندما أقول " ولكن يتناقض مع هذا مذهب سبينوزا في بعض النقاط الهامة مع مذهب ديكارت " فإننى هنا أتحدث عن المحتوى المنطقى الموضوعى لمذهبين وليس عن حوادث تفكير . فالمحتوى المنطقى للقضايا هو ما أهدف إليه عندما أؤكد على خاصية موضوعية اللغة البشرية .

فعندما قلت سابقاً أن الفكرة المنطوقة هى فقط مايمكن أن يصبح موضوع نقد فإننى عنيت أن المحتوى المنطقى للقضية فقط وليس حادثة التفكير السيكولوجيى هو ما يمكن أن نتناوله بالنقاش تناولاً نقدياً .

أريد الآن مرة أخرى أن أذكركم بإطارى ثلاثى المراحل (المشكلة ، محاولات الحل ، الإستبعاد) وبالملاحظة التى ذكرتها من قبل وهى أن إطارى هذا ـ إطار اكتساب معرفة جديدة ـ قابل للإنطباق على سائر الكائنات بدءاً من الأميبا إلى اينشتين ولكن أين يكمن التمييز ؟

الإجابة على هذا السؤال بالنسبة لنظرية العلم إجابة حاسمة . يكمن التمييز الحاسم فى المرحلة الثالثة ، فى استبعاد محاولات الحل .

ففى التطور قبل العلمى للمعرفة يحدث الإستبعاد بيننا فالبيئة هى ما يستبعد محاولات الحل ، مما يعنى أن اشتراكنا فى الاستبعاد اشتراك سلبى فقط وليس إيجابياً، فنحن نخبر الاستبعاد، ذلك أنه متى حطم الاستبعاد محاولاتنا للحل أو إحدى المحاولات التى كانت ناجحة من قبل، فإننا نتحطم بالتبعية، أو بمعنى آخر يتحطم حامل هذه المحاولات وهو ما يتضح بوضوح فى الاختيار الطبيعى لداروين .

(*) يشير المؤلف هنا إلى النبى محمد عليه الصلاة والسلام (الهامش للمترجم) .

أما ما هو جديد في المنهج العلمي فيكمن في أن اشتراكنا في مسألة "الإستبعاد" يكون اشتراكاً ايجابياً . فمحاولات الحل محاولات متموضعة ، لم تعد تربطنا هوية واحدة مع محاولات الحل . فما إذا كنا نعي بصورة أكبر أو أقل بالإطار ثلاثي المراحل ، فإن ماهو جديد في الموقف العلمي يكمن في أننا نحاول بصورة ايجابية أن نستبعد محاولاتنا للحل . نحن نخضع محاولاتنا للحل للنقد الذي يعمل بكل الوسائل المتوفرة والتي يمكن أن تتوفر لدينا . فبدلاً من الإنتظار على سبيل المثال ـ حتى تفند البيئة إحدى محاولات الحل أو تجربة معينة ، فإننا نحاول ـ نحن ـ أن نغير البيئة غير الملائمة لمحاولات الحل التي نقدمها . بهذه الطريقة نضع نظرياتنا موضع التجريب ، نقوم بكل ما في وسعنا لإستبعاد نظرياتنا محاولين إكتشاف النظريات الخاطئة .

يمكن إذن الإجابة على السؤال أين يكمن التمييز الحاسم بين الأميبا وأنشتين على النحو التالي:

تفر الأميبا من التكذيب، فتوقعها جزء منها ومن ثم فإنها تهلك ـ كحامل قبل علمي للتوقعات أو الفروض ـ بتفنيد فروضها . في مقابل هذا يأتي أينشتين الذي تتموضع فروضه . ففروضه شئ يستقل عنه ، فالعالم يمكنه استبعاد فروضه من خلال نقده لها دون أن يهلك معها ، ففي العلم نحن نترك الفروض تموت من أجلنا .

بهذا أصل إلى فرضي ـ هو ما إعتبره كثير من دعاة نظرية العلم فرضا متناقضاً ـ منطوق هذا الفرض أن مايميز وجهة النظر العلمية والمنهج العلمي عن وجهة النظر قبل العلمية هو منهج محاولات التكذيب Falsifikation Versuche . فكل نظرية ، أو محاولة حل يجب أن تختبر بشدة بقدر المستطاع . هذا الإختبار الشديد هو دائماً محاولة لإكتشاف نقاط الضعف الموجودة فيما نخضعه للإختبار مثلما أن إختبار النظريات محاولة لإكتشاف نقاط ضعفها . إختبار النظرية إذن محاولة لتفنيدها أو لتكذيبها .

لايعني هذا بالطبع أن الباحث الذي يستطيع تفنيد نظرياته الخاصة يسعد دائماً بذلك ، فلقد وضع النظرية كمحاولة للحل بمعنى أنه يأمل منها أن تصمد

أمام الإختبارات الشديدة ، بل على العكس فيكثر من العلماء يشعرون بخيبة أمل عظيمة إذا تم تكذيب محاولة حل كانوا يرونها حافلة بالأمل .

ليس هدف تكذيب النظرية هدفاً شخصياً للعالم ، بل يكفى العالم الحقيقى الذى يرجوا أملاً كبيراً فى إحدى النظريات أن يدافع عنها ضد محاولة التكذيب .

هذه النقطة تلقى قبولاً وإستحساناً من نظرية العلم ، ولكن كيف يمكن أن نميز بين التكذيب الحقيقى والتكذيب الظاهرى ؟ فما نحتاجه فى العلم شكل من التحزب Parteibildung لصالح وضد كل نظرية تخضع لإختبار جاد لأننا فى حاجة لمناقشة عقلية علمية ولايؤدى دائماً كل نقاش إلى نتيجة حاسمة .

إن وجهة النظر الحديثة والجوهرية التى حددها العلم هى وجهة النظر "النقدية " والتى تصبح سهلة المنال من خلال الصياغة اللغوية الصريحة الموضوعية للنظريات ، فصياغة النظريات على هذا النحو تؤدى عادة إلى المناقشة النقدية . ولاتصل كثير من المناقشات إلى تحديد نهائى واضح كالمناقشة المشهورة التى قامت بين العالمين ألبرت أينشتين ونيلز بور[1] ، إذ لاوجود لدينا لمعيار أن كل مناقشة علمية ستنتهى إلى حسم للنقاش . لاوجود إذن لمعيار للتقدم العلمى .

تنص فكرتى الأساسية على أن الجديد الذى يميز العلم والمنهج العلمى عن وجهة النظر قبل العلمية هو الموقف النقدى الواعى تجاه محاولات الحل، هو أشتراكنا أشتراكاً إيجابياً فى الإستبعاد ، استبعاد محاولات الحل ، أى محاولة نقدها أو تكذيبها .

للمحاولة العكسية أيضاً وظيفتها المنهجية ـ كما رأينا ـ ونعنى بها محاولة إنقاذ نظرية ما . إلا أن هذا الموقف الاعتقادى فى جوهره يميز ـ

---

(١) عالم فيزيائى دانماركى ، ولد ١٩ يونيو ١٩٢٢ . حصل على جائزة نوبل فى الفيزياء بالإشتراك مع موتلسون R.Motleson ١٩٧٥ لتحديدهما أشكال بعض النوى الذرية .

من وجهة نظرى ــ الفكر قبل العلمى بينما يــؤدى الموقــف النقــدى ، اى محاولة التكذيب الواعى ، إلى العلم ومن ثم يسود المنهج العلمى .

رغم هذا الوظيفة المنهجية التى يتصف بها بلا شك التحزب العلمى ، فإن الباحث ــ من وجهة نظرى ــ يجب أن يكون واضحاً تجاه الدلالة الأساسـية لمحاولات التكذيب وأحياناً للتكذيب المحظوظ . فالمنهج العلمى ليس منـهجا تراكمياً Kumulativ كما يذهب إلى ذلك بيكون فــون فــيرولام Bacon Von Verulan [1] .وسير " جيمس جينز" ولكنه ثورى بصورة جوهرية . فالتقدم العلمى يكمن فى جوهره فى إحلال نظريات محل أخرى ، فالنظريات الجديدة يجب أن تكون فى موقف يسمح لها بأن تحل محل النظريــات التــى ألغت النظريات القديمة . على هذا النحو تحل نظرية أينشتين مشكلة حركــة الكواكب بصورة أفضل من نظرية نيوتن . فالنظرية الثورية تنطلـــق مــن فروض جديدة متجاوزة بها النظرية القديمة التى يجب عندئذ أن تقف منــها موقف التناقض.هذا التناقض يسمح بإيجاد تجارب يمكنها أن تحسم الأمر بين النظرية الجديدة والقديمة ، بمعنى أنه يمكنها أن تكذب إحدى هاتين النظريتين على الأقل . فالتجارب يمكنها أن تظهر سمو النظرية الباقية دون أن تـبرهن على صدقها وهى النظرية التى يمكن ــ أن تخضع هى الأخرى فيمــا بعــد للتعديل .

متى إتخذ الباحث هذا الموقف ، فإنه يقف حتى من نظرياته التى ابتكرها بنفسه موقفاً نقدياً ، فهو يفضل إختبارها بنفسه ومن ثم تكذيبها عن أن يتركها لنقاده.

المثال الذى أفخر بتقديمه يتعلق بصديقى القديم عالم فســيولوجيا المـخ Gehirnphysiologe والحاصل على جائزة نوبل ســيرجون إكســلز Sir John Eccles[2] والذى قابلته لأول مرة فى جامعة أوتاجو Otago حيــث كنت ألقى سلسلة من المحاضرات . كان سير إكسلز منشــغلاً منــذ أعــوام

---

(١) هو الفيلسوف الشهير فرنسيس بيكون ، ولد ١٥٦١ بلندن وتوفى ١٦٢٦ ، أهم أعماله " الأورجانون الجديد " Novum Organum .

(٢) سير جون إكسلز(١٩٠٣ - ...) عالم فسيولوجيا استرالى الجنسية . حصل علــى جائزة نوبل ١٩٦٣ لإكتشافه الوسائل الكيميائية التــى تتصــل بــها النبضــات بالخلايــا العصبية.

بمشكلة كيف يمكن أن ينتقل التهيج العصبى من إحدى الخلايا العصبية إلى الخلايا الأخرى من خلال شبكة الخلايا العصبية Uber die Synapse ، أى بمسألة " الإنتقال الشبكى العصبى " Synaptischen Transmission لقد افترض أحد رجال مدرسة كامبرج ـ سير " هنرى ديل " Sir Henry Dale ـ أن جزيئات مادة التحول الكيمائية تتقاطع مع شبكة الإتصال العصبى التى تفصل الخلايا العصبية ومن ثم ينتقل التهيج العصبى من إحدى الخلايا إلى الخلايا الأخرى . أظهرت تجارب " إكسلز " أن زمن الانتقال قصير جداً بطريقة غير عادية . ومن ثم فقد قدم نظرية تفصيلية فى الإنتقال الكهربى للإثارة العصبية و " كنج الجماح " .

ولكنى أحب أن أترك الحديث لإكسلز نفسه(*) :

يقول إكسلز " حتى عام ١٩٤٥كانت آرائى عن البحث العلمى على النحو التالى : أولاً تنشأ الفروض من معطيات تجريبية يتم جمعها بإتقان وبطريقة منهجية ، وهى الفكرة الإستقرائية عن العلم والتى ترجع إلى بيكون ومل . ومازال الكثيرون من العلماء والفلاسفة يعتقدون أن هذا هو المنهج العلمى . ثانياً: أن قيمة العالم يحكم عليها بمدى درجة الثقة الكامنة فى الفروض التى قدمها بنفسه وهى الفروض التى يجب أن تزداد بإضافة معطيات جديدة والتى يأمل منها جميعاً أن تخدم كأساس متين وموثوق فيه لتطورات نظرية أخرى. فالعالم يفضل الحديث عن معطياته التجريبية معتبراً فروضه أدوات عمل . أخيراً : وهى النقطة الأكثر أهمية ـ أنه مما يؤسف له ويعد علامة فشل وإخفاق أن تفند معطيات جديدة فرضاً كان قد وضعه العالم مما يضطره إلى التنازل عنه " .

لقد كانت هذه تماماً هى مشكلتى ، فلقد تبنيت لفترة طويلة فرضاً قبل أن يتضح لى أنه يجب أن يرفض مما سبب لى حزناً بالغاً . ولقد دخلت فى مناقشة حول الخلايا العصبية المتصلة إعتقدت وقتها أن الإنتقال الشبكى العصبى بين الخلايا العصبية ذو طبيعة كهربية فلقد سلمت بأنه هناك مكوناً كيمائياً بطيئاً ، إلا أننى اعتقدت أن الإنتقال السريع عبر الخلايا العصبية

(*) أنظر كتاب اكسلز الصدق والواقع ١٩٧٥ ص ١٤٣ (الهامش للمؤلف) .

المتصلة يحدث بطريقة كهربية . ولقد تعلمت من بوبر أنــه عندمــا يتبيــن لباحث ما خطأ فروضه الخاصة فإن هذا ليس أمراً مخلاً بالشرف . لقد كــان هذا هو أجمل شئ تعلمته حديثاً منذ فترة طويلة كما أقنعنى بوبر بضـــرورة صياغة فروضى الخاصة بالإنتقال الكهربى عن طريق شبكة الخلايا العصبية بدقة تامة مما يجعلها تتحدى أى تفنيد وهو ماحدث بالفعل بعد سنتين من قبلى ومن قبل زملائى .

فبفضل المذهب البوبرى أمكننى برحابه صدر قبول موت فكرتى التـــى كانت محببة إلى والتى ظللت مقتنعاً بها زهاء العشرين عاماً والتى ســاهمت فى نفس الوقت بقدر الإمكان فى تاريخ الإنتقال الكيميائى التى كانت الفكـــرة المحببة لليفى Loewi وديل Dale لقد خبرت.أخيراً القوة التحررية العظيمـة لمذهب بوبر فى المناهج العلمية .

هنا يظهر ترتيب غريب ، فلقد ثبت أننى كنت على اســتعداد أن أتخلــى وبسرعة عن فروض الإنتقال الكهربى عن طريق شبكة الخلايا العصبيـــة . فأشكال الخلايا العصبية المشتبكة الكثيرة والتى كانت موضوع عملــى هــى بالتأكيد ذات طبيعة كيميائية ، إلا أن الكثير من الخلايا المشــتبكة الكهربيــة أصبحت الآن معروفة والكتاب الذى كتبته عام ١٩٦٤ عن الخلايا العصبيــة المشتبكة يحوى مثالين عن الإنتقال الكهربى ، " الإنتقال الاعاقى والإنتقـــال الإنفعالى " .

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن الصواب قد جانب كلاً من " ديل " و "اكسلز" فى نظريتهما الخاصة بأبحاث المخ ، إذ اعتقد كلاهما أن نظريتهما تنطبـــق على سائر الخلايا المتشابكـــة لقد أنطبقت نظريـــة " ديـــل " علـــى الخلايـــا العصبية المتشابكة والتى انشغل بها كلا العالمين ، إلا أنها لم تنطبـــق علـــى سائر الخلايا العصبية المتشابكة مثلها فى ذلك مثل نظرية اكسلز وهو مايبدو أن اتباع ديل لم يفهموه ، لقد اعتقدوا أنهم قد انتصروا على اكســـلز لكـــى يتضح فيما بعد أن كلا الفريقين قد ارتكب نفس الجرم الهائل وهـــو التعميـــم السريع دون أن ينتظروا المعطيات الملائمة " وهو مالم يكن ليتم " .

لقد كتب اكسلز فى موضع آخر ، فى الكلمة التى ألقاها عند استلام جائزة

نوبل " بل يمكنني الآن أن أشعر حتى بالغبطة لتكذيب نظرية كانت عزيزة عليّ ، إذ أن مثل هذا التكذيب نجاح علمي " .

هذه النقطة الأخيرة ذات قدر من الأهمية إذ أننا نتعلم الكثير من خلال التكذيب ، فنحن لا نعلم فقط أن نظرية ما خاطئة ولكننا نتعلم أيضاً لماذا تكون هذه النظرية خاطئة ، ومن ثم نكسب بذلك مشكلة جديدة مفهومة بشكل أفضل والمشكلة الجديدة ــ كما عرفنا من قبل ــ هي بمثابة نقطة إنطلاق تقدم علمي جديد .

قد تتعجبون لماذا أذكر مراراً وتكراراً منهجي ثلاثي المراحل . لقد كان هدفي من ذلك أن أمهد لمنهج مشابه له ولكنه منهج رباعي المراحل ، منهج يميز العلم وحركة التقدم العلمية . هذا المنهج رباعي المراحل يمكن أن نصل إليه من خلال منهجنا ثلاثي المراحل ــ المشكلة ، محاولات الحل ، الإستبعاد ــ حيث نطلق على مرحلته الأولى ــ " المشكلة القديمة " والمرحلة الرابعة ــ " المشكلة الجديدة " . فإذا أحللنا " النظريات المجربة " محل "محاولات الحل " ومحاولات الإستبعاد من خلال المناقشة النقدية " محل الإستبعاد " ، فإننا نصل إلى منهجنا رباعي المراحل الذى يميز النظرية العلمية.

يبدو المنهج الرباعي إذن على النحو التالى :

١ ــ المشكلة القديمة .

٢ ــ النظريات التى نخضعها للتجربة .

٣ ــ محاولات الإستبعاد من خلال المناقشة النقدية متضمنه الإختبار التجريبي المعملي .

٤ ــ المشكلة الجديدة التى تنشأ عن المناقشة النقدية لنظرياتنا .

هذا المنهج رباعي المراحل يسمح لنا بذكر بعض الملاحظات فى النظرية العلمية .

بشأن المشكلة : إن المشكلات قبل العلمية والمشكلات العلمية الأولية ذات

طبيعة عملية ولكن سريعاً مايحل محلها ولو بصورة جزئية من خلال السلسلة الرباعية ــ مشكلات نظرية . هذا يعنى أن معظم النظريات الحديثة تنشأ عن نقد النظريات . ينطبق هذا بشكل واضح على مشكلة Hesiods Kosmogonie [1] كما ينطبق على مشكلات فلاسفة ما قبل سقراط . كما ينطبق أيضاً على معظم مشكلات العلوم الطبيعية الحديثة ، فهذه النظريات هى ذاتها نتاج للنظريات والصعوبات التى كشفت عنها المناقشة النقدية للنظريات . فهذه المشكلات النظرية هى فى جوهرها مسائل تتطلب تفسيرات ، والإجابات التى تقدمها هذه النظريات ليست سوى محاولات تفسير .

يمكن أن نضيف أيضاً إلى المشكلات العملية مسألة التنبؤ بشئ ما ، إلا أن التنبؤ من وجهة نظر العلم الخالص ينتمى للمرحلة الثالثة ، أى للمناقشة النقدية أو الاختبار هذه التنبؤات مهمة إذ أنها تسمح لنا بإختبار صدق النظريات التى تمثل محاولات التفسير اختباراً واقعياً وعملياً .

يمكننا أن نعرف من منهجنا رباعى المراحل اننا ننطلق فى العلم من سلسلة من المشكلات القديمة ونتوقف عند المشكلات الجديدة التى تخدم ــ من جانبها ــ كنقطة بداية سلسلة جديدة . ومن حيث أن منهجنا ذات صفة دائرية ، أى أنه سلسلة متكررة فإنه يمكننا أن نبدأ من أية مرحلة من المراحل الأربع . يمكننا أن نبدأ بالنظريات ، أى بالمرحلة الثانية ، بمعنى أنه يمكننا القول أن العالم يبدأ من إحدى النظريات القديمة ليصل من المناقشة النقدية لها ومن ثم استبعادها إلى مشكلات يحاول حلها من خلال نظريات جديدة .

يمكننا هذا القول أن إقامة نظريات مقنعة أو مرضية هو هدف العلم . إلا أن التساؤل عما هى الشروط التى وفقاً لها تعتبر نظرية ما نظرية مرضية يرجع مباشرة إلى المشكلة من حيث أنها نقطة إنطلاق أو نقطة بداية .

---

(١) المقصود بها تفسير هزيود للكون ونشأته ، وهو من أقدم شعراء اليونان . ولد عام (٧٠٠ ق.م) وضع تفسيره للكون فى ملحمتين شعريتين هما Theagony ثم " أعمال وأيام " works and Days " .

وهذا يصل بنا إلى المطلب الأولى الذى نتوقعه من النظرية وهو انها تحل لنا مشكلة تطلب التفسير والتى تتضح فيها المشكلات التى عنها نشأت المشكلة ·

وأخيراً فإنه يمكننا أيضاً أن نعتبر الإستبعاد ــ إستبعاد نظرية قائمة حتى الآن ــ نقطة البداية ، عندئذ يمكننا القول أن العلم يأخذ نقطة بدايته دائما من انهيار نظرية ما· هذا الإنهيار أو الإستبعاد يؤدى إلى مشكلة إحلال نظريــة أفضل محل النظرية المستبعدة ·

أما أنا فأفضل ــ شخصياً أن تكون المشكلة هى نقطـــة البدايـــة دون أن يقلل هذا من أن الأمر واضح لدى أنه مادام المنهج " سلسلة دائرية ، فإن هذا ما يجعل من الممكن لكل مرحلة من المراحل أن تكون هى نقطة بداية تطور جديد ·

ماهو جوهرى بالنسبة لمنهجنا رباعى المراحل أنه ذات طبيعة ديناميكية، فكل مرحلة تحوى فى طياتها قوة دافعة داخلية منطقية تؤدى إلـــى المرحلـــة التى تليها ، فالعلم فى جوهره ــ كما يبدو فى منطق العلم هـــذا ــ ظـــاهرة مدركة بصورة متطورة · فهو ذات طبيعة ديناميكية إلا أنه ليس شيئاً مكتملا أبداً، لا وجود لنقطة نقول عندها أنه وجد فيها هدفه النهائى.

يكمن تفضيلى " للمشكلة " كنقطة بداية فى السبب التـــالى : إن المســـافة التى تفصل بين المشكلة القديمة والمشكلات الحديثة هى ما يبدو لى أنه يمكن وصفها " بالتقدم العلمى" أكثر من المسافة التى تفصل مثـــلا بيـــن المشـــكلة القديمة والجيل التالى لها مباشرة من المشكلات التى حلت محلها.

ولنأخذ على سبيل المثال نظرية الجاذبية لنيوتن وأنيشتين – فالمسافة بين النظريتين كبيرة، إلا أنه من الممكن مع هذا أن نصيغ نظرية نيوتـــن بلغـــة أنيشتين، أي بما يسمى حساب Tensor[1] ·

---

(١) وهو أحد فروع الرياضيات التى تهتم بإيجاد العلاقات أو القوانين التى تظل صحيحـــة بصرف النظر عن نسق الاحداثيات المستخدم لتحديد الكميات. كان لتطبيق أنيشتين لـــهذا الحساب فى نظريته فى النسبية العامة الفضل فى الاهتمام المتزايد بـــهذا الحســـاب فـــى الفيزياء، إذ لم يجد أينشتين أية غضاضة فى التعبير عن قوانين الفيزياء بـــهذا الحســـاب اعتقاد منه أن قوانين الفيزياء لاتتغير بصرف النظر عن النسق الذي يستخدم للتعبير عنها.

ومتى فعلنا هذا - وهو ما قام به بالفعل الأستاذ بيتر هافاس Peter Havas فإننا سنجد أن الخلاف بين كلتا النظريتين يمكن فقط في سرعة الضوء النهائية C هذا يعني أن هافاس قد استطاع أن يصيغ نظرية أينشتين بحيث أصبحت نظرية أينشتين نظرية نيوتونية وذلك عن طريق إحلال سرعة الانتشار النهائية C محل السرعة اللانهائية.

ولكن أن نستنتج من هذا أن تقدم النظرية يكمن في كليتة فقط في سرعة الانتشار النهائية للجاذبية، فإن هذا يعد خطأ فادحا .

اعتقد أننا سنجد في معنى " التقدم " والخاصية " الديناميكية " للتطور دلالة كبيرة متى قارننا المشكلة التي اكتشفها نقاد نظرية نيوتن - أرنست ماخ على سبيل المثال - بتلك المشكلات التي اكتشفها نقاد نظرية أنشتين - وأنيشتين نفسه في مقدمتهم.

متى قارننا إذن المشكلات القديمة بالجديدة لرأينا المسافة الكبرى التي تفصل بينهما أي لرأينا التقدم العظيم. ولكن تبقى مع هذا مشكلة واحدة قديمة وهي ما يعرف بمدأ ماخ وهي مطلبه أن نعتبر القصور الذاتي للكتل الثقيلة معلولا للكتل البعيدة في الكون. لقد أصيب أنيشتين بخيبة أمل كبيرة ألا تنطبق نظريته بالكامل. نعم قدمت نظريته في الجاذبية القصور الذاتي كنتيجة للجاذبية، ولكننا متى تركنا الكتل في نظرية الجاذبية لأنيشتين تختفي، فإن نظريته تتحول إلى نظرية النسبية الخاصة ويبقى القصور الذاتي دون كتل خلاقه.

لقد شعر أنيشتين بنفسه بنقص نظريته وانشغل سائر الباحثين في هذا الميدان منذ أكثر من نصف قرن بالمشكلة التي أثارها مبدأ ماخ في نظرية الجاذبية. لهذا السبب يبدو لي من الأفضل أن يبدأ منهجنا رباعي المراحل بمرحلة " المشكلة " ولكن على أية حال فإنه يكمن - في هذا المنهج - ما هو جديد في التطور العلمي الديناميكي في مقابل التقدم قبل العلمي، ألا وهو

اشتراكنا الإيجابى فى مسألة الاستبعاد من خلال اللغة والكتابة والمناقشة النقدية فالنقطة الرئيسية التى أدعو لها تكمن فى أنه من خلال المناقشة النقدية ينشأ العلم.

عن هذه النقطة الرئيسية تتفرع نقطة أخرى تمثل الإجابة على السؤال التالي:

ما الذى يميز النظريات العلمية المستمدة من الخبرة عن النظريات الأخرى؟ ليست هذه المشكلة – من جانبها – مشكلة علمية ناجمة عن خبرة ولكنها مشكلة علمية نظرية تنتمي لمنطق أو فلسفة العلم. الإجابة على هذا السؤال – والتى يمكن اشتقاقها من فكرتى الأساسية – يمكن صياغتها على النحو التالى:

تتميز المشكلة العلمية الناتجة عن الخبرة عن المشكلات الأخرى فى أنها تصطدم بالخبرة الممكنة، مما يعنى أن هناك خبرات ممكنة وأنه من الممكن تكذيبها.

أسمى مشكلة التمييز بين النظريات العلمية الناجمة عن الخبرة والنظريات الأخرى مشكلة التحديد، والحل الذى أضعه لها هو معيار التحديد.

والاقتراح الذى أضعه إذن لحل مشكلة التحديد هو معيار التحديد الآتى:

" تنتمى نظرية ما للعلم التجريبى فقط متى كان بينها وبين الخبرة الممكنة تناقض أي متى كان من الممكن من حيث المبدأ تكذيبها".

أسمى معيار التحديد هذا معيار إمكانية التكذيب.

يمكن توضيح معيار إمكانية التكذيب هذا بنظريات كثيرة، فنظرية – التطعيم يحمى من الإصابة بالجدرى – نظرية قابلة للتكذيب، فعندما يصاب شخص ما بالجدرى رغم تطعيمه فإن هذا يعنى أن النظرية قد تم تكذيبها.

يمكن أن نستخدم هذا المثال لنوضح به أن لمعيار إمكانية التكذيب مشكلاته الخاصة به ، فعندما يصاب فرد واحد فقط من أكثر من مليون

شخص بالجدرى فعندئذ لا نقول أن النظرية قد تم تكذيبها وإنما يمكننا افتراض أن المادة التي تناولها الشخص لتطعيمه لم تكن على مايرام. فهناك دائماً من حيث المبدأ مخرج ما، فعندما نكون أمام تكذيب ما، فإنه يمكننا دائماً أن نتعلل، يمكننا أن نضيف فرضاً مساعداً نرد به على محاولة التكذيب، يمكننا إذن أن " نحمى سائر نظرياتنا من كل تكذيب ممكن " وهو تعبير الأستاذ هانز ألبرت.

ليس من السهل دائماً إذن أن نستخدم معيار إمكانية التكذيب، ومع هذا فإن لهذا المعيار قيمته الخاصة به. يمكن استخدامه إذن فى نظرية التطعيم ضد الجدرى رغم أن استخدامه ليس دائماً سهلاً: فعندما تكون النسبة المئوية للأفراد الذين تم تطعيمهم ومع هذا أصيبوا بالجدرى مساوية لتلك الخاصة بالأفراد الذين لم يتم تطعيمهم وأصيبوا أيضاً بالجدرى فعندئذ يترك سائر العلماء نظرية التطعيم هذه.

يمكننا مقارنة هذه الحالة بحالة أخرى لنظرية غير قابلة للتكذيب من وجهة نظرى مثل نظرية فرويد فى التحليل النفسى . هذه النظرية يمكن فقط اختبارها من حيث المبدأ عندما نستطيع وصف سلوك بشرى يتعارض مع ما تقرره النظرية. هناك مثل هذه النظريات للسلوك البشرى ولكنها قابلة للتكذيب مثل النظرية القائلة بأن فرداً ما- والذى عرف بالأمانة لفترة حياته طويلة - قد أصبح فى أيامه الأخيرة لصاً.

من المؤكد أن هذه النظرية قابلة للتكذيب فإنا هنا أفترض أن حالات تكذيب فعلية قد حدثت بحيث أن النظرية فى صياغتها الحالية فى ببساطة نظرية خاطئة.

في مقابل هذه النظرية يبدو من غير الممكن تقديم سلوك بشرى يمكنه تفيد نظرية التحليل النفسى، فعندما ينقذ شخص ما حياة شخص على حساب حياته الخاصة، أو على العكس يهدد حياة شخص قديم، أو ما يمكن أن

نتصوره من سلوك بشرى أخر، فإن هذا جميعاً لا يتناقض مع نظرية التحليل النفسى، فنظرية التحليل النفسى يمكنها أن تصف - من حيث المبدأ - كل سلوك بشرى ممكن • ليست هذه النظرية إذن قابلة للتكذيب أو للاختبار.

ليس معنى هذا أن فرويد لم ير أشياء كثيرة صحيحة، إلا أن ما أزعمه أن نظريته ليست ذات طبيعة عملية تجريبية.

وفى مقابل هذه النظرية تقف الكثير من النظريات - مثل نظرية التطعيم- ولكنها فى المقام الأول نظريات فيزيائية وكيميائية وبيولوجية.

لقد أصبح لدينا افتراض قوى - منذ نظرية أنيشتين للجاذبية - أن ميكانيكا نيوتن خاطئة، رغم أنها تمثل اقترابا ممتازاً. وعلى كل فإن كلاً من نظرية نيوتن وأنيشتين قابلة للتكذيب رغم أنه من الممكن دائماً بالطبع التعلل بانها محصنة من كل تكذيب ، فرغم أنه لاوجود لسلوك بشرى مفترض يمكنه أن يعارض نظرية فرويد فى التحليل النفسى ، فإن سلوك المنضدة - فى حركتها - يقف فى تعارض مع نظرية نيوتن، فإذا بدأ كوب من الشاى يتحرك ويهتز ، فإن هذا يعد تكذيباً لنظرية نيوتن ، وبصفة خاصة إذا لم ينقلب الشاى رغم هذه الحركات والاهتزازات • هنا يمكن القول أن الميكانيكا تتعارض مع عدد هائل من طرق سلوك ممكنة لأجسام فيزيائية وهو ما تختلف تماماً مع نظرية التحليل النفسى التى لا وجود لسلوك بشرى يمكنه أن يتعارض معها.

إن كل تفنيد لنقطة أو أخرى فى ميكانيكا نيوتن سيمس نظرية أنيشتين للجاذبية وذلك لاقتراب ميكانيكا نيوتن من نظرية أنيشتين. إلا أن ما يميز أنيشتين أنه قد بحث عن الحالات التى متى لاحظناها فإنها كفيلة بهدم وتفنيد نظريته نفسها ولكنها لاتفند مع هذا نظرية نيوتن.

فلقد كتب أنيشتين – على سبيل المثال – أنه لو لم يتم ايجـــاد الازاحـــة الحمراء والتى قام هو نفسه بحسابها فى طيف أقمار الشعرة اليمانية[١] وفـــى نجوم أقزام أخرى[٢] ، لكان قد قبل اعتبار نظريته نظرية تم تفنيدها ٠

ويبقى أنه من المهم أن أنيشتين نفسه وقف فى مواجهة نظريته للجاذبيـــة وقفه نقدية فعلى الرغم من أنه لم تدل أي تجربة من التجارب التى أراد بـــها اختبار نظريته (وجميعها قد اقترحها هو نفسه) على أنـــها غـــير صالحـــة للنظرية إلا أنه مع هذا نظر لنظريتة على انها غير مرضية تماماً ولكن على أسس نظرية، فلقد كان ينظر إلى نظريته على أنها – مثلها فى ذلك مثل سائر نظريات العلم الطبيعى – محاولة مؤقتة للحل اى ذات طابع فرضى ، فلقـــد نظر إليها نظرة تفصيلية، فقدم أسباباً لرؤيته للنظرية كنظرية ذات ثغـــرات وغير مرضية انطلاقاً من برنامج البحث كما يجب أن يكـــون مـــن وجهـــة نظره، كما قدم سلسلة مطالب رأى ضرورة أن تحققها أي نظرية لكى تكـــون نظرية مرضية.

مارأه فى نظرية الجاذبية كما وضعها فى شكلها الأساسى أنـــها تصـــور أقرب شكل للنظرية التى نبحث عنها من نظرية نيوتن للجاذبية ومن ثم فـــهى أقرب إلى الصدق.

إن فكرة الاقتراب من الصدق من وجهة نظرى تمثل واحـــدة مـــن الأفكـــار الهامة فى نظرية العلم. هذه الأهمية تتصل بأهمية المناقشة النقدية للنظريـــات المتنافسة، وهى المناقشة التى توجهها قيم معينة، فالمناقشة النقدية يتطلب مبدأ موجهاً – بتعبير كانط– أو فكرة موجهة ٠

---

(١) أقمار الشعرة اليمانية عبارة عن نجم تابع لكوكبه الكلب الأكبر ويبعـــد عـــن الأرض بمقدار ثمان سنوات ضوئية ٠

(٢) النجوم الأقزام عبارة عن نجوم صغيرة ذات كثافة عالية جداً بدرجة زهو ضعيفة ٠

من هذه الأفكار الموجهة التى تحكم المناقشة النقدية، فإن ثلاثاً منها علـــى جانب كبير من الأهمية هى على التوالى: فكرة الصدق، ثم فكرة المحتـــوى الأمبيريقى والمنطقى ثم فكرة محتوى صدق النظرية والاقتراب من الصدق.

إذا كانت فكرة الصدق تغلب على المناقشة النقدية، فإن هذا يعنـــى اننـــا نناقش النظرية مناقشة نقدية على أمل استبعاد النظريات الخاطئة، وهو مـــا يعنى أن فكرة البحث عن النظريات الصادقة هى الفكرة التى توجهنا.

توجهنا الفكرة الثانية وهى فكرة محتوى النظريـــة إلـــى البحـــث عـــن النظريات ذات المحتوى المعلوماتى الضخم، بمعنى أن قضايا الرياضـــــة - قضايا تحصيل الحاصل - ١٢× ١٢ = ١٤٤ قضايا فارغة من المحتـــوى إذ أنها لاتحل أي مشكلة علمية إمبريقية. ولايمكن للمشكلات الصعبة أن تحلـــها سوى نظريات ذات محتوى إمبيريقى ومنطقى ضخم.

مانسميه " جراءة النظرية " Kühnheit einer Theorie " هو تماماً مـــا يشكل ضخامة المحتوى فكلما ازداد ما نزعمه بنظرية مـــا كلمـــا عظمـــت مخاطرة أن تكون النظرية خاطئة، فنحن - نعم نبحث عن الصدق إلا أن أننا نتجه فى الحقيقة نحو الحقائق الجريئة التى تتصف بالمخاطرة.

تشكل نظريات نيوتن وأنيشتين أو نظرية الكوانتـــم للـــذرات أو نظريـــة الجينات المكتوبة بالشفرة التى تحل - جزئياً - مشكلة الوراثـــة ـــ أمثلـــة - للنظريات الجريئة ذات المحتوى المنطقى الضخم • لمثل هـــذه النظريـــات الجريئة - كما يقال - محتوى ضخم، أو محتوى منطقى وأمبريقى ضخم •

يمكن شرح تصورى المحتوى هذين على النحو التالى، يمثل المحتـــوى المنطقى لنظرية ما كتلة النتائج Folgerungsnasse التى تستدل منـــها، أي فئة القضايا التى يمكن اشتقاقها منطقياً من نظرية ما، فكلما زادت هذه الفئـــة كلما كبر محتواها المنطقى.

أما فكرة المحتوى الإمبيريقى لنظرية ما فاكثر أهمية من سابقتها، لكـــى

نفهم هذه الفكرة فإننا نطلق من القول أن أي قانون من القوانين التجريبية للطبيعة أو أي نظرية تجريبية تمنع بعض الحوادث التى يمكن ملاحظتها. (فالنظرية التى منطوقها " كل الغربان سوداء اللون تمنع وجود غربان بيضاء بحيث أن ملاحظة غراب واحد أبيض يفند هذه النظرية) بينما رأينا أن نظرية فرويد فى التحليل النفسى لاتمنع أي حوادث ملاحظة ، فمحتواها المنطقى ضخم ولكن محتواها الإمبيريقى صفر.

يمكننا إذن أن نميز المحتوى الإمبيريقى لنظرية ما بأنه كمية Menge أو فئة Klasse القضايا التجريبية التى تمنعها النظرية، أي فئة أو كمية القضايا التجريبية التى تتناقض مع النظرية.

يمكن أن نقدم هنا توضيحاً بسيطاً: تتناقض النظرية القائلة بأنه لايوجد أي غراب أبيض مع القضية: يوجد هنا غراب أبيض. فالنظرية تمنع وجود غربان بيضاء اللون. فالنظرية القائلة بأن " كل الغربان سوداء اللون " ذات محتوى امبيريقى ضخم. فهى لاتمنع فقط وجود غربان بيضاء ولكن أيضاً غربان زرقاء وخضراء وحمراء. ففئة القضايا الممنوعة أكبر بكثير.

يمكننا أن نسمى القضية التجريبية أو قضية الملاحظة التى تتناقض مع نظرية ما " إمكانية تكذيب النظرية موضع الحديث " أو " المكذب Falisfikator الممكن للنظرية " ومن ثم فإنه متى تمت ملاحظة إمكانية التكذيب بالفعل، عندئذ تكون النظرية كاذبة تجريبياً ، القضية " يوجد غراب أبيض " إذن هى إمكانية تكذيب " أو مكذب ممكن " للنظرية فقيرة المحتوى خيث لاوجود لغربان بيضاء وللنظرية غنية المحتوى حيث كل الغربان سوداء اللون.

القضية: فى العاشر من فبراير ١٩٧٢ وصل غراب اخضر إلى حديقة حيوان هامبورج تعد " إمكانية تكذيب " أو " مكذب ممكن " للنظرية القائلة بأن كل الغربان سوداء اللون، بل وتعد إمكانية تكذيب أيضاً للنظرية القائلة

بأن كل الغربان حمراء أو زرقاء اللون. فمتى اعتبرت قضية كهذه قضية صادقة على أساس ملاحظات معينة فإن سائر النظريات التى تنتمى هذه القضية لإمكانية تكذيبها تعد نظريات كاذبة فعلياً: المهم هنا هو أنه كلما زاد ما تخبر عنه النظرية كلما كان قدر مكذبها الممكن كبيراً فهى تخبر بالكثير ويمكنها تفسير مشكلات أكثر مما يعنى أن إمكانية تفسيرها أو قوة تفسيرها الممكن أكبر.

ومن هذه النقطة يمكننا أيضاً أن نقارن بين نظريتى الجاذبية لكل من نيوتن وأنيشتين. هنا نجد أن المحتوى (الإمبيريقى) وقوة التفسير الممكنة لنظرية أنيشتين أكبر من المحتوى الإمبريقيى لنظرية نيوتن، إذا انها لاتصف فقط كل أشكال الحركة التى تصفها نظرية نيوتن بصفة خاصة مدارات الكواكب ولكنها تصف أيضاً تأثير الجاذبية على الضوء، وهى المشكلة التى لم يتحدث عنها نيوتن لا في نظريته عن الجاذبية ولا فى تفسيره للضوء. نظرية أينشتين إذا نظرية جريئة. إذ من الممكن من حيث المبدأ تكذيبها من خلال الملاحظات التى لم تمسها نظرية نيوتن. من هنا كان المحتوى الإمبيريقيى لنظرية أنيشتين أكبر من المحتوى الإمبيريقيى لنظرية نيوتن. وأخيراً فإن قوة التفسير الممكنة لنظرية أنيشتين أكبر . فإذا ما اعتبرنا على سبيل المثال التأثيرات البصرية كاالإزاحة الحمراء التى تنبأ بها أنيشتين لطيف أقمار الشعرة اليمانية تأثيرات تتأكد عن طريق الملاحظة، عندئذ يمكن القول أن نظرية أنيشتين تفسر هذه التأثيرات البصرية.

وحتى لو لم نقم بعد بعمل الملاحظات الملائمة، فإنه ما زال من الممكن القول أن نظرية أنيشتين تفوق فى إمكانياتها نظرية نيوتن. أى أنها ذات محتوى إمبريقى أكبر وقوة تفسير أكبر. هذا يعنى أنها أكثر أهمية من الناحية النظرية ولكنها فى نفس الوقت أكثر خطورة من نظرية نيوتن، إذ أنها تتعرض بصورة أكبر للتكذيب لأن عدد المكذبات الممكنة أكبر . لهذا فإنه

من الممكن اختبارها بصورة أشد من نظرية نيوتن والتي يمكن أيضا اختبارها بقوة ومتى وقفت النظرية أمام هذه الاختبارات، فإنه مازال ليس من الممكن القول أنها صحيحة، إذ من الممكن تكذيبها باختبارات مستقبلة، ولكن من الممكن أن نقول ليس فقط أن محتواها الإمبريقى أكبر ولكن أيضاً محتوى صدقها أكبر من المحتوى الإمبريقى ومحتوى صدق نظرية نيوتن ٠ هذا يعنى أن عدد القضايا الصحيحة التى يمكن اشتقاقها منها أكبر من ذلك الذى يمكن اشتقاقه من نظرية نيوتن. ومن الممكن أن نقول فوق هذا أن نظرية أينشتين – فى ضوء المناقشة النقدية التى تستخدم نتائج الاختبار التجريبى – تبدو كاقتراب من الحقيقة أفضل.

تفترض فكرة الاقتراب من الحقيقة – مثلها فى ذلك مثل فكرة الصدق كمبدأ موجه – نظرة أو رؤية واقعية للعالم ٠ فهى لاتفترض أن الوجود الفعلى Wirklichkeit هو على النحو الذى تصفه نظرياتنا العلمية، ولكنها تفترض أن هناك وجودا فعلياً وأننا يمكننا أن نصل بنظرياتنا التى هى أفكارنا التى خلقناها إلى وصف نقترب به من الفعلية متى استخدمنا منهج المحاولة والخطأ رباعى المراحل. هذا المنهج لايكفى، إذا يجب أن يكون لدينا حظ، لأن الشروط التى نجدها على أرضنا والتى تجعل الحياة وتطور اللغة البشرية أو الوعى والعلم البشرى ممكناً شروط نادرة فى الكون حتى وأن لم يكن الكون على النحو الذى يصفه العلم لأنه من وجهة نظر العلم فإن العالم خال من المادة ولا يملؤه سوى أشعة فوضوية وفى الحالات القليلة التى لايكون فيها العالم خالياً فإن مادة فوضوية تملؤه، ساخنة حارة جداً لبناء الجزئ أو باردة جداً لتطور الكائن الحى كما نعرفه . وما إذا كان هناك فى العالم حياة أم لا، فإن الحياة منظوراً إليها نظرة كونية – ظاهرة نادرة جدا وفى تطور الحياة فإن تطور المناهج العلمية والنقدية مرة أخرى تطور نادر جداً ومن ثم فهو – بحساب الاحتمالات – شئ غير محتمل بصورة نهائية

هذا يعنى اننا حصلنا على الجائزة الكبرى عندما نشأت الحياة و العلم.

يبدو لى أن الرؤية الواقعية للعالم وفكرة الاقتراب من الصدق ضروريان ولايمكن الاستغناء عنهما لفهم " العلم الذى يحاول أن يصل إلى أكثر الصور مثالية " .

كما يظهر لى أن الرؤية الواقعية للعالم هى الرؤية الإنسانية الوحيدة، فهى وحدها تخبرنا بأن هناك بشراً غيرنا يعيشون ويعانون ويموتون مثلنا.

فالعلم نسق منتج من أفكار بشرية. لهذا الحد يصدق الاتجاه المثالى إلا أن هذه الأفكار يمكنها أن تصطدم بالاحتمال، من هنا كان للاتجاه الواقعى الكلمة النهائية.

قد ينشأ لدى البعض الانطباع بأننى تجاوزت بهذه الملاحظات الاتجاه الواقعى وتجاوزت بهذه الدلالات عن الصراع الواقعى - موضوعى - إلا أن هذا ليس صحيحاً، فالصراع الواقعى - على العكس - صراع على درجة عالية من الأهمية فى ميكانيكا الكم، من هنا كان واحداً من أحدث مشكلات نظرية العلم الحالية.

لا أقف فى مواجهة هذه المشكلة موقف المحايد - كما لابد أنه اتضح - فأنا هنا اقف مع الاتجاه الواقعى، إلا أن هناك - فى ميكانيكا الكم - أيضاً مدرسة مثالية[1] مؤثرة ٠ فى الواقع لايوجد سوى ظلال مثالية، فأى تابع مشهور لميكانيكا الكم فإنه يخرج من ميكانيكا الكم بنتائج مثالية solipsistische، فهو يزعم أن هذه النتائج المثالية الـ solipsistische تنتج بالضرورة عن ميكانيكا الكم .

هنا لايمكننى سوى الإجابة بأنه متى كان الأمر كذلك، فإنه لابد أن هناك خطأ ما فى ميكانيكا الكم مهما كانت درجة الإعجاب بها ومهما كانت روعتها

---

(١) المقصود بها مدرسة هايزنبرج التى كانت ترى فى المعرفة معرفة ذاتية وذلك فى مقابل اينشتين الذى كان يرى فى المعرفة معرفة موضوعية ٠

فى اقترابيا من الصدق • نقد صمدت ميكانيكا الكم أمام اختبارات عسيرة جداً وهو مامنه نستنتج اقترابها من الصدق متى كنا واقعيين.

فالصراع القائم فى نظرية العلم حول الاتجاه الواقعى والموضوعية سيستمر زمناً أطول. هنا لدينا مشكلة ضرورية وواضحة وهى المشكلة التى تجاوزتها إلى حد ما نظرية العلم - كما لابد ولاحظنا - ولقد أوضحت بصورة كافية - وهو ما أتمناه - موقفى بالنسبة لهذه المشكلة الأساسية.

المقالة الثانية

wissenschaftliche Reduction und die essentielle Unvollständigkeit der Wissenschaft

الرد العلمى وعدم الاكتمال الضرورى للعلم

1

يمكن صياغة الفكرة التى أبدأ منها على النحو التالى : فيما يتعلق بما يعرف بالرد فإن هناك ثلاثة أسئلة جوهرية تخص الباحث فى البيولوجيا.

١- هل يمكننا رد البيولوجيا (علم الأحياء) إلى الفيزياء أو إلى الفيزياء والكيمياء؟

أو هل يمكننا أن نأمل أن نصبح ذات يوم قادرين على رد علم الأحياء تماما إلى الفيزياء أو الفيزياء والكيمياء؟

٢- هل يمكننا رد أو نأمل فى رد حوادث الوعى الذاتية التى ننسبها غالبا للحيوانات إلى علم الأحياء وإذا أجبنا عن السؤال الأول بنعم فهل يمكننا أن نردها فيما بعد إلى الفيزياء والكيمياء؟

٣- هل يمكننا رد – أو الأمل فى رد – القدرة الخلاقة للعقل البشرى ووعيه الذاتى بنفسه إلى الخبرة الحيوانية، ثم ردها فيم بعد إلى الفيزياء والكيمياء متى كانت الإجابة على السؤالين ١، ٢ بنعم؟

من الواضح أن الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة تعتمد فى جزء منها على دلالة لفظ " الرد " ولكن لأسباب ذكرتها فى موضع آخر[١]، فإنى ضد مناهج تحليل الدلالة وضد محاولة حل المشكلات الجادة عن طريق التعريفات. ما اقترحه بديلا عن هذه المحاولة هو مايلى:

سأقوم بمناقشة مجموعة من الأمثلة للرد الناجح والفاشل فى العلوم المختلفة وبصفة خاصة رد الكيمياء إلى الفيزياء، ثم سأنتقل إلى معالجة السؤال: ما الذى تبقى من هذا الرد؟

سوف أتبنى فى خلال هذه المناقشة ثلاثة آراء ، الأول: ان العلماء بمعنى دعاة الرد هم القائلون بانه لاشئ يعد نجاحا عظيما فى العلم مثل الرد الناجح، ويمكن اعتبار رد نيوتن – أو بالأحرى تفسيره[٢] – لقوانين كبلر وجاليليو

---

(١) أرجع لكتابنا " المجتمع المفتوح وأعداؤه الجزء الثانى ١٩٥٩ الطبعة السابعة ١٩٩٢، الفصل الثانى الفقرة الثاني، الصفحات من ١٥- ٢٩، توبنجن (الهامش للمؤلف).

بنظرية فى الجاذبية وتصحيحه لهذه القوانين – مثالاً للرد الناجح (انظر هذه المسألة بالتفصيل)[٣]. فالرد الناجح هو الصورة الناجحة لكل التفسيرات العلمية التى يمكن أن يتصورها الإنسان متى استطاعت أن تؤدى ما نكره بصفة خاصة ما يرسون Meyerson [٤]وهو هوية غير المعروف مع ما هو معروف. ففى مقابل عملية رد معينة ، فإن عملية تفسير معينة تجعل – بمساعدة نظرية جديدة – المشكلة المعروفة – من خلال شئ غير معروف واضحة: تخمين جديد[٥].

الثانى : لابد أن العلماء من حيث تبنيهم فلسفياً للمذهب الكونىHolismus يرحبون بمذهب الرد كمنهج، فلابد أنهم دعاة للرد الساذج أو الرد النقدى بصورة أكثر أو أقل، أو الرد النقدى المتشائم كما سأبين من حيث أنه من النادر أن تجد فى العلم ردا ناجحاً بصورة كاملة– إذ تترك دائماً أكثر محاولات الرد نجاحاً شيئا لم نتمكن من حله أو رده.

الثالث: سأتبنى أيضاً الرأي الذى مؤداه أنه يبدو أنه لا يمكن تقديم حجج جيدة لصالح الرد الفلسفى، فى الوقت الذى يمكنه معه تقديم حجج جيدة ضد المذهب الماهوى Essentialismus الذى يبدو الرد الفلسفى شديد الاتصال به. ومع هذا سوف اقترح بالطبع أنه لايجب – ولكن لأسباب ميثودولوجية – أن نرفض محاولات الرد. والسبب فى ذلك أنه يمكننا نحن أنفسنا أن نتعلم الكثير من محاولات الرد غير الكاملة أو غير الناجحة هذه، وأن المشكلات التى ستبقى نتيجة لذلك – أي نتيجة لعدم اكتمال الرد – تنتمى للجوانب العقلية للعلم، أعنى بذلك تأكيداً قوياً على أنه من الممكن لما ننظر إليه غالبا على أنه فشل علمى أي يكون ذا فائدة.

II

بخلاف عملية الرد التى قام بها نيوتن فإن إحدى عمليات الرد المعروفة بالنسبة لى والتى تعد تقريبا ردا ناجحا بصورة كاملة هى عملية رد الكسور المنطقة إلى أزواج مرتبة من الأعداد الطبيعية (أي إلى علاقات قائمة بينها)* . لقد كانت عملية الرد هذه إحدى الانجازات التى قام بها اليونانيون حتى ولو قلنا أنها قد تركب جانبا متبقيا لم يتم رده وهو مالم يدرك إلا فى القرن العشرين (بالرد الناجح الذى قام به كل من فينر Wiener وكوراتوفسكى Kuratowski للأزواج المرتبة إلى زوج غير مرتب من أزواج غير مرتبة[1]. بالإضافة إلى ذلك لايجب أن نغفل أن الأمر يتعلق بالرد إلى مجموعات من أزواج متكافئة بدلا من ردها فقط إلى الأزواج). نمت عملية الرد هذه برنامج البحث الكوزمولوجى الفيثاغورى للتحسيب الذى إنهار مع البرهان على وجود الأعداد الصماء، و الجذور التربيعية للأعداد ٢، ٣، ٥. أحل أفلاطون برنامجا للهندسة محل برنامج البحث الكوزمولوجي للتحسيب هذا وهو البرنامج الذى ظل يعمل به بنجاح من أقليدس حتى أنيشتين ثم ظهرت الحاجة الضرورية للتحسيب أي الرد إلى الأعداد الطبيعية مرة أخرى مع اكتشاف نيوتن وليبنتز لحساب التفاضل (ولمشكلة استبعاد النتائج المتناقضة التى لاتريد استبعاد مناهجها الحدسية الخاصة). لكن رغم النجاح الضخم الذى حققه القرنان التاسع عشر والعشرون فإنه يمكننا الآن – فيما اعتقد – القول أن عملية الرد هذه لم تكن ناجحة بصورة تامة.

يمكن أن نذكر هنا فقط جزءا تركته عملية الرد بدون حل: إن عملية الرد إلى سلسلة من أعداد طبيعية أو إلى مجموعة Menge بالمعنى الذى تأخذ به

(*) يشير بوبر الى العملية التى بدأها الفيثاغوريون حين تم اكتشاف الأعداد الصماء، وقاموا بوضع جداول حسابية للأعداد الصماء تحوى علاقات أونسب بين الأعداد الصحيحة. لم يتابع الفيثاغوريون الطريق حتى النهاية فخلصوا الى عجز الحساب عن أحتواء الأعداد الصماء . تم التغلب على هذه المشكلة مع بداية القرن العشرين بتعريف الكسر بأنه العلاقة القائمة بين زوج من الأعداد الصحيحة .

(نظرية) المجموعات الحديثة ليست هى ذات عملية الرد إلى مجموعات من أزواج مرتبة متكافئة من الأعداد الطبيعية. فعندما كانت فكرة المجموعات فكرة ساذجة وحدسية (كما فى عند كانتور)، لم يكن هذا واضحا للعيان. ولكن أوضحت نقائض المجموعات اللانهائية (التى ناقشها بلزانو وكانتور ورسل) وضرورة المصادرة على نظرية للمجموعات أن عملية الرد التى نفذت هذه لم تكن عملية تحسيب بسيطة - عملية رد إلى الأعداد الطبيعية - ولكنها عملية رد إلى نظرية المجموعات المصادر عليها وهذه الأخيرة أظهرت أنها عملية بالغة التعقيد وتشوبها الكثير من المخاطر(*) .

يمكن تلخيص هذا المثال على النحو التالى: أن برنامج التحسيب، أي رد الهندسة والأعداد الصماء إلى الأعداد الطبيعية قد فشل جزئيا. ولكن عدد المشكلات غير المتوقعة وفئة المعرفة غير المتوقعة التى جلبها معه هذا الفشل الجزئي عدد هائل وعظيم .

III

لقد أشرت فى إيجاز إلى الفشل الذى أصاب محاولة رد الأعداد الصماء إلى الأعداد الطبيعية كما بينت أن محاولة الرد تشكل جزءا لايتجزأ من الفهم والتبسيط والتفسير العلمى والرياضى.

ما أريده الآن هو مناقشة النجاح والإخفاق فى محاولة الرد فى علم الفيزياء ولكن بشى من التفصيل وبصفة خاصة النجاح الجزئي فى رد فيزياء الكون الأكبر Makrophysik إلى فيزياء الكون الأصغر Mikrophysik

* نظرية المجموعات نظرية وضعها الرياضى الألمانى جورج كانتور فى الفترة بين عامى ١٨٧٤-١٨٩٧ وتختص بالتأليف بين الأعداد فى مجموعات وفقا لعلاقات ثابتة ومحددة. والمجموعة هى حشد من الموضوعات المحددة والمتميزة والمرتبطة فيما بينها بصفة ما مشتركة تفصلها عن غيرها، وقد انطوت هذه النظرية على عدة مفارقات أشهرها ثلاث مفارقات: مفارقة الايطالى(بورالى فورتى) الخاصة بأكبر عدد ترتيبى (١٨٩٥) والثانية مفارقة كانتور ١٨٩٩ ولم يكشف عنها سوى عام ١٩٣٢ والخاصة بأكبر الأعداد الأصلية،والثالثة مفارقة رسل ١٩٠١ وتتعلق بمجموعة المجموعات.

وكذلك رد الكيمياء إلى ميكرو وماكروفيزيك.

IV

لقد أطلقت تسمية " التفسير النهائى - فى موضع أخر[٨] - على محاولة رد أو تفسير الأشياء بحيث لاتحتاج معه إلى افتراض جوهر أو مادة يتم وفقا لها تفسير الأشياء.

أفضل مثال يمكن تقديمه لهذا هو الرد الديكارتى لفيزياء الأجسام غير الحية فى كليتها إلى فكرة الجوهر الممتد، جوهر أو مادة له خاصية جوهرية واحدة ألا وهى خاصية الامتداد المكانى. لقد نجحت هذه المحاولة، محاولة رد الفيزياء كلها إلى خاصية جوهرية ظاهرية واحدة للمادة بطريقة غير عادية إذ أنها أدت إلى صورة واضحة لفهم الكون الفيزيائي. فالكون الفيزيائى الديكارتى عبارة عن بندول ساعة متحرك يتكون من تروس كما أسماها ديكارت) متصلة ببعضها كعجلات التروس. يصطدم فى هذا البندول كل جسم أو كل جزء من المادة بالجزء المجاور له الذى يصطدم بدوره بالجزء الآخر المجاور له.

لا وجود فى هذا العالم الفيزيائى سوى للمادة التى تملأ المكان بأسره. بل أن المكان ذاته يرد إلى المادة من حيث أنه لا وجود لمكان فارغ ولكن هناك فقط الامتداد المكانى الجوهرى للمادة. كما أنه لاوجود سوى لشكل فيزيقى واحد للعلية Verursachung فكل علة هى الاصطدام أو التأثير عن قرب Nahwirkung.

هذه النظرة للعالم رآها نيوتن نظرة مقنعة رغم أنه قد شعر عن طريق نظريته للجاذبية بضرورة إضافة شكل جديد للعلية ألا وهى قوة الجذب أو التأثير عن بعد Fernwirkung .

لقد كان التوقع والتفسير الناجحان اللذان حققتهما نظرية نيوتن هو ما

أسقط برنامج الرد الديكارتى. وكما استنتجت فى موضع آخر[٩](فلقد حاول نيوتن ذاته أن ينفذ برنامج الرد الديكارتى عن طريق تفسير قوة الجاذبية بأنها نبضات جزئيات كوزمولوجية).

كما استنتجت أن نيوتن شعر بقوة الاعتراض على هذه النظرية، فمن المسلم به أن هذه النظرية ترد قوة الجذب والتأثير عن بعد إلى التأثير عن قرب والاصطدام كما أنها تعنى أن كل الأجسام المتحركة تتحرك فى وسيط مقاوم يتحكم فى حركة الأجسام تحكم الفرامل فى الحركة ويبطل استخدام نيوتن لقانون القصور الذاتى . لقد انهارت محاولة الرد النهائى لقوة الجذب إلى الاصطدام رغم انها نظرية جذابة حدسية ورغم أن نيوتن رفض الفهم الساذج – من وجهة نظره – لقوة الجذب – من حيث أنها تأثير عن بعد – على أنها من الممكن أن تكون خاصية جوهرية للمادة.

V

لقد كان هذا هو مثالنا الأول والبسيط للرد العلمى الواعد والفاشل ولبيان إلى أى مدى يمكن للإنسان أن يتعلم من محاولة الرد واكتشاف فشله.

اعتقد أن هذا الفشل كان هو السبب المباشر الذى جعل نيوتن يصف المكان بأنه مركز إحساس الله Das Sensorium Gottes فالمكان كان حتى مدركا لتوزيع الأجسام داخله، أي أنه كان عالما بكل شئ كما انه كان موجودا فى كل مكان، لأنه ينقل هذه المعرفة بسرعة لانهائية إلى أي مكان مشترك فى كل زمن . لهذا الحد فإن المكان الذى يتصف على الأقل بخاصتين من خصائص المعرفة الإلهية يعد جزءا من المعرفة الإلهية. لقد كانت هذه – كما اعتقد – محاولة أخرى لنيوتن أن يقدم تفسيرا ماهويا نهائيا.

يمكن اعتبار الرد الديكارتى توضيحا للملاحظة التى ذكرتها وهى أننا لأسباب ميثودولوجية فقط يجب أن نحاول القيام بعمليات الرد، إلا أنه يقدم

فى نفس الوقت تبريرا لما قلته وهو أننا لايجب أن نكون متفائلين بشكل زائد بالنسبة للرد بل أن النجاح الكامل لمحاولاتنا للرد هو ما يظهر أننا يجب أن نكون متشائمين بصدده.

VI

من الواضح - فيما أعتقد - أن محاولة ديكارت لسائر ما فى العالم الفيزيقى إلى الامتداد والاصطدام قد باءت بالفشل (أن صحت قراءتى للتاريخ فإن هذه المحاولة يمكن أن تنسب أيضا لنيوتن) وذلك عندما قوبلت بالنجاح الذى حققته نظرية الجاذبية لنيوتن . لقد كان هذا النجاح باهرا لدرجة أن اتباع نيوتن - بدءا من روجر كوتس Roger Cotes - اعتبروا نظرية نيوتن تفسيرا نهائيا ومن ثم نظروا إلى قوة الجذب على أنها خاصية جوهرية للمادة رغم أنها عكس نظرة نيوتن تماما. فلم يجد نيوتن مبررا لماذا لايعد الامتداد (امتداد ذراته) والقصور الذاتى الخاصيتين الجوهريتين للكتلة تفصيل ذلك(١٠) هنا يمكننا القول أن نيوتن كان مدركا للفرق بين الكتلة الخاملة والكتلة الثقيلة وهو التمييز الذى خصه أينشتين فيما بعد بالبحث - ومدركا للمشكلة التى أثارتها نسبية الكتل (أو تساويها) وهى المشكلة التى أختفت بسبب غموض الأتجاه الماهوى وذلك فى الفترة بين نيوتن و أينشتين .

لقد قضت نظرية أينشتين فى النسبية الخاصة على الهوية الماهوية بين الكتلة الخاملة والكتلة الثقيلة.. ولقد كان هذا هو السبب الذى جعل أينشتين يحاول تفسيرها عن طريق مبدأه فى التكافؤ Aquivälenzprinzip (*). ولكن عندما اكتشف Cornelius Lanczos أن معادلات الجاذبية لأنيشتين تؤدى إلى المبدأ - الذى كان يعد من قبل مبدأ منفصلا - القائل بأن الأجسام

(*) مبدا التكافؤ مبدأ أساسى فى افيزياء يقرر هذا المبدأ - وفقا لأنيشتين - أن تأثير الجاذبية فى السقوط الحر تأثير ملغى تماما فى كل التجارب الممكنة وان النسبية العامة ترد إلى النسبية الخاصة.

الجاذبة تتحرك فى خط مساحى زمانى مكانى، أمكن رد مبدأ القصور الذاتى إلى معادلات الجاذبية ومن ثم رد الكتلة الخاملة إلى الكتلة الثقيلة. (اعتقد أنه رغم أن أنيشتين قد تأثر بشدة بأهمية هذه النتيجة فإنه لم يقبل بصورة كاملة أنها بذلك قد حلت مشكلة ماخ الرئيسية – وهى تفسير القصور الذاتى – بصورة مرضية أفضل من مبدأ ماخ المشهور ولكن غير الواضح وهو المبدا الذى منطوقه أن القصور الذاتى لكل جسم فردى ينشأ عن التأثير المشترك لسائر الأجسام الأخرى فى الكون . ولقد خاب أمل أنيشتين عندما لم يتفق هذا المبدأ – على الأقل وفقاً لتفسيراته هو – مع النظرية العامة للنسبية التى تتحول إلى النظرية النسبية الخاصة بالنسبة لمكان بدون أجسام وهى النظرية الذى يصدق فيها قانون القصور الذاتى وذلك على عكس ما تصوره ماخ.

هنا فإن لدينا فى رأيي مثالا مرضياً تماماً لعملية رد ناجحة ألا وهى رد مبدأ القصور الذاتى الذى تم تعميمه إلى مبدأ الجاذبية ولكنها نادراً ما يتم التفكير فيها على هذا النحو، ولاحتى من قبل أنيشتين رغم أنه أحس بدلالة النتيجة التى إذا نظرنا إليها من وجهة رياضية خالصة فإنها تعد نتيجة رشيقة دون أن تكون بالضرورة نتيجة مهمة . فاعتماد أو استقلال مصادرة داخل نسق من المصادرات بصفة عامة ذو أهمية صورية فقط. لماذا إذن يجب أن يكون ذا دلالة ما إذا كان قانون الحركة فى خط مساحى يتم قبوله كمصادرة منفصلة أو أنه مستنتج من نظرية الجاذبية؟ الإجابة أنه من خلال الاستنتاج أمكن تفسير هوية الكتل الحاملة والكتل الثقيلة وأمكن رد الأولى إلى الثانية.

بهذا المعنى يمكن القول أن مشكلة نيوتن الكبيرة – مشكلة التأثير عن بعد – (معبر عنها باللغة الخاصة للماهوية) لم تحل من خلال نظرية أنيشتين فى السرعة المتناهية للتأثير المتبادل للجاذبية ولكن بالأحرى من خلال رد المادة الخاملة إلى المادة الثقيلة..

لاشك أن نيوتن وأتباعه قد عرفوا القوى الكهربية والمغناطيسية ولقد كانت هناك محاولات كثيرة - على الأقل حتى بداية القرن العشرين - لرد النظرية الكهرومغناطيسية إلى ميكانيكا نيوتن أو إلى شكل معدل منها.

لقد كانت المشكلة الجوهرية هنا هي محاولة رد القوى غير المركزية إلى قوى مركزية وهي القوى الوحيدة التي بدا أنها يمكن أن تدخل في نظرية نيوتونية معدلة . ولمع في هذا الشأن اسما أمبير Ampere (*) وفيبر Weber.

كما بدأ ماكسويل Maxwell (**) بصفة خاصة بمحاولة رد ميدان القوى الكهرومغناطيسية لفاراداي Faraday(***) إلى ميكانيكا نيوتن أو إلى شكل من الأثير الضوئي Lichtäther وهي المحاولة التي تركها فيما بعد. كما شعر هلمهولتز Helmholtz بأنه منجذب نحو برنامج الرد النيوتوني والديكارتي وعندما اقترح على تلميذه هاينريش هيرتز Heinrich Hertz أن يتناول هذه المشكلة فقد بدأ لنا على هذا النحو أنه كان يأمل في انقاذ برنامج البحث في الميكانيكا. ولقد قبل هلمهولتز تأكيد هيرتز على معادلات ماكسويل كبرهان مضاد. أما وفقا لهيرتز وتومسون Thomson فلقد نال البحث المضاد جاذبية ألا وهو برنامج رد الميكانيكا إلى النظرية الكهرومغناطيسية.

(*) أندريه أمبير واضع أساس النظرية الكهرومغناطيسية ١٨٢٥، ومن ثم عرض العلاقة الكمية بين الميدان المغناطيسي والميدان الكهربي المتغير الذي ينتجه بالقانون الذي حمل اسمه وهو قانون أمبير.

(**) هو جميس ماكسويل الذي وضع صياغة رياضية لقانون أمبير وضم إليه الميادين المغناطيسية التي تنشأ دون تيار كهربي.

(***) عالم فيزياء وكيمياء انجليزي (١٧٩١- ١٨٧٦) أسهمت تجاربه الكثيرة في فهم المغناطيسية الكهربية إذ كان مقتنعا بوجود علاقة وثيقة بين الكهرباء المغناطيسية اكتشف إمكانية إحداث تيار كهربائي بتغير الكثافة المغناطيسية

VIII

لقد كانت النظرية الكهرومغناطيسية للمادة – أي رد الميكانيكا و الكيمياء إلى النظرية الكهرومغناطيسية للذرة – نظرية ناجحة بشكل هائل فى الفترة من ١٩١٢ وهى السنة التى وضع فيها رانرفورد نموذجه للذرة – حتى علم ١٩٣٢ .

وفى الحقيقة فإن ميكانيكا(**) الكم (أو نظرية الكم الجديدة كما كانت تسمى سابقا) كانت تعد حتى عام ١٩٣٥ اسما آخر لما كان يعتبر الشكل النهائى لرد الميكانيكا إلى النظرية الكهرومغناطيسية الجديدة للمادة.

لكى نعرض الأهمية التى كان علماء الفيزياء يعلقونها على هذا الرد قبل ظهور ميكانيكا الكم يمكن أن نرجع إلى ما قاله اينشتين(١١) "وفقا لفهمنا الحالى ليست الجزيئيات الأولية الدقيقة (الإلكترونات والبروتونات) سوى تكثيفات للميدان الكهرومغناطيسى مما يعنى أن لدينا حاليا واقعيتين – الميدان الكهرومغناطيسى وأثير الجاذبية Gravitationsäther – أو ما يمكن أن نسميهما المادة والمكان (الفراغ) " .

فلنلاحظ هنا " ليست سوى " التى ذكرها اينشتين والتى أبرزتها بوضع خط تحتها ، إذ أنها صفة مميزة للرد ، بل لقد حاول اينشتين نفسه قرب نهاية حياته أن يوحد ميدانى الجاذبية والميادين الكهرومغناطيسية فى نظرية واحدة لميدان واحد ، وذلك بعد أن غير مفهومه الذى كان عليه عام ١٩٢٠ (وبصفة خاصة بعد اكتشاف القوى النووية) .

لقد كان مفهوم الرد فى جوهره فى ذلك الوقت (١٩٣٢) مقبولا من سائر علماء الفيزياء تقريبا . من إدنجتون Eddington وديراك Dirac فى انجلترا ، ومن بور Bohr ودى بروجلى de Broglie وشرودنجر Schrodinger وهايزنبرج Heisenberg وبورن Born وباولى Pauli

(**) هو فرع الفيزياء التى تدرس العلاقة القائمة بين المادة والإشعاع.

بالإضافة إلى اينشتين وذلك عبر القارة الأوربية • ولقد قدم لنا روبرت ميليكان Robert A.Millikan الذى كان يعمل بمعهد التكنولوجيا بكاليفورنيا ــ تصويرا رائعا لهذا الفهم على النحو التالى :

" فى الحقيقة لم يتم الوصول إلى تبسيط رائع فى تاريخ العلوم الطبيعية مثلما حدث فى سلسلة الإكتشافات التى وصلت إلى قمتها عام ١٩١٤ وأدت إلى الإتفاق العام حول النظرية التى تذهب إلى أن العالم المادى يتكون من كيانين أساسيين هما الإلكترونات الموجبة والسالبة بشحناتهما المتساوية تماما ولكن المختلفة تماما فى الكتلة حيث الإلكترون الموجب الذى يسمى الأن البروتون أكثر ثقلا من الإلكترون السالب (الذى يسمى الأن الإلكترون) بمقدار ١٨٥٠ مرة " •

لقد كتبت هذه الفقرة التى تعبر عن الرد فى وقتها الصحيح ، إذ نشر شادويك[١٣] Chadwick فى نفس العام اكتشافه للنيوترون ، كما إكتشف أندرسون[١٤] Anderson البوزترون Positron • كما رأى بعض علماء الفيزياء البارزين أمثال ادنجتون[١٥] ــ بالنسبة لنظرية يوكاواس Yukawas فى وجود الميزون Meson أنه بإكتشاف ميكانيكا الكم تدخل النظرية الكهرومغناطيسية للمادة مرحلتها الأخيرة ومن ثم تتألف المادة من الإلكترونات والبروتونات •

IX

إن رد الميكانيكا والكيمياء إلى النظرية الكهرومغناطيسية يبدو تقريبا تاما • فلقد تم رد ــ ما كان يبدو لديكارت ونيوتن على أنه جوهر المادة الذى يملؤه المكان والإصطدام الديكارتى ــ إلى قوى طاردة وهى القوى التى تمارسها الكترونات سالبة على الكترونات سالبة •

كما تم تفسير محايدة المادة عن طريق تساوى عدد البروتونات الموجبة

مع الإلكترونات السالبة وتفسير تأين Ionisierung المدة (عن طريق فقدان أو إضافة إلكترونات ٠٠ الغلاف الخارجى للذره) ٠

ولقد تم رد الكيمياء إلى الفيزياء من خلال تكميت بور للجدول الـــدورى للعناصر وهى النظرية التى اكتملت بتطبيق باولى لمبدأ الإســتبعاد بطريقــة نابغة وكذلك عن طريق رد كل من هيتلر Heitler ولندن London لنظريــة التركيب الكيميائى وطبيعة الرابطة الكيميائية المشـــتركة لنظريـــة التكــافؤ الأحادى التى استفادت من مبدأ باولى ٠

ورغم أنه أصبح واضحا أن المادة عبارة عن تركيب معقد أكـــثر منــها جوهر غير قابل للرد ، فإنه لم يوجد أبدا من قبل مثل هذه الوحدة فى الكــون الفيزيائى أو مثل هذا الإستثناء فى الرد ٠

كما أنه لم يتحقق ابدأ مرة أخرى من وقتها ولكننا مازلنا نعتقد بالطبع فى رد الإصطدام الديكارتى إلى قوى كهرومغناطيسية ٠

كما لازالت نظرية بور فى الجدول الدورى للعناصر قائمة رغم التغيرات الناتجة عن دخول عنصر النظائر ٠ ولكن كل ماتبقى فى هذا الرد الجميـــل للكون إلى كون كهرو ـــ مغناطيسى بجزيئيين من حيث أنـــهما الأساســان الثابتان قد تم حله ٠٠ ولكننا قد تعلمنا مع عملية الحل هذه وقائع جديدة كثيرة وهو مايشكل إحدى أفكارى الأساسيه ٠ ولكن هنا تكمن بساطة الرد ٠

لقد تطورت هذه العملية ـــ والتى بـــدأت مـــع إكتشـــاف النيوترونـــات والبوزيترونات ـــ مع إكتشاف جزيئيات أوليـــة جديـــدة ٠ ولكـــن نظريـــة الجزيئيات هذه لم تكن أبدأ الصعوبة الرئيسية : فالإنهيار الحقيقى نتـــج مـــن خلال اكتشاف أشكال جديدة للقوى ، وبصفة خاصة القوى النووية ذات المدى شديد القصر والتى لايمكن ردها إلى قوى جاذبية وكهرومغناطيسية ، فالقوى الجاذبية فى تلك الأيام لم تكن تقلق علماء الفيزياء بشكل كبير ، حيث أنه كان قد تم للتو تفسيرها وفهمها عن طريق النظرية العامة للنسبية ٠

وظل الأمل قائماً فى رد القوى الجاذبية والكهرومغناطيسية معاً فى نظرية واحدة للمجال . إلا إننا لدينا الآن فى الفيزياء على الأقل أربعة أشكال مختلفة من القوى ، هى الجاذبية ، والتفاعل المتبادل الضعيف فالقوى الكهرومغناطيسية وأخيرا القوى النووية .

X

لقد تم إذن رد الميكانيكا الديكارتيه ــ وبنجاح ــ إلى الكهرومغناطيسية وهى الميكانيكا التى اعتبرها كل من ديكارت ونيوتن أساسا يجب رد كل ماعداه.ماذا الآن عن رد الكيمياء إلى فيزياء الكم وهو الرد الهائل والمعترف به ؟

لنفترض أن لدينا ردا مقنعا تماما للترابط الكيميائى إلى نظرية الكم .. رغم الملاحظة التى ذكرها باولنجر[١٧] Paulings مؤلف كتاب ــ طبيعة الترابط الكيميائى ــ أنه لايمكنه أن يعرف أويصف بدقة أين تكمن طبيعة الترابط الكيميائى ، ولنفترض بعدها أنه قد أصبح لدينا نظرية مرضية بشكل عام عن القوى النووية وعن الجدول الدورى للعناصر ونظائرها وبصفة خاصة عن ثبات وعدم ثبات النوى الثقيلة . هل يمكن عندئذ القول أنه قد تم رد الكيمياء إلى ميكانيكا الكم ؟

لا أعتقد ذلك . إذ يجب أن تضاف إلى ذلك فكرة جديدة تماما فكرة لاعلاقة مباشرة لها بالنظرية الفيزيائية ، ألا وهى فكرة التطور ، أو فكرة تاريخ الكون الخاص بنا ، أو الكوزمولوجيا .

يمكن شرح ذلك بالقول أن الجدول الدورى للعناصر ونظرية بور فى الجدول الدورى تفسر النوى الثقيلة على أنها تركيبات من النوى الأخف ــ تنتهى عند نوى الهيدروجين (البروتونات) والنيترونات.(التى يمكن اعتبارها بدورها تركيبات من البروتونات والإلكترونات) . نفترض هذه

النظرية أن للعناصر الأكثر ثقلا تاريخا ــ فخصائص نواها (جمع نـــواه) نتيجة عملية نادرة تندمج فيها نوى هيدروجينية أخرى مع نوى أكـــثر ثقـلا وذلك تحت شروط نادرا ماتحدث فى الكون ٠

لدينا أدلة كثيرة متعددة على أن هذا قد حدث بالفعل ومازال يحدث ، وأن للعناصر الأكثر ثقلا تاريخيا تطوريا ,أن عملية الأنشطار تتحول من خـــلال الهيدروجين الأكثر ثقلا فى الهليوم وأنها المصدر الرئيسى للطاقة الشمســـية مثلما أنها المصدر الرئيسى للقنابل الهيدروجينية ٠ فالهليوم وسائر العنـاصر الثقيلة نتيجة للتطور التكنولوجى ، تاريخها ــ وبصفة خاصة تاريخ العناصر الثقيلة ــ تاريخ (غريب) وفقا لفهمنا الكوزمولوجى الحالى ٠ فنحن نعتـبر العناصر الثقيلة ــ الآن ــ نتيجة لإنفجارات السوبر نوفـــا Supernova (*) فإذا كان الهليوم يشكل ــ وفقا لبعض التقديرات ــ ٢٥% من المـــادة (تـم حسابه وفقا للكتلة) وكان الهيدروجين يشكل ثلثى أو ثلاث أرباع المادة (وفقا للكتلة) فإنه يبدو أن العناصر الثقيلة نادرا جدا ما تظهر (تشكل تقريبا ١ أو ٢ فى المائة من مجموع الكتلة) ومن ثم فإنه من المحتمـل أن الأرض بـل وسائر كواكب مجموعتنا الشمسية تكونت بصورة رئيسية من مواد ملتهبـــة نادرة جدا (بل ــ وأريد أن أضيف ــ وغالية جدا) ٠

تزعم ــ فى الوقت الحالى ــ أكثر النظريات انتشارا عن أصل الكون(١٨) ــ وهى النظرية المعروفة بالإنفجار العظيم ــ أن الجزء الأكبر من عنصـر الهليوم كان نتاج هذا الإنفجار العظيم ٠ وأنه نتج فى الدقائق الأولى لوجـــود الكون المتمدد ٠ ليس المركز العلمى الدقيق لهذه الفكرة (والتى تعـود فـى

(*) السوبر نوفا ظاهرة تعرف بهذا الإسم أو بإسم الشموس الضخمة غير المستقرة والتى تعد انفجاراتها المروعة أعنف ماتشهده الأكوان من أحـــداث علـــى الإطـــلاق ٠ تنســب الابحاث الفلكية الحديثة كل مايحتويه الكون من كواكب ومجرات وشتى صور الحياة إلـــى هذه الإنفجارات ٠

أساسها إلى جاموف Gamow (**) ،في حاجة للتأكيد عليها ، فمـــا دمنـــا نحاول رد الكيمياء إلى ميكانيكا الكم ، فإنه لايمكننا أن نزعم أن هـــذا الـــرد ينجح تماما ــ دون بقية يتركها بلا حل ،

لقد أمكن فى الحقيقة رد الكيمياء إلى الكوزمولوجيا أكثر منه ردها إلـــى نظرية فيزيقية ، فلقد بدأت الكوزمولوجيا النسبية الكلاسيكية الحديثة كنظرية فيزيقية ولكن يبدو أن هذا الزمان ــ كما أكد بوندى Bondi ــ قد إنقضـــى ، وإننا يجب أن نرى الحقيقة القائلة أن الإنسان يمكنه أن يصف بعض أفكارنـــا (مثل الأفكار التى بدأها ديراك Dirac وجـــوردان Jordan) علـــى أنـــها محاولات لرد النظرية الفيزيقية إلى الكوزموجونيا ، ورغـــم أن كـــلا مـــن الكوزمولوجيا والكوزموجوينا جزءان من الفيزيـــاء وأنـــهما مـــن الممكـــن اختبارهما بشكل أفضل فإنهما يقعان على أطراف العلم الفيزيقى ولم ينضجان بشكل كاف لكى يخدمان فى رد الكيمياء إلى الذيزياء كأساس للكيمياء ، لقـــد كان هذا أحد الأسباب التى جعلتنى أعتبر رد الكيمياء إلى الفيزياء ردا غـــير كامل بل وردا مشكلا ، إلا أننى بالطبع أرحب بسائر هذه المشكلات الجديدة،

XI

يترك رد الكيمياء إلى الفيزياء أيضا وراءه شيئا ثانيا : فوفقـــا لفـــهمنا الحالى يعتبر الهيدروجين ــ وبصفة خاصة نواة الهيدروجين ــ أساس النوى الأخرى ، نحن نفترض أن النوى الموجبة تتنافر كـــهربائيا وبقـــوة علـــى مسافات قريبة جدا بينها بينما تتجاذب على مسافات أكثر قربا بسبب القـــوى النووية وهى المسافات التى يمكن فقط الوصول إليها عندما يتم تخطى قـــوى (التنافر) بسرعات عالية جدا ،

(**) هو العالم الروسى جورج جاموف صاحب نظرية الإنفجار العظيم ، ومما هو جدير بالذكر أنه قد حصل فيما بعد على الجنسية الأمريكية وله كتاب مشهور ترجم إلى العربيـــة بعنوان " بداية بلا نهاية " ترجمة محمد زاهر ، سلسلة الألف كتاب الثانية ،

هذا يعنى أننا ننسب لنوى الهيدروجين خصائص علاقية وهى خصائص غير فعالة تحت شروط قوية جدا وهى الشروط التى لاتظهر سوى الهيدروجين إلا معها • هذا يعنى أن القوى النوويه عبارة عن ممكنات لاتكون فعالة أو مؤثرة إلا تحت ظروف نادرة جدا وهى الحرارة العالية والضغط العالى •

هذا يعنى أن نظرية تطور النسق الدورى تقترب من كونها نظرية فى الخصائص الجوهرية ، تتميز بما يمكن أن نسميه الإنسجام الأزلى(٢٠٩)(*).

وعلى كل حال فإن المجموعة الشمسية ــ وفقا للنظريات الحالية ــ تعتمد على الوجود المسبق لهذه الخصائص أو ــ بالأحرى ــ لهذه الممكنات •

وفوق هذا فإن نظرية أصل العناصر الثقيلة الكامن فى انفجارات السوبر نوفا تؤدى إلى شكل ثانى من الإنسجام الأزلى • فهى تؤدى إلى الإعتقاد بأن قوى الجاذبية (التى تبدو أنها أضعف القوى ولاعلاقة لها حتى الآن بالقوى الكهرومغناطيسية والنووية) يمكن أن تصبح فى تجمع كبير للهيدروجين قوية جدا بحيث تتغلب على قوى الإصطدام بين النوى وإندماجهم بفضل القوى النووية • فى هذه الحالة يكمن الإنسجام بين الممكنات الكامنة للقوى النووية والجاذبية • لا أريد من هذا أن أزعم أن كل فلسفة للإنسجام الأزلى فلسفة خاطئة بالضرورة ، ولكنى أزعم أن الانسجام الازلى مستحيل فقط إذا نظرنا إليه كرد يمكن قبوله • أريد أن أقول أن الإعتماد على هذا هو اقرار أن المنهج الذى يجب به رد شئ إلى آخر قد فشل •

يمكن وصف رد الكيمياء إلى الفيزياء بأى شئ سوى بأنه رد كامل حتى لو وضعنا فروضا تصلح لعملية الرد بطريقة غير واقعية •

(*) وهى نظرية لبينتز التى ترى أن "الله" قد خلق كل جوهر بحيث أن كل مايحدث لهذا الجوهر ناشئ عن طبيعته الخاصة دون أدنى تأثير من أى شئ خارجه ، بل وبإنسجام كامل بكل مايحدث لأى جوهر آخر •

يفترض هذا الرد نظرية فى التطور الكورمولوجى ، كورمولوجيا بتحليل للانسجام الأزلى وذلك لكى تجعل من الممكن للممكنات الكامنة النسبية ذات الاحتمال الضعيف والموجودة فى ذرة الهيدروجين أن تنشط .

يجب إذن أن نعترف أن لدينا علاقة بالتصورات مثل الانبعاث Emergenz والخصائص الانبعاثية . ومتى فعلنا ذلك تبين لنا أن هذا الرد الشيق قد ترك وراءه صورة صادقة للكون، وهى نتيجة يتعجب لها دعاة الرد .ولقد كانت هذه هى النقطة التى كان حديثى يدور حولها فى هذه الفقرة .

XII

لكى نلخص ما قلناه حتى الآن : فلقد حاولت من خلال بعض الأمثلة أن أوضح مسألة الرد وأن أبين أيضا أن بعض عمليات الرد الهامة فى تاريخ العلوم أبعد ماتكون عن النجاح التام ولكنها قد تركت ورائها شيئا متبقيا . نعم يمكننا أن نزعم أن نظرية نيوتن كانت عملية رد كاملة وناجحة لنظريات كبلر وجاليليو ، ولكننا متى إفترضنا أننا نفهم عن الفيزياء أكثر مما هو الحال وأن لدينا نظرية واحدة (للمجال) تقدم ـــ بشكل تقريبى عال جدا ـــ النسبية العامة ونظرية الكم وأشكال القوى الأربعة كحالات خاصة(*)(يمكن أن نجد هذا الفرض ضمنيا فى نظرية ماندل ساكس Mendel Sachs للمجال الموحد) ، عندئذ يمكننا القول أن الكيمياء لايمكن ردها إلى الفيزياء بالكامل) . ومن ثم فإن الفيزياء ، التى تنتج عما يسمى برد الكيمياء إليها ـــ هى فيزياء تفترض التطور والكوزمولوجيا والكوزموجونيا مثلما تفترض أيضا وجود الخصائص الإنبعاثية Emergenter Eigenschaften .

(*) يشير المؤلف هنا إلى المحاولات العديدة التى عرفتها الفيزياء لوصف كل القوى المعروفة والعلاقات بين الجزيئيات الأولية بتصور واحد . ففى القرن التاسع عشر مثلا أدى اكتشاف ماكسويل للمغناطيسية الكهربية إلى توحيد قوى الإستاتيكا الكهربية والمغناطيسية فى موضوع واحد هو مجال تسور الكهرومغناطيسى ، ناهيك عن محاولات اينشتين لوضع نظرية للمجال الموحد تجمع الجاذبية والمغناطيسية فى مجال واحد .

إلا أننا ــ من ناحية أخرى ــ ومن خلال محاولاتي الـــرد هــذه غــير الناجحة تماما وبصفة خاصة محاولة رد الكيمياء إلى الفيزيـــاء قــد تعلمنـــا الكثير • أدت الكثير من المشكلات إلى نظريـــات افتراضيــة جديــدة وأدى بعضها ليس فقط إلى تجارب معملية مؤكدة ولكن إلى تكنولوجيا حديثة • من هنا كانت محاولات الرد التى نقوم بـــها ناجحـــة ــ مـــن وجهـــة النظـــر الميثودولوجية وحتى ولو أمكننا القول أن مثل هذه المحاولات للـــرد عـــادة ماتفشل •

XIII

نادرا ما تدهش هذه القصة التى سردتها والنظرية التى استنتجتها منـــها علماء البيولوجيا • فلقد نجح اتجاه الرد Reduktionismus فى البيولوجيـــا بصورة غير عادية (فى صورة الإتجاه المادى أو الفيزيقى) وأن لم يكـــن نجاحا تاما • ولكنه أيضا فى حالة عدم نجاحه فإنه يؤدى إلى مشكلات ومـــن ثم حلول جديدة • يمكننى أن أصيغ وجهة نظرى على النحو التالى :

يفشل الإتجاه الردى كفلسفة ، ولكن من وجهة النظر الميثودولوجية تؤدى محاولات الرد إلى نجاحات فنجاحات مدهشة •

كما كان فشل عمليات الرد مرعبا للعلم بشكل غير عادى •

ربما يكون مفهوما الآن أن بعض هؤلاء الذين حققوا النجاح العلمى لـــم يقتنعوا بسهولة بفشل الإتجاه الردى كفلسفة • ربما يجعلهم التحليل الذى قمت به لنجاح وفشل محاولة رد الكيمياء بالكامل إلى فيزياء الكم يفكـــرون مـــرة أخرى ويتناولون هذه المشكلة من جديد •

يمكن إعتبار النقطة الجوهرية التى ذكرتها حتى الأن تمـهيدا لملاحظـة بسيطة ذكرها جاكسن مونود Jacques Monod (*) فى مقدمة كتابه " الصدفـة والضرورة[٢١] حين قال " لايمكن التنبؤ أو تفسير كل مايقوله علـم الكيميـاء وفقا لنظرية الكم (أو رد الكيمياء إلى نظرية الكم) رغم أنها تشكل بلا شـك أساس الكيمياء بأسرها " .

يقدم " مونود " فى نفس هذا الكتاب فرضا (وليس زعما) عـن أصـل الحياة ، فرضاً مذهلاً حقا ، يمكن لنا فى ضوء وجهة النظر التى وصلنا إليها هنا أن نفكر فيه . منطوق الفرض أن الحياة قد نشأت من مادة غير حية عن طريق مجموعة حالات تجمعت بصدفة غير محتمل حدوثها .

هذه النتيجة ليست درجة احتمالها ضعيفة وحسب ولكن درجة احتمالـها صفر ، فهى نتيجة فردية .

يمكن اختبار هذا الفرض تجريبيا (كما ذهب إلى ذلك " مونود" فى حوار قصير مع اكسلز) . فإذا كانت الحياة تنتج عن شروط معينة محددة ، لكـان من الممكن تفنيد هذا الفرض الخاص بتفرد أصل الحياة ، وعندئذ كان مـن الممكن لهذا الفرض أن يكون فرضا علميا قابلا للإختبار حتى وإن لـم يبـد على هذا النحو .

كيف يمكن إذن أن يكون افتراض " مونود " مقنعا بصفة عامة ؟ يكمـن ذلك ـ وفقا لمونود ـ فى واقعة تفرد الكود الجينى genetischen Codes والتى يمكن أيضا أن تكون نتيجة الإنتخاب الطبيعى . فما جعل من أصـل الحياة والكود الجينى لغزا محيرا هو افتقـار الكـود الجينـى لأى وظيفـة

(*) جاكس مونود هو عالم الكيمياء الحيوية الفرنسى الجنسية الشـهير . (١٩١٠ـ١٩٧٦) حصل على جائزة نوبل مناصفة مع فرنو يعقوب Francois Jacob لمجهوداته فى توضيـح الطريقة التى تنتظم بها الجينات . وذلك بتوجيه التركيب الحيوى للإنزيمات . يذهب فـى كتابه " الصدفة والضرورة " إلى أن أصل الحياة وعملية التطور نتجا عن الصدفة .

بيولوجية للعدى الذى لايمكن معه نقله ، بمعنى أنه لايمكن ان يـــوذى ـــى تركيب البروتين الذى يتحدد تركيبه أو بنؤه من خلال الكود . ولكن ـــ كمـــ فصل فى ذلك مونود ـــ تتكون الآلة Maschinerie ـــ والتى مـــن خلالـــها تنقل الخلايا (على الأقل الخلايا غير الأولية ، الخلايا الفردية التى نعرفـــها) الكود ـــ من خمسين جزء من الجزئيـــات الكـــبرى Makromolekularen على الأقل والموجود فى مادة DNA [٢٢] والتى تفترض وجودها الخـــلص . عندئذ فقط يمكن نقل الكود عندما تستخدم نواتج نقله .

يبدو إذن اننا ندور فى دائرة محيرة تنطبق على كل محاولـــة لإنتـــاج أو تطوير نظرية عن نشأة الكود الجينى .

يمكن أن تواجهنا الآن إمكانية أن يكون أصل الحياة (وأصل الكـــون) عائقا واضحا أمام العلم وأن يكون هذا العائق هو ماتبقى فى سائر محـــاولات رد علم الأحياء الى الكيمياء والفيزياء ، ومن ثم فحتى لو كان فرض "مونود" الخاص بتفرد أصل الحياة قابلا للتفنيد من خلال محاولات الـــرد ، لأدى ـــ متى كان فرضا صحيحا ـــ إلى إنكار الرد الناجح . أدى هذا الفرض بمونود ـــ الذى يعد أحد القائلين بالرد لأسباب ميثودولوجية ـــ إلى الموقـــف الـــذى فرضته علينا مناقشتنا لرد الكيمياء إلى الفيزياء ألا وهو موقف الرد النقـــدى الذى يستمر مع محاولات الرد حتى ولو لم يكن هناك أمل فى النجاح . فـــى محاولات الرد المستمر هذه وليس فى محاولة الرد الحال (من خلال المناهج الكلية الذى يحل شيئا محل آخر) يكمن أملنا فى زيادة معرفتنا بالمشـــكلات القديمة ومن ثم فى اكتشافنا لمشكلات جديدة التى يمكن من جانبها أن تساعدنا فى إيجاد حلول واكتشافات جديدة ـــ وذلك كما أكد مونود فى موضع آخـــر بنفس الكتاب .

لا أريد هنا أن أناقش الإتجاه الكلىHolismus بالتفصيل ولكن يكفينـــى أن أذكر عنه بعض كلمات . يمكن لنا أن نزعم بوضوح من تطبيقنا للمناهج

التجريبية الكلية (علم الحلية فى الأجنة) أنها بمعنى ميثولوجى مناهج ردية حتى ولو كانت التصورات الكلية هى مصدر هذه المناهج.

من ناحية اخرى نحن فى حاجة لنظريات كلية لوصف القدرات والجزيئيات فى الوقت الذى تصمت فيه تماما إزاء وصف الكائنات العضوية والجينات[٢٣] .

المهم هنا فى ضوء فكرتى الأساسية هو فقط خاصية المناهج التجريبية فى علم الأحياء أى ما إذا كانت جميعا ــ بصورة أكثر أو أقل ــ ذات طبيعة ردية . ولقد ذكرنى دافيد ميللر David Miller بأن هناك موقفاً مشابهاً فيما يختص بالنظريات الحتمية واللاحتمية . فعلى الرغم أنى اعتقد اننا يجب أن نعتنق اللاحتمية الميتافيزيقية ، فإننا يجب ــ من الناحية الميثودولوجية ــ أن نبحث عن القوانين العلية أو الحتمية إلا متى كانت المشكلات المطلوب حلها هى ذاتها ذات طبيعة احتمالية .

XV

أريد أن أشير هنا أنه حتى لو أمكن تفنيد فرض مونود الخاص بتفرد أصل الحياة والذى يمكن معه تفسير الحياة على أنها نشأت عن مادة غير حية تحت شروط تجريبية محددة ــ فإنه لم يؤد إلى رد ناجح . لا أريد أن استنتج بصورة قبلية امكانية الرد ، ولكننا قد أنتجنا منذ زمن طويل حياة من حياة دون أن نفهم ماذا فعلنا بالطبع وقبل أن يكون لدينا أدنى فكرة عن البيولوجيا الجزيئية أو الكود الجينى ومن الممكن بالطبع أن ننتج حياة من مادة غير حية دون أن يكون من الضرورى أن يكون لدينا معرفة فيزيوكيميائية كاملة مثلما أمكننا على سبيل المثال النجاة من الوقوع فى الدور فى عملية نقل الكود .

على كل حال يمكننا القول أن البيولوجيا الجزيئية جعلت من مشكلة أصل

الحياة لغزا أكبر مما كانت عليه : لقد خلقنا لأنفسنا مشكلات جديدة وأكثر عمقا .

XVI

لقد اقتضت محاولة رد الكيمياء إلى الفيزياء ـ كما حاولت أن أبين ـ دخول نظرية التطور فى الفيزياء ، مما يعنى الإستناد إلى تاريخ الكون الخاص بنا . يبدو أن نظرية التطور لا غنى عنها هنا أيضا فى علم الأحياء. أضف إلى ذلك فكرة الغرض Zweck أو الغائية .

بلا شك فإن أفضل إنجازات دارون هو محاولته بيان أنه من الممكن تفسير الغائية بتصورات لاغائية أو تصورات عليه مألوفة . إن الإتجاه الداروني هو أفضل تفسير لدينا . لاوجود فى الوقت الحالى لفروض جادة منافسة له .

XVII

يبدو أن الحياة وحلولها قد نشأ معا مع نشأة الحياة ذاتها . فإذا كان الإختيار الطبيعى مثلا قد بدأ قبل نشأة الحياة ـ على سبيل المثال اختيار العناصر الثابتة بفضل الإنهيار الإشعاعى للعناصر الأقل ثباتا ـ عندئذ لايمكن لنا القول أن البقاء يمثل بأى معنى من المعانى ـ مشكلة للنوى الذرية. فالتماثل الضيق بين البلورات والكائنات العضوية الدقيقة بأجزائها الجزيئية (Organellen) ينهار هنا . فالنضج والتطور والبقاء لايمثل أى منها مشكلة للبلورات بينما يمثل البقاء مشكلة تواجه الحياة منذ البداية . من هنا يمكننا أن نصف الحياة بأنها حلول المشاكل ونصف الكائنات العضوية الحية بأنها المركب الوحيد فى الكون الذى يقوم بحل المشاكل (الكمبيوتر لايحل المشاكل ولكنه فقط الأداه المستخدمة لحلها) .

لايعنى هذا أنه يجب أن ننسب للحياة وعيا بالمشكلات المراد حلها بل اننا

أنفسنا على المستوى البشرى نعلم أن هناك مشكلات يراد حلها ــ على سبيل المثال مشكلة المحافظة على اتزاننا ــ دون أن نكون على وعى بها •

XVIII

لاشك أن للحيوانات وعيا بل ووعيا مصاحبا بمشكلة ولمشكلة مـــا • إلا أنه من الممكن أن يكون نشأة الوعى فى المملكة الحيوانية لغزا كبيرا مثله فى ذلك مثل لغز نشأة الحياة ذاته •

بخصـــوص هذا الموضـــوع لا أريـــــد أن أقـــول أكثـــر مـــن أن النفسانية الشاملة Panpsychismus (*) أى الرأى القائل بأن المـــادة بصفـــة عامة (حتى فى أدنى درجاتها) متصلة بالوعى ــ لن يفيدنى بأى شكل مـــن الأشكال • فهو لايعنى ــ متى أخذناه مأخذا جديا أكـــثر مـــن نظريـــة فـــى الإنسجام الأزلى (وهو مايشكل بالطبع جزءا من نظرية ليبنتز فى الإنســجام الأزلى فى شكلها الأصلى) إذ ليس للوعى فى المادة غير الحية أى وظيفة ، فمتى نسبنا للجزيئيات غير الحية (المونادات ، الذرات ، الجزيئيات) وعيـــا ، فإننا لانفعل ذلك إلا من أجل تفسير صور الوعى الموجودة فى الحيوانـــات التى لها فى هذه الحيوانات وظائف هامة •

من هنا لاشك فى أن للحيوانات وعيا وأنه يمكن إعتباره تقريبا عضـــوا جسديا ــ من هنا يجب أن نقبل ــ مهما كانت صعوبة هذا القبول ــ أن هذا الوعى نتيجة للتطور أى نتيجة للإنتخاب الطبيعى •

ورغم أن البرنامج يمكن صياغته فى صورة رد ، فإنه فى ذاته ليس ردا إذ أنه يبدو لدعاه الرد أنه لا أمل فيه ، وهو مايفسر لم أعتـــبر دعـــاة الـــرد

(*)وهى النظرية الفلسفية التى تذهب إلى أن لكل من موضوعـــات الكـــون ــ الإنســـان والحيوان والنبات ، بل ولسائر الموضوعات التى نعتبرها موضوعات غير حيـــة حيـــاة نفسية داخلية ، من أبرز الفلاسفة الذين دافعوا عن هذه النظرية الفيلسوف وعـــالم النفـــس الألمانى فشنر G.T. Fecher فى كتابه "دين العالم Religion of Scientist) •

افتراض النفسانية الشاملة أما انه افتراض ذاتي أو أنكـــروا كليـــة وجـــود الوعى ٠

رغم أن هذه الفلسفة السلوكية تعد فلسفة غامضة الأن ، فإن نظريــة عـــدم وجود الوعى لايمكن الأخذ بها بصورة أكثر جدية من نظرية عـــدم وجـــود المادة ٠ كلا النظريتين تحل مشكلة العلاقة بين الجسد والنفس ٠ فى الحالتين يبدو الحل حلا فيه تبسيط مخل ، إذ ينطوى إما على إنكار الجسد أو النفس٠ ولكن هذا الحل ــ من وجهة نظرى ــ حل بسيط[٢٥] وسوف أتحدث فى هــذه المسألة الجوهرية بصورة أكثر تفصيلا فـــى الفقـــرة XXI عندمـــا أتنـــاول التوازن السيكو فيزيقى بالنقد ٠

XIX

لقد تناولت مسألتين من الثلاث مســـائل الجوهريـــة التـــى بـــدأت بـــها محاضرتى ٠ نصل الآن للمسألة الثالثة ، مسألة رد الوعى البشرى وابتكـــار العقل البشرى ٠

تشكل هذه المسألة الثالثة ــ كما أكد سير جون إكسلز مرارا ــ مشـــكلة الصلة بين العقل والمخ ، ولقد أطلق جاكس مونود علـــى مشـــكلة الجـــهاز العصبى المركزى فى الإنسان تسمية (المواجهة الثانيـــة Zweite Front) فى محاولة منه لتناول صعوبتها بالمقارنة مع (المواجهـــة الأولـــى erste Front) ألا وهو مشكلة أصل الحياة ٠

لاشك أنه طريق محفوف بالمخاطر أن نقف عند هذه المواجهـــة الثانيـــة ومع هذا فإنى اقول أن محاولة رد جزئى ــ مما فى هذا الميدان ــ تبدو لـــى محاولة مأمولة أكثر من محاولة الرد فى الميدان الخاص بالمســـألة الثانيـــة (التى ذكرتها فى بداية هذه المحاولة) وكذلك يبدو لى أنه بإستخدام منـــاهج الرد من الممكن اكتشاف بل وحل مشكلات جديدة كما كان الحال فى ميـــدان المسألة الأولى أكثر مما يتعلق بميدان المسألة الثانية ولا أعتقد أننى فى حاجة

مرة أخرى للتأكيد على أن الرد الناجح الكامل فى أى ميدان مـــن الميـــادين الثلاثة أمر غير ممكن إن لم يكن مستحيلا ٠

من هنا يمكنــى القول أننى قد وفيت بوعدى أن أتناول ما يسمى بمشكلات الرد الجوهرية والتى ذكرتها فى بداية محاضرتى ٠ ومع هذا فإنى أريـــد أن أقول شيئا إضافيا بخصوص المشكلة الثالثة ألا وهى مشكلة النفس والجسد أو الجسد والنفس ، قبل أن أصل إلى فكرتى الأساسية وهى أن العالم بطبعه غير كامل ولايمكن أن نصل إلى تقديمه بصورة كاملة ٠

XX

أعتبر مشكلة نشأة الوعى فى الحيوانات (المسألة الثانية) أى مشكلة فهم الوعى ومن ثم رده إلى علم الفسيولوجيا – مشكلة لايمكن حلها ، بالمثل أفكر فى مشكلة نشأة الوعى البشرى الذاتى (المسألة الثالثة) أى مشـــكلة الجســـد والنفس ٠ من هنا فأنى أعتقد أنه لايمكننا أن نلقى سوى ضوء بسيط علـــى مشكلة الأنا الإنسانية Menschliche Selbst ٠

يمكن إعتبارى من عدة زوايا أحد دعاة الثنائية الديكارتيه بـــل وأفضـــل أحيانا أن اصف نفسى بأنى أحد دعاة التعددية ومن ثم فإنى لا أعتقد بـــالطبع فى أى من جوهرى ديكارت ٠ فالمادة ــ كما رأينا ــ ليست جوهرا نـــهائيا صفته الجوهرية هى الإمتداد ولكنها تتكون من تركيبات معقدة نعرف الكثـــير عن تكوينها كما يمكننا تفسير إمتدادها تفسيرا جزئيا ، فهى تحتل مكانـــا (أو أنها ممتدة) بفضل الإصطدام الكهربى لجزئياتها ٠

أن الفكرة الأولى التى اعتنقها هى أن الوعى الذاتى الإنسانى بوحدتـــه التى تبدو غير قابلة للرد وعى معقد جدا قد نتمكن من تفسيره تفسيرا جزئيا ٠ كنت قد تبنيت ــ فى سلسلة من المحاضرات ألقيتها فى مـــايو ١٩٦٩

بجامعة إموری Emory (وفى سلسلة أخرى من المحاضرات كنت ألقيتها قبل ذلك بأعوام فى مدرسة لندن للإقتصاد) ـ فهما مؤداه أن الوعى الإنسانى العالى أو الوعى بالذات لا وجود له لدى الحيوان • كما تبنيت الفكرة التى مؤداها أن ما اعتقده ديكارت من أن النفس الإنسانية تسكن الغدة الصنوبرية Zirbeldrüse لايبدو أنه اعتقاد ساذج ، كما يصور ذلك غالبا ، وأنه اعتمادا على النتائج التى وصل إليها شبرى Sperry (*) عن انقسام المخ إلى قسمين فإنه يمكن البحث عن موقع مركز الكلام فى النصف الأيسر للمخ، وكما أبلغنى إكسلز[٢٨] فلقد دعمت التجارب التى أجراها شبرى فيما بعد هذا التخمين إلى حد ما (وهو مالم أكن أعرفه وقتها) •وفقا لهذا يشكل الجانب الأيمن للمخ البشرى المخ فى كليته للحيوان الذكى بينما يختص الجانب الأيسر بالإنسان ووعيه بذاته •

لقد دعمت تخمينى الخاص بالدور الذى نسبته لتطور اللغة الإنسانية الخاصة ، لكل لغة حيوانية ، بل لكل سلوك حيوانى ـ كما ذهب إلى ذلك كارل بولر K-Bühler وظيفة تعبيرية وأخرى توصيلية • للغة الإنسانية من جانب آخر ـ وظائف أخرى ـ إلى جانب هاتين الوظيفتين ـ تميز اللغة وتجعل منها " لغة " بالمعنى الضيق والهام لكلمة لغة •

لقد ركز " بولر " الإهتمام على الوظيفة الوصفية الأساسية للغة البشرية ، ولقد أشرت فيما بعد[٢٩] إلى أن للغة وظائف أخرى تزيد على ذلك (مثل الوصف السابق Praskriptive وتوجيه النصح •• الخ) أهمها وظيفة تقديم الحجج لكونها وظيفة تميز الإنسان • كما ذكر الأستاذ ألف روس Alf Ross[٣٠] أنه من الممكن إضافة وظائف أخرى كثيرة مثل وظيفة تقديم الأمر والرجاء والوعد) •

(*) روجر شبرى R. Sperry أمريكى الجنسية (١٩١٣ ـ ••••) حصل على جائزة نوبل فى الفسيولوجيا بالمشاركة مع دافيد هوبل D.Hubel وويزل T.N. Wiesel عام ١٩٨١ ، لمجهوداتهم معا فى بيان وظائف المخ • ولقد اعطيت لشبرى على وجه التحديد للأساليب الجراحية التى ابتكرها والتى أدت الى وضع خريطة واضحة للعمليات العقلية •

لا أعتقد (ولم أعتقد أبدا) أنه من الممكـــن رد أى وظيفـــة مـــن هـــذه الوظائف لأى واحدة أخرى ، أو على الأقل رد الوظيفتين العلويتين (الوصف وتقديم الحجج) إلى الدنيتين (التعبير والتوصيل) ، فهى توجد دائمـــا معـــا وهو ما قد يفسر لم إعتبرها كثير من الفلاسفة ــ خطأ ــ خصـــائص تمـــيز اللغة البشرية.

أن فكرتى الأساسية هى أنه بوجود الوظائف العليا للغة البشرية ينشأ عالم جديد : عالم نتاج العقل البشرى . ولقد اسميت هذا العالم " العالم رقـــم ٣ " (نتيجة لنصيحة قدمها لى سير جون اكسلز كنت قبلها أطلق عليـــه " العـــالم الثالث ") . ومن ثم فإنى أطلق على عالم المادة الفيزيقية وميادين القوى .. الخ العالم رقم ١ " ، وعلى عالم الخبرات الواعية والباطنية " العالم رقم ٢ "، وعلى عالم اللغة المنطوقة مثل قص القصص واختراع الأساطير والنظريات والمشكلات النظرية والحجج " العالم رقم ٣ " (يمكن إدراج عوالم الإنتـــاج الفنى والمؤسسات الإجتماعية إما تحت العـــالم رقـــم ٣ " أو نطلـــق عليـــها بالترتيب " العالم رقم ٤" و " العالم رقم ٥ " فهذه مسألة تذوق أو تفضيل) .

أقدم التصورات " العالم رقم ١ " ، العالم رقم ٢ " ، " العالم رقم ٣ " من أجل أن أؤكد على استقلالية هذه الميـــادين . يزعـــم معظـــم المـــاديين أو الفيزيقيين أو دعاة الرد أنه ـــ من هذه العوالم الثلاثة ـــ لاوجود فعلى سوى " للعالم رقم١ " ومن ثم فهو مستقل فهم يحلون السلوك محل " العالم رقـــم ٢ " والسلوك اللفظى محل " العالم رقم ٣ " .(هذه ــ كما أشرت سابقا ــ إحـــدى الحلول البسيطة لمشكلة الجسد والنفس ، أو بصفة خاصة محاولة انكار وجود العقل البشرى والوعى الذاتى البشرى ـــ وهى الأشياء التى أعدها من أهـــم الأشياء فى الكون . الإتجاه الآخر البسيط هو الإتجاه اللامادى لباركلى وماخ الذى مفاده أنه لاوجود سوى للإنطباعات وأن المادة ليست سوى تركيب مـــن هذه الإنطباعات .

XXI

يمكننا فيما يتعلق بالعلاقة بين الجسد (أو المخ) والنفس أن نميز بصورة جوهرية بين أربعة مواقف ٠

١ – إنكار وجود العالم رقم ١ للحالات الجسدية ، أى القول باللامادية كما تبناها باركلى وماخ (تحليل الإنطباعات) ٠

٢ – إنكار وجود العالم رقم ٢ للحالات أو الحوادث العقلية ، وهو الفهم الذى يتبناه بعض الماديين والفيزيقيين ودعاة السلوكية الفلسفية ، أى الفلاسفة الذى يجدون بين المخ والعقل هوية واحدة ٠

٣ – الزعم بوجود ثنائية بين الحالات العقلية وحالات المخ ، وهو الموقف الذى يسمى التوازى السيكوفيزيقى ٠ لقد قدم الإتجاه الديكارتى هذا الإتجاه من خلال جولينكس Geulincx وسبينوزا ومالبرانش وليبنتز بصفة خاصة من أجل تجنب الصعوبات التى واجهت فهم ديكارت لهذا الإتجاه (تماما مثل نظرية الظواهر العرضية التى تسلب من الوعى كل وظيفة بيولوجية)٠

٤ – الزعم بأن الحالات العقلية والحالات الجسدية يمكن لكل منها أن يؤثر فى الآخر بالتبادل وهو الفهم الخاص بديكارت الذى تجاوزه وعدل منه الإتجاه رقم ٣ " ٠

أما موقفى الخاص فيكمن فى أنه لابد أن هناك إلى حد ما تواز بين العقل والمخ ٠ فبعض ردود الفعل العكسية – مثل إرتداد الطرف عندما يرى شخصا ما فجأة شيئا قريبا منه – تبدو بصورة أكثر أو أقل ذات طبيعة متوازية Parallelistischem ٠ فرد الفعل العضلى (الذى يشترك معه بطبيعة الحال الجهاز العصبى المركزى) يتكرر بإستمرار عندما يتكرر الإنطباع البصرى ٠ فمتى أتجه انتباهنا إليه عندئذ يمكننا أن نعى برد الفعل هذا ونفس الأمر ينطبق على بعض (وليس كل) ردود الفعل العكسية ٠

ومع هذا فإنى أعتقد أن الرأى الممثل فى الموقف رقم ٣ ـ القائل بـأن هناك تواز سيكوفيزيقيا كاملا ـ رأى خاطئ وربما بالنسبة للحالات التى هى مجرد ردود فعل عكسية .

هنا فإنى أريد أن أتبنى شكلا من أشكال التأثير السيكوفيزيقى المتبـادل eine Form des psychophysichen InteraKtionismus هذا الموقـف يتضمن (وهو مالاحظه ديكارت) الرأى القائل بان العالم الجسدى رقـم ١ ليس عالما مغلقا بصورة عليه ولكنه عالم مفتـوح للعـالم رقـم ٢ ، عـالم الحوادث والحالات العقلية ، وهو موقف لا يميل إليه علماء الفيزياء ولكـن تدعمه ـ فيما أعتقد ـ الحقيقة القائلة بأن العالم رقم ٣ بميادينه المستقلة يؤثر فى العالم رقم ١ من خلال العالم رقم ٢ .

هنا فإنى على استعداد لقبول الرأى بأنه دائما متى حدث شئ فى العـالم رقم ٢ ،فإن شيئا متعلقا به فى العالم رقم ١ (أى المخ) يحدث . ولكـن أن نتحدث عن تواز كامل ، كان يجب أن نكون فى موقف يسمح لنا بأن نزعـم بأن نفس الحالة أو الحادثة العقلية تحدث مع حالة سيكوفيزيقية مطابقة تمامـا والعكس بالعكس .

وكما أشرت فإنى موافق بالفعل وبشكل واضح علـى أن هنـاك شـيئا صحيحا يكمن فى هذا الزعم وأن الإثارة الكهربائية لبعض ميادين المخ مثـلا تحدث بشكل مستمر بعض الحركات أو الإحساسـات الخاصـة . ولكنـى أتساءل ما إذا كان لهذا الزعم ـ كقاعدة عامة لكل الحالات العقلية ـ محتوى ما أو كان زعما فارغا . ذلك لأنه يمكننا أن نتحدث عـن علاقـة تـواز (معية) بين العالم رقم ٢ وعمليات المخ أو بين بناءات العـالم ، وعمليـات المخ ، ولكن من الصعب أن نتحدث عن علاقة تواز (معيه) بيـن عمليـة بالغة التعقيد ومتفردة (تحدث مرة واحدة) وغير قابلة للتحليل من عمليـات العالم رقم ٢ وبين عملية مقابلة لها من عمليات المخ . ثم أن كثـيرا مـن

حوادث العالم رقم ٢ فى حياتنا تتصف بالتفرد • وأيضا متى تركنا مشكلة الإبتكار الخلاق جانبا ، فإن اللحن نسمعه مرتين ونعرف أنه نفس اللحن وليس تكرارا لنفس حوادث العالم رقم ٢ ، مادام يصاحب سماعنا للحن للمرة الثانية فعل معرفة تكرار اللحن وهو ما لاوجود له فى المرة الأولى ، فموضوع العالم رقم ١ (وهو اللحن فى هذا المثال) يتكرر ، أما الحادثة المصاحبة له والتى تنتمى للعالم رقم ٢ فلا تتكرر • فقط متى قبلنا نظرية للعالم رقم ٢ والتى تذهب ــ مثلها فى ذلك مثل علم النفس الارتباطى ــ Assoziation spsychologie إلى أن حوادث العالم رقم ٢ تتألف من عناصر شبه ذرية ، عندئذ فقط يمكننا أن نرى تمييزا واضحا بين الجزء المتكرر من حادثة العالم رقم ٢ والجزء غير المتكرر ، أى معرفة التكرار مادام يتعلق بنفس اللحن (بينما يمكن لخبرة المعرفة المتكررة من جانبها أن تتكرر فى سياقات أخرى) • ومع هذا يبدوا واضحا أن علم نفس تحليلى أو ذرى كهذا لم يتقدم بنا كثيرا •

العالم رقم ٢ عالم بالغ التعقيد ، فللمدى الذى نهتم فيه فقط بميادين مثل الإدراك الحسى (أى الإدراك الحسى لموضوعات العالم رقم ١) فإننا بذلك قد نعنى أنه يمكننا أن نحلل العالم رقم ٢ بإستخدام المناهج الذرية أو الجزيئية، مثل المناهج الجشطلتية Gestalt (التى تعد من وجهة نظرى جميعا مناهج غير مثمرة متى قورنت بالمناهج البيولوجية أو الوظيفية لإجون برنشفيك Egon Brunswik أو ريتشادر جريجورى R.Gregory) • تبدو هذه المناهج غير ملائمة تماما متى فكرنا فى محاولتنا المتفردة لإكتشاف أو فهم أحد موضوعات العالم رقم ٣ أى لفهم واكتشاف مشكلة أو نظرية ما •

فالطريقة التى يتفاعل بها بالتبادل تفكيرنا وفهمنا مع محاولة وضع صياغة لغوية ويتأثر بها والطريقة التى يتكون بها لدينا شعور غامض تجاه مشكلة أو نظرية ما والذى يتضح متى حاولنا صياغتها ثم أكثر وضوحا متى

كتبناها والتى نتناول بها محاولتنا لحله تناولاً نقدياً ، والطريقة التى تظهر بها مشكلة ما بصور متغيرة ومن ثم تبقى المشكلة القديمة بمعنى ما ، والطريقة التى يرتبط بها مُدخل تفكير مع نفسه من ناحية ويندرج تحت مدخل آخر من ناحية أخرى ، كل هذا يبدو لى أنه يقع خارج حدود ميادين تطبيق المناهج التحليلية أو الذرية بما فى ذلك المناهج الجزيئية لعلم نفس الجشطلت ، إذ فى سائر هذه الحالات تحدث وقائع متفردة لحوادث العالم رقم ٢ المتفردة أيضا ومن ثم لايكون هناك مجال للحديث عن عمليات فسيولوجية موازية لها .

بالاضافة إلى هذا فإن لدينا مبررا لقبول القول أنه متى تلف أحد أجزاء المخ ، فإن جزءا أو ميدانا آخر يقوم بمهامه دون تقريبا أدنى ضرر بالعالم ٢ وهو مايشكل حجة أخرى ضد التواز ــ الثنائية ــ حجة تقوم بالأحرى على تجارب فى العالم ١ ، أكثر منها حجة تقوم على أية تأملات غامضة عن خبرات العالم ٢ المعقدة .

يقف هذا كله بالطبع ضد اتجاه الرد وأنا كفيلسوف ــ ينظر إلى عالمنا هذا ــ ونحن فيه ــ لا أعتقد فى الواقع أن هناك أدنى امكانية لرد يكون تاما ولكنى كمنهجى Methodologe لايؤدى بى هذا الى تبنى خطة بحث ضد الرد . ولكنه فقط يؤدى بى الى توقع انه مع تطور محاولات الرد التى نقوم بها سيتسع نطاق علمنا ومن ثم دائرة المشكلات التى لم تحل .

XXII

لنعد الآن إلى مشكلة الوعى الذاتى البشرى الخاص . يمكن صياغة الفهم الذى تبنيته على النحو التالى : ينشأ الوعى الذاتى من التأثير المتبادل بين العالم ٢ والعالمين ١ ، ٣ .

يمكن وضع حججى للدور الذى يلعبه العالم ٣ على النحو التالى : يتأسس الوعى الذاتى البشرى ــ دون غيره ــ على عدد من النظريات المجردة

بصورة عالية . فالنباتات والحيوانات تتمتع بلا شك بالتوقع الزمنـــي ولـــها معني خاص للزمن . ولكن أن يرى الفرد نفسه كشخص مـــا لـــه مـــاض وحاضر ومستقبل ، له تاريخ شخصي ويعي بهويته الخاصـــة خـــلال هـــذا التاريخ (وهى الهوية المرتبطة أيضا بهوية جسده) فإن ذلك فى حاجة إلـــى نظرية واضحة أن أجسادنا لاتفقد هويتها وقـــت النـــوم ، أى وقـــت غيـــاب إستمرارية الوعي ، وعلى أساس هذه النظرية يمكننا أن نستدعى ــ بشـــكل واع ــ حوادث ماضية (بدلا من القول إننا فقط نتأثر بها من خلال توقعاتنا وردود أفعالنا والتى أرى فيها مجرد صورة أولية وهى الصورة التى تتصف بها الذاكرة لدى الحيوانات).

لاشك أن لبعض الحيوانات شخصية ، فهم يفخرون ويطمحون ويتعلمـــون بالتناظر ويستجيبون لأسماء معينة ، فى مقابل ذلك يجـــد الوعـــى الذاتـــى الإنسانى أساسه فى اللغة وبصـــورة واضحـــة أو ضمنـــا فـــى النظريـــات المصاغة. فالطفل يتعلم استخدامه أسمه ليدل به على ذاته ويتعلم كلمة أنـــا " التى يتعلم استخدامها مع وعيه بإستمرارية جسده وذاته ، والتى يضيفها إلـــى المعرفة بأن الوعى لاينقطع دائما . يصبح تعقيد وعدم ذاتية النفس أو الذات الإنسانية واضحين متى تذكرنا أن هناك حالات ينسى فيها الناس من هـــم . لقد نسوا جزءا أو كلا من تاريخهم الماضى إلا أنهم مع هذا يحتفظون علـــى الأقل بجزء من ذواتهم . فبمعنى ما لم يفقـــدوا الذاكـــرة ، لأنـــهم مـــازالوا يتذكرون كيف يمشى الإنسان وكيف يأكل ويتكلم ، إلا أنهم لا يتذكرون أنـــهم قد جاءوا مثلا من مدينة بريستول Bristol أو ماهى أسماؤهم أو عناوينهم . فللمدى الذى لايستطيعون معه التعرف على مكان منازلهم (وهو ما يفعلـــه الحيوان بصورة طبيعية) فلا زال وعيهم الذاتى يتفـــوق علـــى المســـتوى الطبيعى للذاكرة الحيوانية ، ولكنهم للمدى الذى يفقدوا معـــه القـــدرة علـــى الكلام، فإن الوعى البشرى لازال باقيا ويتفوق بذلك على الوعى الحيوانى .

لست بذلك صديقاً حميماً للتحليل النفسى ولكن يبدو أن النتائج التى توصل إليها تدعم القول بتعقيد الذات البشرية ـ وذلك فى مقابل دعوى ديكارت بتأسيسها على الجوهر المفكر ـ مايعنيه هذا بالنسبة لى هو أن الوعى الذاتى البشرى يتضمن على الأقل وعياً (على الأقل نظرياً) بالإستمرارية الزمنية والتاريخية للجسد الخاص ، وعياً بالارتباط بين الذاكرة الواعية الخاصة والجسد الواحد الذى ينتمى لنفس الذات ، وبينها وبين الوعى بالإنقطاع الجزئى والطبيعى للوعى الخاص وذلك أثناء النوم (الذى يفترض نظرية للزمن وللمرحلية الزمنية Periodizität) • كما يتضمن الوعى الذاتى البشرى فوق هذا الوعى بالإنتماء مكانياً وبيئياً لمكان محدد ودائرة من البشر • نعم لاشك أن للكثير من هذا أساساً غريزياً ويتصف به الحيوان أيضاً • إلا أننى أرى أنه متى ارتفعنا إلى مستوى الوعى البشرى • فإن اللغة البشرية ، أو التفاعل المتبادل بين العالمين ٢ ، ٣ ، تلعب دوراً هاماً •

من الواضح أن وحدة الذات البشرية تعتمد إلى حد بعيد على الذاكرة وأنه يمكننا أن ننسب الذاكرة ليس فقط للحيوان ولكن للنبات أيضاً (بل وبمعنى ما يمكن أن ننسبها أيضاً إلى التركيبات غير العضوية مثل المغناطيس) من هنا فإنه من المهم حتى أن نرى أن الإعتماد على الذاكرة كهذه ليس كافياً لتفسير وحدة الذات الإنسانية • ليس المطلوب هى الذاكرة " العادية " (الحوادث الماضية) ولكن ذاكرة النظريات التى تربط الوعى بنظريات العالم ٣ عن الأجسام (أى ربطها بالفيزياء) ذاكرة تتصف بفهم نظريات العالم ٣ • كما تتضمن الميول Dispositionen التى تمكننا من العودة وقت الحاجة إلى نظريات العالم ٣ الواضحة والوعى باننا نمتلك هذه الميول ويمكننا استخدامها وقت الحاجة للنطق أو التلفظ بهذه النظريات (يمكن لهذه بالطبع أن يفسر إلى حد ما التمييز بين الوعى الحيوانى والوعى الذاتى البشرى بإستقلاله عن اللغة البشرية) •

XXIII

يبدو لى أن هذه الوقائع تفسر عدم إمكانية رد العالم ٢ البشرى عالم الوعى البشرى إلى العالم البشرى ١ أى إلى فسيولوجيا المخ . لأن العالم ٣ يستقل جزئيا على الأقل عن العالمين الآخرين . فإذا كان بين الجزء المستقل من العالم ٣ والعالم ٢ تأثير متبادل ، فعندئذ يبدو لى عدم امكانية رد العالم ٢ إلى العالم ١ .

الأمثلة المعيارية التى أخذها للإستقلال الجزئى الذى يتمتع به العالم ٣ تنبع من علم الحساب .

أقترح إعتبار المتسلسلة اللامتناهية للأعداد الطبيعية اختراعا ، أى نتاجا للعقل البشرى وجزءا من اللغة البشرية المتطورة . (تبدو أنها لغات أولية ، يمكن أن نعد فيها " واحد اثنين ، كثير وأخرى يمكن أن نعد فيها فقط حتى " خمسة ") ولكن للمدى الذى اخترعت فيه مناهج للعد اللانهائى ، فإن التمييزات والمشكلات تنتج بصورة مستقلة : فالأعداد الصحيحة وغير الصحيحة لاتخترع ولكنها تكتشف فى سلسلة الأعداد الطبيعية وكذلك الحال بالنسبة للأعداد الأولية والمشكلات الكثيرة المرتبطة بها والتى حلت والتى لم يتم حلها .

هذه المشكلات والنظريات التى تحلها (مثل نظرية اقليدس التى تذهب إلى أنه لاوجود لعدد أولى أكبر) تنتج بصورة مستقلة ـ كجزء من التركيب الداخلى لسلسلة الأعداد الطبيعية التى خلقها الإنسان ومستقلة عما نعتقده أو لا نعتقده . إلا أنه يمكننا فهم وتصور أو اكتشاف هذه المشكلات وحل جزء منها . يتعلق فكرنا الذى ينتمى للعالم ٢ فى قدر منه بالمشكلات المستقلة والصدق الموضوعى للنظريات التى تنتمى للعالم ٣ : فالعالم ٢ لايخلق فقط العالم ٣ ولكنه يتأثر ـ ولو جزئيا فى تكوينه بالعالم رقم ٣ .

أضع الآن حجتى على النحو التالى : من الواضح أن العالم ٣ وبصفة خاصة أجزاءه المستقلة لايمكن رده إلى العالم ١ الجسدى ، ومادام العالم ٢ يعتمد فى جزء منه على العالم ٣ فإنه أيضاً لايمكن رده إلى العالم ١ ٠

لقد اضطر دعاة الرد الفلسفى أو الفيزيقى ــ كما اسميتهم[٣١] ــ إلى إنكار وجود العالمين ٢ ، ٣ ٠ وفقاً لهذا فإن سائر التكنولوجيا البشرية (وبصفة خاصة وجود أجهزة الكمبيوتر) التى تستخدم إلى حد كبير نظريات العالم ٣ غير مفهومة ويجب أن نقبل أن التغييرات الضخمة التى تحدث فى العالم ١ ــ والتى تحدث مثلاً من بناء المطارات أو ناطحات السحاب ــ دون اختراع نظريات العالم ٣ أو خطط العالم ٢ سببها العالم الجسدى ١ نفسه والتى تتأسس عليه ، فهى محددة بصورة مسبقة إذ أنها جزء من اتساق مقدر بصورة مسبقة يوجد بالفعل فى نوى الهيدروجين ٠

تبدو لى هذه النتائج تافهة ، وهنا فإن السلوكية الفلسفية أو الإتجاه الفيزيقى Physikalismus تبدو لى أنها ترد لهذه التفاهة ٠ فهى على كل حال تبدو لى بعيدة عن الفهم البشرى السليم ٠

XXIV

إن اتجاه الرد الفلسفى ــ فيما أعتقده ــ إتجاه خاطئ ، نبع من الرغبة فى رد كل شئ إلى جواهر وماهيات أى ردها إلى تفسير لايتطلب تفسيراً بعده ٠ فللمدى الذى نقدم فيه للنظرية تفسيراً نهائياً ، فإننا نلاحظ أنه يمكننا أن نظل نسأل " لماذا " ؟ فالسؤال لماذا ؟ لايؤدى بأحد إلى إجابة نهائية ٠ بل ويبدو أن الأطفال الأذكياء يعرفون ذلك جيداً حتى ولو بدا أنهم يستسلمون للكبار الذى لايمكنهم فى الواقع أن يوفرون وقتاً يجيبون فيه ــ من حيث المبدأ ــ على سلسلة لانهائية من الأسئلة ٠

XXV

ينتمى العالمان ١ ، ٢ إلى كون واحد حتى وإن كانا يستقلان إستقلالا جزئيا فهما يتأثران ببعضهما تأثيرا متبادلا . عن الممكن مع هذا أن نبين بسهولة أن المعرفة بالكون – للمدى التى هى ذاتها جزء من الكون (كما هو الأمر فى الواقع) – لايمكن بالضرورة أن تصل إلى معرفة كاملة .

فلنتخيل الآن رجلا رسم صورة دقيقة للغرفة التى يعمل بها . ولندعه يحاول أن يوسع فى رسمه هذه الصورة التى رسمها . من الواضح أن هذا العمل الذى يحوى عددا لانهائيا من الصور الصغيرة فالأصغر داخل كل صورة لايمكن أن يكتمل ففى كل مرة يضيف فيها خطا إلى هذه الصورة فإنه بذلك يخلق موضوعا جديدا ، فالصورة التى يجب أن تحوى صورة لذاتها لايمكن أن تكتمل .

تبين قصة هذه الصورة عدم إكتمال ووضوح الكون الذى يحوى موضوعات المعرفة بالعالم ٣ ، ثم أنه يمكن استخدامه كحجة على أن عالمنا عالم لاحتمية فيه . لأنه بينما يحدد كل خط من الخطوط " الأخيرة " المختلفة المرسومة بالفعل فى الصورة بشكل مسلم به خطا – يعتمد على هذه الخطوط داخل السلسلة اللانهائية للصور المراد رسمها ، فإن تحديد الخطوط ينطبق فقط متى أغفلنا النظر عن امكانية خطأ كل المعرفة البشرية (امكانية الخطأ التى تلعب فى مشكلات ونظريات وأخطاء العالم ٣ دورا هائلا) . ولكن متى وضعناها فى الإعتبار فإن كل خط من الخطوط الأخيرة المرسومة فى اللوحة يشكل مشكلة للرسام ، مشكلة اضافة خط جديد يصور بالتحديد الخط الأخير . فبسبب إمكانية الخطأ التى تميز المعرفة البشرية فى مجموعها لايمكن حل هذه المشكلة التى تواجه الرسام بدقة مطلقة ، وكلما صغر الخط كلما زادت امكانية عدم الدقة النسبية بشكل لايمكن توقعه من حيث المبدأ ولايمكن تحديدها . تبين قصة الصورة إلى أى مدى تسهم امكانية الخطأ التى تميز المعرفة البشرية بالموضوعات فى القول باللاحتمية الجوهرية للكون ،

بصرف النظر أنها تظهر انفتاح الكون وعدم امكانية معرفته والذى يحــوى المعرفة البشرية كجزء من ذاته ٠

يفسر هذا المثال لم لا يمكن للمعرفة التفسيرية أن تصل إلى حد الكمال ، ذلك أنه لكى نصل بها إلى الإكتمال فإنه يجب أن نقدم لها ذاتها تفسيرا ٠

ويمكن أن نجد فى مبرهنة جودل Gödel المشهورة نتيجة أخرى أقــوى من سابقتها ٠تبين مبرهنة جودل أنه من المستحيل أن نصل إلى نسق مكتمــل ــ للحساب الصورى(*) (رغم أننى يجب أن أعترف أننى بجمعى هنا بيـــن مبرهنة جودل والمبادئ الأخرى فى ماوراء الرياضيات والتى تنادى بعــــدم الإكتمال ، أتسلح ضد موقف ضعيف بالمقارنة) ٠

فإذا كان سائر علماء الفيزياء يستخدمون الحساب (ولا واقعية وفقا لدعاة الرد سوى للعلم المصاغ برموز فيزيقية) تصبح سائر المعرفة الفيزيقية وفقا لمبدأ جودل فى عدم الإكتمال معرفة غير كاملة ، وهو ما منه يجب لدعـــــاة الرد أن يقتنعون أن العالم بأسره غير مكتمل ٠ وعلى كل حال فإنـــــه وفقـــا لدعاة اللارد الذين لايعتقدون فى إمكانية رد العلم بأسره إلى علـــــم مصــــاغ بصورة فيزيقية ليس العلم علما مكتملا ٠

فليس فقط اتجاه الرد الفلسفى اتجاها خاطئا ولكن أيضا افتراض أن مناهج الرد يمكن أن تحقق ردا كاملا ٠ فنحن نعيش ــ كما يبدو ــ فى عالم مــــن التطور الإنبعاثى ، فى عالم من المشكلات تخلق حلولها متـــــى أصطدمــت بمشكلات أكثر حدة وأكثر عمقا ٠ ومن ثم فإننا فى كون من الجدة المتطــورة

(*) لقد حطم جودل بالبحث الذى نشره ١٩٣١
(Über Formel Unentscheidbare Sätze der Principia Mathematica und verwendeter systeme I)
الأمل الذى كان يحدو المناطقة منذ أرسطو فى الوصول إلى استنباط كامل مـــن مبـــادئ أولى عندما بين أن الرياضيات لايمكن صياغتها بأسرها داخل حدود نسق صورى واحـــد وهو الأمل الذى كان قد استيقظ بإدخال فريجة فكرة النسق الصـــــورى ١٨٧٩ ومحاولـــة صياغة الرياضيات صياغة صورية ٠

بذاتها ، جدة لايمكن ردها بصورة كاملة إلى أية حالة من الحالات المتطورة (المتقدمة) .

ومع هذا فإن مناهج محاولات الرد مناهج مثمرة بصورة عالية ، ليس فقط لأننا نتعلم شيئا من نجاحها الجزئى القائم على عمليات رد ناجحة بصورة جزئية ولكن لأننا نتعلم أيضا من فشلنا الجزئى الذى تنتج عنه مشكلات جديدة تضع فشلنا فى الضوء . المشكلات المفتوحة ليست شيقة مثل حلولها ، التى كانت ستكون بالفعل شيقة لو لم يفتح علينا كل حل من جانبه ـ مرة أخرى عالما جديدا من المشكلات المفتوحة .

تذييل

بخلاف بعض الملاحظات الصغيرة وإشارة أو أخرى لهذا التذييل تركت المحاضرة فى شكلها الأصلى ولقد قمت بنقد هذه المحاضرة بنفسى ـ قبل أن يتم تناولها بالمناقشة فى المؤتمر الذى قدمته فيه ـ التى أشير فيها إلى أربع نقاط هامة اسقطتها فى النقطتين الأوليتين مما يلى :

١ ـ لم يرد فى المحاضرة ذكر محاولات رد الديناميكا الحرارية إلى الميكانيكا التى تشكل مثالا هاما للرد وألا يصل الرد إلى رد كامل رغم أهمية نتائج محاولات الرد هذه فإن هذا يعد أمرا شكليا من وجهة نظرى .

٢ ـ يمس الحذف أو الإسقاط الثانى الذى فعلته نقطة اعتبرتها فى النص الأساسى للمحاضرة أمرا مسلما به (لقد ذكرتها بإختصار فى الفقرة XIV أنظر فى الملاحظات الملاحظة رقم ٢٠) فهى تتعلق بما يلى : قبل أن نجرى أى محاولة رد ، فإنه يلزمنا معرفة دقيقة وقدرا لابأس به بما نريد أن نحاول رده فقبل أن تكون لدينا امكانية محاولة الرد (أن نكون على مستوى الكليات) يجب أن نتحرك على مستوى مايجب أن يرد . ولقد أشرت إلى ذلك فى موضع أخر[٣٢] .

٣ ـ اسقاط ثالث (لم أذكره فى المحاضرة التى ألقيتها فى المؤتمر) يتعلق

بالتمييز (الذى أشرت إليه فى بداية هذه المحاضرة . أنظر فى الملاحظات الملاحظة رقم ٢) بين الرد الذى يفسر نظرية ما من خلال نظرية موجوده ، والتفسير بنظرية جديدة . فإذا استبعدنا الخلاف على الألفاظ فإنى لا أميل حالياً إلى تسمية التفسير بنظرية جديدة رداً . إذا قبلنا هذا المصطلح ، يمكننا أن نزعم أن تفسير النظرية الموجية لإنتشار الضوء عن طريق نظرية ماكسويل للكهربة المغناطيسية يشكل مثالاً للرد الناجح الكامل (ربما يكون هذا هو المثال الوحيد للرد الناجح الكامل) . وعلى ايه حال فإنه من الحكمة أى نصف هذا على أنه رد لنظرية ما إلى أخرى أو رد جزء من الفيزياء إلى جزء آخر) ولكن أن نعتبرهما معاً كنظرية واحدة جديدة توحد ميدانين من ميادين الفيزياء بنجاح ودون أن أبدو متحيزاً للقول أنه من الممكن أن نطلق على علم الأحياء برنامج البحث غير القابل للرد ، فإن مايلى يبدو لى أنه تقدير معقول للموقف .

٤ - لقد اصطدم برنامج الميكانيكا النيوتونى للفيزياء بمحاولة (جمع) الكهربية والمغناطيسية فى ميدان انطباقها ، أو بقول أكثر دقة ـ اصطدم بتقديم فارادى للقوى اللامركزية (لقد بدت محاولة ماكسويل لرد هذه القوى غير المركزية إلى نظرية نيوتن من خلال وضع نموذج ميكانيكى للأثير كمحاولة مثمرة جداً للمدى الذى أدت به إلى وضع معادلاته المشهورة فى المجال إلا أنها كانت مع هذا محاولة فاشلة وجب تركها) .

لقد أدت معرفة اينشتين بأنه لايمكن لنظريتى نيوتن وماكسويل أن تتفقان إلى النظرية النسبية الخاصة . ومن ثم كان على علماء الفيزياء أن يقبلون نظرية جديدة تماماً عن أن يعتبرونها رداً . لقد صادف الفيزياء مصيرا مشابها عندما انطبقت الميكانيكا والنظرية الكهرومغناطيسية (التى ترجع إلى لورنتش Lorentz واينشتين) معاً فى صورة واحدة على المشكلة الجديدة والأستاتيكية للتركيب الأصغر للمادة . لايمكننا من هذا أن نستنتج أن تتناول

المشكلات البيولوجية أدى إلى توسيع ومراجعة أخرى للفيزياء .

٥ – ١٩٧٨ (اضافة) لقد نوقشت بالتفصيل كثير من المشكلات المذكورة هنا فى هذه المحاضرة فى كتاب (الذات وعقلها The Self and its Brain لبوبر وإكسلز ١٩٧٧ . دار نشر بيير Piper وميونخ Munschen ١٩٨٢)

ملاحظـــات :

لقد نشرت هذه المحاضرة أولاً باللغة الإنجليزية فى Studies in the philosoply of Biology الناشـــر : " ايـــالا F.J.Ayala ودوبهانسكى T.Dobzhanzky ، لندن ، ماكميلان 1974 , 283 – S.259 . أدين بشكر عظيم لكل من دافيـــد ميللـــر David Miller وجـيرمى شـيرمور Jeremy Shearmer لملاحظاتهما النقدية على الصياغـــة الأولـــى لـــهذه المحاضرة التى ألقيت عام ١٩٧٢ فى مؤتمر لعلماء البيولوجيـــا و الفلاســـفة نظمه F.Ayala والبروفيسور دوبهانسكى .

١ – قارن كتابى Die offene Gesellschaft und ihre Feinde الجـزء الثانى 1959 الطبعة السابعة S.15-29 J.C.B. Mohr. Tubingen .

٢ – لقد أغفلت فى سياق المحاضرة ـــ وقد يكون ذلك عن اهمال وقد يكـون أيضاً لكراهية استخدام السفسطة اللغوية ـــ التمييز الممكن بين التفسير بصفة عامة وبين الرد بمعنى تفسير نظرية أساسية موجودة بـــالفعل . لاشـــك أن التمييز بين تفسير شئ معروف من خلال نظرية جديدة لم تكن معروفة مـــن قبل من ناحية وبين الرد الى نظرية قديمة من ناحية أخرى على جانب مـــن الأهمية . وفى هذا المقام فقد أشرت إلى هذا التمييز فـــى الـــهوامش وفـــى التذييل الذى وضعته فى نهاية هذه المحاضرة أملاً القضاء علـــى اى ســـوء فهم .

٣ – قارن كتابى **Objektive Erkenntnis** (1973) Hoffnam und Campe. Hamburg ,8- Auflage , 1992 Kap . 5 .

٤ – Meyerson, E (1908), **Identité et Realité**. F.Alcan, Paris Ubers:

Meyerson, E (1930), Identity and Reality. Allen and Unwin, London .

٥ – قــارن كتـــــابى : **Vermutungen und Widerlegungen** ,1994,J.C.B. Mohr, Tübingen .

٦ – Wiener,N.(1914) A Simplification of the logic of relations.**Proceedings of the Cambridge Phlosophical Society,** 17, 387 – 390 وأنظر أيضا

Kuratowski, (1920) Sur la notion de l'ordre dans la theorie des ensembles .**Fundamenta mathematica,** 2, 154-166.

٧ – قارن كتابى Die Offene Gesellschaft und ihre Feinde, Bd.1 Kap.6, Anm,9 وأيضــا**Vermutungen und Widerlegungen,** Kap.2

٨ – قارن كتابى : **Vermutungen und Widerlegungen,**Kap3

٩ – **Vermutungen und Widerlegungen,** Kap3. Anm.21

١٠ – **Vermutungen und Widerlegungen,** Kap3.

١١ – **Äther und Relativitätstheorie**(1920)Springer, Berlin,S.14وترجمته الإنجليزية

Sidelights on Relativity (1922) Methuen, London وأنظر

:Popper,K.(1967)Quantum mechanics without the observer. In : **Quantum Theory and Reality,** Bd. II(Hrsg. von Mario Bunge), Springer, Berlin, Heidelberg, New York 7 – 44 .

١٢ – Millikan, R.A.(1932) **Time, Matter and Values,** University of North Carolina Press, Chapel Hill . 46.

١٣ – Chadwick, J.(1932) , Possible existence of neutron. Nature,129,132.

١٤ – Anderson, C.D.(1933) Cosmic ray bursts .Physical Review,43, 368-69, ders. (1933), the positive electron, physical Review,43,491,94.

١٥ – Eddington, A.(1936), **Relativity theory of Protons and Electrons.** Cambridge University press.

١٦ – Heither ,W. und London,F. (1927), Weckselwirkung neutraler Atome und hamöopolare Bindung nach der Quantenmechanik .**Zeitschrift für Physik**, 44,455 – 72.

١٧ – مساهمة فى مناقشة حول أصل الحياة علـى الأرض Pauling,L. (1959)(proceedings of the First International Symposium on the Origin of life on the Earth, Moskau 19 – 24. August 1957,ed. A.I.Oparin and others). Ed. F. Clark and R.L.M. Synge. Pergamon. Press, London , 119 .

١٨ – هذه النظريات كان من الممكن أن تكون خطـــيرة بعــد النظريـــة الجديـــدة للإزاحة الحمراء والتـــى اقترحـــها P.Vigier, A.P.Roberts, J.C.Peckler Non-Velocity redshifts and photon-photon interactians ,**Nature** 19227-229.

١٩ – لقد استخدمت هنا مصطلح (الإنســـجام الأزلـــى) لكـــى أوضح أن تفسيرنا لايمس الخصائص الفيزيقية الواضحة لذرة الهيدروجين • لقد تم فقط افتراض خاصية غير معروفة حتـــى الآن وتـــم جعلـــها أســـاس التفسير •

٢٠ – استخدم هنا التعبير " انبعاثى Emergent " لكى تدل علـــى مرحلـــة تطور لايمكن التنبؤ بها •

٢١ – أنظر : Monod.J.. **Zufall und Notwendigkeit.** 1970Piper ,München, 1971, , S. XII

٢٢ – نفس الموضع . S.143

٢٣ – لقد تم الإشارة إليها وأبرازها فى النقطة رقم (٢) من التذييـــل فـــى

نهاية هذه المحاضرة .

٢٤ - قارن كتابي : Objektive Erkenntnis, Kap.7

٢٥ - قارن كتابي : Objektive Erkenntnis, Kap.8

٢٦ - قارن كتابي : Vermutungen und Widerlegungen, Kap.3

٢٧ - أنظر : Sperry. R.W.(1964). The great cerebral Commissure Scientific American, 210,42-52, und Eccles, J.C.(1970),Facing Reality. Springer , Berlin, Heidelberg, New York,73-79.

٢٨- أنظـــــــر Eccles, L.C.(1972) Unconscious actions emanating from the humon cerebral cortex لم ينشر من قبل

٢٩ - أنظر كتابي : Vermutungen und Widerlegungen, Kap.3

٣٠ - أنظر : Rass, A.(1972) The rise and Fall of the doctrine of performatives , In:Contemporary Philosophy in Scandinavia(ed.R.E.Olson und A.M.Paul) John Hopkins Press, Baltimore, 197-212.

٣١ - قارن كتابي Objektive Erkenntnis, Kap. 8

٣٢ - قارن كتابي Objektive Erkenntnis, Kap. 7

المقالة الثالثة
ملاحظات فيلسوف واقعى
بشأن مشكلة الجسد والنفس

Bemerkungen eines Realisten über das Leib-Seele- Problem

محاضرة ألقاها كارل بوبر فى مدينة مانهايم ٨ – مايو - ١٩٧٢

إن لم تخنى الذاكرة فإن هذه هى المحاضرة الثالثة التى ألقيها هنا فى ألمانيا . هى الأولى بالطبع فى مدينة " مانهايم " وحيث أن هذا يعنى أننى لا أحضر إلى هنا كثيرا فإنه كان يجب على أن أختار موضوعى بعناية .

I

لقد فكرت فى بداية الأمر أن أتحدث عن أول كتبى أى أن أتحدث عن الحل الذى قدمته للمشكلتين الأساسيتين لنظرية المعرفة ، وهما أولا مشكلة الحد الفاصل بين المعرفة التجريبية والميادين الأخرى الهامة وذات الدلالة كالميتافيزيقا على سبيل المثال وثانيا مشكلة الإستقراء . إلا أن الحل الذى قدمته لهاتين المشكلتين معروف وقد تناوله كتابى منطق الكشف . ورغم أن لدى الآن حلولا جديدة لم تنشر حتى الآن إلا أننى خشيت من الحديث فيها مرة أخرى أن يخرج البعض بالإنطباع أنى قد وقفت عند هذه الموضوعات القديمة ولم أتجاوزها .

ومن ثم فقد فكرت أن أتناول موضوعا فى الفلسفة الإجتماعية لأتحدث فيه . إلا أن هناك ثلاثة مجلدات ترجمت لى فى هذا الميدان .

ثم أن هذا ميدان ــ تحدث فيه صديقى " البروفسور هانز ألبرت " فى كتابه "مباحث فى العقل النقدى Traktat über die kritische Vernunft " حديثا رائعا .

إن لدى مبررات لإختيارى لموضوع التأثير المتبادل بين الجسد والنفس للحديث فيه . تنطوى هذه المشكلة على لغز كبير ربما لم يتمكن أحد من تقديم حل له . فهذه المشكلة هى أكثر مشكلات الفلسفة صعوبة وعمقا وتشكل المشكلة الرئيسية للميتافيزيقا فى العصر الحديث . كما أنها أكثر المشكلات ذات الدلالة بالنسبة لنا كبشر . وهذا هو السبب الذى جعل الفلسفة الوجودية تطلق تسمية " الموقف الإنسانى " لأن الإنسان جوهر عقلى على الأقل للمدى

الذى هو وعى كامل ، فهو جوهر عقلى ، أنا ، نفس شديدة الإتصال بجسد يخضع لقوانين الفيزياء • هذه المسألة تكاد تكون بديهية ، ولقد تناول فلاسفة الوجودية المشكلة — التى تكمن خلف هذه البداهة — بل أريد أن أقول خلف هذه البداهة الشديدة دون أن يقدموا لنا تفسيرا معقولا لها •

إلا أن مشكلة العلاقة بين الجسد والنفس مشكلة خطيرة ، تتضمن مشكلة حرية الإنسان ، وهى مشكلة أساسية من كل الجوانب ، بل ومن الناحية السياسية أيضا ، كما تتضمن مشكلة وضع الإنسان فى العالم الفيزيقى ، أو الكون الفيزيقى والذى سأسميه مستقبلا العالم ١ ، أما عالم حوادث الوعى الإنسانى فسأطلق عليه العالم ٢ ، أما عالم النواتج الموضوعية للعقل البشرى فسأطلق عليه عالم ٣ وهو ما سأتحدث عنها جميعا بالتفصيل مستقبلا •

هنا فإنى أود أن أذكر سببا آخر لإختيارى هذا الموضوع ولتقديم نفسى — كما يظهر فى العنوان — كفيلسوف واقعى • لقد درج الكثير من الفلاسفة وعلماء الإجتماع فى ألمانيا — هؤلاء الذين سمعوا فقط عن أعمالى — على اعتبارى فيلسوف وضعى من حيث أنى قد نشرت أول كتبى — ذلك الذى انتقدت فيه الوضعية نقدا حاداً — ضمن سلسلة كتابات حلقة فيينا — الفيلسوف الوضعى فى هذا الإطار يعد عدوا للتأملات الفلسفية وبصفة خاصة عدوا للواقعية • من هنا فإن أحد اسباب اختيارى هذا الموضوع هو أنى أردت أن أتناول موضوعا يظهر من العنوان انه ليس من موضوعات الوضعية •

ملاحظة أخرى أضيفها بشأن كلمة " الميتافيزيقا " لقد استخدم هيجل وماركس وانجلز ولينين هذه الكلمة لوسم فلسفة بعينها ، فلسفة تتسم بأنها " عدوة للتطور " تنظر للعالم كعالم هو بالأحرى عالم ثابت وليس عالما ديناميكيا • لقد كان هذا الإستخدام Sprachgebrauch دائما مثارا للتساؤل أو النزاع من حيث أن مشكلة التغير والتطور المستمر للعالم كانت واحدة من أقدم مشكلات ميتافيزيقا ماقبل سقراط • وعلى كل حال فأنا لا أعتقد فى عالم

ثابت ولكن فى عالم يتغير ، ووفقا لمعرفتى فإنه لم تعد هناك منذ مدة طويلـه ميتافيزيقا تؤمن بالثبات. من هنا فإنى أتحدث عن نفسى كفيلســوف واقعــى يفترض نظرية للتطور وقدم بالفعل ــ إذا كان يمكنتنــى أن أقــول هــذا ــ المشكلة الديناميكية لنمو معرفتنا فى نظرية العلم •

أود ــ كنقطة أخيرة لهذه المقدمة ــ أن أذكر أيضا أنى ســأركز علــى الحديث ببساطة وبطريقة يفهمها الجميع • إلا أن هذا للأســف لايعنــى أن حديثى من الممكن فهمه ببساطه • تكمن الصعوبة القصوى فى التمييز بيــن العوالم ١ ، ٢ ثم ٣ بصفة خاصة • من هنا فأنى سأبدأ بهذه الصعوبــة ، إذ أن ذلك سيجعل سائر ماعداها سهلا نسبيا •

أسمى عالم الحوادث الفيزيقية " العالم ١ " ، وعالم الحــوادث النفســية "العالم ٢ " هذا سهل نسبيا ، إلا أن الصعوبة تبدأ بما اسميه " العالم ٣ " •

أسمى العالم الذى ينتجه العقل البشرى بمعنى واسع " العالم ٣ " ، وبمعنى ضيق فهو عالم النظريات بما فيها النظريات الخاطئة وعالم المشكلات العلمية بما فيها المسائل التى تدور حول صدق أو خطأ النظريات المختلفة • تنتمــى الأشعار والأعمال الفنية كأعمال موتسارت على سبيل المثال إلى " العالم ٣ " بمعناه الواسع • ولكن يمكن لمن يريد أن يطلق غلى عالم الأعمال الفنيــة " العالم ٤ " ، وعلى كل فهذا اختلاف فى المصطلح تكمن الأهمية فى التميــيز بوضوح بين النظريات العلمية التى تنتمى للعالم ٣ والعالم السيكولوجى ٢ • لقد قدم كل من بولزانو ثم جوتلوب فريجه أوضح تمييز ممكــن • إلا أننــى أريد هنا أن اضيف إلى ما قالاه •

لقد تحدث " بولزانو " [1] عن عالم " القضايا فى ذاتها " Satze an sich ليعنى بها القضايا بالمعنى المنطقى فى تمييزها عن الحوادث السيكولوجية • أما " فريجة " فقد تحدث عن محتوى القضية ليعنى بها أيضا القضية بالمعنى

---

(١) لقد ميز بولزانو بين (الحقائق فى ذاتها) والتى كان يؤمن بوجودها وجــودا ســابقا ومستقلا عن وجود اللغة والإنسان ، (والقضايا فى ذاتها) ثم القضايا المعبر عنها باللغة •

المنطقى ٠

ولنتناول مثالا بسيطا ، لنتصور أن عالمين رياضيين وصلا إلى نتيجة خاطئة وهى أن ٣ × ٤ = ١٣ ٠ هنا فإن لدينا حادثتين متمايزتين جدا من حوادث التفكير فى العالم ٢ . إن ٣×٤ = ١٣ قضية فى ذاتها (خاطئة) ، ذات محتوى خاطئ من الناحية المنطقية ٠ لاتنتمى هذه القضية فى ذاتها للعالم ٢ ولكن للعالم ٣ ، يمكن أن نقول عنها أنها نقيض القضية ٣×٤ = ١٢ من الناحية المنطقية. ويمكن أيضا أن نقول أن هذه القضية ٣×٤=١٣ تنتمى للعالم ٣ لأنها خاطئة من الناحية الموضوعية وتظل خاطئة حتى ولو اعتقد فيها كثير من الرياضيين ٠

يمكننا إذن أن نميز بين العالم ٢ ـــ الذى نجد فيه حوادث الفكر الذاتية ـــ والعالم ٣ الذى نجد فيه القضايا الموضوعية أو محتويات الفكر الموضوعية ٠

لقد كانت هذه هى رؤية " بولزانو " و " فريجة " فى جوهرها ٠

ما أضيفه إليهما أننى لا أعتبر القضايا فى ذاتها الصادقة فقط موضوعات العالم ٣ ولكنى أضيف إليها القضايا فى ذاتها الخاطئة أيضا وكذلك المشكلات والأحاجيج Argumentationen ٠

هنا أود أن أقول شيئين عن العالم ٣ ٠ الأول أن لهذا العالم صفة "الفعلية" والثانى : أنه " مستقل " على الأقل بصورة جزئية ، مما يعنى أن له تركيبات داخلية تستقل ولو جزئيا على الأقل عن العالم ٢ ٠

ولنتحدث الآن عن صفة الفعلية ٠ الأشياء الفيزيقية للعالم ١ كالحجارة والأبنية والحيوانات هى أمثلة على صفة " الفعلية ". أقترح ـــ بالإضافة لذلك ـــ أن أطلق أيضا هذه الصفة على كل ما يؤثر فى أشياء العالم ١ سواء أكان تأثيرا مباشرا أو غير مباشر ٠

أزعم الآن أن النظريات العلمية التى تنتمى للعالم ٣ يمكنها أن تؤثر

ـ بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ على أشياء العالم ١ ٠

يمكن أن نجد أوضح مثال على ذلك فى بنـــاء ناطحـات السـحاب ٠ فناطحة السحاب شئ فيزيقى ينتمى للعالم ١ ولكنها قد بنيت وفق خطة معينـة . وهذه الخطة تأثرت بنظريات وبمشكلات معينة ٠.

أسلم بأن الخطط والنظريات والمشكلات التى تلعب دورا فى بناء ناطحـة سحاب تؤثر أولا فى وعى مجموعة مختلفة من البشر كالمهندسين المعماريين مثلا ، أى تؤثر فى العالم ٢ ، ومن ثم فى عالم الحركات الفيزيقيـــة لعمـال البناء ومن ثم فى الحجارة والحفارة والطوب المستخدم فى البناء ٠ فهذه هـى الحالة التى تتكرر كثيرا ٠ ويؤثر العالم ٣ عادة بصورة غير مباشـــرة فــى العالم ١ من خلال العالم النفسى ٢ ٠ وربما لايكون فقط غالبا ولكـن دائمـا يؤثر العالم ٣ فى العالم ١ بصورة مباشرة ولكن فقط من خلال العـــالم ٢ ٠ وعلى كل حال فإن مثالنا هذا يظهر صفة الفعلية ، أو واقعية كـــل العوالــم الثلاثة أى ليس فقط واقعية العالم ١ ولكن أيضا واقعية العالمين ٢ و ٣ ٠

وإذا إنهارت إحدى ناطحات السحاب أو أحد الكبارى كما يحدث للأسف من وقت لآخر ، فإن هذا يعود إلى خطأ تفكير للعالم ٢ ، أى يعود إلى اعتقاد ذاتى خاطئ وأحيانا إلى نظرية موضوعية خاطئة ، المهم أنه يعود إلى خطـأ فى العالم ٣ ٠

هناك بالطبع فلاسفة ينكرون فعلية العالم ٣ ، يقولون نعـــم لأفكارنــا وجود ومن ثم للعالم ٢ وجود ولكن لاوجود للمحتوى فى ذاته فـــهم يــرون المحتوى تجريدات للحوادث الفنسية ، أى أوهام ٠

أما الرأى الذى اتبناه فهو أن العالم ٣ هو بالفعل نتاج جينى للعـــالم٢ إلا أن له تركيبا داخليا يستقل استقلالا جزئيا ٠

أفضل الأمثلة على ذلك يمكن أن نجدها فى الرياضيـــات ٠ فسلسـلة الأعداد الطبيعية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٠٠٠٠٠ الخ هى فيما أعتقد نتاج للغتنـــا ٠

فهناك لغات بدائية لاتعرف سوى ١ ، ٢ وكثير ولغات لاتستطيع أن تتجاوز العدد ٥ .

إن السلسلة اللانهائية للأعداد الطبيعية ــ مثلها فــي ذلــك مثــل اللغــه البشريةــ إختراع هائل للبشرية . إلا أن الأعداد الأولى لم يخترعها أحــد . لقد اكتشفت فى سلسلة الأعداد .

يجب على أن أفصل القول فى هذه النقطة الهامة .

لقد قال عالم الرياضيات الألمانى الكبير كرونكر Kronecker (١) عــن الرياضيات : " لقد خلق الله الأعداد الطبيعية ، أما سائر ماعداها فمن عمــل الإنسان " . أما أنا فأقول فى مقابل هذا : أن الأعداد الطبيعيــة مــن خلــق البشر، فهى نتاج ثانوى للغة البشرية ولاختراع العد Zahlen والإستمرار فى عملية العد Weiterzahlen ، كما أن عمليتى الجمــع والضــرب اخــتراع بشرى.

أمــا قوانيــن العــــد والضـــرب (مثــــل قوانيـــن الارتبـــاط Assaziationsgesetze) فليست اختراعا بشريا ، فهى نتائج غير مقصودة وغير مرادة للإختراع البشرى ، فهى اكتشاف ، مثلها مثل وجــود الأعــداد الأولية ، أى الأعداد التى لاتنقسم (الأعداد التى ليست نتاج عملية ضـــرب بخلاف ما يمكن ضربها فى ١) . وهى ليست فقط اكتشافا ولكنها اكتشــاف متقدم ــ لقد تم اكتشاف الأعداد الأولية فى سلسلة الأعداد الطبيعيـــة . لــم يكتشفها شخص بعينه وإنما اكتشفها الذين كانوا يدرسون الأعداد والعجــائب التى تحيط بها ، أى الرياضيون الحقيقيون .

يمكن القول ــ من الوجهة التاريخية ــ أنــها وجــدت مــع الأعــداد الطبيعية، إلا أنها لم توجد فى عالم الوعى البشرى ٢ قبل أن يتــم إكتشــافها وذلك بعد مئات السنوات . يمكننا القول أنها توجد فى العالم ٣ مع الأعــداد

---

(١) ليوبولد كرونكر L.Kronecker (١٨٢٣ ــ ١٨٩١) عالم ريــاضى ألمــانى تكمــن اسهاماته بصورة رئيسية فى نظرية المعادلات الجبرية .

الطبيعية ، فهى توجد إذن فى جزء مستقل من العالم ٣ ، قبل اكتشافها. وبعد اكتشافها أصبحت توجد فى العالم ٢ (ولكن لفئة قليلة من البشر ، للرياضيين) مثلما توجد فى العالم ٣ .

يمكننا بل يجب علينا القول أن وجود الأعداد الأولية فى العالم ٣ كان أحد العلل الأساسية Ursachen لحوادث التفكير فى العالم ٢ والتى أدت إلى اكتشافها مثلما كان وجود قمة افرست علة أدت بمصلحة المساحة الهندية الى اكتشافها . يبين ذلك أن الجزء المستقل للعالم ٣ يمكنه أن يؤثر بصورة علية فى العالم ٢ إلا أنه يؤثر فى نفس الوقت فى العالم ١ . من المؤكد أن أول رياضى ــ أوضح تلاميذه أن هناك أعداد أولية ــ استخدم لسانه للتعبير عن هذا ، إلا أن ألسنتنا ــ مثلها فى ذلك مثل أجسادنا ــ تنتمى للعالم ١ .

ثم بدأ علماء الرياضة اللاحقون فى دراسة الأعداد الأولية وخصائصها ، وهذه الدراسة لم تنته حتى اليوم . هناك مشكلات كثيرة مفتوحة فى نظرية الأعداد . لقد اكتشفت هذه المشكلات ومن ثم فهى تنتمى للجزء المستقل من العالم ٣ .

لقد وجد الرياضيون القدماء ــ على سبيل المثال ــ أن الأعداد الأولية تحدث بصورة أقل أو توجد بصورة مكثفة متى تقدمنا فى سلسلة الأعداد الى الأعداد الكبيرة: تبدأ سلسلة الأعداد الأولية بالأعداد ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، والعدد ٣ هو زوج الأعداد الأولية الوحيد الذى يوجد بصورة مكثفة ، بحيث لاوجود فيه لأى عدد طبيعى ولكن هناك أزواج أخرى كثيرة لأعداد أولية مثل ٥، ٧/ ١١ و ١٣ / ١٧ و ١٩ / ٢٩ و ٣١ / توجد بصورة مكثفة بحيث لايفصل بينهما سوى عدد واحد صحيح . هذه الأزواج يمكن أن نسميها الأعداد الأولية الزوجية .

أريد الآن أن أذكر بعض المشكلات التى تم اكتشافها فى العالم ٣ عن الأعداد الأولية .

المشكلة الأولى : إذا تقدمنا أكثر وأكثر في سلسلة الأعداد وقلت الأعـداد الأولية أكثر وأكثر فهل يتوقف حدوثها تماما إذا تقدمنا إلى عدد كبير جـدا ؟ أو ـ بعبارة أخرى ـ ألا يوجد عدد أولى كبير لا توجد بعده سوى أعـداد قابلة للإنقسام ؟•

وسواء أكان اقليدس هو من صاغ هذه المشكلة أم لا فلقد كان هـو مـن اكتشف حلها • فلقد اكتشف اقليدس حجة تبرهن على أنه لايوجد عدد أولـى كبير • ومن ثم فقد بين أنه لانهاية لسلسلة الأعداد الطبيعية • فالبرهان علـى سلسلة الأعداد الطبيعية برهان بسيط للغاية : لنفترض أن لها نهاية وأن العدد (أ) هو أكبر عدد طبيعى • عندئذ يمكن أن نركب ببساطة العدد (أ + ١) ونظهر أن افتراضنا كان خاطئا • هذا يعنى أن لدينا هنا برهانا فى الخلـف نقبل بموجبه أن هناك أكبر عدد طبيعى • لقد اكتشف اقليدس برهانا جوهريا معقدا للخلف نقبل وفقا له القول أن هناك أكبر عدد أولى • هـذا البرهـان الرائع لاقليدس أقام نظرية منطوقها أن سلسـلة الأعـداد الأوليـة سلسـلة لانهائية• تنتمى نظريته للعالم ٣ ، أما عمله الفكرى فينتمى للعالم ٢ ويعتمـد بصورة عليه على الواقعية التى تنتمى للعالم ٣ والقائلة بأنه لاوجـود لعـدد أولى نهائى •

لقد صاغ اقليدس برهانه فى كتابه المشهور " العناصر " هذا يعنـى أن نظريته التى تنتمى للعالم ٣ قد كتبت على ورق ومن ثم فقد غيرت بصـورة علية العالم ١ عن طريق العالم ٢ لاقليدس • يوجد برهان اقليدس الرائع هذا فى كل كتاب منشور عن نظرية الأعداد إلا أن الكتاب تـم طبعـه ونشـره بواسطة الآلات. تنتمى الآلات والكتاب بطبيعة الحال ـ مـن حيـث أنـها موضوعات فيزيقية ـ للعالم ١ • هذا يعنى أن لدينا مرة أخرى تأثير علـى جاء من الجزء المستقل للعالم ٣ وأثر فى العالم ١ بصورة علية عن طريـق العالم ٢ •

مشكلة أخرى مشابهة للأولى ــ لم تحل فى حدود علمى ــ هى مشكلة ما إذا كان هناك زوج نهائى من الأعداد الأولية التى هى أعداد أولية زوجية. لم يشك أى عالم رياضى ــ فى حدود علمى ــ أنه لاوجود للأعداد الأولية الزوجية ولكن ــ للمدى الذى اعرفه ــ لاوجود لبرهان على هذا الافتراض. فهذه مشكلة لم تحل تنتمى للعالم ٣ وهى مشكلة تؤثر بطريقة علية فى الرياضيين الذين حاولوا حلها .

لقد قلت لتوى أن الكتب تنتمى للعالم ١ ، إلا أن محتواها ينتمى بالطبع للعالم ٣ ، بمعنى انه إذا صدرت طبعتان مختلفتان لكتاب اقليدس " العناصر" فإنهما معا ينتميان للعالم ١ للمدى الذى هما طبعتان مختلفتان ، إلا أنهما ينتميان للعالم ٣ للمدى الذى لهما نفس المحتوى .

تنتمى الكتب والمكتبات ومسودة هذه المحاضر إذن للعالمين ١ ، ٣ فإذا افترضنا شخصا لايعرف الألمانية يستمع لهذه المحاضرة (ربما يجب أن أقول : الألمانية التى يتحدثها أهل فيينا) فإن هذا يعنى أنه اكتسب فقط الجانب المنطوق أو السمعى من المحاضرة والذى ينتمى للعالم ١ . أما من يفهم الألمانية ويحاول تتبع حججى ، فإن الجانب المسموع الذى ينتمى للعالم ٣ هو فقط الجانب الهام بالنسبة له .

أما محاولة تتبع محتوى محاضرتى فينتمى للعالم ٢ ، ومتى فعلتم ذلك فإن هذا يعنى أنكم تركزون فى الموضوع الذى ينتمى للعالم ٣ . لقد أثر إذن عالمكم ٣ فى العالم ٢ .

هناك موضوعات تنتمى لكلا العالمين ٢ ، ٣ وموضوعات للعالمين ١ ، ٣ . إن فكرتى الأساسية هى أن هناك أيضا موضوعات تنتمى فقط للعالم٣، كبرهان لم يتم اكتشافه بعد يحاول فيه أحد علماء الرياضيات وسيتم اكتشافه غدا . سينتمى هذا البرهان غدا للعالمين ٢ ، ٣ وعندما تتم كتابته فسينتمى للعالم ١ (إلا أنه اليوم قد أثر بالفعل فى العالم ٢) .

نحن لانعرف ، إلا أننا يمكن أن نخمن ، أن البرهان ينتمى بالفعل للعالم ١ حتى قبل كتابته ، إذ أن هناك احتمال أن حوادث التفكير الخاصة بالعالم ٢ ترتبط بالحوادث الحادثة فى المخ أى ترتبط بحوادث جسدية تنتمى للعالم١ .

II

بذلك أصل إلى مشكلة الجسد والنفس .

إن مشكلة الجسد والنفس هى السؤال عما إذا كانت حوادث التفكير الخاصة بالعالم ٢ ترتبط بحوادث المخ فى العالم ١ أم لا ، وإذا كان ذلك كذلك فكيف ؟

يمكن صياغة محاولات الحل الأساسية لهذه المشكلة على النحو التالى :

١ – **التفاعل السيكوفيزيقى المتبادل** : يتأثر العالم ٢ والعالم ١ بالتبادل، يؤثر كل منهما فى الآخر ، بمعنى أن تنشأ حوادث فى المخ عند سماع محاضرة ما أو قراءة كتاب معين ، تؤثر فى العالم ٢ لأفكار القارئ أو السامع ، والعكس عندما يتتبع عالم رياضى برهانا ما ، عندئذ يؤثر عالمه فى مخه ومن ثم فى العالم ١ .

هذه هى إذن الفكرة الأساسية للتأثيرات السيكوفيزيقية المتبادلة .

٢ – **التواز السيكوفيزيقى** : تحدث كل حادثة فكرية فى العالم ٢ مع حادثة للمخ فى العالم ١ بالتواز .

٣ – **الإتجاه الفيزيقى الخالص أو الفلسفة السلوكية أو السلوكية الفلسفية** : وهى الفكرة القائلة أنه لاوجود سوى لعالم واحد ، العالم ١ ولاوجود فيه سوى لحركات البشر أو الحيوانات أو لسلوك الحيوانات والناس ، ومن ثم فما أسميه العالم ٢ لاوجود له وبالتالى لاوجود أساسا أيضا لما أسميه العالم ٣ .

٤ – **الإتجاه النفسى الخالص أو المذهب الروحى** :

وهو الإتجاه القائل أن العالم ٢ فقط مايوجد وأن العالم ١ ليس سوى

تصوراتى. ومن ثم فلدينا الآن بصورة جوهرية محاولات الحل الأربع هذه :
١ – التفاعل السيكوفيزيقى المتبادل ٢ – التواز السيكوفيزيقى ٣ –الاتجاه الفيزيقى الخالص أو الفلسفة السلوكية أو السلوكية الفلسفية ٤ – الإتجاه النفسى الخالص •

أعتقد أن أولى وأقدم محاولات الحل هذه هى الوحيدة التى تستحق التناول •

ولنلقى الآن نظرة قصيرة على محاولتى الحل الثالثة والرابعة • أعتقد أن كلتيهما تنتميان لمحاولات حل مشكلة ما عن طريق تجاهل المشكلة بدفن الرأس فى الرمال Durch eine Art von Vogel – StrauB philosophie •

هنا تختفى على الفور مشكلة العلاقة بين الجسد والنفس بسذاجة إذا انكرنا وجود إما النفس أو الجسد •

يمكننى أن أبين بالتفصيل أن التركيب المنطقى لكلا هاتين المحاولتين لحل المشكلة هى فلسفة تدفن رأسها فى الرمال ورغم أن هناك حاليا دعاة كثيرين للإتجاه الفيزيقى أو السلوكى وبصفة خاصة بين الفلاسفة الإنجليز والأمريكان والأستراليين ، فإننى لا يمكننى أن أتناولها بصورة كافية لكى أعطى الوقت لنقد تفصيلى •

تتضمن أولا مناقشتى لوجود العالم ٣ الحجة التى تضمن وجود العالم ٢ كوسيط بين العالمين ٣ ، ١ •

ولنتحدث بصورة مماثلة عن الإتجاه النفسى الخالص • فنحن نعرف الآن أنه لاوجود لجوهر مادى من حيث أن المادة تركيب عال التعقيد أمكن تفسير جانب منه (فالجوهر فى الفلسفة هو حامل غير مجلل لخصائص جوهرية التى تشكل أسس التفسير والتى لاتتطلب تفسيرا ولاهى كفؤ للتفسير) فرغم أن المادة ليست جوهرا فالأشياء المادية هى أفضل الأمثلة لما ينظر

إليه على أنه واقعى أو موجود .

الأمر يختلف بالنسبة لمحاولة الحل الثانيـــة ، والتـــى تـــأخذ بـــالتوازي السيكوفيزيقى .

يعترف التوازي السيكوفيزيقى بوجود كل من الجسد والنفس ويمكنه أيضـــا أن يقبل وجود العالم ٣ . فمن وجهة نظر مشكلة الجسد والنفس ، فإن الدافع الأساسى للتوازي السيكوفيزيقى هو أنه يسمح برؤية العالم من حيث أنه عـــالم مغلق بصورة علية أو بمعنى أدق عالم يتأسس من نسقين متوازيين مغلقيـــن بصورة علية .

هذه الرؤية هامة جدا لكل عالم فيزيقى ، لأن الفكرة التى تذهب إلـــى أن الحوادث الفيزيقية يمكن أن تعتمد على الحوادث العقلية فكرة غـــير مقبولـــة للفيزيقى على الإطلاق ، كما أنه من الصعب تكوين نمط لمثل هـــذا التـــأثير العلى ، بمعنى أن نتصور التأثير فى تفصيلاته .

هذا هو السبب الحقيقى الذى أدى إلى رفـــض التـــأثير الســـيكوفيزيقى المتبادل . أصل الآن إلى الأسباب المضادة . أســـلم تمامـــا أنـــه لاوجـــود لحوادث نفسية دون حوادث فى المخ ، ولكن أن نتحدث عن تواز فإنه كـــان يجب أن نقول أن هناك جزءا من المخ لاتحدث فيه حوادث فيزيقية ولايسبب حوادث نفسية متوازية .

كما كان يجب أن نقول أن هناك تتابعا بين سائر الحوادث المميزة لـــهذا الجزء من المخ وسائر الحوادث المميزة للعالم ٢ .

يبدو أنه لاوجود لمثل هذا التتابع ذى الدلالة. نقطة من الممكن أن نزيـــل أجزاء من المخ وتتولى جوانب أخرى عندئذ وظيفة الجزء الذى تم إزالته .

يبدو أن إمكانية تولى وظيفة ما هى إحدى الخصائص المميزة لمعظـــم الكائنات الحية (ومعظم مظاهر الحياة) . ورغم أنى على إستعداد للتســـليم بأنه لاوجود لحوادث تفكير فى العالم ٢ دون أى حوادث فى المخ فى العـــالم

١ ، فإنه لهذا يبدو لى أنه لاوجود لمعية فعلية فالأمر يشبه ما نقوله فى كتاب أو محاضرة بشأن العلاقة بين محتوى الفكرة فى العالم ٣ ومادة هذا المحتوى فى العالم ١ ٠ فالمحاضرة بمعنى العالم ٣ تبقى هى هى سواء كنــت أقــرأ بسرعة أو ببطء ، بصوت عال أو منخفض ، كما أنه من الممكن ترجمتـــها بدقة إلى لغة أخرى ، كما يمكن طبع الكتاب فى طبعات مختلفة عن بعضـــها وسيظل بالطبع لسائر هذه الطبعات والترجمات المختلفة شئ واحد مشــترك ، دون أن يكون هناك أى تتابع دون دلالة ٠ ومن ثم بدون تـــواز فعلـــى أو معية فعلية ٠

أصل الآن إلى حجتى الأكثر أهمية ٠ تأملوا من فضلكم بيئتنا الفيزيقيــة ، العالم ١ وإلى أى مدى تغيرت من خلال نظريات العالم ٣ كالنظرية الذريـــة أو نظرية الموجات الصوتية ، أى نظرية الإرسال الإذاعى Funksendung والهامة فى التحكم فى الصواريخ التى ترسل إلى القمـــرMondraketen ٠ إذا تأملنا العالم ١ وبصفة خاصة التغيرات التى تحدث فى العالم ١ ، عندئـــذ يبدو لى بصورة واضحة أن العالم ١ ، العالم الفيزيقى ليس مغلقـــا بصـــورة علية فى مواجهة العالمين ٢ ، ٣ ٠

ولكن محاولة انقاذ الإنغلاق العلى للعالم ١ منظورا إليها مـــن الناحيـــة المنطقية ــ هى الدافع الأساسى لإحلال أولى وأقدم محاولات الحـــل وهـــى التفاعل السيكوفيزيقى المتبادل عن طريق الإتجاه الذى ينادى بالتواز ٠

تبدو لى هذه المحاولة غير واقعية ٠ ورغم أنى أرى ــ لكونـــى طالبـــا سابقا للفيزياء ثم معلما لها ــ لماذ من الصعب قبول عدم الإنغـــلاق العلـــى للفيزياء ، فإنه مع هذا يبدو لى أن هذه الأيديولوجيا يمكن دحضها من خـــلال الوقائع ٠

تعود أيديولوجيا الإنغلاق العلى للعالم الفيزيقى الى زمن كـــانت فيـــه الفيزياء بأكملها ميكانيكا ، وهى الأيديولوجيا التى دحضتها بالفعل ضـــرور،

افتراض نظرية كهرومغناطيسية ٠

نحن لانعرف شيئا عن العلاقة بين القــوى الكهرومغناطيســية وقــوى الجاذبية أو عن العلاقة بين هذين الميدانين معا والقوى النووية ٠ لاوجــــود لدينا لأنماط لهذه العلاقات. ولكن الوقائع لاتترك مجالا للشك أن هناك تفاعلا متبادلا قائما بين هذه الميادين المختلفة ، وأن ضغط الجاذبية في الشمس على سبيل المثال تحل فعل القوى النووية التــي تسـتخدم مــن جانبــها نــوى الهيدروجين في نوى الهليوم ٠ ومع هذا تبدو القوى المختلفة ـ الجاذبيـــة ، الديناميكا الكهربية والقوى النووية ـ أنها لايمكــن أن تــرد إلــى بعضــها البعض٠ فكل ميدان من هذه الميادين ميدان غير مغلق (مفتوح) رغــم أن أيديولوجيا الإنغلاق العلى أدت إلى محاولات عديدة لإيجاد نظرية موحدة ٠ وهو ما ظل اينشتين يحاوله منذ ١٩١٩ حتى ١٩٥٥ ٠

يبدو لى أن التمسك الاعتقادى الدجماطيقى بإنغلاق الفيزياء في ظل هــذه الظروف تمسك خاطئ ٠

يمكن تلخيص ماسبق في أن الواقعة القائلة بأن نظرياتنا والتى تنتمــــى للعالم ٣ تؤثر في العالم ١ عن طريق العالم ٢ تقف ضد مســألة الانغــلاق العلى للعالم ١ ومعها تسقط كل الأسس التى تقــف ضـد نظريــة التفــاعل السيكوفيزيقى المتبادل ٠

III

يمكن صياغة فكرتى التالية على النحو التالى : يلعب وجــود العــالم ٣ والواقعة القائلة بأننا يمكننا فهم موضوعات العالم ٣ مــن خــلال حــوادث التفكير، أى الحوادث التى تحدث في العالم ٢ دورا في تفسير الوعى الذاتى البشرى أو تفسير الأنا Ichhaftigkeit أو النفس البشرية في مقابل النفــس الحيوانية ٠

لقد ذكرت من قبل أن المادة ليست جوهرا ولكنها تنطوى على تركيب معقد يمكن لنا على الأقل بتفسير جزء منه كما أن النفس أو الأنا البشرية هى بالمثل ليست جوهرا ولكنها تركيب معقد . فهى فى المقام الأول ليست مجرد وعى خالص ولكنها تشتق من المعرفة المعبر عنها فى نظريات والموجودة فى العالم ٣ .

كذلك للحيوانات توقعات تتعلق بالخبرات التى مرت بها فى الماضى ، فأنتم تعرفون بالتأكيد قصة الفأر الذى قال لفأر آخر : " لقد روضت الرجل ذا المعطف الأبيض ترويضا جيدا . بحيث أننى فى كل مرة أضغط له فيها على يد هذه الماكينة فإنه يسرع بإحضار الطعام لى " .

تقترب هذه القصة ـ من وجهة نظرى ـ من نظرية رد الفعل الغكسى الإشتراطى والتى لا أعتقد فيها . نعم لكلب بافلوف رد فعل عكسى ولكنه ليس اشتراطيا ، فلقد قام كلب بافلوف بإكتشافات . وللأسف لن يمكننى أن أفضل القول فى هذا هنا . وعلى كل حال فالحيوانات لديها معرفة فطرية dispositionelles ووعى بالزمن ولكن يمكننا أن نخمن أنه ليس لديها نظرية واعية عن الزمن ، عن الماضى والحاضر والمستقبل . فالوعى بالأنا يتطلب بالضرورة أن أعرف أن لدى تاريخ حياة يكون قابلا ـ على الأقل ـ لتأويل ملامحه العامة .

فنحن نعرف أن هناك حالات مرضية يمكن أن ينسى فيها المرء هويته ، مما يعنى أن معرفتنا بهويتنا ليست مسألة بديهية . فأنا لا أشك أن الميل لتطوير وعى بالذات أو أنا هو ميل فطرى ، إلا أننا مع هذا فى حاجة فى المقام الأول إلى بيئة اجتماعية بها أفراد آخرون وتعلم لغة ونظريات مصاغة لغويا لكى نعرف أن لدينا أنا .

من الممكن أن يكون للحيوانات شخصية . هذا فى جانب منه فطرى وربما فى جانب آخر يتم اكتسابه . إلا أننى لا أعتقد أن الحيوان يعى

بهويته، بما فى ذلك نظرية هوية الجسد الواحد قبل النوم وبعد الاستيقاظ .
بمعنى النظرية القائلة أن لدينا جسدا واحدا والنظرية القائلة أن وعينا ينقطع أثناء النوم إلا أن جسدنا يظل هو هو وأنه يمكننا استدعاء أفكارنا التى كانت لدينا فى الماضى . هذا أكثر من مجرد تفكير بالمعنى الذى للحيوانات أيضا فكر .

أعتقد أنه لتحقق الوعى الذاتى أو الوعى الكامل بالأنا ـ فلا بد أن ينطوى تحقق هذا على وجود لغة يمكننا فيها أن نوسم أنفسنا والآخرين باسم معين . فليس من قبيل المصادفة أن الاطفال تتعلم أولا اسماءها قبل أن تتحدث عن نفسها بكلمة " أنا " .

هناك إذن تفاعل متبادل هام بين نظريات العالم ٣ والعالم ٢ لحوادث الوعى البشرية. فالوعى البشرى المميز يمكن أن ينضج فقط عن طريق هذا التفاعل المتبادل .

ترتبط هذه النظرية التى شرحتها بإختصار بشدة بنظريتى فى المعرفة ونظريتى فى العلم .

تنطوى الفكرة الأساسية لنظريتى فى المعرفة على أن المشكلات ومحاولات حلها عن طريق وضع فروض ونظريات أو تخمينات تسبق كل ملاحظة . فللنظريات أهمية منطقية وتاريخية على السواء فى إتمام خبراتنا، كما أن لها أهمية فى تاريخنا الشخصى مثلما أن لها أهمية فى تاريخ البشرية.

النزوعات والتوقعات هى مايقابل النظريات وذلك على مستوى مادون البشر ، بل ومن المحتمل جدا أن هناك سحرا فى عالم الحيوان، أما ما نتميز به نحن البشر فهو الشكل اللغوى المعروف بالقص. الجديد فى اللغة البشرية أنها يمكن أن تصف وتقدم الحجج . أما التعبير عن الحالة الداخلية والإشارات فهى موجودة لدى الحيوانات .

أتصور الأمر أن اكتشاف اللغة البشرية الخاصة يتعلق بإمكانية القص والإخبار بما مايحدث • وهذا مايؤدى إلى أن يكون الابلاغ عن التمنى مثلون• ثم تأتى مسألة قص القصص ، فقص القصص كثيرا ما يتناقض ومن هنا نشأت مشكلة الصدق ـ مشكلة صدق أو كذب حكاية ما أو بلاغ معين مثل الإبلاغ عن صيد • فمع مشكلة ما إذا كان بلاغ ما صادقا أو أنه "مقصوص وفق الرغبة" نشأت مشكلة الصدق الهامة المحددة ومعها نشأت إمكانية قص الأساطير أو قص القصص • هذه القصص أو الأساطير هى أيضا التفسيرات النظرية الأصلية فيعود بداية العلم مثلا لدى اليونان إلى هوميروس وهزيود كما كانت بداية الفن أى النقش ماقبل التاريخى لصور الحيوانات البرية التى تم صيدها على الحجر قصصا خيالية•

أما الفن المصرى والآشورى فكان فى أغلبه رسومات لقصص أو رسومات لقصص زمنية وهكذا وصلنا إلى تطور (نشأة) عالم ٣ •

يمكن تلخيص ماسبق فى أننى وصلت إلى نظرية العالم ٣ عن طريق التأكيد على الطابع النظرى لمعرفتنا البشرية بنظرية المعرفة وأننى أعتقد أن تميزنا البشرى يكمن فى العالم ٣ وأنه لايمكن تفسيره إلا فى علاقته بالعالم الموضوعى ٣ وفكرة البناء الأسطورى والصدق الموضوعى •

تلخيص :

فى محاضرتى :

١ – لم أحاول حل مشكلة العلاقة بين الجسد والنفس ، بمعنى أننى لا أعرف كيف يؤثر كل من المخ والوعى فى بعضهما بالتبادل •

٢ – ولكنى قدمت المشكلة بطريقة جديدة تختلف عن الطريقة المعتاد تقديمها بها •

٣ – أؤكد على وجود ثلاثة عوالم مستقلة بطريقة جزئية ولكنها تتأثر وتتفاعل بالتبادل ـ العالم الفيزيقى ١ وعالم حوادث الوعى٢ والعالم ٣ ،

عالم منتجات العقل البشرى ٠

٤ – لقد حاولت أن أبين فى مقابل الإتجاه الفيزيقى أو السلوكى أن العــالم ٢ موجود وأنه فقط مايمكن أن يفسر تأثير العالم ٣ فى العالم ١ ٠

٥ – لقد حاولت أن أبين أن العالم الفيزيقى ١ عالم مفتوح فى مقابل العــــالم النفسى ٢ وهى الفكرة التى لايقبلها الفيزيقيون ٠ ومع هذا فقد حاولت أن أبين أنها مع هذا تبدو صـادقة ٠

٦ – لقد حاولت بصفة خاصة أن أبين أن هناك علاقة تفاعل متبادلة أو ترابط بين العالمين ٢ ، ٣ أن الوعى الذاتى البشرى أو الوعى بالأنا لايمكن فهمــه بدون وجود العالم ٣ ، فالوعى بالأنا متأصل فى العالم ٣ ٠

٧ – من الناحية الجينية فإن العالم البشرى ٢ هو أيضا نتاج للعالم ٣ مثلما أن العالم ٣ نتاج للعالم ٢ ٠ أو بتعبير آخر : نحن نتــاج نتاجاتنــا ، أو نتــاج حضاراتنا التى نساهم فيها جميعا ٠

المقالة الرابعة
نظرية المعرفة ومشكلة السـلام

Die Erkenntnistheorie und das Problem des Friedens

محـاضرة ألقاها فى مدينة زيورخ أغسطس ١٩٨٥

I

هل تسمحون لي بالقول أنني سعيد جدا بهذا الجمع الغفير غير المتوقع من الشباب ؟ انني أنوى القيام معكم برحلة حافلة بالمغامرات ومن ثم يبدو أنني لابد أن أقدم نفسي لكم أولا .

انني اليوم ــ وقد بلغت من العمر الثالثة والثمانية ــ أسعد إنسان أعرفه. أرى الحياة رائعة بطريقة تربو على الوصف ، كما أنها أيضا بالتأكيد مفجعة. فلقد خبرت آلام فراق الكثير من الأقارب والأصدقاء ، فستة عشر شخصا من أقاربي كانوا ضحايا هتلر ، البعض منهم مات في أفران القتل الجماعي ، والآخرين إنتحروا . ورغم كل شئ ورغم أنني لم أيأس مطلقا وأحمل اليوم مشاغل كثيرة ، فإن الموت كان يقطع نياط قلبي وأنا اليوم سعيد.

لن أخط عن نفسي سطورا أكثر من هذا ، (فما يعتلج في داخلي من شعور قد سطرته الثمانية أسطر الأولى من " مقدمة من السماء " لرواية جوته فاوست ، فأنا أرى العالم كما عبر جوته قائلا:

تنشد الشمس نشيدها القديم

في سباق أخوى للغناء

لتنتهي رحلتها المسطورة

بسرعة الرعد

إشراقها يعطي الملائكة قوة

لايمكن لأحد أن يسبر غورها

فالأعمال العلوية لدرجة لايمكن تصورها

أعمال رائعة كما كانت منذ الأزل

أقول هذا كله لأنني أعتبر أيديولوجيا المفكرين الحالية السائدة عن شرور العالم حماقة ودينا خاطئا ، فالناس اليوم في حاجة ملحة إلى الإيهام وهذه

الحاجة الملحة التى يحتاجها البشر بشدة هى اليوم إحدى موضوعاتى الأساسية . فموضوعى اليوم كبير ولقد عملت بكل جهدى كى اعرضه بأبسط ما يمكن ، وأخاف ألا أكون قد نجحت ، لذا فإنى أطلب مساعدتكم.

ولكنى أرجوكم أيضا : ألا تأخذوا منى أى إقتراح أو تصدقون لى كلمة واحدة . نعم أعرف أننى أطلب الكثير وأننى لن أقول سوى الصدق بقدر ما أعرفه ولكنى أحذركم : أنا لا أعرف شيئا أو تقريبا لاشئ . نحن جميعا لانعرف شيئا أو تقريبا لانعرف شيئا ، هذه ، كما اعتقد ، الحقيقة الأساسية فى حياتنا . نحن لانعرف شيئا ولكن يمكننا فقط أن نخمن : نحن نخمن . إن أفضل معارفنا هى المعرفة التى تقدمها لنا العلوم الطبيعية والتى تكونت فى ألفين وخمسمائة عام . هذه المعرفة الطبيعية لا تنشأ سوى من تخمينات أو افتراضات .

هناك تمييز واضح فى اللغات اليونانية واللاتينية والإنجليزية والألمانية بين :

١ - المعرفة # التخمين

أنا أعرف # أنا أخمن

التمييز بسيط للغاية :

٢ - المعرفة تتضمن صدقا يقينيا

إذن المعرفة تتضمن اليقين .

ومن ثم لايمكن للمرء أن يقول بجدية بإستخدام هذه اللغات :

" أنا أعرف أن اليوم هو الجمعة إلا أننى لست متأكدا "

الإجابة كان يجب أن يقول

" مادمت لست متأكدا بصورة يقينية ، فإنك لاتعرف ولكنك فقط تخمن "

إن موضوعى الأول الذى سأتحدث فيه إذن هو .

٣ - ماتعرفه عن طريق المعرفة العلمية الطبيعية ليست معرفة لأنها تنشأ

فقط من تخمينات أو فروض ، أو جزئيا من فروض تعرضت لإختبارات شديدة • باختصار •

٤ – نحن لانعرف ولكننا نخمن • ورغم أن المعرفة العلمية الطبيعية ليست معرفة فإنها أفضل مالدينا ، وهى ما أطلق عليها معرفة تخمينية (لكى أواسى) الذين ينشدون المعرفة اليقينية ويعتقدون أنه لايمكن الاستغناء عنها •

هؤلاء هم الناس الذين فى حاجة إلى الإيهام والذين تنقصهم الشجاعة فى العيش بدون يقين أو ثقة أو مرشد • قد يكون من الممكن القول : هؤلاء هم الناس الذين يعيشون حبيسى مرحلة الطفولة •

الآخرون يريدون أصدقاء موثوقا فيهم ، أو أصدقاء ينظر الناس إليهم نظرة إحترام ،إذ يرون مثالا ، أو ربما لأنهم قد أنجزوا عملهم بطريقة تفوق العادة • فعندما يعتنون بمريض فإنهم يتحرقون شوقا نحو ــ من يكون من الناحية الطبية مصدر ثقة كاملة • إلا أنه لاوجود لمثل هذه الثقة الكاملة لأن المعرفة ــ المعرفة اليقينية ــ كلمة فارغة •

المعرفة بحث عن الصدق ، إلا أن هذا الصدق ليس صدقا تاما •

٥ – الصدق # الصدق المؤكد

الصدق # اليقين

الكل يعرف ما هو الصدق ، فهو إنطباق جملة ما على واقع فعلى تتحدث عنه الجملة •

٦ – الصدق = اتفاق مع واقع فعلى ، أو ربما الصدق = اتفاق الأمر المذكور مع الأمر الحادث فعلا وعل كل فالتعريفات ليست ضرورية •

٧ – غالبا ما يمكننا قول الصدق تماما والوصول إليه ، إلا أنه لايمكننا أبدا الوصول إلى اليقين ، لأننا نعرف ــ بمعنى المعرفة التخمينية ــ أن هناك بشرا تتخيل أنها اينشتين أو تتخيل إعادة ميلاد جوته •

فأنا تقريبا اقول الصدق عندما أقول أننى الآن ألقى محاضرة ولكن وفقا

لخبرتى مع هؤلاء الناس فإنه لايمكننى أن أكون متأكداً بشكل مطلق أننى لست ضحية خطأ رهيب •

حقا لاتعنى المعرفة الحقة سوى اليقين المطلق • ولكننا لانتجاوز التخمينات على الأقل فى المعرفة الطبيعية ــ بخلاف الأمور البسيطة ــ (وإن كان الأمر يختلف بالنسبة للرياضيات والمنطق الصورى وهو ما لن أتحدث عنه اليوم) •

المعرفة بحث عن الصدق وليس بحثا عن اليقين • ولكن كيف تعمل ؟•

يعمل العالم مثل غيره من الكائنات العضوية وفقا لمنهج المحاولة والخطأ• المحاولة حل المشكلة ، الخطأ أو بالأحرى تصحيح الخطأ يمثل فى تطور النباتات والحيوانات تعديلاً فى الكائن العضوى ، بينما هو فى العلم تعديل للفرض أو للنظرية •

العملية إذن عملية إختيار طبيعى بالمعنى الداروني •

سؤال : ما الذى يقابل فى المملكة الحيوانية مانسميه بالعلم ، أو التوقع أو الفرض ؟

الإجابة: التوقع • وبشكل أدق : حالة الكيان العضوى التى هيأ نفسه فيها لحدوث تغير فى بيئته أو لعدم حدوث أى تغير • فعندما تتفتح الورود فإنها تتوقع ، بهذا المعنى ، طقس الربيع • فهى تفترض وفقا للنظرية أن الجو يصبح أكثر دفئا إلا أنه غالبا ماتكذب النظرية وتموت الأوراق من البرد •

٩ – يوجد بهذا المعنى معرفة فطرية لا نهائية فى الحيوانات والنباتات وكذلك الطفل يتوقع بعد ميلاده مباشرة أن يحاط بالعناية والرعاية وأن يتم إرضاعه ، ثم يتوقع عقب ذلك مباشرة أن يداعب ويتم إضحاكه • لايتوقع الطفل هذه الأمور فحسب وإنما هو فى حاجة إليها • فالمطالب الغريزية الفطرية هى نظريات فطرية •

١٠ – كل الكائنات العضوية كائنات نشطة بدرجة عالية ، فهى تستكشف

بيئتها بنشاط وتنشد ظروفا حياتيه أفضل أى عالما أفضل ، كما تقوم بنفسها بتحسين ظروفها الحياتية •

١١ - الحياة تحسن البيئة من أجل الحياة وهو ما فعلته منذ ملايين السنين بحيث أصبحنا النتاج المحظوظ لهذا الفعل • ولكن نتيجة أن هذه العملية تحدث من خلال المحاولة واستبعاد الخطأ ، فإن هناك أيضا أخطاء كثيرة فى عالمنا •

١٢ - تنشأ المشكلات مع الحياة • والمشاكل توجد فقط متى كانت هناك قيم: مثل تقييم الظروف الحياتية على سبيل المثال •

أصل الآن أخيرا إلى ما أريد هنا أن أفصل فيه القول بشأن نظرية المعرفة ونظرية العلم •

١٣ - يبدأ العلم بمشكلات يحاول حلها من خلال نظريات جريئة مخترعة معظمها خطأ ولايمكن التحقق من صدقها • يتم استكشاف النظريات القيمة التى يمكن التحقق من صدقها عن طريق منهج استبعاد الخطأ ، فنحن نحاول البحث عن الأخطاء ومن ثم استبعادها • هذا هو العلم الذى ينشأ عن أفكار غالبا ما تكون غير مسئولة يسيطر عليها العلم سيطرة تامة بطريقة تصحيح الأخطاء •

سؤال : إذا كان هذا يشبه تماما مايحدث لدى الأميبا أو الكائنات العضوية الدنيا • فأين يكمن الإختلاف أو الفرق إذن بين الأميبا واينشتين؟

الإجابة: تنتهى الأميبا بإرتكابها خطأ ما ، فلو كان للأميبا وعى لخافت من إرتكاب الأخطاء ، أما اينشتين فيبحث عن الأخطاء ويمكنه هذا إذ أن النظرية ليست جزءا من ذاته ولكنها موضوع يمكنه بصورة واعية بحثه ووضعه موضع النقد بفضل اللغة البشرية المتميزة والكتابة البشرية التى هى وليدتها• لقد قال اينشتين فى موضع ما " أن قلمى أكثر ذكاء منى " ، فكل ما يقال أو يكتب يصبح موضوع بحث يمكننا اخضاعه للنقد وكشف الخطأ الذى يكمن

فيه . على هذا النحو تصبح النظرية التى يتم صياغتها لغويا شيئا شبيها ولكنها فى نفس الوقت شيئا مختلفا عن توقعات النباتات أو الحيوانات .

١٤ – منهج العلم الطبيعى إذن هو البحث الواعى عن الأخطاء وتصحيحها من خلال نقد واعى . هذا النقد يجب ألا يكون نقدا شخصيا ولكن يجب أن يكون موجها وحسب للنظريات أو الفروض موضع البحث .

بهذا أنهى ملاحظاتى بشأن نظرية المعرفة لأنتقل للحديث عن نظرية اللغة الحيوانية واللغة البشرية المتميزة التى سأخصص لها الجزء الثانى من محاضرتى . أما الجزء الثالث فسيكون مخصصا للحاجة للإيهام على أن أنهى محاضرتى بالجزء الرابع الذى سأخصصه لمشكلة السلام .

II

ابدأ حديثى بإطار أدين به لعالم النفس العظيم كارل بولر Karl Buhler[١]

يميز بولر بين ثلاث وظائف للغة . توجد الوظيفتان الأولى والثانية لدى معظم الحيوانات والبشر جميعا ، بينما يتميز البشر وحدهم بالوظيفة الثالثة .

الوظيفة الدنيا هى وظيفة التعبير التى يمكن أن نجدها ممثلة فى حركة الذيل أو تعبيرات الوجه أو فى الصراخ مثلا . هذه الحركات التعبيرية يمكن اعتبارها علامة على الحالة الداخلية للكيان العضوى .

(ملاحظة جانبية : لايوافق الماديون ولا السلوكيون[٢] على هذه النظرية ، فهم لايرون قبول أى حالات داخلية ولكنهم يقترحون الاقتصار على السلوك. من السهل توضيح خطأ هذه النظرة ، فمقياس الحرارة لايظهر ــ من خلال سلوكه ــ درجة الحرارة الخارجية ولكنه يظهر بصورة أساسية حالته

---

(١) كارل بولر هو عالم النفس الألمانى الشهير المعروف بدراساته فى عمليات التفكير (١٨٧٩ – ١٩٦٣) لم يكتب سوى كتاب واحد هو " وقائع ومشكلات علم نفس عملية التفكير " "Facts and Problems of the Psychology of the Thought Process"

(٢) ينقسم الإتجاه السلوكى الى السلوكية النفسية والسلوكية الفلسفية ، وعلى كل فالإتجاه السلوكى فى جملته لايرى معنى للنفس سوى أنها سلوك ، سواء أكان سلوكا خارجيا أو تغيرات فسيولوجية .

الداخلية فالجريئيات المتحركة التى تزداد سعتها تؤدى إلى تمدد قضيب معدنى ، فلو كانت النظرية السلوكية صحيحة لما كان يجب أن نضمن تفسيرنا الحالات الداخلية وكنا سنستخدمها فى تفسير تمدد القضيب بالحرارة)•

يمكن للحيوان أن يعبر عن حالته بتعبيرات الوجه أو بهز الذيل حتى وإن لم يكن هناك حيواناً أخر يرد على هذه الحركات ، ولكن متى كان هناك حيوان آخر يرد على هذه الحركات التعبيرية ، فإنها عندئذ تصبح إعلاماً أو إبلاغا ، يمكن لوظيفة الإعلام هذه ــ التى يعتبرها " بولر " الوظيفة الثانية ــ أن تصبح وظيفة تنبيه والتى متى حدثت بالتبادل ، عندئذ يمكن القول أن إتصالا بين الحيوانات قد تم •

من الممكن بالطبع للإنسان أن يمارس أيضا هذه الوظيفة كالأطفال على سبيل المثال قبل تعلمهم اللغة البشرية ، أو البشر الذين لايوجد لديهم لغة بشرية تميزهم معا(*) عندئذ يمكن لبعضهم أن يفهم الأخر عن طريق ملامح الوجه والإشارات •

الوظيفة الثالثة ــ وفقا لبولر ــ وظيفة الوصف هى الوظيفة التى تميز البشر والتى توجد فيها عبارات تصف أو تصور ــ كما يقول بولر ــ الأحوال أو الأمور •

يرى بولر أن الوظيفة الأعلى تشتق دائما من الوظيفة الأدنى فعندما يطلق طائر مثلا صيحة إنذار ، فإن هذه الصيحة لاتعبر عن إتصال اجتماعى فحسب ولكنها فى نفس الوقت تعبير عن حالة داخلية ، فكلما ارتفعنا فى وظائف اللغة كلما كانت اللغة أكثر تعقيدا •

أريد أن أشير هنا أن عددا قليلا فقط من أصحاب النظريات فى اللغة من ذهبوا بعيدا مثل بولر • فمعظمهم تحدث عن التعبير والقليل منهم تحدث عن

(*) يبدو أن بوبر يقصد هنا أفراد من مجتمعات مختلفة تتحدث لغات مختلفة لايجيد بعضهم لغة بعض (المترجم) •

الإتصال الإجتماعي (الذى يمكن أن يكون لديه وظـائف عمليـة منلمـ وضحه مثال صيحة الإنذار) • كما تتدرج الأوامر والطلبات هنا أيضا • إلا أن القليل هو من لاحظ أن إعجاز اللغة البشرية يكمن فى قدرتها على وصف الأمور والأحوال وعلى أن مثل هذه القضية التى تصف ، مـن الممكـن أن تكون صحيحة أو خاطئة ، فقط بدءاً من هذه الخطوة الهائلة يمكن موضعـة المقال ويمكن للنقد الموضوعى أن يبدأ ، فالنقد يكون نقدا معقولاً فقط متـى كان يدور حول صدق أو كذب قضايا أو نظريات معينة •

بهذا أنهى وصفى الموجز لجانب هام من جوانب نظرية بولر فى اللغة •

لقد لمست بنفسى بعض وظائف اللغة التى ذكرها بولر وبصفة خاصـة وظيفة النقد ، أى المناقشة النقدية لصدق أو كذب القضايا ، ولقد أكدت علـى أهميتها الهائلة عندما تحدثت عما يميز اينشتين عن الأميبا •

كما كنت أؤكد كثيراً على أن المرحلة النقدية فى إستخدام اللغة البشـرية التى تتبع من أسس منطقية يجب أن يسبقها مرحلة دجماطيقية ، فقط عندمـا يتأسس إعتقاد ما كخلفية ، يمكن للإنسان أن يبدأ فى ممارسة النقـد وبعدهـا يمكن للإعتقاد نفسه الذى يمثل خلفية المناقشة النقدية ــ أن يندرج فى النقد • فالمرء يحتاج أولاً لإطار محدد قبل أن يمكنه فيما بعد مواجهة أطر مختلفـة والتقدم نحوها بالمناقشة النقدية •

III

والآن أصل إلى الجزء الثالث وابدأ بالنقطة رقم ١٤ •

١٤ – تستلزم اللغات الحيوانية واللغات البشرية حاجات فطرية كثيرة ، مثـل الحاجة للتعبير النشط عن الذات والحاجة للاتصال بالآخرين والحاجة لتعلـم هذه الأشياء بالمحاولة والخطأ • دون هذه الحاجات الفطريـة ودون التعلـم النشط بالمحاولة والخطأ (العدو الذى يمارسه صغار القطط هنا وهناك مثـل

على ذلك) ما كان من الممكن للحيوانات العليا أن تبقى على قيد الحياة .

١٥ - تنشأ المعرفة الفطرية للحيوان والإنسان ــ مثلها في ذلك مثل المعرفة المكتسبة عن طريق التعلم النشط ــ عن توقعات . تشكل التوقعات غير المتحققة صعوبات أو مشكلات تؤدى إلى محاولات لحلها أى إلى تعلم نشط مرة أخرى وإلى بحث .

١٦ - يشترط التعلم النشط للغة الحيوان ولغة الإنسان مسبقا درجة عالية من الإيهام Suggestivität . فالقدرة على المحاكاة وحدها لاتكفى ، فالأمر يتعلق بما هو أكثر من مجرد محاكاة ، يتصل بطلب فطرى عميق وهو حدوث اتفاق أو تطابق مع تقييم وتمنى طريقة التذوق الموصلة . عندئذ فقط يمكن تفسير انتقال سرب من السمك أو من النحل أو الناموس من مكان لآخر . ثم اننا نعرف ــ معرفة تخمين ــ كيف أن هناك استعدادا للإيهام لدى بعض الحيوانات ، إذ يمكن تنويم دجاجة ما تنويما مغناطيسيا بخط يتم رسمه بالطباشير .

١٧ - تنشأ اللغات البشرية عن مطالب فطرية لتعلم وتحدث لغة ما وإستخدامها فى الإتصال والوصف . تتأسس هذه الحاجات أو المطالب الفطرية فى قدر كبير منها على المطلب الفطرى المرتبط بصفة خاصة باللغة وهو الحاجة للإيهام .

١٨ - يرتبط هذا كله إرتباطا شديدا بحاجتنا القوية لإكتشاف بيئتنا المحيطة بنا والتعرف عليها ، أى بحاجتنا لأن نعرف . ومن ثم نشأت الأساطير وجاء أهل الطب والقساوسة ، ونشأ صراع داخلى يمكن أن يقوى هذا كله وهو الشعور بأننا فى الحقيقة لانعرف شيئا أو أن مانعرفه ضئيل جدا . ولما كان مطلب اليقين مطلبا قويا ، كانت الحاجة لإعتقاد عام ولإيهام أنفسنا بصدق هذا الاعتقاد قوية أيضا ومن ثم خشينا مما يسمى بعدم اليقين وتحول الإعتقاد باليقين إلى اعتقاد رائع .

ثم وصلنا إلى وهم الحرب أو التحمس للحرب مع بداية الحرب العالمية الأولى .

ولكن قبل أن أخوض فى موضوع الحرب والسلام أحب أن أتحدث قليلا فى موضوع الفن أو الفن الحديث .

كلنا يعرف أن الفن الدينى هو أعظم الفنون ، فهناك الكاتدرائيات والكنائس ثم قداس موتسارت وبتهوفن وشوبرت .

ولكن كيف حال الفن الدينى هذه الأيام ؟

أعتقد أننا نفسر الكثير عندما نقول أن ديننا خاطئنا قد تأسس الآن وبصفة خاصة الدين الذى يرى فى عالمنا ــ على الأقل عالمنا الإجتماعى ــ جحيما . فأنا من الممكن أن أكون كل شئ سوى أن أكون عدوا للدين . الدين الذى اعتقده هو مبدأ سيادة العالم ، مبدأ حرية الإنسان وقدرته على الخلق والإبداع ، مبدأ المعاناة والشكوك والأهوال التى يمكن أن نحياها ، الخير والغضب الذى حدث فى تاريخ البشرية ويحدث مرارا وتكرارا ، الرسائل السلمية التى أمكننا أن نجعلها تدوم فى حياة البشرية ، ثم بصفة خاصة الزوجات والأطفال التى عاشت أصعب أشكال الحياة . بإختصار فأنا لا أعرف شيئا ، ورغم أن البحث عن الحقيقة العلمية يشكل جزءا من دينى ، فإن الفروض العلمية العظيمة ليست دينا ، ولايجب أن تكون كذلك .

إلا أن الفن الحديث لايفسر إلى من خلال الدين الحديث ــ من خلال هذه الإعتقادات الخاطئة غير المعقولة : أى من خلال الإعتقاد فى عالم غاضب ، ونظام اجتماعى غاضب نزعم أننا نحياه فى سويسرا ، فى ألمانيا ، فى إنجلترا وفى شمال أمريكا ، وعلى كل فالشباب مقتنع ــ بأسباب عقلية وبمساعدة الفن الحديث ــ أنهم يعيشون فى جحيم . ما الذى يستتبعه هذا ؟ يستتبع أن الأطفال فى الواقع فى حاجة إلى مرشدين ومثل عليا ومعتقدات ونظام دقيق . ربما يستطيع الشباب الذى يكبر حاليا أن يتحرر مستقبلا من

مرشديه ومن معتقدات وأيديولوجيات ذلك الذى يعرف ، إن هذا فى الواقع أمر سهل ، لذا أدعوكم ألا تعتقدوا فى أى شئ أقوله ، إذ يمكنكم بأنفسكم وعن طريق كتب التاريخ أن تعرفون ما إذا كان زماننا ، الذى قضى على الرق والعبودية ، هو أفضل الأزمنة التى لدينا عنها معرفة تاريخية ، لقد ارتكبنا بالطبع أخطاء كثيرة ومازلنا نرتكب غيرها كثيرا مثل تلك التى نرتكبها مثلا من خلال أيديولوجياتنا البغيضة التى نعتنقها ،

إن الروس الذين يعيشون عالما أسوأ من عالمنا قد أوهموا أطفالهم وشبابهم بأن أرضهم جنة والحقيقة أن هذا أمر مفيد للغاية ، إذ جعل الروس أكثر رضاء بحالهم منا فكم هى قوة عظيمة هذه الحاجة للإيهام ، إلا أن الحقيقة لاتقل قوة عنها وخاصة عندما يحارب الإنسان من أجلها ،

IV

لقد حاولت فى الماضى أن أعرض الجذور لنظرية المعرفية والبيولوجية والنظرية اللغوية لإستعداداتنا الغريزية الخطيرة لتكوين معتقدات وأيديولوجيات ، أحد جذور هذه الإستعدادات هو الجبن فأنا الآن أيضا جبان، لا أريد لا أن أتظاهر بشجاعة معينة أو أن أطلب من شخص ما أن يقوم بأعمال بطولية ، إلا أننى أحب أن أنبه أن المشكلة الكبرى ـ ألا وهى تحقيق السلام الدائم على الأرض ليست مشكلة غير قابلة للحل ،

للفيلسوف كانط فى هذا الموضوع كتاب رائع وحزين ، مؤثر وجميل ألا وهو كتاب " نحو سلام دائم " ،

يبدو لى واضحا تماما أن القنبلة الذرية ليست هى العائق الرئيسى نحو الوصول لسلام دائم ،

فعندما تحدثت آخر مرة مع عالم الفيزياء الذرية العظيم ـ نيلز بور Niels Bohr ـ وأعتقد أن هذا كان عام ١٩٥٢ قال لى : أن القنبلة الذرية

ستحافظ بالتأكيد على السلام ٠ لم أكن ولست الآن أيضا متفائلا ، ولكن على كل حال فلقد كان ــ على الأقل حتى الآن ــ على حق ٠ فأنا فقط أرى أن الطريق نحو تحقيق السلام طريق صعب للغاية ، طريق طويل ، فقد تنشب حرب ذرية قبل أن نقطع خطوات على هذا الطريق ٠ إنه الطريق الذى أراد أصحاب الإرادة الخيرة في وقت ما أن يظهروا أنهم أصبحوا متواضعين ولم يحاولوا أن يلعبوا دورا قائدا، فلا أسس دينية جديدة ولا أيديولوجيات جديدة ولكن تواضع عقلى ٠

فنحن المفكرون لانعرف شيئا ولكننا نتحسس أو نتلمس طريقنا ، أما العلماء فيجب أن يصبحوا أكثر تواضعا وأقل دجماطيقية وإلا سيتخلف العلم ذلك العلم الذى ينتمى لأعظم ما خلقته البشرية ومايبشر بخير كبير ٠

المفكرون لايعرفون شيئا ، من هنا كان تكبرهم وغطرستهم هو العائق الأكبر على تحقيق السلام على الأرض ، لذا نأمل ألا يكونوا ــ إلى جانب غطرستهم ــ من الغباء بحيث لايفهمون ذلك ٠

ومع هذا سنرتكب أخطاء أخرى ولكننا نأمل أن تكون الفروض القادمة فروضا صادقة : بدون أيديولوجيا لا حرب ، فالصراع ضد الأيديولوجيات فى كل الأحوال صراع موجه ٠

لذا أريد أن أنهى حديثى مرة أخرى بأن أطلب منكم ألا تعتقدوا كلمة مما أقوله وأن تكونوا على وعى أنى من أجل كل الأرواح الخيرة لا أريد أن أنهى حديثى ببوق ٠ لقد أردت فقط أن أظهر لكم المخاطر الكبيرة المتضمنة فى الأيديولوجيات وأن أوجه انتباهكم نحو الحاجة الملحة للمعرفة والاعتقاد والإيهام المتبادل والتى تبدو متضمنة فى البيولوجيا التطورية وفى تركيب معرفتنا ولغتنا ٠

المقالة الخامسة

الوضع النظرى المعرفى لنظرية المعرفة التطورية[1]

Die Erkenntnistheortische Position der Evolutionaren Erkenntnistheorie

(١) هذه المقالة عبارة عن إسهام فى مناقشة أثناء ندوة عقدت فى فيينا إبريل ١٩٨٦ . تم طبع هذه المقالة لأول مرة ضمن مجموعة مقالات جاءت تحت عنوان " نظرية المعرفـــة التطورية "
Die Evolutionäre Erkenntristheorie. Hrsg. Von Rupert Riedl und Franz M. Wuketits. Berlin / Hamburg (P.Parey) .

القبلى والبعدى :

أريد بادئ ذى بدء أن أتحدث قليلا عن القبلية ، أولا لا أريد أحدا أن يسألنى أى المصطلحات يجب أن أستخدمها ، إذ المصطلحات واضحة ، والمصطلح " قبلى بالوراثة" genetisch a priori واضح تماما على الأقل من وجهة نظرى • فهو يعنى أن هناك بالفعل شيئا موجودا وجودا قبل بعدى وقبل الإدراك الحسى وبالإضافة إلى ذلك فإنه من الضرورى استخدام اللفظ قبلى ليعنى ماهو أكثر من ذلك لأنه يرتبط هنا بعلاقة محددة بالمذهب الكانطى ، فمن وجهة نظرى يمكن فهم كانط بصورة أفضل إذا ما اتضح لنا أن كانط كان غالبا يعنى بإستخدامه لمصطلح " قبلى " ماهو قبلى بالوراثة ، رغم أنه كان يتحدث بالطبع عما هوصالح بصورة قبلية a priori gültig •

أريد ثانيا أن أقول أن رأيى فى قبلية كانط يختلف عن رأى كونراد لورنز[1] Konrad Lorenz فى كانط وهو الرأى الذى كونه منذ سنوات عديدة ولقد تحدثت كثيرا مع لورنز فى هذا الأمر ، إلا أننى لا أستطيع أن أعرف على وجه الدقة الآن ماهى وجهة نظره الحالية • فعندما كتب عن المذهب الكانطى ونشر تفسيره له كان رأيه فى ذلك الوقت على النحو التالى:

لقد عنى كانط أن روادنا وأجدادنا الأوائل قد تعرفوا على أشياء عن طريق الإدراك الحسى ثم إنتقلت هذه الأشياء بطريقة ما من الإدراك الحسى إلى الوراثة ومن ثم أصبحت بالنسبة لنا أشياء قبلية ، أى قبلية بالوراثة •

أما رأيى أنا فيختلف تماما ، ولكنى لا أختلف عن لورنز فى استخدام التصورات ولكنى أختلف عنه فى النظرية ، والنظريات أهم من التصورات مئات المرات (فالنظريات من الممكن أن تكون صادقة أو كاذبة ، أما التصورات فعلى أفضل تقدير تكون ملائمة وعلى أسوأ تقدير خادعة ،

---

(١) كونراد لوزنز (١٩٠٣ - ١٩٨٩) عالم نمساوى تخصص فى دراسة السلوك الحيوانى وطبيعة الأفعال السلوكية الغريزية حصل على جائزة نوبل فى الفسيولوجيا بالمشاركة مع كارل فريش Frisch وتنبرجن N. Tinbergen عام ١٩٧٣ •

(مضللة، فالتصورات ليست مهمة بالمقارنة بالنظريات) .

فأنا أزعم أن كل مانعرفه قبلى بالوراثة ، أنا ماهو بعدى فهو مانختاره مما إكتشفناه بصورة قبلية .

يجب علينا – مثل سائر الكائنات العضوية التى لديها ما يشبه الإدراكات الحسية لدى الإنسان ويمكنها استخدامها لكى تتعلم منها قبل أن نفعل ذلك – ومن ثم فهو قبلى بالوراثة – أن يكون لدينا قدرة على تنظيم وتفسير انطباعاتنا الحسية . يتفق هذا تماما مع المعرفة الفطرية الكانطية وبصفة خاصة مع نظرية كانط فى المكان والزمان .

أن نقول – كما فعل كونراد لورنز – أن المعرفة القبلية الفطرية الكانطية كانت فى الأصل معرفة إدراك حسى ، فطرية بالنسبة لنا لأنها إنتقلت الينا من أجدادنا يعنى أن نتجاهل فكرة كانط الأساسية والشديدة الأهمية والتى مؤداها أن المعرفة الحسية غير ممكنة دون معرفة قبلية . لايجب علينا ، فى الواقع ، أن نحاول تفسير المعرفة القبلية الكانطية عن طريق المعرفة الحسية ، فإسهام كانط الأساسى كان محاولة توضيح أن المعرفة الأساسية تفترض معرفة قبلية .

لقد كان كانط هو أول من اعتقد أن وجود المعرفة القبلية شرط ضرورى لوجود المعرفة البعدية ، إلا أننا لايجب أن نستنتج من ضرورة المعرفة القبلية التى تجعل المعرفة الجسية ممكنة أنها ضرورة بالمعنى المنطقى . إلا اننى هنا أختلف عن كانط تماما : إذ أنه مادامت معرفتنا الحسية معرفة فرضية ، فإنه من الممكن أيضا للمعرفة القبلية أن تكون معرفة فرضية أيضا ، وهى كذلك فى الواقع وهو مايمكن توضيحه بمثال على النحو التالى . لكى نفسر إدراكنا الحسى فإننا فى حاجة إلى هندسة تكون على الأقل هندسة إقليدية لما يحيط بنا ، أما ما إذا كان المكان الذى يتجاوز الكرة الأرضية والقمر مكانا إقليديا أم لا فسؤال آخر : هنا نصل إلى

فرض أى إلى معرفة تخمينية . أما رأى كانط الذى يرى فى سائر المعرفة القبلية معرفة ضرورية بمعنى معرفة غير فرضية ولكن معرفة صادقة بالضرورة apodiktisch فهو مايبدو لى واضحا تماما ولكنه فى نفس الوقت رأى لايوجد مايبرره ومن ثم فهو رأى خاطئ .

لهذه الأسباب ولأسباب أخرى كثيرة ، أفترض ـ على عكس كانط تماما ـ أن معرفتنا القبلية ، مثال ذلك معرفتنا فى الهندسة ـ ذات طبيعة فرضية أفترض أنها معرفة قبلية بالوراثة وليست صادقة قبليا ، ليست معرفة ضرورية قبلية أو صادقة بالضرورة .

فإذا ماتم هذا التصحيح ، عندئذ تصبح قبلية كانط ذات درجة عالية من الدلالة . وهنا أريد أن أقول بوضوح شديد أننى قبلى راديكالى (بمعنى القبلية بالوراثة) بل وأكثر راديكالية من كانط رغم أن القبلية التى أتبناها قبلية فرضية أو قبلية تخمينية .

فأنا أتبنى وذلك ضد سائر دعاة نظرية المعرفة منذ جون لوك وأيضا كانط ـ الرأى التالى : كل معرفة فهى معرفة قبلية من حيث المحتوى ، معرفة قبلية بالوراثة ، لأن كل معرفة فرضية تخمين ، فهى تشكل فرضنا ، أما المعرفة البعدية فليست سوى تصحيح أو تعديل لفروضنا : فهى إصطدام فروضنا بالواقع الفعلى : هنا وهنا فقط يكمن عنصر الخبرة فى معرفتنا ، وهذا يكفى لكى نستطيع التعلم من الخبرة ولكى يصبح المرء ذا إتجاه تجريبى .

يمكن صياغة هذه الفكرة بطريقة أخرى : نحن نتعلم فقط عن طريق المحاولة والخطأ . محاولاتنا هى دائما فروضنا ، فهى تنبع من داخلنا وليس من العالم الخارجى ، فنحن لانتعلم من العالم الخارجى سوى أن بعض محاولاتنا أخطاء . فمن الحيوانات الى الكائنات أحادية الخلية فإن التكيف عملية من اختراع الكائن الحى ، فالكائن الحى يتكيف مع بيئته ويقوم دوما

بتحسين تكيفه •

هذه النظرية التى أتبناها تؤدى بالتحديد إلى صعوبات كثيرة ، لم تنشأ هذه الصعوبات نتيجة صعوبة نظريتي ولكن لأن مانعرفه قليل جدا فنحن تقريبا لانعرف شيئا عن نشأة الحياة والنشأة الأصلية للتكيف وهو ما سأتحدث عنه فيما بعد •

الدارونية Darwinismus :

لقد صغت الإتجاه الدارونى بطريقة متواضعة جدا ، وهى نظرية دارون التى مفادها أن التكيف يتم فهمه عن طريق الاختيار •

تقول نظرية دارون مايلى : **"الأفراد التى تتكيف بصورة أفضل لديها فرصة أكثر للبقاء "**

لقد نشأت هذه النظرية تاريخيا على يد دارون بهذه الطريقة وصياغتها بهذه الطريقة ــ من وجهة نظرى ــ أفضل وأكثر وضوحا من التحدث عن " الإختيار " أو " الإنتقاء الطبيعى " أو " الاختيار الطبيعى " أو عن " الصراع من أجل البقاء " وسائر هذه الأشياء •

إن الصراع من أجل البقاء والانتخاب الطبيعى كنايات وليست نظريات لأنها لا وجود لها • ماله وجود هى الأفراد التى تنتج سلالات ومن ثم فهنا نظرية دارون التى مفادها أن الأفراد التى تتكيف بصورة أفضل لديها فرصة أكبر أن تنتج سلالات •

فى هذه الصياغة يمكن أن نرى بوضوح حدود الدارونية ، فالنظرية الدارونية يجب أن تفترض بصورة أساسية أن هناك أفرادا متكيفة وهذه فى نفس الوقت هى مشكلة نشأة الحياة التى نعرف عنها للأسف قدرا ضئيلا للغاية •

التكيف والداروينيـــة :

تجربة فكرة Ein Gedankenexperiment

دعنا نفترض أننا يمكننا خلق حياة بداخل أنبوبة اختبار (أنبوبة اختبـــار صغيرة وليس آلة ضخمة) • وهو الأمر الذى لا أعتبره غير ممكـــن مـــن حيث أننا تقريبا نعرف كيف ترتبط الأشياء • وإذا كنا لانعرف هـــذا الأمـــر الآن فإنه من الممكن أن نعرفه بعد مائة أو ألف عام •

إذن فلقد أمكننا خلق حياة داخل أنبوبة الاختبار وحياة على شكل جين أو جينات أكثر • افترض أن لدينا جينا بسيطا جدا يتضاعف داخل الأنبوبـــة • هذه تجربة لفكرة نشأة صناعية لحياة من عناصر أو مكونات غـــير حيـــة ، أعرف أنه أمر صعب للغاية ودرجة إحتماله ضعيفة جدا وهى الإحتمالية التى قام " مونود Monod " بحسابها حسابا تقريبيا ولكن دعنا نفترض أنه يمكننـــا صنع هذه الحياة ، سيبقى مع هذا من غير المحتمل لـــهذه الحيـــاة ــ التـــى خلقناها بأنفسنا ــ أن تستمر فى الحياة لسبب بسيط وهو عدم وجود مـــايبرر تكيفها مع أنبوبة الإختبار •

إن أنبوبة الاختبار محيط حياة ضيق ، ولكى تبقى حياة على قيد الحيـــاة يجب علينا أن نبدأ فى صنع آلة ، أى نخلق بيئة تتكيف مع الحياة (التكيـــف أمر يقوم على علاقة التبادل) فلكى تتكيف هذه الحياة مع بيئتها يجب علينـــا على الأقل إيجاد سوبر ماركت لتغذية هذه الحياة كما نحتاج إلى نظام مجارى لتصريف المياة والفضلات ، كما نحتاج لمدارس تعلم الأطفال الإبتكار وهـــى الوظيفة الحقيقية للمدارس •

كما يجب علينا تنظيم النسل وإلا اختنقت هذه الحيـــاة التـــى صنعناهـــا بأنفسنا فى أنبوبة الاختبار ــ بذريتها •

وظيفة تجربة الفكرة هذه إذن الآن وظيفة مزدوجة ، أريد أولا أن أوجه الانتباه إلى أن ــ مجرد نشأة الحياة لاتحل أى مشكلة ، لماذا إذن تكيفت هـــذه

الحياة مع بيئتها ؟ أعتقد أن الحياة كان يجب أن تنشأ حتى قبل أن توجد البيئة التى تتكيف معها . أن تكون الحياة قد نشأت من أى موقف كيميائى لانعرفه لاتعنى بصفة عامة أن الحياة قد نشأت فى بيئة يمكنها أن تستمر معها على قيد الحياة .

فعدم إحتمالية ارتباط الحياة ببيئة متكيفة ممكنة يساوى فى كبره عدم احتمالية نشأة الحياة نفسها ــ لم أناقش هذه النقطة حتى الآن وأنا أضعها هنا فى إرتباطها بمشكلة المعرفة .

يشكل تكيف الحياة مع بيئتها شكلا من أشكال المعرفة . دون هذا الحد الأدنى من المعرفة لايمكن للحياة أن تستمر . هذه المعرفة معرفة بشروط حياتية شديدة العمومية . إما يجب لهذه الشروط أى البيئة التى تحدثت عنها أن تتكيف مع الحياة أو أن تتكيف الحياة مع البيئة . فهذا أمر يقوم بالطبع على علاقة التبادل .

إذا لم تكن هذه البيئة الى حد ما بيئة مستقرة ، بمعنى ألا تتخطى شروط التكيف المكانى الزمانى ، عندئذ يمكننا أن نكون على يقين أن الحياة ستتحول الى كارثة بيئية .نعنى بالكارثة البيئية أن تتغير البيئة فى الجوانب التى تتكيف فيها مع الحياة . وعندما تتغير البيئة فى تكيفها تنهار الحياة : لقد حدثت كارثة ومن ثم يجب على هذا الكل أن يبدأ من جديد ، فإذا لم تكن إذن شروط البيئة الى حد ما شروطا ثابتة مستقرة عندئذ يمكننا أن نفترض أنها لم تكن كافية بدرجة كافية لكى تحفظ الحياة . ويجب عندئذ على التاريخ أن يبدأ مرة أخرى .

يجب إذن أن يكون هناك استقرار للبيئة الى حد ما لكى يكون هناك تكيف أو معرفة : يجب على الحياة أن تعرف من البداية بطريقة قبلية قدرا كبيرا عن البيئة ، مثلما كان يجب علينا فى تجربة الفكرة ــ أن نعرف عن الحياة التى خلقناها بأنفسنا وحاجاتها لكى يمكن لهذه الحياة أن تستمر : فالتكيف

شكل من أشكال المعرفة القبلية •

لم أقل بنفسى كل هذا الذى قلته حتى الأن بخصوص تجربة الفكرة ولكن بخصوص الدور الذى تلعبه المعرفة القبلية فيما أسماه غيرى نظريتى فى المعرفة التطورية •

لقد ذكرت سابقا أنه لم يكن أنا الذى أطلق هذه الأسماء على نظريتى فى المعرفة ولكن أناسا آخرين هم الذين وسموا نظريتى فى المعرفة بأنها تطورية • وعلى كل فهى شئ يختلف تماما عن نظريات المعرفة التطورية الأخرى •

لابد أن الحياة قد تركبت من البداية بحيث تتوقع تكيفا لحظيا ولكن أن يتجاوز هذا التكيف المكان والزمان مما يعنى أن شروط البيئة يجب أن تكون شروطا ثابتة ، كما أنه من الممكن أن يكون الحياة قد توقعت من البداية كل التغيرات الممكنة للبيئة ، إلا أن هذا غير محتمل •

وهنا نصل للنهاية : يجب أن تتوقع الحياة من البداية وبأى معنى من المعانى مستقبل البيئة بمعنى كل الحالات المستقبلية التى قد تحدث للبيئة ، فالحياة يجب أن تتكيف مع هذه الشروط المستقبلية للبيئة : وبهذا المعنى تكون المعرفة العامة سابقة على المعرفة الحالية أو المعرفة الخاصة • فلا بد أن الحياة من البداية مزودة بالمعرفة العامة ، المعرفة التى نسميها عادة المعرفة بقوانين الطبيعة • وليست بالطبع معرفة بمعنى أنها معرفة واقعية ، فالوعى أمر مختلف تماما • وهذا يؤدى بى إلى أن أنسب للجوهر الأول معرفة هى فكرة (تشبيهية) فكرة أنثروبومورفيه •

والآن نصل إلى هذا الإتجاه التشبيهى (الأنثروبومورفى) •

التناظر والمعرفة والتكيف Homologie , Wissen and Anpassung:

أعتقد أنه ليس من الخطأ أن نلغى كل تشبيه خارج ميدان البيولوجيا • نحن فى هذه الحالة – مثلما نحن فى أمور أخرى – تطوريون – وهو

مايعنى أننا يجب أن نتصرف وفقا لتفكير التناظر homologiedenkend .
عندما أعتبر أنفى وأنف كلب ما أنفين متناظرين ، فإن هذه تعد الخطوة الأولى نحو نظرية التطور .

فالقول بأن للكلب أنفا ليس أمرا بديهيا فى ذاته ولكنها نظرية من وضعنا، وضعها الإنسان الأول على وجه التحديد . لقد اعتبر أنفه وأنف الكلب أنفين متناظرين ، كما لاحظ أنه بينما للكلب ذيل ولبعض القردة ذيول فإنه لاذيل له. هذا التفكير فى الأشياء المتناظره شرط سابق على التفكير التطورى. وعندما يفكر الإنسان بصفة عامة بطريقة تطورية فإنه يجب عليه أن يقبل هذه المتناظرات ــ بين أذرعنا وأجنحة الطير ، بين سيقاننا وسيقان الطير وبين أنوفنا وأنف الكلب ــ فالقول بأن أنوفنا وأنف الكلب متناظران بطريقة متطورة فرض من فروض نظرية التطور .

يجب علينا أن نطبق هذا التفكير التناظرى أيضا على معرفتنا ، أى على اكتساب المعرفة والمعرفة بصفة عامة . فبطريقة ما للكلاب والقردة شئ يتسق مع معرفتنا البشرية . وعلى كل فهذا هو أحد الأسباب الذى جعل المذهب السلوكى الاعتقادى ــ باختصار ــ يتبلد . فلم ير أنه حتى عندما يتحدث عن السلوك ، فإنه يقدم علاقة تناظر بين سلوكنا وسلوك الحيوان وأن هذا التناظر ضرورى لفهم أمور كثيرة وهذا مايبرر للإنسان أن يقيم أشياء أخرى على علاقة التناظر هذه .

إن فكرتى الأساسية فى نظرية المعرفة أن المعرفة معرفة ذات درجة عالية من العمومية ، أى أنها متوقعة ، تتوقع البيئة من زمن طويل : مثل المعرفة بتعاقب الليل والنهار والتى نجدها ــ أى المعرفة بالتناظر ــ لدى الزهور . فالزهور تنغلق على نفسها وهكذا إذن فهى تعرف شيئا عن الإطرادات العامة . إلا أن هذا لايعنى أن لها فهما أو عقلا . ولكنه فقط يعنى أنها تتكيف بطريقة متسقة . ليست المسألة بالطبع هى مسألة انبساط

وانقباض الأنسجة ولكنها على كل حال قد تكونت بحيث تتكيف على هذا النحو • فهى تفترض الإطرادات بصورة مسبقة •

إن فرضى الأساسى الذى تقوم عليه نظريتى فى المعرفة يتجاوز سائر نظريات المعرفة سواء تطورية ، كانطية أو غير تطورية : وهو الفرض الذى منطوقه : سائر التكيفات العامة تسبق التكيفات اللحظية فهى توجد قبلها، أى أنها قبلية •

التوقع : Erwartung :

أريد ــ قبل أن أضرب مثلا ــ أن أقدم تعبيرا جديدا على النحو التالى : من الممكن أن نسمى صور المعرفة هذه أو التكيفات وخاصة التى تحدث للحيوانات ــ توقعات ــ •

فالكلب يتوقع قدوم سيده الساعة السادسة والنصف ، يفهم المرء من قلق الكلب أن الكلب يتهيأ لقدوم سيده إلى المنزل الساعة السادسة والنصف • هذه جميعا صور معرفة والتى من الواضح أنها توقعات • بالمثل تتوقع الزهرة أن يصبح الطقس أكثر برودة ليلا ، فهى تعد نفسها لذلك •

أقول أيضا مايلى : لدينا نحن المبصرون أعين قبل أن نكون بها مدركات حسية • ولن تكون الأعين توقعات أى شكلا ركبنا فيه معرفة ــ ومن ثم تكيفا ــ فى أعيننا ، فهو مانراه بوضوح لدىAxolotl[1] فأعين الذى تربى ونشأ فى الكهوف والمغارات ــ قد ضمرت تماما ، فهو إذن أعمى بالوراثة• فالتوقع الذى أدى إلى تطور أعيننا لم يتحقق لديه ، إذ لاتلعب الأعين لديه أى دور •

فالأعين إذن هى التوقع بأننا نحيا فى عالم يوجد فيه ــ على الأقل من وقت لآخر ــ ضوء وأنها يمكنها عندئذ استخدام هذا الضوء ، فهذا هو التوقع الفطرى بالنسبة لنا فمن وجهة النظر التطورية تسبق العين الإدراك البصرى،

---

(١) Axolotl حيوان برمائى يوجد بكثرة فى المكسيك • قد يصل طوله إلى خمسة وعشرين مترا •

ومن ثم فالعين ـ مثلها فى ذلك مثل الإدراك البصرى ولكن بطريقة أخرى ـ شكل من أشكال المعرفة البيولوجية ، لأنها توقع .

فكل ما اعرفه يصدر بصورة أكبر أو أقل ـ يتفق معى فى ذلك سائر أصحاب نظريات المعرفة (وكذلك كونراد لورنز الذى أعجب به إلى حد كبير) من أن معرفتى تتلو إدراكى الحسى . وبعد التصحيح أرى الأشياء بصفة عامة مختلفة تماما . فالإدراكات الحسية وسيلة غير مهمة نسبيا للمعرفة ، فليست سيطرة البيئة الحالية التى تسمح لنا بالإدراك الحسى هو الأمر الأكثر أهمية . المعرفة ، أو المعرفة الأساسية هى مثل مجس النبض الذى نمده فى كل اتجاه . ماهو أساسى هو أن أعرف عندما أكون هنا أننى فى فيينا ، فى النمسا ، وسائر هذه الأمور . هذا الشكل من المعرفة أكثر أهمية بالنسبة لى من الإدراك الحسى لأنه أساسى لتفسير الإدراك الحسى .

ننتقل إذن من فهمى لنظرية المعرفة التطورية ، ومن ثم المعرفة العامة ونصل لبعض الأمور الخاصة جدا مثل إننى أرى هنا بعض الناس الذين أعرفهم . يمكننى أن أتعرف على أصدقائى فى هذه القاعة وسط مجموع الحاضرين الذين لا أعرفهم جميعا وهى ماتشكل وظيفة الإدراك الحسى الحالى من وجهة نظرى وفى هذه اللحظة .

ولكنى مازلت أرى هذه الوظيفة أقل أهمية من اتجاهي العام الذى يوجهنى نحو ما افعله وما أقوله الآن . فى هذه المعرفة الحسية يمكننا أن نخطئ مرارا وتكرارا بل ونحن بالفعل نخطئ مرارا وتكرارا .

ليست معرفتنا الحسية مشتقة فقط من تركيبنا الفسيولوجى والتشريحى وهى الطريقة التى يدمج بها المخ كل شئ . معرفتنا الحسية تتبع أولا ـ وقبل كل شئ بل ودائما ـ من أهدافنا ونوايانا .

أقص عن هذا قصة قصيرة :

منذ عديد من السنوات أو من حوالى ٦٥ عاما كنت فى مدينة داخشتاين

Dachstein وأردت أن أعبر من مكان يغطيه الجليد من خلال كوة عندما هبط ضباب ، ثم أخذت أبحث فى هذا الضباب الكثيف عن هذه الكوه فرأيت فى الضباب والجليد شيئا يشبهها وبالطبع اعتقدت أنى أخيرا وجدت هذه الكوه التى أبحث عنها طويلا ، ولكنى عندما أقتربت منها لم أجد سوى صخرة فوق هذه الأرض التى يغطيها الجليد . أدت هذه الصخرة إلى أن غار الجليد ونشأ محله عكان منخفض وهو مافسرته خطأ على أنه الكوه التى كنت أبحث عنها .

أقص عليكم هذه القصة لأنها توضح أن توقعاتنا واهتماماتنا الراهنة تحكم إدراكاتنا الحسية فى جزء منها . نحن إذن دائما نشيطون كما رأينا . ولا أعتبر حتى مانقوله عن إدراك الشكل إدراكا حسيا صحيحا . لاأعتبره صحيحا لأن الإدراك الحسى يشبه الصوره الفوتوغرافية فأنا نشط ومن ثم أقوم بالبحث عن شئ وأثناء بحثى أقوم بتفسير بعض الأشياء بطرق معينة وأحيانا أفسرها وفقا لأهدافى أو أمنياتى . هذه الأمنيات اعتدت عليها منذ مدة طويلة . لقد قضيت أكثر من ساعة أبحث عن هذه الكوه التى وجدتها بالفعل فى النهاية والتى بدت مختلفة تماما عما توقعت . تلعب إذن أهدافنا وأمنياتنا وتفضيلاتنا دورا كبيرا فى الحياة وفى الإدراك الحسى ، فهى تحدد تفسيراتنا التى نحاول اختبار صحتها والتحقق من صدقها أو تكذيبها .

أريد هنا أيضا أن أتحدث عن مشكلة الواقعية التى أنظر إليها بطريقة مختلفة تماما . الواقعية بالنسبة لنا جميعا أمر مشكل . فنحن جميعا نرسل إشارات مباشرة لكى نتأكد أننا لانحلم وإننا نعيش فى عالم واقعى . نحن مثل الخفافيش ، لانملك نفس التكنيك الذى يملكونه ولكن لنا تكنيك يشبه تكنيكهم . فأنا على سبيل المثال أغير مكانى باستمرار ـ وهو جزء من تكنيكى ـ لكى أرسل إشاراتى بطرق مختلفة ولكى أعلم ـ من الإشارات التى أتلقاها فى نفس الوقت ردا على إشاراتى والتى أدمجها بنشاط ـ أننى لا أحلم وأن

للواقعية بالفعل هذا الإنطباع الغريب الذى يختلف حقيقة (عن الإنطباع الذى) اعتدت عليه على الأقل فى السنوات الأخيرة الماضية ٠

افترض إذن أن الكائنات لحية كائنات نشـــطة ، تتحســس فــى كــل الإتجاهات كالجعران ٠ نحن نقترب من كل الأشياء بكل الوسائل الممكنة ٠

للمدى الذى نحن لسنا معه عميانا ، فإن للعين أهمية كبيرة ، ولكن متـــى كنا عميان وكان سمعنا سليما ، هنا تأتى أهمية الأذن ولكننا فى كل الحـــالات نحاول التحسس بأصابعنا ٠

لدى مثل ٠ لقد لاحظت ــ وهو ماهالنى ــ (الأمر يتعلق بالمثل الــذى استخدمته من وقت لآخر) أن مستمعى يبدو عليهم الذكاء ولكنى أعنى هـــذا بجدية : أن موقفنا يشبه موقف رجل أسود يبحث فى حجرة بالبدروم معتمـــة عن قبعة سوداء من المحتمل ألا توجد موجوده ــ هذا هو موقفنا : خطــــير للغاية ٠ نحن دائما لانعرف ونحاول دائمـــا بأيدينـــا أن نجـــد وبأرجلنـــا أو بأسماعنا أو بأعيننا أو بكل عضو حسى ممكن وهى الأعضاء التى نستخدمها بنشاط أن نتحقق دائما من الواقعية الموجودة حولنا ٠

إن نظريتى فى المعرفة أو العلم إذن نظرية تطورية تماما وتقلب ما قاله سابقى حتى الآن ٠فنحن نشيطون ، نجرب بإستمرار ونعمل بإستمرار وفقـــا لمنهج المحاولة والخطأ ٠

هذا هو المنهج الوحيد الذى لدينا ، والمنهج الوحيد الذى يمكن أن نستنتج منه أن الحيوانات الأولى والنباتات الأولى كانت تعمل وفقا له فهى تتحـــرك هنا وهنا ، كما أوضح تماما كونراد لورنز فى واحد أو أكثر من أعمالــــه : الحيوانـــات الأولـــى كانت تقـــوم بحركات تجربة محاولة تحقيق مـــا هـــو أفضل ٠ قد تنحى الحيوانات بهذه الحركات نحو تقدير عاطفى ، وقد لاتكـــون المسألة تتعلق بأى شئ نفسى ولكن فقط نحو الميكانيزم الذى تصـــوره هـــذه الحركات ٠ فهى تبحث وتجد ، تبحث عن بيئة أفضل وعالم أفضل ، وهـــى

فى بحثها عن هذا العالم الأفضل حيوانات نشطة • وفى هذا البحث لابد أنـها متكيفة بطريقة ما كما أوضحت : لابد أن لديها معرفة عامة إلى حد ما ثـم تحدث التغيرات الفجائية والتكييفات الجديدة • وهذا هو المنهج منهج المحاولة والخطأ •

هذا المنهج هو مايقول " لا " • فكل المحاولات غـير الناجحـة ــ أى الفاشلة ــ يتم استبعادها ، وهذا الاستبعاد يؤدى بطريقة ما إلـى محـاولات جديدة • هنا تلعب التغيرات الفجائية ووسائل أخرى والتى تغير مـن DNS (لكى تغير من الوراثة) دورا رئيسيا •

من الممكن لنتائج شبيهة جدا بالنتائج المشروطة ــ بالوراثة ــ أن تكـون مشروطة بطريقة تقليدية • فلقد زعم لورنز أن معرفة العدو معرفة بالوراثـة بالنسبة للـ Graugans ، تقليدية بالنسبة للعقاعق • وهى المقارنـة التـى عرضها بصفة خاصة بطريقة رائعة •

يمكن تلخيص ما سبق على النحو التالى : تكمـن المعرفـة الحيوانيـة والبشرية ــ من وجهة النظر البيولوجية ــ فى توقعات غـير واعيـة (أو توقعات ممكنة) •

تفنيد الاستقراء:

تصادف الحياة إذن ــ بطرق مختلفة كثيرة ــ إستثناءات متشابهة وظيفيا ولكنها لاتتناظر وراثيا • فمن هذه الوجهة النظر أزعم على سبيل المثال أنـه لاوجود للإستقراء • أخشى أنه لن يوافقنى على هذا أحد ، لذا يبدو لى هـذا الزعم من قبلى زعما أو فرضا تافها • إن فكرة الاستقراء هى الإجابة عـن السؤال : كيف نعرف ؟

الإجابة التقليدية هى : ماعلى سوى أن أفتح عينـى وأنظـر ومـن ثـم أعرف•

يحاول كل أصحاب نظريات المعرفة تقريبا تبرير معرفتنا مثل رودلـف

كارناب والذى كتب قائلا : " كيف تعرف " ؟ ما هى الإدراكات التـــى أدت إلى رأيك ؟ ليس هذا السؤال الثانى سوى صياغة أخرى للسؤال الأول ٠

أن يكون لدى إدراكات حسية وأن تكون هذه الإدراكات الحســـية هـــى مصدر المعرفة أمر ينظر إليه كمسألة بديهية ٠

ولكنى مع ذلك أزعم أن ٩٩% من معرفتنا ، أو ٩٩,٩% من معرفتنـــــا معرفة فطرية من الناحية البيولوجية والباقى تعديل ، أو انقلاب ثورى لمعرفة سابقة والتى هى بدورها انقلاب ثورى لمعرفة سابقة عليـــها ولكـــن ترتـد المعرفة فى النهاية إلى معرفة فطرية وتعديلاتها ٠

هناك إذن معرفة فطرية إلا أنها ليست معرفة يقينية ، لاوجود لمعرفـة يقينية ٠ لا أستطيع أن أعرف ما إذا كنت أحلـــم أم لا مـــالم أختـــبر ذلـــك بإستمرار ٠ يجب علينا أن نتحقق بإستمرار من الواقع بكل العينات العشوائية الممكنة ٠ إن كل مايوجد إذن هو معرفة تخمينية ٠

يؤسفنى أن كانط الذى أحبه وأعجب به كثيرا قد أخطأ مثل سائر أو مثل تقريبا سائر الفلاسفة الآخرين ٠ نحن حيوانات ٠ نحـــن البشـــر حيوانـــات والحيوانات لايمكنها أن تعرف معرفة يقينية وهو ما أدركه الفلاسفة اليونـــان بالفعل ٠ لقد قالوا : " لدى الآلهة معرفة صادقة ، أما ما لدى البشر فمحـض آراء " ٠ كان أرسطو أول من خالف هذا الرأى حيث ذهب إلــــى أن لدينـــا أيضا نحن البشر معرفة يقينية ، معرفة يمكن البرهان على صدقها ٠ ومن ثم فقد اخترع الاستقراء لكى يصل إلى هذه المعرفة التى يمكن البرهـــان علـــى صدقها ٠ وعندما لم يشعر بالإرتياح من جراء هذا ، نسبها لسقراط ٠

لايمكن فى هذا الإطار أن نقول أكثر من هذا ٠

لقد كان كانط على حق حينما ذهب إلى الاستقراء فى حاجة إلـــى شـــئ يسبقه ، فى حاجة إلى شئ عام ٠ إلا أن هذا العام رغم أنه قبلى ، سابق على

كل تجريب فإنه ليس يقينيا · لاوجود لمعرفة يقينية · فكلمة " معرفة " فـــى اللغتين الإنجليزية والألمانية على الأقل ـ تعبير عن حلم نتمناه ـ · المعنــى الدقيق لكلمة " معرفة " هو أن المعرفة معرفة يقينيـــة · لايمكننـــى القــول "أعرف " أننى فى فيينا رغم أنى " أخمن هذا " لايمكن للمرء أن يقول هـــذا وإلا لكان هذا نزولا فى المستوى من المعرفة الى التخمين · عندما أقــول " أعرف أنى فى فيينا " يجب أن أكون على يقين أننى فـــى فيينـــا · ولكــن لايمكننى أبدا أن أكون على يقين أننى فى فيينا إذ هناك دائما احتمال أنى أحلم ـ هناك إذن امكانية تلعب دورا هنا والآن فى حياتى وهى أنه من المحتمــل أنى أحلم ، أو أنه حلم أقرب إلى الحياة ، ولكن مادمت مجهدا بصورة قويـــة لن يكون هذا مستغربا ·

تعنى " المعرفة " إذن فى اللغتين الإنجليزية والألمانية معرفة يقينية وهــو مالاوجود له ، المعرفة على أحسن تقدير معرفة تخمينية ، وهى كل ما يمكن أن يكون لدينا · افضل معرفة لدينا هى المعرفة العلمية ومن.ثم فهى أيضـــا معرفة تخمينية ·

أهداف ومشكلات وقيم :

فى مواجهة ملاحظة ذكرها صديقى ريدل Riedl فى مقدمته فإنى أقـــف موقفا نقديا · فلقد نفخ فى بوق هؤلاء الذين لايشعرون بالرضا عن عقلنـــا · كما تحدث عن النسبية الثقافية · فى مقابل هذا سأقول شيئا مختلفا ·

يكمن واجبنا كبشر فى البحث عـــن الحقيقـــة ، الحقيقـــة الموضوعيـــة والمطلقة، إلا أنها ليست فى متناول أيدينا فهى شئ نبحث عنـــه بإســـتمرار وغالبا مانجده بصعوبة · كما نحاول دائما أن نقترب أكثر من الحقيقة · وما لم تكن الحقيقة موضوعية ومطلقة ما كان من الممكن لنا أن نخطئ أو لكانت أخطاؤنا مثل صدقنا ·

بحثنا عن الحقيقة يحدث دائما على النحو التالى :

نحن نبتكر بصورة قبلية نظرياتنا وتعميماتنا والتى تنتمى إليها إدراكاتنا الحسية للشكل . فالإدراك الحسى للشكل فرض أو تفسير لما نراه .

ومن حيث أن الإدراك الحسى للشكل تفسير فهو فرض . ليس أمامنا سوى تخمينات أو فروض ، لدينا بإستمرار تخمينات خلقناها بأنفسنا ، نحاول دائما وبإستمرار أن نضعها فى مواجهة الحقيقة الفعلية لكى نعدل منها ونقربها من الحقيقة .

أردت أن أصل إلى أن العلماء والمفكرين بصفة عامة قد اتضح لهم كم هو ضئيل ما نعرفه ، مثل مسألة نشأة الحياة على سبيل المثال التى لانعرف عنها شيئا . هذه هى المشكلات التى لم تحل والتى ذكرتها فعندما نشأت الحياة : لماذا نشأت على نحو اتفقت فيه بالمصادفة مع البيئة التى نشأت فيها؟ هذه مشكلة صعبة .

فنحن لانعرف شيئا . هذه هى المشكلة الأولى

لذا يجب أن نكون متواضعين . هذه هى المشكلة الثانية

أما المشكلة الثالثة فتكمن فى أننا لانزعم أننا نعرف عندما لانعرف . هذا هو تقريبا الموقف الذى أريد تعميمه وأملى فى ذلك ضعيف .

المقالة السادسة

كبلر • ميتافيزيقاه حول المجموعة الشمسية وإتجاهه النقدى التجريبى

Kepler . Seine Metaphysik des Sonnensystems und seine empirische Kritik

محاضرة ألقاها بوبر فى مدينة لينز Linz فى الثامن من أغسطس ١٩٨٦

ثم تم نشرها فى كتاب تحت عنوان " Wege der Vernunft " أى " طريق العقل " فى ذكرى الميلاد السبعين لهانز ألبرت H.Albert ،

Hrsg von Alfred Bohnen und Alan Musgrave. Tubingen (J.C.B. Mohr/Poul Siebeck) 1991 .

الأمس السابع من نوفمبر ١٩٨٦ ! ثمانية أيام قبل ذكرى وفاته الثلاثمائة والست والخمسين ـ كان يوماً مشهوداً فى تاريخ حياة كبلر • إذ أن ٧ نوفمبر ١٦٣١ كان هو اليوم الذى لاحظ فيه " بيير جاسندى Pierre Gassendi " مرور الكوكب عطارد Merkur من أمام قرص الشمس وهو الحدث الذى تنبأ به كبلر قبل حدوثه بعامين •

ولكن لم يقدر لكبلر أن يشهد هذه الظاهرة التجريبية لنظريته الجديدة فى الكواكب ، إذ أنه قد توفى قبل حدوثها بعام واحد ، أى قبل عيد ميلاده التاسع والخمسين بقليل •

يجب علىّ بادئ ذى بدء أن أذكر وبوضوح أنى لست دارساً متخصصاً لكبلر • لست سوى أحد المتحمسين والمعجبين بكبلر وأحد أتباعه • مايعجبنى فيه هو حبه الرائع للحقيقة وبحثه عنها دون كلل أو ملل كما ظهر لنا ذاك بصفة خاصة فى كتابه الفلك الجديد Astronomia Nova ،.كما أعجبتنى أيضاً ميتافيزيقاه الخلاقة كما ظهرت فى سائر أعماله والتى وصلت إلى نضجها فى نظريته عن انتظام النظام الكوكبى كما عبر عنه فى كتابه " مطابقات العالم"•

أريد قبل كل شئ أن أذكر ملاحظتين ، الملاحظة الأولى تخص ميتافيزيقا كبلر وبأى معنى أنتسب اليه •

والملاحظة الثانية حول اتفاقى مع منهج كبلر والذى لعبت فيه ميتافيزيقا كبلر دوراً كبيراً •

لنبدأ إذن بميتافيزيقا كبلر • لقد بحث كبلر مثله فى ذلك مثل سائر العلماء الحقيقيين والباحثين عن الحقيقة ، عن الحقيقة الفعلية كحقيقة تكمن خلف الظواهر • هذه الظواهر يجب أن توضح الحقيقة الفعلية المفترضه ، إلا أنه ـ مثله أيضاً فى ذلك مثل سائر الباحثين عن الحقيقة ـ وقع فى أخطاء عديدة ولكنه ـ كقليل فقط من أمثاله ـ استفاد وتعلم الكثير من هذه

الأخطاء .

لقد تأثر كبلر فى بحثه عن الحقيقة خلف الظواهر بلغنثـ عوربير وميتافيزيقاهم . لقد اعتقد أن بالعالم جمالا نشأ عن الإنسجام Harmonie وتآلف الأصوات Resmanz وتنافرها Dissonanz فهى سيمفونية إلهية أو هندسة من الجمال الإلهى . لقد جعلت هذا الفكرة من كبلر باحثا ـ لايكل ولايمل ـ عن الحقيقة . الحقيقة يجب أن تكون جميلة ، يجب أن تكشف عن حقيقة الجمال الإلهى . لقد أراد كبلر أن يكتشف هذه الحقيقة الفعلية ، ليست الحقيقة التقريبية ولكن الحقيقة الفعلية للجمال ، وهو مايفسر أخذه فرض إنحراف المدار مأخذا جديا : الإنحراف عن المدار بمقدار ثمان دقائق منحنى والتى وصل إليها من ملاحظات تيخوبراها[1] .سائر ما تلى ذلك يعتمد على هذا الإنحراف الذى اكتشفه كبلر: فديناميكا نيوتن ومعها سائر الفيزيقا الحديثة تعتمد على هذا الإنحراف الذى إكتشفه كبلر . لقد رأى كبلر فى هذا الإنحراف تنافرا وهو التنافر الذى رأته ميتافيزيقاه.وحبه للحقيقة أمرا غير محتمل ومن ثم يجب حله .

عرض كبلر حل هذا التنافر ـ وهو مطلب ميتافيزيقاه ـ فى كتابه "مطابقات العالم " الذى يمثل ميتافيزيقاه فى أوج نضجها . ولم تكن فيزياء نيوتن الكلاسيكية هى فقط مانشأ عن هذا التوتر بين دقائق المنحنى الثمانية ـ أقل منْ ١/٧ درجة ـ وميتافيزيقا كبلر الفيثاغورية ولكن الميكانيكا الموجية أيضا نشأت عن هذا . ومثلما لم تأخذ النظرية الذرية التى بدأت فى القرن الخامس قبل الميلاد فى صورتها اليونانية كميتافيزيقا على يد لوقيبوس Leukipp وديمقريطس Demokrit ـ طابعها العلمى إلا فى القرن التاسع عشر والعشرين ، كذلك لم تأخذ نظرية كبلر فى إنسجام العالم طابعها العلمى

---

(١) تيخوبراها ، عالم فلك (١٥٣٦ ـ ١٦٠١) حاول مثل كوبرينكس أصلاح علم الفلك النظرى وذلك بتحسين المشاهدات الفلكية وقد نجح بإستخدام آلات جديدة فى الوصول إلى مقاييس أكثر دقة من بطليموس وكوبرنيكس .

إلا على يد لويس دى بروجلــى Louis de Broglie وإرفــن شــرودنجر Erwin Schrodinger • أن ميكانيكا شرودنجر الموجيـــة هــى محاولــة تحويل الانتقال من التفسير الاشعاعى الهندسى للضوء إلى التفسير الموجى له إلى نظرية المادة ، أى إلى نظرية الجزيئيات الأولية ، والتفســير الموجــى للضوء من جانبه. ينحو نحو أن يكون نظرية موسيقية ، نظرية فى الذبذبـات السمعية والموجات ، أو تآلف وتنافر الأصوات. ولكن فى هذه النظرية يلعب كبلر ونظريته فى الإنسجام ــ دوراً رئيسياً •

لقد لعب كبلر إذن دوراً فى التاريخ السابق علــى ميكانيكــا شَــرودنجر الموجية • إلا أن هذا ليس هو كل شئ ، إذ يظل كبلر الوحيد بين الســابقين على شرودنجر الذى توقع أن يجمع الإنسجام ــ أو التآلف ــ العالم أو يشــد بعضه إلى بعض ، ذلك أنه إذا كان التــألف يجمــع الــذرات والجزيئيــات وجزيئيات الــ DNS ، فإنه يمكن النظر إلى هذه الواقعة على أنـــها أكــثر نتائج ميكانيكاً شرودنجر الموجية أهمية •

فكما أعتقد من قبــل ايشنتين ودى بروجلى de Broglie وأتباعـــهما ، من الممكن أن يكون هناك فى الواقع مانسميه موجات دى بروجلى الفارغــة والخالية من المادة • وهو مايبدو أنه يؤكد النتائج التى وصل إليـــها عــالم الفيزياء التجريبية الفيينى الأصل ــ نســـبة إلـــى فيينــا ــ هلمــوت راوخ Helmut Rauch علـــى الأقـــــل بشـــأن الموجـــات النيوترونيــــة Neutronenwellen وهى النتائج الأكثر أهمية بالنسبة لهذه المشكلة • يتأكد هنا مانعرفه منذ قوى نيوتن وميادين فارادى وماكسويل أن هناك تركيبــات فيزيقية مؤثرة ، تركيبات لا مادية ولكنها تدخل فى علاقة تفاعل متبادل مــع المادة •

أنا أحد المعارضين لنظرية نيلـــز بوهــر Niels Bohr فــى تكــامل الجزيئيات والموجات والتى وفقاً لها يبدو ماهو غير معروف. (الشـــئ فـــى

ذاته) مرة كجزئ Teilchen ومرة أخرى كموجة ولكن تتعارض بالتبادل هاتان الطريقتان فى الظهور (لقد تم تفنيد هذه النظرية مع غيرها من النظريات بمثاله المفضل عن تجربة الإنقسام الثنائى Zwei-Spalten Experiment والتى تظهر فيها الجزيئيات ذات الطابع الموجى فى إنتشارها) ولكنى أؤيد نظرية دى بروجلى فى الموجات الطائرة : وهى فرض أكثر بساطة من سابقتها والتى تذهب إلى أن هناك جزيئيات وأيضا موجات ٠ تتحدد الجزيئيات المادية وفقا للموجات اللامادية ٠ سعة الجزيئيات المادية تحدد إتجاهات أو ميول محتملة مما يعنى أن التآلف والتنافر معا يحكمان العالم كما ذهب إلى ذلك كبلر ٠ ومنذ سنوات عندما وضعت خطة كتاب " الذات وعقلها **The self and Its Brain** " مع سير جون اكسلز كنت أتبنى الفرض الميتافيزيقى الذى منطوقه أنه من الممكن حل مشكلة العلاقة بين النفس والجسد متى قبلنا اعتبار النفس نسقا معقدا جدا ومغيرا للميول تصفه وظيفة المخ الموجية ٠ يمكن وصف هذا الفرض الميتافيزيقى بأنه محاولة إعادة تقديم نظرية Simmias المشهورة فى محاورة فيدون لأفلاطون ، أى نظرية فيثاغورس التى ترى فى النفس انسجام الجسد ٠

لابد أن بعضكم ــ بعض المستمعين إلى هذه المحاضرة ــ قد أصابته الدهشة بل والغضب من اتفاقى المتحمس مع الفرض الميتافيزيقى الذى يتبناه كبلر ولاسيما أنى مشهور منذ فترة طويلة بأنى ممثل حقيقى لوضعيى حلقة فيينا ومعاد للميتافيزيقا ٠ لقد كتب حديثا أحد علماء النفس الأمريكيين وهو فى نفس الوقت أحد الباحثين فى المخ ــ كتب مادحا لى يقول :

" أن بوبر هو أحد الورثة المؤثرين لتأكيد ماخ على الإنطباعات الحسية وماتلى ذلك من وضعية حلقة فيينا " (كارل بريبرام Karl Pribram فى كتاب العقل والمخ Mind and Brain ، المحرر : سير جون إكسلز ١٩٨٤) ومن ثم فإنه ليس من غير المحتمل أن يشخص البعض إنتقالى

الفكرى الصريح المتفائل من الوضعية إلى مصادقة الميتافيزيقيا على أنه من بلاهة الشيخوخة •

قد يصدق أى أصبت ببلاهة الشيخوخة ولكن لايصدق هذا على مسألة التغير الفكرى الذى حدث لى ـ وذلك أننى منذ أول مرة نشرت فيها ما كتبته عن نظرية العلم وكان ذلك عام ١٩٣٣ أكدت ضد الوضعية (فى مجلتهم الخاصة المعرفة Erkenntnis) وظللت أؤكد أن علم الطبيعة ـ إذا نظرنا إليه من زاوية تاريخية ـ قد نشأ كانعكاس لأفكار ميتافيزيقية • كانت النظرية الذرية للوقيبوس وديمقريطس بصفة خاصة هى ما تمثل فى ذهنى وقتها وهى مايتمثل الآن • هذا الإعلان الذى أصدرته عام ١٩٣٣ والذى أعلنت فيه عن كتابى "منطق الكشف" كان عبارة عن صفحتين فقط ومن ثم لم أستطع أن أذكر فيه سوى الأفكار التى بدت لى الأكثر أهمية •كانت هذه الأفكار على النحو التالى : الأولى : تفنيد شليك وفتجنشتين الثانية : أن النظريات العلمية ـ منظورا إليها نظرة تاريخية صدرت فى أغلبها عن الميتافيزيقا والتى تتميز عنها فى أنها مايقبل التكذيب •

تكمن سائر ميثودولوجيتى فى الملاحظة القائلة بأن العلوم الفيزيائية تحاول البحث عن الحقيقة الفعلية التى تكمن متوارية خلف الظواهر وأننا يجب علينا أن نتقدم بالنصيحة حين لايمكننا أن نعرف شيئا وهو تماما مافعله كبلر • ومتى أردنا أن نخضع للإختبار فروضنا القابلة للإختبار ـ مثلما فعل كبلر ـ فعندئذ لن تظل الفروض فروضا ميتافيزيقية ولكنها ستتحول إلى فروض علمية تسمح لنا بالتعلم من أخطائنا • هكذا فعل كبلر الذى استبعد أخطاءه وتعلم منها • لقد اكتشف بهذه العملية ـ عملية الإستبعاد ـ أهم الأخطاء ـ الفرض القائل بدوران الأفلاك فى مدارات دائرية الذى كان معتقدا قديما ـ ومن ثم وضعه فى مواجهة ملاحظات تيخوبراهى •

لقد قال كبلر بنفسه عشرات المرات على الأقل أن مايفعله هو محض

تفنيدات • كان يكرر قوله عن الفرض الذى يتم رفضه والذى لم يكن قد عـــو سوى وقت قصير جدا على وضعه له أن قياسات تيخو قد فندته ومن ثم يجب عليه ابتكار فرض جديد غيره ويقوم بتجربته •

لقد وصل إذن إلى التفنيد ، أو التكذيب ، تفنيد وتكذيب فـــرض المـــدار الدائرى والذى أوصله بعد عدة عمليات من التفنيد ــ والتى أطلـــق عليـــها التفنيدات ــ إلى فرض المدارات البيضاوية • ولم يصل كبلر بصورة كاملـــة إلى مبدأ تساوى المساحات Flächensatz فى كتابه الفلك الجديد ولابعد ذلك بعشرة سنوات فى كتابه مطابقات العالم ولكنه وصل إليه أول ـة بصـــورة كاملة فى كتابه " مختصر علم الفلك الكوبرنيقى Kurzen Lehrbuch der Kapernikanischen Astronomie der Epitome" ، والذى نشر عـــام ١٦٢٠ •

وكثيرا مايقال أن كبلر لم يؤكد على قانونيه الأولين تماما • لماذا ؟ لقـد أراد أن يكتشف الحقيقة أو الحقيقة الفعلية الكامنة خلف الظواهر ، فلم يـــرد مجرد وصـــف أفضـــل ولكنـــه أراد تفســيرا عليـــا ، أو فيزيـــاء فلكيـــة Himmelsphysik • لقد أراد تماما ما حققه نيوتن بالفعل بعد مـــرور ٦٠ عاما وهو ما كان كبلر يعرف وقتها أنه لم يصل إليه بعد • ولكن ما الـــذى حال بينه وبين تحقيق ذلك ؟ لقد وصل كبلر بالحدس لحساب التكامل ولكنه لم يعرف حساب التفاضل • لقد فهم أن الأجسام تنجذب لبعضها أو يشد بعضـها بعضا وتحرك بعضها " وأن القوة الكبيرة الخارجة من الشمس هى العلة التى تفسر حركة الكواكب " • إلا أنه لم يفهم التمييز بين علـــة حركة الأجســـام وعلة تغير موضع الحركة •

هذا هو الفارق بين تناول كل من كبلر ونيوتن لمشكلة إيجاد العلة الكامنة خلف الظواهر ، خلف قوانين كبلر • وهو ما أمل كبلر أن يجدها ــ أى العلة ــ فى انسجام الكون •

لقد وجه أوسر Erhard Oeser نظرى إلى أن فكرة وجود علاقة بين ميكانيكا الكم ونظرية الإنسجام لدى كبلر قد وصل إليها زومر فلد Arnold Sommerfeld[1] من قبل . هذه المعلومة الجديدة بالنسبة لى ـ والتى أجد لزاما على أن أشكر أوسر عليها ـ جاءتنى متأخرة بحيث لم أضعها فى صلب نقاشى .

يمكن إيجاز ماسبق فيما يلى . لم يكن كبلر ـ كما يقال فى الغالب ـ بالرجل الذى ربط بين ميتافيزيقا بدائية تنتمى للعصور الوسطى وفكرة الإستقراء الحديث . لقد أخطأ نيوتن حينما أعتقد أن كبلر قد وصل إلى قوانينه الثلاثة بالإستقراء إعتمادا على ملاحظات تيخو . لقد كان الحدس هو المرشد والموجه لكبلر مثله فى ذلك مثل كل عالم:

محاولة (فرض) وخطأ (تفنيد تجريبى) . كما كان كبلر ـ مثله فى ذلك مثل كل عالم يبحث شئ جديد ويجده ـ فيلسوفا ميتافيزيقا نجح فى التعلم من أخطائه . ولقد كان هذا كله واضحا له وهو الوضوح الذى لم يفهمه الكثير من العلماء حتى اليوم .

لايمكننا العمل دون الحدس رغم أن كثيرا من حدوساتنا يظهر خطؤها . نريد حدوسات ، أفكارا أو افكارا منافسة بقدر الإمكان ثم أفكارا عن كيف يمكننا إخضاع الأفكار الأولى للنقد ومن ثم تطويرها ثم اختبارها . وإلى أن يتم تفنيدها (بل وإلى مدة أطول من ذلك) يجب علينا تحمل الأفكار موضع الشك إذ أن أفضل الأفكار هى الأفكار موضع الشك .

---

(١) زومرفلد A.Sommerfeld (١٨٦٨ - ١٩٥١) عالم طبيعة ألمانى الجنسية ، ساعد نموذجه الذرى الذى وضعه فى تفسير تركيب ألوان الطيف .

الجزء الثانى من الكتاب
أفكار فى التاريخ والسياسة

Gedanken uber Geschichte und Politik

المقالة السابعة
فى مسألة الحرية

Zum Thema Freiheit

محاضرة ألقاها كارل بوبر فى مدينة ألباخ ٢٥ - أغسطس ١٩٥٨

نحن لانعرف سوى القليل عن عملية تعمير مناطق الألب العليا النمسوية والسويسرية والفرنسية بالسكان ، تلك العملية التى حدثت فى أزمنة مـا قبل التاريخ • إلا أنه من الممكن أن نفكر كيف حدثت هذه المسألة • فقد يكون البشر الذين كانوا يمارسون الزراعة والرعى استقروا فى أودية الألب العليا تلك الأودية وعرة المسالك والمتوحشة حيث أمكنهم أن يعيشـون ـ على أحسن تقدير – حياة صعبة جافة ومحفوفة بالمخاطر • قد يكون هؤلاء الناس قد استقروا فى الجبال مفضلين بذلك الوجود غير الآمن على استعباد جيران أقوى منهم لهم • فرغم عدم الأمان والمخاطر اختاروا الحرية • هكذا اعتقد دائماً أن الحرية لدى السويسريين والنمساويين تعود إلى ماقبل تاريخ تعمير سويسرا •

وعلى أية حال فإنه لأمر شيق ومثير للإنتباه فى نفس الوقت أن إنجلترا وسويسرا وهما أقدم دولتين ديمقراطيتين فى أوربا الحديثة تتشابهان فى حبهما للحرية • واستعدادهما للدفاع عن حريتهما • إلا أنهما تختلفان فى ملامح أخرى كثيرة وبصفة خاصة فى نشأتهما السياسية • تدين الديمقراطية الإنجليزية بنشأتها للكبرياء وإحساس الطبقة الأرستقراطية بالإستقلال وتدين فى تطورها المتأخر لطريقة التفكير البروتستانتى والضمير الشخصى والتسامح الدينى الذى تلى الصراعات السياسية والدينية الكبرى التى أحدثتها الثورة البيوريتانية • أما الديمقراطية السويسرية فلم تنشأ من كبرياء والإحساس بالإستقلال وفردية الأرستقراطية وإنما من كبرياء والإحساس بالإستقلال والفردية لقاطنى الجبال المرتفعة •

لقد أدت هذه البدايات والتقاليد المختلفة تاريخاً تماماً إلى نشأة مؤسسات وأنساق قيم تقليدية مختلفة تماماً عن بعضها ، فما يتوقعه شخص سويسرى ـ أو نمساوى ـ أو يأمله من الحياة ـ فيما أعتقد ـ يختلف بصفة عامة عما يتوقعه أو يأمله شخص إنجليزى • يفسر الإختلاف بينهما فى أنساق التعليم

تفسيرا جزئيا ـ هذا الإختلاف فى أنساق القيم ، كما أن هذا الإختلاف فى أنساق التعليم يجد بدوره تفسيره فى التعارضات الاجتماعية والتاريخية التى أشرت إليها • لقد كان التعليم فى إنجلترا حتى هذا القرن ميزة يختص بها طبقة الأشراف والنبلاء وأصحاب الأملاك ـ أى لم يكن يتمتع بها المواطنون وأبناء الطبقة الوسطى ولكنها كانت خاصة بالعائلات الكبرى صاحبة الأملاك الكبرى • كانت هذه العائلات الكبرى هى حاملة الثقافة ، ومنها خرج العلماء (الذين غالبا ما كانوا أصحاب نفوذ) وأصحاب الوظائف العليا كالسياسيين والقضاة والضباط • فى مقابل هذا كان حاملو الثقافة فى سائر القارة مواطنين عاديين ينتمى معظمهم للطبقة الوسطى • فالثقافة والتعليم لم تكن شيئا يرثه الإنسان ولكنها كانت شيئا يصنعه الإنسان نفسه • لم تكن الثقافة والتعليم رمزا لوضع إجتماعى موروث ولكنها كانت وسيلة ورمزا للنهضة الاجتماعية وللتحرر الذاتى عن طريق العلم •

يفسر هنا أيضا لماذا كان الصراع المظفر ضد الفقر فى إنجلترا شكلا من أشكال استمرار الصراعات الدينية على مستوى آخر وهو الصراع الذى لعب فيه استدعاء الأشراف والطبقة الوسطى للضمير والوعى الدينى دورا حاسما، بينما حركت فكرة التحرر الذاتى عن طريق العلم ، فكرة التعلم الكبرى لبستالوزى Pestalozzi [1] الصراع ضد الفقر والبؤس •

رغم سائر هذه الإختلافات عميقة الأسس ، تعرف كل من إنجلترا وسويسرا أن هناك قيما يجب الدفاع عنها بأى ثمن • تنتمى الحرية الشخصية والإستقلال الشخصى بصفة خاصة لهذه القيم • كما تعلم كلاهما أنه يجب الصراع من أجل الحصول على الحرية والإستمرار فى الحرب من أجلها حتى ولو بدا احتمال النصر ضعيفا • فعندما كانت انجلترا تحارب وحدها

---

(١) Johann Heinrich Pestalozzi • يوهان هينريك بستالوزى ١٧٤٦ ـ ١٨٢٧ ، أستاذ نمساوى من أساتذة التربية الذين تأثروا بصفة خاصة بحركة التنوير الفرنسية وعلى وجه الخصوص بجان جاك روسو وبالفلسفة الألمانية الكلاسيكية •

من أجل الحرية عام ١٩٤٠ لم يعد تشرشل الإنجليز بالنصر ، فلقد قال " لا أستطيع أن أعدكم سوى بالدماء والدموع " • لقد كانت هذه هى كلمته التى منحت إنجلترا الشجاعة للإستمرار فى الحرب •

وبالمثل فى سويسرا كان الإصرار والتصميم التقليدين على الصراع — ضد عدو لاشك فى قوته هو الهابسبرجر Habsburger [1] أولاً ثم الرايخ الثالث فيما بعد — هو ماحفظ لأهل سويسرا استقلالهم أثناء الحرب العالمية الثانية •

II

أشد ما أخشى أن أكون قد إندفعت بتأثير حبيبتنا مدينة الباخ Alpbach وبتأثير هذا التعاون الرائع بين يدى الطبيعة والإنسان وبين حب الوطن والإجتهاد البشرى ، أن أكون قد اندفعت فغلفت كلماتى التمهيدية هذه بشئ من الرومانتيكية والعاطفة ، لذا أجد نفسى مضطراً أن أضع هذه الكلمات التمهيدية ذات المسحة الرومانتيكية والعاطفية فى قالب آخر محايد أتجه فيه ضد الرومانتيكية وبصفة خاصة ضد الإتجاه الرومانتيكى فى الفلسفة • أريد أن أبدأ هذه المقدمة الثانية بتعريف نفسى •

أريد بادئ ذى بدء ألا يؤخذ ما سأقوله الآن مأخذ الإعتقاد والتصديق • بل على العكس أريدكم أن تتعاملوا معه بكل الشك • لست على الإطلاق رائداً لطريق جديد ، أو مناد بإتجاه جديد فى الفلسفة كغيرى من زملائى الفلاسفة ولكنى على العكس تماماً فيلسوف يحمل إتجاهاً قديماً تماماً ، فيلسوف يعتقد فى فلسفة قديمة ومسبوقة ، فلسفة عصر مضى عصر العقلانية والتنوير • فمن حيث أنى أمثل آخر فلاسفة العقلانية والتنوير فأنى أعتقد فى تحرير الإنسان الذاتى عن طريق العلم — مثل كانط أخر فلاسفة التنوير العظام ، ومثل بستالوزى الذى حارب الفقر بالعلم • أريد إذن أن اقول

---

(١) الأسرة الحاكمة فى سويسرا فى الفترة من ١٢٧٣ حتى ١٨٠٦.

بوضوح أنى اتبنى هنا آراء كان ينظر إليها كآراء خاطئة ومتخلفة من حوالى ١٥٠ عاما ، ذلك لأن الحركة الرومانتيكية رأت فى التنوير رمـزا للقمامـة Anspielumg auf Kehricht ولكنى للأسف متخلف جـدا لدرجـة أنـى مازلت أتمسك بهذه الفلسفة القديمة والمتخلفة ولا أستطيع فى تخلفى هـذا أن أرى فى فلسفة الحركة الرومانتيكية وبصفة خاصة فى فلسفة الرواد الثلاثـة الكبار للمثالية الألمانية فشتة ، شلنج وهيجل سـوى أنـها كارثـة أخلاقيـة وفكرية، أكبر كارثة اخلاقية وفكرية ابتلى بها العقل الألمانى والأوربـى . هذه الكارثة كان لها ــ فيما أعتقد ــ تأثير فتاك ومجهل مازال من الممكـن تصوره كسحابة ذرية فى حالة تزايد . إن هذه الكارثة تنطـق بمـا اسـماه كونراد هايدن Konrad Heiden منذ سنوات فى كتابه عن هتلـر " زمـن إنعدام الذمة الأخلاقية والفكرية " .

لن يستطيع أحد أن يوقف روح العصر أو يوقف حركة توجهـها روح العصر ، لن يحدث هذا على الأقل بواسطة أحـد أتبـاع حركـة التنويـر المتأخرين مثلى أنا مثلا الذى أعترف بقوة الموضة أو قـوة روح العصـر ولكنى لست مستعدا لقبولها . فعلى عكس أهل الثقة الكبـار الرومـانتيكيين والمعاصرين لا أعتقد أن واجب الفلسفة أن تعبر عن روح زمانها . أعتقـد (مثل نيتشه) أن الفيلسوف يجب أن يتأكد دائما وأبدا أنه لم يبدأ أخـيرا فـى الإتفاق مع روح العصر ذلك الإتفاق الذى يعرض استقلاله العقلى للخطـر ، أتفق تماما مع هوجو فون هوفمنسـتهل Hugo Von Hofmannsthal [1] عندما قال فى " كتاب الصداقة " " Buch der Freunde ". " الفلسـفة هـى قاضية زمانها . والأمر يكون سيئا إذا كانت بدلا من ذلك ــ هـى التعبـير عنه".

(١) شاعر وكاتب مسرحى نمساوى ، عاش فى الفترة بين ١٨٧٤ – ١٩٢٩ .

III

لن يكون لإدراكاتى الموجهة ضدى بأنى أنتمى للعقلانية وحركة التنوير معنى مالم أوضح قليلا ما أعنيه بالعقلانية والتنوير .

عندما أتحدث عن العقلانية ، لا أعنى بها نظرية فلسفية مثل نظرية ديكارت مثلا أو الإعتقاد اللامعقول بأن الإنسان جوهر عقلى محض . ما أعنيه عندما أتحدث عن العقل أو العقلانية ليس سوى الاقتناع بأننا نستطيع التعلم عن طريق نقد أخطائنا ، بصفة خاصة نقد الغير لنا ونقدنا لأنفسنا فالعقلانى هو ببساطة إنسان يتعلم أكثر من إنسان متمسك بالحق ، إنسان مستعد للتعلم من الآخرين ، لابمعنى التسليم ببساطة برأى غريب ولكن بمعنى أن يسمح للآخرين بنقد آرائه ، أى ينتقد آراء الآخرين . فما نؤكد عليه هنا هو فكرة النقد أو بالتحديد المناقشة النقدية .

لايعتقد الشخص العقلانى إذن أنه أو غيره فى وضع العارف ، كما لا يجب أن يعتقد أن مجرد النقد هذا يساعدنا على الوصول الى آراء جديدة ، ولكن أن يعتقد أن المناقشة النقدية هى فقط ما تساعدنا على التمييز فى ميدان الأفكار بين الغث والسمين . أنه يعرف بالفعل أن قبول أو رفض فكرة ما ليس مسألة عقلية بحتة ولكنه يعتقد أن المناقشة النقدية وحدها هى مايمكنها أن تقدم لنا النضج اللازم الذى يمكننا من رؤية الفكرة من وجوه شتى ومن الحكم عليها حكما صحيحا .

لهذا التقدير والإعتبار للمناقشة النقدية جانبه الإنسانى إذ يعرف العقلانى كأمر بديهى أن العلاقة الانسانية لاتخلقها المناقشة النقدية كما يعرف ــ على العكس تماما ــ أن المناقشة النقدية العقلانية لإمكان لها فى حياتنا إلا نادرا ولكنه مع هذا يعرف أن مسألة الأخذ والعطاء التى تضع أساس المناقشة النقدية مسألة ذات دلالة كبرى من الناحية الإنسانية .

إذ يعرف العقلانى أنه يدين بعقله للآخرين ، يعرف أن وجهـة النظـر العقلانية النقدية يمكن ألا تكون سوى نتيجة لنقد الآخرين لـه وأن الإنسان لايمكنه الوصول إلى النقد الذاتى إلا عن طريق نقد الآخرين .

يمكن التعبير عن وجهة النظر العقلانية على النحو التالى : قد لا أكـون على حق وقد تكون على حق ، ولكن يمكننا معا أن نأمل فى الوصول ــ بعد مناقشة تقوم بيننا ــ إلى توضيح للأمر أكثر مما كان عليه قبل المناقشـة ، كما يمكننا فى كل حالة أن نتعلم كل من الأخر طالما أننا لا ننسى أن المسألة ليست مسألة من منا الذى يجانبه الحق ، أو من الذى يقترب مـن الصدق بصورة أكبر . فقط من أجل هذا الغرض يمكننا بقدر المستطاع أن ندافع عن أنفسنا فى المناقشة .

هذا هو بإختصار ما أعنيه عندما أتحدث عن العقلانيـة . أمـا عندمـا أتحدث عن التنوير فإنى أعنى شيئا أكثر من ذلك قليلا ، إذ يقفز إلى ذهنـى أول مايقفز فكرة التحرر الذاتى عن طريق العلم ، تلك الفكرة التى جاء بـها كل من كانط وبستالوزى وكذلك واجب كل مفكر فى مساعدة الغـير علـى التحرر عقليا وعلى فهم وجهة النظر النقدية ، وهو الواجب الذى نسيه معظم المفكرين منذ فشته وشلنج وهيجل إذ أن بعض المفكرين يهدفون للأسف فقـط لسحر الناس ــ كما يقول شوبنهور ــ لا لتعليمهم ولكن فقط لإبهارهم ، فـهم يتصرفون كما لو كانوا قادة أو أنبياء . يبرر هذا جزئيا أنه متوقع منهم أنهم يتصرفون كما لو كانوا أنبياء ، أو حاملى السر المظلـم للحيـاة ، وللعـالم والإنسان أو للتاريخ والوجود . هنا وكما يحدث غالبا للأسف يخلق الطلـب الدائم عرضا ، فيتم البحث عن قادة وأنبياء ولاعجب أن تظهر هـذه القـادة والأنبياء ولكن كما قال ويلز H.G.Wells مرة " ليس الراشدون فى حاجـة إلى مرشد " فالراشدون يجب أيضا أن يعرفون أنهم ليسوا فى حاجة إلى قـادة أو مرشدين، فواجب كل مفكر ــ كما أعتقد ــ أن يبتعد بكل وضوح عن كل

IV

ماهى الخاصية الظاهرة التى يشترك فيها كل من وجهتى النظر هاتين : وجهة نظر التنوير ووجهة نظر الذين يسمون أنفسهم أنبياء ؟ هذه الخاصية هى اللغة ٠ فالداع إلى التنوير يتحدث ببساطة بقدر الإمكان ، إذ ينبغى أن يكون مفهوما ٠ ومن هذه الوجهة يعتبر برتراند رسل Russell الفيلسوف الذى لايناظره أحد فى الوضوح من الفلاسفة ٠ كما أن الداع إلى التنوير متى لم نتفق معه فلن تملك سوى الإعجاب به ، إنه يتحدث دائما بوضوح وبساطة وبصورة مباشرة ٠

لماذا يعتمد دعاة التنوير بصورة كبيرة على بساطة اللغة ؟ ذلك لأن هدف الداع للتنوير الحقيقى والعقلانى الحقيقى لايكمن فى الاقناع. نعم ، لايهدف حقيقة إلى الاقناع ، ولكنه يظل على وعى دائما بأنه من الممكن أن يكون على حق ، أنه يعتقد بصورة خاصة وبصورة قوية فى الإستقلال العقلى للآخرين لكى يريد أن يقنعهم بأشياء هامة ٠أنه يدعو بالأحرى إلى الإختلاف فى الرأى وعلى أحسن تقدير إلى نقد عقلى منظم. هو لايبغى الإقناع ولكن أن يبعث الآخرين من مرقدهم ، يدعو لبناء الرأى الحر ٠ بناء الرأى الحر ــ وفقا له ــ هو فقط ماله قيمة ، وهو له قيمة ليس فقط لأننا يمكننا ببناء الرأى الحر أن نقترب من الحقيقة ولكن ايضا لأنه يحترم بناء الرأى الحر ، كما يحترمه أيضا متى ظهر له خطأ الرأى المتكون ٠

لماذا لايهدف الداع للتنوير إلى الاقناع ولو مرة واحدة ؟ يكمن أحد أسباب ذلك فيما يلى : يعرف الداع للتنوير أنه خارج نطاق المنطق والرياضيات لايمكن إثبات شئ ٠ نعم من الممكن تقديم حجج وبحث اراء بحثا نقديا ، إلا أنه خارج المبادئ الأولية للرياضيات فإن حججنا ليست

ملزمة لأحد أو معصومة من الخطأ • يجب علينا دائماً أن نعيد تقييم الأسس ولن نقرر دائماً أى الأسس ذات ثقل أكبر • الأسس التى تخدم رأياً معيناً أو تتحدث ضده • يتضمن بناء الرأى إذن فى المقام الأخير عنصر التحديد الحر • هذا التحديد أو التقرير الحر هو مايجعل من الرأى رأيا ذا قيمة من الناحية الإنسانية •

لقد تبنى دعاة التنوير منذ جون لوك هذا التقدير الكبير للرأى الشخصى الحر وهو التقدير الذى جاء بلا شك كنتيجة مباشرة للحروب الدينية الإنجليزية والأوربية ، وهى الحروب التى نتج عنها أخيراً فكرة التسامح الدينى • ليست فكرة التسامح الدينى هذه فكرة سلبية على الإطلاق كما يعتقد البعض أحياناً (مثلما يرى أرنولد توينبى) ، فهى ليست مجرد تعبير عن التعب من الحروب وأنه لا أمل من فرض اتفاق الاقتناعات الدينية عن طريق الارهاب ولكنها على العكس تنتج المعرفة الإيجابية بأن إتباع دين بطريق الفرض لاقيمة له وأن الاعتقاد الدينى الحر هو فقط مايمكن أن يكون ذا قيمة • إن فهم فكرة التسامح الدينى على هذا النحو يقودنا إلى ماهو أكثر من ذلك ، فهو يقودنا لإحترام كل اعتقاد صادق ، وإحترام الرأى الخاص ورأى كل فرد آخر ، كما يقودنا ـ كما قال ايمانويل كانط آخر فلاسفة التنوير العظام ـ إلى الاعتراف بعزة وكرامة الإنسان •

ما يعنيه كانط بعزة وكرامة الإنسان هو الأمر بإحترام كل فرد ومعتقداته • يربط كانط هذه القاعدة بالمبدأ الذى يطلق عليه الإنجليز وبصدق القاعدة الذهبية والذى يعنى " لاتفعل بغيرك ماتكره أن يفعله بك الأخرون "[*] •

يربط كانط بشدة هذا المبدأ بفكرة الحرية ـ حرية الفكر والتى طلبها شيلز ماركيوس بوزا من فليب Schillers Marquis Posa von Philipp، حرية الفكر التى حاول بها سبينوزا أن يؤسس فكرته بأن الحرية غير قابلة

(*) لقد عبر الإسلام تعبيراً دقيقاً عن هذا المبدأ فى قول الرسول الكريم (حب لأخيك ماتحبه لنفسك) •

للنقل أو التصرف وهى الحرية التى يحاول الحاكم الطاغ أن ينزعـــه عنـــ ولكنه مع هذا لايستطيع ٠

أعتقد أنه لم يعد من الممكن أن نتفق مع سبينوزا فى هذه النقطة فقد كان صحيحا أن حرية الفكر لايمكن أن تكبت بصورة تامة ، فإنها من الممكن أن تكبت إلى درجة كبيرة لأنه دون تبادل فكرى حر لاتوجد حرية فكر فعليـة ٠ فنحن فى حاجة لآخرين نجرب أفكارنا عليهم ، أى لنرى ما إذا كانت آراؤنـا وجيهة ٠ المناقشة النقدية هى أساس الفكر الفردى الحر ٠

وهذا يعنى أنه بدون الحرية السياسية فإن حرية الفكر غير ممكنة ، كمـا يعنى أن الحرية السياسية شرط مسبق للإستخدام العقلى لكل فرد ٠

لقد حاولت أو أوضح قليلا ما أعنيه بالعقلانية والتنوير كما حاولت فـى نفس الوقت أن ابين لماذا تطلب العقلانية ـــ كما أفهمها ـــ وكذلـــك التنويـر وحرية الفكر والحرية الدينية إحترام الآراء الصادقة للآخرين وهو ماتطلبـــه أيضا الحرية السياسية ٠ إلا أنى لا أزعم أن العقلانية وحدها هـــى مـــاتحب الحرية أو أنها فقط ما يمكنها تأسيس مطلب الحرية ٠ على العكس تمامـــا ، أعتقد أن هناك مواقف أخرى وبصفة خاصة المواقـــف الدينيـــة تطلـــب أو تشترط حرية الضمير ومن هذا المطلب وصلت إلى مراعاة رأى الآخريـــن وتأسيس مطلب الحرية السياسية ٠ وإذا كنت قد حـــذرت ـــ قبـل قليـل ـــ وبسخرية من عقلانيتى القديمة فإنى أريد أن أكرر الآن هذا التحذير ولكـــن بكل جدية :

لا أريد ـــ من حيث أنى عقلانى ـــ أن أهدى أى شـــخص إلـــى عقيـدة معينة، كما لا أريد أن أسيئ إستخدام لفظ الحرية أو أن أجعـــل أى شـــخص شخصا عقلانيا ٠ إننى فقط أدعو الآخرين للإختلاف معـــى ، أريـد بقـدر الإمكان أن أبعث فى الآخرين الرغبة فى رؤية الأشياء بضوء جديـــد لكـــى يستطيع كل واحد أن يتخذ قراره الخاص وفقا لإمكانية بناء الـــرأى الحـــر ،

يجب على كل عقلانى أن يقول مع كانط : لايمكن للمرء أن يتعلم الفلسفة ولكن يمكنه فقط أن يتعلم التفلسف ، أى وجهة النظر النقدية .

V

لانعرف بالطبع على وجه التحديد من أين تنبع هذه الرؤية النقدية ولكنها فيما يبدو شئ نادر . ومن ثم يمكن اعتبارها ـ بصرف النظر عن القيم الأخرى ـ قيمة نادرة كل مانعرفه وصل إلينا من اليونان وبالتحديد من طاليس مؤسس المدرسة الإيونية للفلسفة الطبيعية .

للمدارس وجود حتى فى الشعوب البدائية ، ينحصر واجب أى مدرسة دائما فى المحافظة على مذهب مؤسسها ونشره بحيث أنه متى حاول أحد أعضاء مدرسة ما أن يغير من مذهب مؤسسها فإنه يتم استبعاده كمنشق عن اتجاه المدرسة ومن ثم تنقسم المدرسة على نفسها ، وتتعدد المدارس على هذا النحو عن طريق الإنقسام ، إلا أنه من الضرورى بالطبع أن يتكيف مذهب المدرسة التقليدى أحيانا مع الظروف والعلاقات الجديدة ، أى مع معارف جديدة أصبحت تشكل على سبيل المثال الخير العام . فى هذه الحالات يتم تقديم أو عرض التغير الحادث فى مذهب المدرسة الرسمى بطريقة ملتوية ، أى بعرض تفسير جديد للمذهب القديم يمكن للمرء معه أن يقول أنه لم يحدث أى تغيير فى المذهب : فينسب المرء المذهب الجديد المتغير (الذى لايعترف بتغييره) لمؤسس المذهب أو مؤسس المدرسة ، فالعبارة " لقد قال أستاذنا بنفسه هذا الشئ " نسمعها دائما وأبدا تتكرر فى المدرسة الفيثاغورية .

من هنا فقد اعتدنا أن نجد صعوبة شديدة فى تفسير تاريخ أفكار مدرسة كهذه مرة أخرى ومن ثم يكمن فى جوهر هذا المنهج أن يتم نسب كل أفكار المدرسة لمؤسسها . المدرسة الوحيدة ـ وفقا لعلمى ـ التى حادت عن هذا الإتجاه هى مدرسة طاليس الأيونية التى أصبحت مع مرور الزمن المدرسة

اليونانية والتى ولدت من جديد فى عصر النهضة لتصبح العلم الأوربى .

لنحاول أن نتصور ماذا يعنى أن نخالف التقليد الدجماطيقى لمذهب مدرسة ما ونحل محله تقليد المناقشة النقدية وتعدد المذاهب والإتجاهات المتنافسة المختلفة التى تحاول جميعها أنْ تقترب من الحقيقة .

لقد كان هذا هو طاليس الذى خطا خطوة أراد أن يقترب بها من الحقيقة. تتصف المدرسة الأيونية وحدها دون غيرها من المدارس بأن تلاميذها حاولوا أن يطوروا من مذهب أستاذهم وهو مايتضح جليا إذا تصورنا طاليس وهو يقول لتلاميذه " هذا هو مذهبى ، على هذا النحو أرى الأمر ، حاولوا أن تطوروا ما أقول " .

على هذا النحو خلق طاليس تقليدا جديدا ، أو تقليدا ذا مستويين : التقليد الأول هو تقديم مذهبه الخاص عن طريق التقليد الذى تتبعه المدرسة وكذلك تقديم المذاهب التى غيرها كل جيل جديد . الثانى المحافظة على التقليد بنقد المرء لمذهبه الخاص ومحاولة تطويره .

هنا يعتبر تغير وتحول المذهب فى هذه المدرسة نجاحا ، عندئذ يمكن فقط ولأول مرة أن يكون هناك تاريخ حقيقى للأفكار . إن التقليد ثنائى المستوى الذى أصفه هنا هو علمنا المعاصر الذى هو أحد أهم عناصر عالمنا الغربى . لم يبتكر هذا العلم ـ لحدود علمى ـ سوى مرة واحدة ، ثم فقد بعد ذلك بعد حوالى مائتين أو ثلاثمائة عاما ولكن أعيد اكتشافه بعد ذلك بحوالى خمسة قرون فى عصر النهضة وبالتحديد على يد جاليليو . كان من الممكن إذن أن يضيع ويفنى ولكنه يظهر وينتشر بصورة تامة متى كانت هناك حرمة سياسية .

رغم أن العقلانية ـ كما أوضحتها ـ شئ نادر فى أوربا ونادرا ما ينظر إليها كأحد الأديان المميزة لأوربا ورغم أن مبادءها الآن يكان يحتقرها معظم المفكرين الكبار ، فإن عقلانية طاليس مبدأ وتقليد لولاها لما كان لحضارتنا

الأوربية وجود ، فالخاصية الحقيقة التى تميز حضارتنا هى أنـها حضـارة منشغلة بالعلم wiscenschafisbeflissene ، فهى الحضارة الوحيدة التـى أنتجت علماً طبيعياً لعب فيها دوراً كبيراً ، إلا أن هذا العلم الطبيعى ماهو إلا النتاج المباشر للعقلانية ، فهو نتاج عقلانية الفلسفة اليونانية القديمة .

VI

لقد تحدثت عن نفسى حتى الآن كأحد دعاة العقلانية والتنوير وحـاولت أن أوضح ما أعنيه عندما أتحدث عن العقلانية والتنوير . كمـا حـاولت أن أوضح قليلاً دلالة القول بأن العقلانية والتنوير يشترطان الحريـة السياسـية دون أن نعنى بذلك أن حب الحرية يجمعه بالعقلانية والتنوير هوية واحدة أو تربطهما علاقة وثيقة وإلا كان ذلك شيئا يبعث على السخرية .

نعم إن الرغبة فى الحرية شئ ايجابى بصورة تامة وهى الرغبة التـى نجدها حتى لدى الحيوان. وكذلك الحيوانات الأليفـة المنزليـة . والأطفـال الصغار ولكن بدرجات متفاوتة . أما فى ميدان السياسـة فالحريـة تشـكل مشكلة، فالحرية المطلقة لكل فرد غير ممكنة بالمرة لمجموعة تحيا معـاً ، إذ متى كنت حراً فى فعل كل ما أريده فان هذا يعنى أننى حر أيضاً أن أسـلب الآخرين حريتهم .

لقد حل كانط هذه المسألة بدعوته لأن تقيد الدولة حرية الأفراد مثلما هـو من الضرورى أن تقيد الحياة المشتركة بين الناس حريتهم وأن هذا التقييـد الضرورى لحرية سائر المواطنين يجب أن يتساوى. يظـهر هـذا المبـدأ الكانطى أدنى ما يظهر أن مشكلة الحرية السياسية مشكلة قابلة للحل ، إلا أنه لا يوجد معيار للحرية السياسية ، ومن ثم لا يمكننا فى الحالات الفرديـة أن نحدد ما إذا كان تقييد حرية معينة أمراً ضروريا بالفعل أم لا ، كما لا يمكننا أيضا تقرير ما اذا كانت عبئا مفروضاً على سائر المواطنين بالتساوى أم لا ، لذا نحن فى حاجة الى معيار آخر أكثر بساطة يمكن تطبيقه : معيـار كـهذا أقترحه على النحو التالى :

تكون الدولة حرة من الناحية السياسـية عندمـا تسـمح مؤسسـاتها السياسية لمواطنيها أن يغيروا حكومة قائمة دون سفك دماء وذلك متى كان هذا الفعل رغبة الأغلبية .

يمكن التعبير عن هذا المعيار بصورة أخرى مختصرة على النحو التالى :

نحن أحرار متى كان بإمكاننا التخلص من حاكمنا دون إراقة الدماء.

لدينا هنا معيار يمكننا من التمييز بين الحرية السياسـية والدكتاتوريـة السياسية أو بين الديمقراطية والاستبداد .

الأمر لا يتعلق بالطبع بكلمتى " ديمقراطية " و " استبداد " ، إذ لـو أراد شخص ما – على سبيل المثال – أن يطلق على بعض الدول اللاحرية فيـها دولا ديمقراطية وعلى دستور انجلترا أو سويسرا دستورا مسـتبدا فـانى لا أدخل معه فى صراع فيما اذا كان قد استخدم هذه الأسماء تسمية صحيحة أو خاطئة ولكننى عندئذ أقول ببساطة اذا اضطرت لاستخدام مصطلحات هـذا الشخص فلابد أن أعترف بأنى عدو للديمقراطية وصديق للاستبداد ، بـهذه الطريقة يجنب المرء نفسه الدخول فى نزاعات لفظية ، فالمسألة ليست كلمات ولكنها قيم حقيقية .

معيار الحرية السياسية الذى قدمته هنا معيار بسيط ولكنه بلا شـك أداة جافة غليظة ، فهو لا يذكر لنا شيئا عن المسألة الهامة التى تدور حول حماية الأقليات مثل الأقليات العرقية أو الدينية .

vii

لقد حاولت بكل ما قلته حتى الآن أن أضع إطارا نسـتطيع بداخلـه أن نناقش مسائل فعلية أخرى من موقف الحرية الآن والعالم الغربى الحر . أريد أن أصيغ المسألة الرئيسية التى أضعها هنا على النحو التالى .

ما الذى جلبته الحرية لنا ؟ خيرا أم شرا ؟ ايهما أرجح ؟ وكيف يبـدو التوازن بين الخير والشر ؟

هذه المسألة أراها مسألة ملحة ومن ثم سأحاول أن أصيغ اجابتى بتحديد قاطع بقدر الإمكان وفى سلسلة من النقاط .

النقطة الأولى : أزعم أن عالمنا ، عالم الديمقراطية الغربية ليس هو أفضل العوالم السياسية الممكنة منطقيا أو التى يمكن تصورها ولكنه مع هذا أفضل العوالم السياسية التى علمنا بوجودها تاريخيا . من هذه الوجهة فإنى متفائل .

لكى أوضح واضع أساس هذه النقطة الأولى التى تظهر تفاؤلى ، فأنى أريد أن أقول أنى عندما أمدح زماننا فأنى لا أعنى بذلك الازدهار الاقتصادى المتحقق أو الانجاز العلمى لزماننا ، رغم أنه ليس بالشئ القليل أن يكون عدد الذين يتضورون جوعا أقل بكثير مما قبل . ما أعنيه أمر مختلف تماما . واذا كانت بضدها تتميز الاشياء فأنى أريد أن أشير الى ملاحظة ذكرها . الأسقف السابق لبرادفورد والذى حكم على عالمنا الغربى عام ١٩٤٢ بأنه عالم شيطانى ودعا سائر خادمى الديانة المسيحية أن يعملوا معا للقضاء على هذا العمل الشيطانى وأن يساعدو حكومة ستالين الشيوعية على تحقيق النصر. منذ ذلك الوقت أصبحت الشيوعية تكفل شيطنة ستالين وبقت شيطنة ستالين لفترة زمنية قصيرة ولكن مزدهرة مكونا أساسيا للخط العام للحزب وان لم يكن أيضا لبرنامج الحزب ، ومع هذا فما زال هناك أصحاب اعتقادات ، مسيحيون حقيقيون يفكرون بنفس المنطق الذى يفكر به الأسقف السابق لبرافورد .

والآن لكى أصيغ نقطتى الأولى المتفائلة ، أريد أن أقول أنى انطلق من نفس النقطة – التى انطلق منها الأسقف السابق وحكم على عالمنا الغربى بأنه من عمل الشيطان - فأصف عالمنا بأنه أفضل العوالم التى كان لها وجود تاريخى – بقدر معرفتنا .

لقد كانت المسألة وفقا للأسقف مسألة قيم انسانية خالصة بصفة خاصة - وهى ما أسماها كانط الكرامة الانسانية – ومسألة الاستعداد للمساعدة

الانسانية . لقد رأى الأسقف هذه القيم معرضة للخطر فى الغرب بينما هـــى آمنة محفوظة فى روسيا . يبدو لى أن مثالية الأسقف لم تجعله يرى الوقـــائع على حقيقتها ، فلم يحدث أن وجد من قبل مجتمع قل فيه الكبت والقمع والذل والهوان والمعاناة مثلما هو حادث فى مجتمعنا الآن ولم يحدث أن وجد فـــى مجتمع من قبل الكثيرون ممن هم على استعداد للتضحية بأنفسهم لكى يخففون عن غيرهم الجوع والبؤس مثلما يوجد هنا الآن .

أعتقد اذن أنه لا يوجد لدينا فى الغرب ما يجعلنا نخجل منه أمام الشرق ، إلا أن هذا لا يعنى أننا فى الغرب لا يجب أن ننتقد اتجاهاتنـــا ، بـل علـــى العكس حتى ولو كان عالمنا هو أفضل العوالم التى وجدت حتى الآن إلا أنـــه ما زال به بعض الأمور السيئة . كما أن الخطر ما زال قائما وهو أنه مـــن الممكن فى أى وقت أن نفقد كل ما حققناه .

وهذا يصل بى الى النقطة الثانية :

رغم أنى أعتبر عالمنا السياسى أفضل العوالم التـــى علمنـــا بوجودهـــا تاريخيا ، فيجب أن نحترس من أن ننسب هذه الواقعة للديمقراطية أو الحرية فالحرية ليست موردا يوصل الينا خير الحياة الى منازلنـــا كمـــا لا تخلـــق الديمقراطية شيئا وليس الإنجاز العلمى نتيجة لها . فمن الخطـــأ بـــل ومـــن الخطر أن يمتدح شخص الحرية عندما يقول لآخرين أن كل أمورهم ســتكون بكل تأكيد على ما يرام بشرط أن يكونوا أحرارا . ما يحدث لامرئ فى حياته هو أولا وقبل كل شئ مسألة حظ والقليل القليل يعود الى المهارة والبراعـــة والاجتهاد وفضائل أخرى . أن اقصى ما يمكـــن لامـــرئ أن يقولـــه عـــن الديمقراطية أو الحرية أنها تزيد من فعالية الخير الذى ننعم به شيئا قليـــلا .

وبذلك أصل الى النقطة الثالثة :

لا يجب أن نختار الحرية السياسية لأنها تعدنا بحياة مريحة ولكن لأنـــها تمثل قيمة نهائية لا يمكن ردها الى أية قيم مادية . يجب أن نختارها اختيـــار الشخص الديمقراطى الذى يقول " أفضل الحياة الفقيرة فى دولة ديمقراطيـــة

على الحياة الثرية فى ظل حكم استبدادى " ويقـول " إن فقـر الديمقراطيـة أفضل من كل ثراء يمكن تحقيقه فى ظل الارستقراطية أو الحكـم الفـردى المطلق لأن الحرية أفضل من الرق والعبودية " .

أريد بالنقطة الرابعة أن أنتقل خطوة الـى الأمـام فـأقول أن الحريـة والديمقراطية وإيماننا بها يمكن أن يتحول هذا كله الى كارثة ، فمن الخطـأ الاعتقاد أن الايمان بالحرية يؤدى دائما الى الانتصار ، بل قد يؤدى أيضـا الى الهزيمة ، فمتى اخترنا الحرية يجب أن نكون على استعداد للفناء معها . لقد حاربت بولندا من أجل الحرية مثلها فى ذلك مثل أى دولة ، كمـا كـان الشعب التشيكى عام ١٩٣٨ على استعداد للنضال من أجل حريته فلم يكـن يأسه وقنوطه هو ما أنتهى به الى ما أنتهى اليه . كما لم يخسر الشباب الذين قاموا بثورة المجر ١٩٥٦ سوى القيود التى كانوا مكبلين بها ، فهم على هـذا النحو خسروا وانتصروا (١) .

كما يمكن أن تنهزم الحرب من اجل الحرية بطريقة أخرى : فقد تسـفر هذه الحرب عن إرهاب كما حدث فى الثورتين الفرنسية والروسـية ، كمـا يمكن أن تؤدى الى رق وعبودية . لا تضمن الديمقراطية ولا الحرية شـيئا فنحن لا نختار الحرية السياسية لأنها تعدنا بهذا أو ذاك . نحن نختارها لأنـها تجعل الصورة التى يستحقها البشر للحيـاة الانسـانية المشـتركة ممكنـة ، الصورة الوحيدة التى يمكن لنا أن نكون فيها مسئولين عن أنفسنا مسـئولية كاملة . أما ما اذا كان من الممكن أن تحقق إمكانيات هذه الصورة أم لا فـهذا يتوقف على أشياء عديدة ، أهمها علينا نحن .

---

(١) قام مجموعة من الشباب بثورة عنيفة عام ١٩٥٦ ضد الحكم الشيوعى فى المجر ، ولكن تم القضاء عليها بتدخل القوات الروسية التى كانت مرابطة هناك .

المقالة الثامنة
فى كتابة ومعنى التاريخ

Uber Geschichtsschreibung und Uber den Sinn der Geschichte

ظهرت هذه المقالة من قبل فى كتاب

" Geist und Gesicht der Gegenwart "
Hg. O. Molden , Eutopa Verlag , Zurich 1962

هذه المقالة فى معظمها صياغة للفصل الأخير من كتاب المؤلـــف " المجتمع المفتوح وأعداده " الجزء الثـــانى . الصفحـــات ٣٠٤-٣٢٨ مـــن الطبعة السابعة .

" Die offene Gesellschaft und ihre Feinde " Tübingen 1992

دون اتخاذ موقف محدد من المشكلات الأساسية للمجتمع والسياسة والتقاليد تصبح كتابة التاريخ مسألة غير ممكنة . يتضمن إتخاذ الموقف هذا عنصرا شخصيا قويا ، الأ أن هذا لا يعنى أن محتوى العمل التاريخى فى كليته أو فى قدر منه عبارة عن وجهة نظر ، فما يكتبه المؤرخ يجب أن يكون موضوعيا كما يجب عليه أن يوضح دائما - متى أضاف آراءا شخصية حول أمور سياسية وأخلاقية - أن آراءه واقتراحاته ليس لها نفس الطبيعة التى لمزاعمه حول الوقائع التاريخية . ولكن اختيار الوقائع التى سيتناولها المؤرخ هى دائما وبدرجة كبيرة مسألة تحديد شخصى ، ولكنها مسألة تحديد شخصى بدرجة أكبر من عملية التصوير العملى الطبيعى لحالة ما بعد تحديد الموضوع .

فمن بعض الوجوه يختلف التحديد الشخصى من حيث الدرجة . فالعلم الطبيعى أيضا ليس مجرد عملية جمع وقائع ولكنه على الأقل تجميع لوقائع يعتمد إختيارها على اهتمامات جامعها وعلى وجهة نظر معينة . من المعتاد فى العلم أن تحدد النظرية العلمية وجهة النظر هذه ، هذا يعنى أننا نختار من بين عدد لا نهائى من الوقائع ومن بين عدد لا نهائى من جوانب الوقائع ، تلك الوقائع والجوانب التى تهمنا فقط لأنها ترتبط - بنظرية - علمية محددة بصورة مسبقة بصورة أكبر أو أقل . ولقد انتهت إحدى مدارس النظرية العلمية بعد تفكير كهذا الذى ذكرته الى أن العلم يتحرك دائما فى دائرة وأننا لا نفعل دائما أكثر من هز أذيالنا ، كما قال ادنجتون Eddington [1] ، ذلك لأننا لا يمكننا أن نخرج من معرفتنا بالوقائع سوى بما وضعناه أنفسنا فى صورة نظريات . ليست هذه الحجة قوية، نعم يصدق بصفة عامة أننا نختار فقط الوقائع ذات الصلة بنظرية محددة من قبل إلا أن هذا لا يعنى أننا

---

(١) سير أرثر ادنجتون ، عالم فلك وفيزيائى بريطانى ١٨٨٢-١٩٤٤ له اسهامات كثيرة فى الفيزياء الفلكية ومن أشهر كتبه (البناء الداخلى للنجوم) ١٩٢٦ كما له اسهامات فى النظرية النسبية وكتب الكثير من الكتب التى تبسط العلم القارئ العادى .

نختار فقط الوقائع التى تؤيد النظرية أو التى كأنها تكررها .

يكمن منهج العلم بالأحرى فى أن الانسان يبحث عن الوقائع التى يمكنها تفنيد النظرية . هذه الواقعة نطلق عليها اختبار النظرية ، فنبحث فيما اذا كانت النظرية لا تتضمن أى خطأ . فعلى افتراض أن الوقائع قد تم اختيارها وفقا للنظرية وعلى افتراض أنها تؤيد النظرية ، فانه متى قاومت النظرية محاولات تفنيدها واختبارها ، فلابد أنها عندئذ أكثر من كونها تكرارا فارغا لرأى مقرر بصورة مسبقة . فالوقائع تؤيد النظرية فقط متى كانت نتاجا لمحاولات فاشلة ظهر خطأ توقعاتها وعندئذ تعد شهادة تطعن لصالح النظرية. إن وجهة نظرى إذن تكمن فى أن إمكانية تفنيد النظرية وقابليتها للتكذيب هى ما يحدد ما اذا كانت النظرية نظرية علمية . والواقعة القائلة بأن كل الاختبارات التى تتعرض لها النظرية هى محاولات لتفنيد توقعاتها النظرية هى مفتاح المنهج العلمي . يؤيد تاريخ العلوم فهم المنهج العلمى . يؤيد تاريخ العلوم فهم المنهج العلمى على هذا النحو ، إذ يظهر لنا تاريخ العلوم أن النظريات العلمية يتم رفضها بالتجارب وأن رفض النظريات هو أداة التقدم العلمى ، لا يمكن إذا التمسك بالزعم بدائرية العلم .

ينطوى هذا الزعم مع هذا على نواة صدق ، إذ يصدق القول أن الوصف العلمى للوقائع وصف (تم اختياره) الى حد كبير بحيث أنه يعتمد دائما على نظريات • يمكن توضيح هذا الموقف بطريقة جيدة بمقارنته بضوء السيارة وهى ما أطلق عليها عادة نظرية الضوء العلمية فى مقابل نظرية وعاء الوعى .

ما يلقى عليه الضوء وضوحا يعتمد على مكانه من الضوء كما يعتمد على الطريقة التى نراه بها ويعتمد كذلك على كثافته ولونه وهكذا . تعتمد النظرية العلمية بالمثل الى حد كبير على وجهة نظرنا واهتمامنا . ترتبط تلك الاهتمامات ووجهة النظر هذه عادة بالنظرية أو الفرض الذى نريد اختباره . إلا أن النظرية العلمية ترتبط أيضا بالوقائع التى سيتم وصفها . من الممكن

وصف النظرية أو الفرض كصفة مميزة لها على أنها وجهة نظر أو رأى متبلور ، ولكن للمدى لذى نحاول معه عادة صياغة آرائنا ، فاننا نحتفظ بشئ يشبه فرض العمل ، أى فرض مؤقت يساعدنا على اختيار وتنظيم الوقائع ، إلا أنه يجب أن يكون واضحا لنا أنه لا يمكن أن توجد نظرية (أو فرض) ليست فرض عمل أو لا تظل دائما فرض عمل ، إذ لا وجود لنظرية نهائية ولكن كل نظرية تساعدنا على اختيار وتنظيم الوقائع ، هذه الطبيعة الاختيارية للوصف تجعل منه - بمعنى ما - وصفا نسبيا ، نسبيا بمعنى أننا كنا سنقدم وصفا مختلفا لو كانت وجهة نظرنا مختلفة ويمكن أيضا لهذه الطبيعة الاختيارية للوصف أن تؤثر فى اعتقادنا فى خدمة الوصف ، دون أن تؤثر فى مسألة صدق أو خطأ الوصف . ليس الصدق " نسبيا " بهذا المعنى .

تكمن الطبيعة الإختيارية لكل الأوصاف التى نقدمها - فى الثراء اللانهائى وفى تعدد الجوانب الممكنة للوقائع الموجودة فى عالمنا . ليس أمامنا لوصف هذا الملاء اللانهائى سوى عدد نهائى من الكلمات ومن ثم يمكننا أن نصف طالما أننا فقط نريد ذلك دائما وسيظل وصفنا دائما وصفا غير كامل ، ويصبح مجرد عملية اختيار لوقائع تساعدنا على الوصف .

ولهذا ليس فقط من المستحيل تجنب عملية الاختيار انطلاقا من وجهة نظر معينة ولكن لا يجب حتى أن نحاول هذا التجنب ، لأننا متى نجحنا فى ذلك ، فلن يصبح ما نقدمه وصفا موضوعيا ، ولكن مجرد كومة من العبارات غير المترابطة بالمرة . أن تقديم وجهة نظر محددة إذن مسألة لا يمكن تجنبها ، ولم ينتج عن محاولة تجنبها سوى أن يخدع المرء نفسه ويصبح متبنيا لوجهة نظر غير نقدية وغير واعية .

يصدق هذا كله بصفة خاصة على الوصف التاريخى " بنسيجه اللانهائى " كما يقول شوبنهور . من المستحيل - بالمثل - أن نتجنب فى التاريخ - كما هو الحال فى بقية العلوم - وجهة النظر . ولن يؤدى الافتراض العكسى بأننا

من الممكن أن ننطلق دون وجهة نظر محددة - سوى الى تضليل ذاتى والى نقص الإهتمام بالنقد ، لا يعنى هذا بالطبع أن الأمر متروك لنا أن نكذب ما نحب أو ألا نهتم بمسألة الصدق ، فكل وصف تاريخى للوقائع يتصف إما بالصدق أو بالخطأ رغم صعوبة الوصول دائما الى تحديد صدق أو خطأ هذا الوصف .

الى هذا الحد يتفق وضع التاريخ والعلوم الطبيعية - كالفيزياء على سبيل المثال - إلا أننا متى قارننا الدور الذى تلعبه " وجهة النظر " فى التاريخ مع الدور الذى تلعبه " وجهة النظر " فى الفيزياء لوجدنا إختلافا . فكما رأينا تأخذ " وجهة النظر " فى الفيزياء عادة صورة نظرية فيزيقية تسمح باختيارها عن طريق البحث عن وقائع جديدة . أما فى التاريخ فليست العلاقات بهذه البساطة .

لنتأمل الآن بشكل أدق الدور الذى تلعبه نظريات احدى العلوم الطبيعية ولتكن الفيزياء مثلا . هنا نجد أن على هذه النظريات أن تؤدى واجبات متنوعة ولكنها مرتبطة ببعضها بحيث تساعدنا على توحيد العلم - أى جعله وحدة واحدة - وعلى تفسير الحوادث ومن ثم على التنبؤ بها .

سأسمح لنفسى ، بشأن مشكلة التفسير والتنبؤ أن أقتبس من إحدى كتاباتى الفقرة التالية : " إن تفسير واقعة ما تفسيرا علميا يعنى عبارة تصف الواقعة وتشتق بالاستنباط من قوانين وشروط هامشية . فاذا قلنا أن السلك يتمزق إذا قام برفع ما حمولته كيلو جرام وأن قطعة من السلك قد تمزقت لأنها قامت بحمل ثقل يزن أثنين كيلو جرام ، نكون على هذا النحو قد فسرنا واقعة تمزق السلك تفسيرا عليا . يتضمن هذا التفسير جزئين :

١- لنفترض أن لدينا فروضا لها طابع القوانين الطبيعية ، مثل التى منطوقها إذا قام سلك بحمل حد أدنى من الثقل فإنه يتمزق .

٢- لنأخذ عبارات مسلما بها ترتبط بالحادثة التى تم اختبارها الآن ، مثل التى تقول " الحد الأدنى الذى يستطيع السلك حمله واحد كيلو جرام "

والتى تقول " الثقل الذى يحمله هذا السلك أثنين كيلو جرام " يمكن لنا من القضايا العامة : (١) والشروط الهامشية (٢) أن نستنبط القضية التالية (٣) سيتمزق هذا السلك . نطلق على هذا الاستدلال إسم " تنبؤ Prognose " . اعتدنا على تسمية الشروط الهامشية أو بالتحديد الموقف الذى تصفه هذه الشروط " علة " الحوادث موضع الحديث ، واعتدنا على تسمية الحادثة التى نصفها عن طريق التنبؤ " بالمعلول " .

فنحن نقول على سبيل المثال أن حمل ثقل يزن أثنين كيلو جرام بسلك قدرته على الحمل واحد كيلو جرام فقط يمثل علة تمزق السلك .

من هذا التحليل للتفسير العلى تتضح لنا أمور مختلفة كثيرة . أولا : لا يمكننا أن نتحدث عن العلة والمعلول بصورة مطلقة ، فالحادثة تكون علة لحادثة أخرى تمثل معلولها فقط إعتمادا على قانون عام . وبصفة عامة فان هذه القوانين العامة من البساطة بحيث أننا عادة ما نقبلها ببساطة بدلا من استخدامها بوعى . ثانيا : رأينا أن استخدام نظرية ما بغرض التنبؤ بحادثة محددة هو جانب يختلف عن الجانب الذى نستخدم به النظرية بغرض تفسير نفس الحادثة . وما دمنا نختبر النظرية التى نقارن فيها الحوادث التى تم التنبؤ بها بالحوادث التى تم ملاحظتها بالفعل ، فإن تحليلنا يظهر لنا فوق ذلك كيف يتم اختبار النظريات . فما إذا كنا نستخدم نظرية ما من أجل التنبؤ أو التفسير أو التحقق فإن ذلك يعتمد على إهتمامنا وعلى العبارات أو القضايا التى نأخذها بصورة مسبقة كمعطى .

نحن غالبا ما نهتم فى حالة ما يسمى بالعلوم النظرية أو العلوم المعممة (مثل الفيزياء والأحياء وعلم الاجتماع) بالقوانين أو بالفروض العامة . نريد أن نعرف ما إذا كانت صادقة . وما دمنا لا يمكننا أن نتأكد ابدا من صدقها بصورة مباشرة فإننا نستخدم منهج استبعاد الفروض الخاطئة . إن اهتمامنا بالحوادث الخاصة كالتجارب التى يتم وصفها على طريق التنبؤ والشروط الأولية إهتمام محدود الى حد ما . فنحن نهتم بها فقط من حيث أنها وسيلة

لأغراض محددة ، وسيلة يمكننا بها اختبار القوانين العامة والتى تعد من جانبها مثار اهتمام فى ذاتها كما تعد وسيلة لتوحيد معرفتنا .

أما فى حالة العلوم التطبيقية فإن اهتمامنا يتجه نحو شئ آخر فالمهندس الذى يستخدم علم الفيزياء لبناء كوبرى ، يهتم بصورة اساسية بالتنبؤ : بما إذا كان كوبرى من نوع معين يمكن أن يتحمل ثقلا محددا أم لا، فالقوانين العامة تعد هنا بالنسبة للمهندس وسيلة لغرض وتؤخذ كمعطى .

وبالمثل تهتم العلوم التطبيقية والعلوم الخالصة بمسألة التحقق من الفروض العامة والتنبؤ بحوادث خاصة . إلا أن هناك ميدان اهتمام آهو الأ وهو الاهتمام بتفسير حادثة معينة . فإذا أردنا تفسير حادثة خاصة مثل حادثة مرور مثلا فإننا عادة ما نفترض ضمنا مجموعة قوانين عامة ساذجة (كالقول مثلا أنه من الممكن لإحدى العظام أن تتكسر تحت ضغط معين وهكذا) كما أننا غالبا ما نهتم بالشروط الأولية أو العلل التى يمكنها بالتعاون مع هذه القوانين العامة الساذجة أن تفسر الحادثة موضع السؤال . هنا نفترض عادة مجموعة من الشروط الأولية ونحاول عندئذ أن نجد أدلة إضافية لكى يمكننا أن نحدد ما إذا كانت هذه الشروط الأولية المفترضة صادقة أم لا ، بمعنى أننا بإختيارنا هذه الفروض الخاصة نستطيع أن نشتق منها تنبؤات جديدة (بمساعدة قوانين عامة ساذجة أخرى نكون قد اعتدنا عليها) تسمح بمقارنتها بوقائع ملاحظة .

نحن فى حاجة من أجل هذه القوانين العامة المستخدمة فى مثل هذا التفسير الى إمعان التفكير فى أكثر الحالات ندرة . نفعل ذلك فقط متى لاحظنا شكلا جديدا ونادرا من الحوادث كرد الفعل الكيميائى غير المتوقع على سبيل المثال . فإذا أدت حادثة كهذه الى وضع واختبار فروض جديدة ، فإن هذا - بصفة خاصة من وجهة نظر العلم المعمم - أمر ذو أهمية . ولكن متى كان اهتمامنا منصبا على حوادث خاصة وتفسيرها فإننا نتناول جميعا عادة القوانين العامة الكثيرة التى نحتاجها كمعطى .

يمكن أن نطلق على هذه العلوم التى ينحصر اهتمامها فى الحوادث الخاصة وتفسيرها العلوم التاريخية وذلك فى مقابل العلوم المعممة .

يوضح هذا الفهم للتاريخ لماذا يزعم الكثير من المؤرخين أنهم مهتمون بحوادث معينة وليس بما يسمى " قوانين تاريخية " . ذلك أنه وفقا لفهمنا هذا لا يمكن أن يكون هناك قوانين تاريخية . فالقوانين أو التعميمات تنتمى لميدان اهتمام آخر من الواضح أنه يختلف عن الاهتمام بالحوادث الخاصة وتفسيراتها العلمية وهو الاهتمام الذى يميز التاريخ . من يهتم بالقوانين يجب أن يولى العلوم المعممة اهتمامه (كعلم الاجتماع مثلا) . يوضح عرضنا هذا لماذا يتم غالبا وصف التاريخ بأنه مجموعة الحوادث الماضية - كما هو بالفعل - وحتى لو اعترضنا فيما بعد على هذا الوصف للتاريخ ، فما زال هذا الوصف يميز بصورة جيدة الاهتمام الخاص للباحثين فى علم التاريخ فى مقابل اهتمام المنشغل بالعلوم المعممة . يوضح فهمنا للتاريخ أيضا لماذا نصادف مشكلة " الموضوع اللانهائى " فى التاريخ أكثر مما نصادفها فى العلوم المعممة ، ذلك لأن النظريات أو القوانين العامة تفرض الوحدة وتفرض " وجهة النظر " فى العلوم المعممة . فهى تخلق لكل علم معمم المشكلات ومراكز الإهتمام والنقاط المركزية للبحث والتركيب المنطقى والتصوير . أما فى التاريخ فلا وجود لمثل هذه النظريات الموحدة : فالقوانين العامة الساذجة التى لاعدد لها والتى نستخدمها نتناولها ضمنيا ، لا يمكنها أن توقظ فى المؤرخ أى اهتمام ولا أن تساعده بأى طريقة على جمع مادته . فإذا فسرنا مثلا أول تقسيم حدث لبولندا عام ١٧٧٢ بملاحظتنا أن بولندا لم يكن بإمكانها أن تقف فى مواجهة القوة الموحدة لروسيا وبروسيا والنمسا معا ، فإننا فى هذه الحالة نقبل ضمنا بعض القوانين العامة الساذجة مثل القانون الذى منطوقه : " إذا كان بأحد جيشين - متفقين فى حسن القيادة وجودة التسليح - زيادة عددية فى الجنود ، فلا يمكن أبدا للجيش الثانى أن ينتصر " . يمكن أن نسمى مثل هذا القانون " قانون سوسيولوجيا القوة

العسكرية " - إلا أنه من التفاهة بحيث لا يشكل مشكلة هامة لعلماء الاجتماع أو يثير اهتمامهم . وأيضا إذا أرجعنا قرار قيصر اجتياز نهر الروبيكون Rubikon [1] لطموحه وطاقته فإننا على هذا النحو نستخدم بعض التعميمات النفسية شديدة البساطة التي لا تكاد تثير اهتمام علماء النفس (أن ما نفترضه ضمنا معظم التفسيرات التاريخية ليست في الحقيقة قوانين نفسية أو إجتماعية شديدة البساطة ولكن منطق الموقف والذى كتبت عنه بالتفصيل في موضع آخر) .

ما أعنيه هو أن هذه التفسيرات تفترض ضمنيا – بصرف النظر عن الشروط الأولية كالاهتمامات والأهداف الشخصية وعوامل الموقف الأخرى والعوامل التى تخص الفرد موضع الاهتمام كشكل من أشكال الاقتراب الأولى – القانون العام البسيط الذى مفاده أن الأفراد الطبيعية العاقلة تتصرف عادة بطريقة عاقلة وغائية .

ليست القوانين التاريخية إذن – التى يستخدمها التفسير التاريخى – مبدأ اختيار وتوحيد كما أنها لا تزودنا " بوجهة نظر " للتاريخ . ولكن بمعنى ضيق جدا يمكن أن تكون هناك وجهة نظر فقط اذا قصرنا فهمنا للتاريخ على أنه تاريخ " شئ ما " ، فتاريخ سياسة القوة ، وتاريخ العلاقات الاقتصادية وتاريخ التكنولوجيا وتاريخ الرياضيات يمكن أن تخدم كأمثلة على هذا . ولكننا عادة ما نحتاج مبادئ اختيار أخرى ، أو وجهات نظر تشكل ميادين اهتمام متزامنة . بعضها تقدمها لنا افكار محددة من قبل وهى الأفكار التى تشبه وجهة نظر معينة – القوانين العامة مثل الفكرة التى ترى فى شخصية الرجل العظيم أو فى الشخصية القومية أو فى بعض المبادئ الأخلاقية أو الشروط الاقتصادية أهمية للتاريخ .

من المهم الآن أن يكون واضحا لنا أن كثيرا من النظريات التاريخية

---

(١) هو الحد الشمالى لإيطاليا فى العهد الرومانى ، اشتهر بإجتياز قيصر له ومن ثم بقيام الحرب الأهلية ، كان يفصل بين ولاية غالية وايطاليا .

(والتى ربما كان من الأفضل أن نسميها شبه نظريات) تختلـــف إختلافـــا كبيرا عن النظريات العلمية ، ذلك لأن الوقائع فى التاريخ (متضمنا تـــاريخ الطبيعة التاريخية مثل الجيولوجيا التاريخية) التى فى متناول أيدينا غالبا مـــا تكون محددة جدا ولا تسمح بتكرارها أو إحداثها مرة أخرى ، كما تم جمعـــها وفقا لوجهة نظر محددة من قبل : إذ يدون ما يعرف بمصادر التاريخ فقـــط تلك الوقائع التى كان تدوينها مهما بشكل كاف بحيث غالبا ما تتضمن هـــذه الوقائع التى تتفق مع نظرية محددة من قبل . ومادام لا يوجد فـــى متنـــاول أيدينا وقائع أخرى ، فلن يمكننا إختبار هذه النظرية أو نظرية غيرها . يمكن أن نصف ونصدق مثل هذه النظريات غير القابلة للإختبار بالدور بـــالمعنى الذى يكون معه من الظلم وصف النظريات العلمية بالدور . ســـوف أطلـــق على مثل هذه النظريات التاريخية – فى مقابل النظريات العلمية " التفسيرات التاريخية " أو " مفاهيم التاريخ " .

المفاهيم التاريخية بالغة الأهمية ، ذلك لأنها تمدنا بوجهة نظر ، ولكننا قد رأينا أنه لا يمكن تجنب وجود وجهة نظر وأن الانسان نادرا ما يقابل نظرية فى التاريخ يمكن اختبارها ومن ثم تتصف بأنها نظرية علمية . من هنـــا لا يجب أن نفترض أنه من الممكن البرهان على صدق " مفهوم التـــاريخ " أو التحقق من صدقه ، كما لا يمكننا ذلك أيضا حتى متى اتفق "المفـــهوم" مـــع سائر مادة مصادرنا . إذ يجب أن نضع أمام أعيننا صفـــة "الـــدور" الـــذى يتصف به المفهوم وأنه سيكون هناك دائما " مفاهيم " أخرى عديدة للتـــاريخ (قد لا تتفق مع بعضها البعض) تتفق مع نفس المصادر وأنه من النـــادر أن تتوافر لنا معطيات جديدة تساعدنا على إجراء تجارب محددة مثلما يمكـــن أن يحدث فى الفيزياء . غالبا ما لا يجد المؤرخ مفهوما للتاريخ يتفق مع الوقـــائع بنفس الجودة التى يتفق معها مفهومه الخاص . ولكن متـــى وضعنـــا فـــى الاعتبار أنه حتى فى الفيزياء بمادة وقائعها الكبيرة الموثوقة بها فإن التجارب الجديدة الحاسمة تشكل ضرورة ذلك لأن التجارب القديمة تتفق مع نظريتيـــن

متنافستين ولايمكنهما الاتفاق معا ، أقول متى وضعنا هذا فى الاعتبار – فإننا نخرج بالرأى الساذج بأن أية سلسلة من الكتابات التاريخية لم تسمح بتفسيرها فى أى وقت كان سوى بطريقة واحدة (ما فى ذهنى هنا هـو البحـث فـى انحراف ضوء نجوم ثابتة عند دخوله المجال الجاذبى للشمس أثناء كسـوف الشمس الضرورى للحسم بين نظرية نيوتن للجاذبية ونظرية انيشتين) .

لا يعنى هذا بالطبع أن سائر التفسيرات أو المفاهيم التاريخية تتساوى فى قيمتها ، هناك أولا وبشكل دائم تفسيرات لا تتفق مع الكتابات المعترف بها . هناك ثانيا تفسيرات تتطلب بشكل أكبر أو أقل فروض مساعدة مقبولة لكـى تسلم من تكذيبها عن طريق الكتابات ، هناك ثالثا تفسيرات لا يمكنها الربـط بين مجموعة من الوقائع فى سلسلة واحدة وهى الوقائع التى يمكـن لتفسير آخر أن يربط بينها ويفسرها . وعلى ذلك فمن الممكن تحقيق تقدم كبير فـى ميدان التفسيرات التاريخية . أضف الى هذا أن كل أشكال الوقـوف بيـن " وجهات النظر " العامة وبين الفروض التاريخية المعينة الفردية التى ذكرتـها من قبل ممكنة والتى تلعب فيها الشروط الأولية المفترضة وليـس القوانيـن العامة دورا فى تفسير الحوادث التاريخية . هنا غالبا مـا يمكـن اختبارهـا بصدق ومن ثم يمكن مقارنتها بالنظريـات العلميـة ، إلا أن بعـض هـذه الفروض المعينة تشبه " شبه النظريات " العامة تلك والتى أسميتها تفسـيرات أو مفاهيم تاريخية ، ولهذا السبب فمن الممكن وضع هذه مع تلك فـى فئـة واحدة أسميها " التفسيرات الخاصة " ذلك أن الشواهد التى تخدم " وجهة نظر" عامة تشبه الشواهد التى تخدم أحد هذه التفسيرات الخاصة ، فهى جميعا تقـع فى الدور • ليس من النادر مثلا أن نجد حالة يقدم فيها مصدرنـا الخـاص الوحيد معلومات بشأنه حوادث معينة تتفق مع تفسيره الخاص لها ، لذلك فإن معظم تفسيراتنا الخاصة للحوادث تقع فى الدور بمعنى وجوب اتفاقـها مـع التفسير المستخدم فى الاختيار الأولى للوقائع . لذا متى استطعنا أن نعطـى مادتنا تفسيرا يبتعد ابتعادا جذريا عن تفسير مصادرنا (وهذا هو تفسـيرى

لكتابات أفلاطون) عندئذ قد يشبه تفسيرنا الى حد ما الفرض العلمى . يجب أن نضع فى أذهاننا دائما أن التطبيق البسيط لتفسير ما والواقعة القائلة بأنه يفسر كل ما نعرفه حجة مشكوك فيها لأنه يمكننا أن نختبر نظرية ما فقط متى أمكننا البحث عن مثال مضاد . (لقد غفل المعجبون " بفلسفات التوضيح" المختلفة مثل دعاة التحليل التاريخى والاجتماعى والنفسى بصفة خاصة هذا الأمر بسبب البساطة التى يتم بها غالبا تطبيق نظرياتهم) .

لقد قلت منذ قليل أنه من الممكن ألا تكون التفسيرات متفقة مع بعضها البعض . ليس هذا هو الحال متى فهمنا التفسيرات على أنها بلورة لوجهات نظر . لا يمكن على سبيل المثال للتفسير الذى يرى أن الانسانية تتقدم باستمرار (نحو المجتمع المفتوح أو نحو هدف آخر) أن يتفق مع التفسير الذى يراها تتقهقر باستمرار . ولكن ليست وجهة نظر المؤرخ الذى يرى فى التاريخ الإنسانى تاريخا للتقدم بالضرورة غير متفقة مع وجهة نظر ذلك الذى يرى فى تاريخ الإنسانية تقهقرا . هذا يعنى أن هناك تاريخا للتقدم البشرى نحو الحرية (الذى يتضمن على سبيل المثال تاريخ الصراع ضد الرقيق) كما أن هناك من ناحية أخرى تاريخا للتأخر البشرى وللضغط والقهر (كالذى يحكى على سبيل المثال حوادث التصادم بين الجنس الأبيض والملون) . يمكن كتابة كلا التاريخين دون أن يكون هناك تعارض بين الوصف التاريخى لكل منهما : بل من الواضح أنه من الممكن لكل منهما أن يكمل الآخر تماما مثلما تكمل صورتان أخذتا من نقطتين مختلفتين لنفس المنظر الطبيعى كل منهما الأخرى .

هذه الفكرة على درجة عالية من الأهمية ذلك أنه ما دام لكل جيل صعوباته ومشاكله الخاصة به ومن ثم إهتماماته الخاصة به ووجهة نظره التاريخية الخاصة ، فإنه ينتج عن ذلك أن لكل جيل الحق فى تأمل التاريخ بطريقته الخاصة وأن يعطيه تفسيرا جديدا مكملا لتفسير الأجيال السابقة . ومن ثم فنحن ندرس التاريخ لأنه يشكل أهمية لنا ولأننا نريد أن نتعلم منه

شيئا لمشاكلنا الخاصة . لن يخدمنا التاريخ فى تحقيق أى من هذين الغرضين متى ظلت فكرة الموضوعية غير القابلة للتطبيق هذه حائلا لنا أمام تصوير مشاكلنا الخاصة إنطلاقا من وجهة نظر محددة . كما لا يجب أن نعتقد أننا متى طبقنا وجهة نظرنا بصورة واعية ونقدية على المشكلة أنها بذلك تتضمن وجهة نظر المؤرخ الذى يفترض بطريقة ساذجة أنه لم يفسر المشكلة ولكنه قد حقق درجة من الموضوعية سمحت له برؤية وتصوير الماضى كما كان بالفعل . (هذا هو السبب الذى يجعلنى أعتقد أنه حتى الملاحظات الشخصية المسلم بها والموجودة فى هذه الفكرة لها ما يبررها ، فهى تتسق مع المنهج التاريخى) . تكمن المسألة الرئيسية فى أن المرء يعرف وجهة نظر وأنه يفكر ويتصرف بطريقة نقدية ، بمعنى أن الإنسان يتجنب بقدر الإمكان فى وصفه للوقائع التحيز غير النقدى وغير الواعى . فمن كل زاوية يجب على التفسيرات ذاتها أن تتكلم . تكمن قيمتها فى إنتاجها – فى قدرتها على إلقاء الضوء على وقائع التاريخ وفى اهتمامها الفعلى – فى قدرتها على إلقاء الضوء على مشكلات اليوم .

يمكن تلخيص ما سبق على النحو التالى : لا يمكن أن يوجد تاريخ "للماضى" كما كان بالفعل ، يمكن فقط أن تكون هناك تفسيرات تاريخية ، لا يمكن أن تكون أى منها تفسيرا نهائيا ، فلكل جيل ليس فقط الحق بل ومن واجبه وضع تفسيراته الخاصة ، إذ يشكل واجب وضع تفسير خاص مطلبا ملحا يجب تحقيقه . لا نريد فقط أن نعرف موضع مشكلاتنا فى علاقتها مع الماضى ولكننا نريد هذه المعرفة بصورة ملحة ، كما نريد أن نرى اليوم الذى يمكننا فيه أن نتقدم نحو حل واجباتنا الأساسية التى إخترناها لأنفسنا . متى لم يتحقق هذا المطلب بصورة عقلية ونقدية فإن التفسيرات التأريخية . تخلقه تحت إلحاح هذا المطلب ، يضع دعاة المذهب التاريخى السؤال العقلانى التالى :

" ما هى المشكلات التى يجب أن نراها كمشكلات ملحة ؟ كيف تحدث وكيف يمكن لنـ حلها ؟ " وذلك عن طريق السؤال غير العقلانى والذى يبدو ظاهريا أنه يتعلق بالوقائع وهو السؤال التالى : " أى اتجاه نتجه ؟ ما هى اتجاهات وميول عصرنا ؟ ما هو الدور الذى حدده لنا التاريخ لكى نلعبه؟ " ولكن هل يمكننى أن أنكر على أصحاب المذهب التاريخى Historizisten[1] الحق فى تفسير التاريخ بطريقتهم الخاصة ؟ ألم أقل من قبل أن هذا حق لكل شخص ؟ اجابتى على هذا السؤال هى أن تفسيرات أصحاب المذهب التاريخى تفسيرات من نوع خاص . هذه التفسيرات الضرورية والصحيحة والتى يجب أن نقبل احداها يمكن مقارنتها – كما قلت – بكشاف ضوئى ، نجول به فى الماضى آملين أن يضيئ لنا – بهذا المسح التجوالى – الحاضر . يشبه تفسير أصحاب المذهب التاريخى – فى مقابل هذا – هذا الكشاف الضوئى الذى نوجهه لأنفسنا . يجعل من الصعب علينا – متى لم يمكن من غير الممكن – أن نرى ما يحيط بنا ، كما يعوق تصرفنا . لكى نفسر هذا التشبيه نقول : لا يرى دعاة المذهب التاريخى من يختار ويرتب وقائع التاريخ ولكنه يعتقد أن التاريخ نفسه أو تاريخ البشرية هو ما يحدد مستقبلنا بل هو ما يحدد أيضا وجهة نظرنا عن طريق قوانينه المتضمنة . فبدلا من التسليم بأن التفسير التاريخى يجب أن يواجه المطلب باعتماده على المشكلات العملية والتحديدات التى نقابلها ، يعتقد القائل بالمذهب التاريخى أن الحدس العميق يعبر عن نفسه فى رغبتنا الوصول الى تفسير تاريخى ، يمكننا عن طريق تأمل التاريخ الكشف عن السر ألا وهو جوهر القدر الانسانى . فالاتجاه التاريخى يبحث عن الطريق الذى تحدد البشرية تغييره ، فهو يريد الكشف عن مفتاح التاريخ (كما أسماه جون ماكمورى J. Macmurray)[2] أو معنى التاريخ . ولكن هل هناك مثل هذا

(١) Historizisten مذهب تاريخى وهو القول بأن الحقيقة تاريخية ، بمعنى أنها تتصف بالنسبية التاريخية ، أى أنها تتطور بتطور التاريخ .

(٢) راجع صفحة ١٩٥ الكتاب الأصلى .

أو معنى التاريخ . ولكن هل هناك مثل هذا المفتاح ؟ هـل لتـاريخ العـالم معنى؟.

لا أريد أن اشغل نفسى هنا بمشكلة معنى كلمة " المعنـى " افـترض أن معظم الناس تعرف بوضوح كاف ما يعنونه عندما يتحدثون عـن " معنـى التاريخ " أو عن " معنى الحياة " . وبهذا المعنى ، بالمعنى الذى يوصع بـه التساؤل عادة عن معنى التاريخ أجيب : ليس لتاريخ العالم معنى ؟

يجب على أولا – من أجل أن أبين الأسباب التى جعلتنى أتبنى هذا الرأى – أن اقول شيئا عن شكل " التاريخ " الذى يدور بخلد الانسان عندما يضـع السؤال عن معنى التاريخ . لقد تحدثت حتى الآن عن " التاريخ " كما لو كان فى غير حاجة لتفسير إضافى . لم يعد هذا ممكنا : ومن ثم أريد أن أوضـح أنه لا وجود " لتاريخ " بالمعنى الذى يتحدث عنه معظم الناس . يشكل هـذا على الأقل أحد الأسباب التى تجعلنى أقول أنه لا معنى له .

كيف وصل معظم الناس الى استخدام كلمة " تاريخ " ؟ (أعنـى هنـا " تاريخ " بالمعنى الذى نقول به أن هذا كتاب يخص تـاريخ أوروبـا وليـس بالمعنى الذى نقول به : هذا تاريخ أوروبا) هذا المعنى تعلمه النـاس فـى المدرسة وفى الجامعة ، يقرأون عنه الكتب ويرون ما الذى تتناولـه الكتـب والذى يحمل العنوان " تاريخ العالم " أو " تاريخ البشرية " ويتعـودون فـى التاريخ على رؤية سلسلة محددة بشكل أكثر أو أقل – من الوقائع . ويعتقدون أن تعاقب هذه الوقائع يبنى تاريخ البشرية .

ولكننا قد رأينا أن ميدان الوقائع ميدان ضخم بلا نهاية ومن ثم أن نقـوم بعملية اختيار للوقائع ، فوفقا لاهتماماتنا يمكننا على سبيل المثال أن نبحـث فى تاريخ اللغة أو فى تاريخ المأكولات الممنوعة أو فى تاريخ حمى التيفـود (مثلما فعل مثلا هانز زنسر H. Zinsser فـى كتابـه : فـئران ، قمـل ، والتاريخ) من المؤكد أنه لا يمكن لأى هذه أن تكون هى تاريخ البشـرية (ولا أن تكون كذلك مجتمعة معا) . أن نتحدث عن تـاريخ البشـرية يعنـى أن

نتحدث عن تاريخ المصريين والبابليين وأهل بروسيا والامبراطورية الرومانية وتاريخ المغنونيين وهكذا الى أن نصل الى العصر الحاضر بمعنى آخر : أن نتحدث عن تاريخ البشرية ، أما ما نعنيه ونتعلمه فى المدرسة فهو تاريخ القوة السياسية .

لا وجود فى الحقيقة لتاريخ البشرية ، هناك عدد غير محدد من التواريخ (جمع تاريخ) تمس جميعها جوانب ممكنة من الحياة الانسانية . أحدها هو تاريخ القوة السياسية ، وكأنه هو تاريخ العالم . إلا أن هذه إهانة للبشرية وللأداب . فهو ليس أفضل من جعل تاريخ اللصوصية أو تاريخ الاغتيالات تاريخا للبشرية . فتاريخ سياسة القوة ليس سوى تاريخ الجريمة والقتل الجماعى على المستوى العالمى والقومى . هذا هو التاريخ الذى نتعلمه بالمدرسة وننظر فيه لكبار الظلمة كأبطال بواسل .

ولكن ألا يوجد بالفعل تاريخ عام بمعنى تاريخ فعلى konkret للبشرية ؟ لا يمكن أن يوجد مثل هذا التاريخ . يجب أن تكون هذه هى اجابة كل فرد يتصف حقيقة بالإنسانية وأن تكون بصفة خاصة اجابة كل مسيحى . يجب للتاريخ الفعلى للبشرية – اذا كان له وجود – أن يكون تار يخ كل البشر . يجب أن يكون تاريخ كل الأمنيات والصراعات والمعاناة البشرية ، إذ لا وجود لشخص أكثر أهمية من آخر . لا يمكن كتابة مثل هذا التاريخ الفعلى للبشرية ، يجب أن نقوم بعمل تجريدات ، يجب أن نهمل (أشياء) ونختار (أخرى) وبذلك نصل للتواريخ الكثيرة – والتى تشمل ضمن ما تشمل تاريخ القتل الجماعى والجريمة العالمية الذى يقدم على أنه تاريخ البشرية أو تاريخ العالم .

ولكن لماذا تم اختيار تاريخ القوة ولم يتم اختيار تاريخ الدين أو تاريخ فن الشعر مثلا ؟ هناك أسباب عديدة متنوعة لذلك ، يكمن أحدها فى أن القوة تؤثر فينا جميعا بينما يؤثر الشعر فى القلة منا . السبب الآخر أن الناس تميل الى تقديس القوة . ولكن عبادة القوة هى احدى الصور الحقيرة لعبادة

الأوثان، تقنيس القوة منشؤها الخوف أو الشعور أننا نستهين بـالحق . أمـا السبب الثالث فى أن سياسة القوة تشكل مركز اهتمام كاتب التاريخ فـهو أن أصحاب السلطة غالبا ما كان لديهم الرغبة فى أن يعبدوا بواسـطة غـيرهم وأنه قد وجدت لديهم الوسيلة لتحقيق أمنيتهم ، فكثير من المؤرخين قد كتبـوا بأمر وتحت إشراف حكامهم أو القادة العسكريين أو الحكام الديكتاتوريين .

أعرف أن هذا الرأى سيواجه من جوانب كثيرة بالكثير من الاعتراضات وأيضا من جانب المدافعين عن المسيحية . لأن الرأى القائل بأن الله ظـاهر فى التاريخ يشكل غالبا جزءا من الاعتقاد المسيحى رغم أنه تكاد لا توجد آية واحدة فى العهد الجديد يمكنها أن تدعم هذا الاعتقاد . نفس الأمر ينطبق على الرأى القائل بأن التاريخ هو معنى وأن معناه هو غاية الله. بـهذه الطريقـة يصبح التأريخ عنصرا ضروريا من عناصر الدين ، ولكنى أزعـم أن هـذا الرأى هو من قبيل عبادة الأوثان أو الخرافة ، ليس فقط من وجهـة نظـر عقلانية أو انسانية ولكن أيضا من وجهة نظر مسيحية .

ما الذى يندرج تحت مذهب التاريخ التأليهى ؟ يـرى مذهـب التـاريخ التأليهى مع هيجل أن التاريخ – التاريخ السياسى – عبارة عن مسـرح ، أو شكل من أشكال المسرح الشكسبيرى حيث يرى المشاهدون أبطال المسـرحية إما فى الشخصية التاريخية العظيمة أو فى الأوطان أو ربما فـى البشـرية جمعاء من حيث هى كذلك ، وعندئذ يتوجهون بالسؤال : " من الذى كتب هذه المسرحية ؟ ويعتقدون أنهم قد قدموا إجابة ورعة ونقية عندما يقولون : " الله" إلا أنهم مخطئون ، لأن اجابتهم هى الكفر نفسه لأن الله لم يكتب المسـرحية (وهو ما نعرفه) ولكن أحد كتاب التـاريخ وذلـك تحـت اشـراف القـادة العسكريين والحكام الديكتاتوريين .

لا أختلف فى أن النظر الى التاريخ من وجهة نظر مسيحية له ما يـبرره مثل النظر اليه من كل وجهة نظر أخرى ،كما يجب أن نؤكـد أننـا نديـن بأهدافنا العديدة ومثاليات ثقافتنا الغربية كالحرية والمساواة لتأثير المسـيحية ،

ولكن تكمن فى نفس الوقت وجهة النظر العقلانية الوحيدة ووجهة النظر المسيحية الوحيدة لتاريخ الحرية فى الاقرار بأننا نتحمل مسئوليتها بنفس المعنى الذى نحن به مسئولون عن بناء حياتنا - وأن ضميرنا هو فقط ما يمكن أن يكون حكماً وليس النجاح الدنيوى . فالمذهب الذى يرى أن الله وأحكامه ظاهران فى التاريخ لا يمكن تمييزه عن المذهب الذى يرى فى النجاح الدنيوى الحكم والتبرير الأخير لأفعالنا . فهما يؤديان الى نفس ما يؤدى اليه المذهب الذى يرى أن التاريخ سيوجهنا ، بمعنى أن القوة المستقبلية هى الحق وهو ما اسميته بمذهب المستقبلية الأخلاقية moralischen Futurismus . فالزعم بأن الله يكشف عن نفسه فيما نسميه عادة " تاريخ " أى فى تاريخ القتل الجماعي والجريمة الدولية ، لهو الكفر ذاته . ويظل الأمر كذلك متى لجأنا بدلا من حكام الماضى لحكام ومرتكبى المذابح العامة فى المستقبل من حيث أنهم قضاتنا . فهذا الأمر الوحشى والطفلى فى نفس الوقت لا يظهر ما يميز ميدان الحياة الانسانية بالفعل ، حياة الانسان المفرد غير المعروف والمنسي : همومه وأفراحه ، معاناته وانتهاء أجله ، فهذه جميعا هى المحتوى الفعلى للخبرة الانسانية فى كل زمان .

لو كان بمقدور التاريخ أن يسجل لنا هذا ، لما قلت بالتأكيد أنه كفر أن نرى إصبع الله فى التاريخ . ولكن لا وجود ولا يمكن أن يوجد مثل هذا التاريخ . ما يوجد من التاريخ ، تاريخ العظماء ورجال السلطة ليس على أحسن تقدير سوى كوميديا تافهة وضعها الحكام (تماماً مثل أوبرا buffa لهوميروس أوبرا النزاعات الصغيرة والمعاناة والصراعات الأولمبية). إنه ما تصوره لنا لاحدى غرائزنا السيئة ألا وهى التقديس الوثنى السلطة على أنه الحقيقة الفعلية . وفى هذا التاريخ الذى لم يخلفه الإنسان أبداً ولكنه زوره أقدم بعض المسيحيين على رؤية إصبع الله . ما جعلهم يقدمون على ذلك هو أنهم أرادوا معرفة وفهم إرادته بينما لم يفعلوا أكثر من أنهم حاولو أن ينسبون اليه تفسيراتهم التاريخية الصغيرة والتافهة . " وفى المقابل " يقول اللاهوتى كارل

بارث K. Barth [1] فى كتابه The Credo : " يجب أن نبدأ بـالاقرار .. أن كل ما نعتقد أننا نعرفه عندما نقول " الله " لم يصل الى الله ولم يفهم الله ولكنه مجرد أحد أوثاننا التى صنعناها بأنفسنا سواء أكان " العقل " أو "الطبيعة" أو " القدر " أو " الفكرة " • تتفق هذه العبارة مع موقف بارث الذى رأى فى اعتقاد البروتستانت الجدد بظهور الله فى التاريخ اعتقاد غير مشروع وهجوم على المركز الملكى للمسيح .

ولكن إذا نظرنا لهذه المحاولات من وجهة النظر المسيحية فسنجد أنها لا تقوم فقط على الزهو والتكبر ولكن على وجهة نظر مضادة للمسيحية، لأن المسيحية تعلمنا أن النجاح الدنيوى ليس هو الأمر الحاسم . فلقد عانى المسيح من بونتياس بيلاتوس Pontius Pilatus [2] . مرة أخرى استشهد ببارث Barth الذى يقول : " كيف يظهر بيلاتوس فى " الاعتقاد " ؟ الاجابة البسيطة على ذلك : " انها مسألة معطى " بهذه الطريقة يلعب الانسان الذى يمثل القوة التاريخية لزمنه دور المعلن عن الزمان الذى تحدث فيه هذه الحوادث . وأى الحوادث كانت تلك ، لم تكن هذه الحوادث سوى معاناة إنسان • يؤكد بارث على أن كلمة "يعانى " تتعلق بسائر حياة المسيح وليس فقط بموته . يقول : لقد عانى المسيح ، لذا لم يغز ولم ينتصر ولم يحقق نجاحا .. لم يصل سوى الى صلبه . يمكن أن نقول نفس الشئ عن شعبه وعن التابعين له " . أريد أن أوضح – بهذه العبارات التى أقتبسها من كتابات بارث – أن تقديس النجاح التاريخى لا يمكن أن يتفق مع روح المسيحية ، ليس فقط من وجهة نظر العقلانية والانسانية . فليست

---

(١) ولد كارل بارث عام ١٨٨٦ ، وتوفى عام ١٩٦٨ ، سويسرى الجنسية يعد من مؤسسى علم اللاهوت الديالكتيكى . وكواحد من أبرز أعضاء الكنيسة الألمانية حارب الفاشية .

(٢) حاكم رومانى مات بعد سنة ٣٦ بعد الميلاد ، حكم مدينة القدس فى الفترة من ٢٦-٣٦ م أثناء حكم الامبراطور تيبرياس Tiberius ، كان هو من أصدر حكمه على السيد المسيح بصلبه .

الأفعال التاريخيه نغزاة الرومان السلاطين هى معيار نجاح المسيحية ولكن اذا استخدمنا تعبير كير كجارد) " ما قـدمه بعـض الصيـادين للعـالم " فكل التفسيرات التأليهية للتاريخ تحاول أن تـرى فـى التـاريخ ــ أى فـى تاريخ القوة والنجاح التاريخى – مظاهر الارادة الالهية . ضد هذا الـهجوم على نظرية ظهور الإله فى التاريخ سيتم الاعتراض بأن النجاح يكمن فـى نجاح المسيح بعد وفاته والذى من خلاله اعتبرت الحياة غير الناجحة للمسيح على الأرض بأنها أكبر إنتصار وسيتم الاعتراض بأن النجـاح هـو ثمـار المذهب والذى برهنت هذه الثمار عليه وبررته والنجاح كان ما من خلالـه برهنت النبوءة عليه بأن " الأوائل سيصبحون الآخرين والآخرون الأوائـل" . أو بعبارة أخرى إن النجاح التاريخى للكنيسة المسيحية هو ما ظـهرت فيـه الارادة الالهية . إلا أن هذا منهج دفاعى شديد الخطورة لأنه يقبل ضمنـا أن النجاح الدنيوى للكنيسة يشكل حجة لصالح المسيحية وهو ما يظهر نقصا فى الاعتقاد ، فالمسيحيون القدماء لم يعرفوا بهجة دنيوية من هذا الشكل . (لقـد كانوا يعتقدون أن الضمير هو ما يوجه القوة وليست القوة هـى مـا توجـه الضمير) . فمن يعتقد أن تاريخ نجاح المذهب المسيحى هو ما يميط اللثـام عن الارادة الالهية يجب أن يسأل نفسه ما إذا كان هذا النجاح بالفعل نجاحـا لروح المسيحية وما اذا كانت تلك الروح لم تنجح وقت اضطـهاد الكنيسـة مثلما نجحت وقت أن كانت منتصرة ، وأى كنيسة تلك التى جسـدت هـذه الروح فى صورة خالصة ، هل هى كنيسة الشهداء أم الكنيسة المنتصرة التى كانت تتعقب الملحدين ؟ .

يعتبر الكثيرون ممن يؤكدون وبإصرار مسلم بـه أن بشـرى المسـيح موجهة للمسالمين أى هذه البشرى كانت وما زالت بشرى للاتجاه التـاريخى أو للتنبؤ التاريخى . يعتبر " جون ماكمـورى أحد المتبنيين البارزين لـهذا الرأى والذى يجد فى كتابه " الدليل الى التاريخ **The clue to history** " – جوهر المذهب المسيحى كامنا فى التنبؤ التاريخى والذى يمثل مؤسس هذا

المذهب بالنسبة له مكتشف القانون الديالكتيكى التاريخى للطبيعة البشرية يزعم ماكمورى أن التاريخ السياسى يجب – وفقا لهذا القانون – ان يؤدى وبالضرورة الى " الامبراطورية الاشتراكية ".لا يمكن الخروج على القانون الأساسى للطبيعة البشرية : سيحتل المسالمون الأرض " ولكن هذا الاتجاه التاريخى الذى يحل الأمان محل الأمل يجب أن يؤدى الى مذهب للمستقبلية الأخلاقية – " هذا القانون لا يمكن مخالفته " بهذا يمكننا أن نكون على يقين – لأسباب نفسية – أن نفس النتيجة ستحدث وهو ما يمكننا دائما أيضا أن نفعله، بل حتى الفاشية يجب أن تؤدى فى النهاية الى امبراطورية اشتراكية بحيث لا تعتمد النتيجة النهائية عندئذ على قرار أخلاقى صادر عنا ولم يعد هناك مبرر للتفكير فى المسئولية الخاصة . اذا قال لنا شخص أنه من الممكن أن نكون على يقين لأسباب علمية " أن الأوائل سيصبحون الآخرين والآخرون الأوائل " فماذا يكون ذلك خلاف إحلال الضمير عن طريق التنبؤ التاريخى ؟ ألا تقترب هذه النظرية (والتى من المؤكد أنها ضد رأى واضعها) بشكل خطير من المطالبة " بأن نتصل فى الوقت المناسب بالأخرين ، أى بحزب المسالمين ، اذ وفقا للقوانين العلمية للطبيعة البشرية والتى لا يمكن مخالفتها فان هذا هو الطريق الوحيد الآمن للوصول الى أعلى " . هذا المدخل الى التاريخ يفترض أننا جميعا نقدس النجاح ، فهو يعنى أن المسالمين لديهم ما يبرر أنهم سيجدون أنفسهم فى صف المنتصرين . فهو مدخل يعبر عن الماركسية بلغة علم نفس الطبيعة البشرية وبلغة التنبؤ الدينى ، إنه تفسير يتضمن أن نجاح المسيحية يكمن فى أن مؤسسها كان رائدا للهيجلية ، لا يجب أن يسئ أحد فهمى عندما أتمسك بالقول أننا لا يجب أن نقدس النجاح وأن النجاح لا يمكن أن يكون هو القاضى أو الحكم وأنه لا يجب أن نسمح له بأن يعمى أعيننا ، وعندما أحاول بصفة خاصة أن أوضح أنى بوجهة النظر هذه أتفق – من وجهة نظرى – مع المسيحية الحقيقية ، فلم أقصد بتلك الملاحظات الدفاع عن موقف غير دنيوى ، إذ أنى لا أعرف ما إذا كانت

المسيحية ليست من هذا العالم" ولكن من المؤكد أن هناك سيجيبه: هذه المسيحية تعلمنا أن الطريقة الوحيدة التى يمكننا بها عرض معتقداتنا تكمن فى أن نسمح بوصول المساعدات العملية (الدنيوية) للفقراء والبؤساء والمعوزين . كما أنه من الممكن بالطبع أن نوجد هوية بين موقف التحفظ أو الاستهزاء بالنجاح الدنيوى الذى يعنى القوة والشهرة والثروة ومحاولة المرء بذل قصارى جهده فى هذا العالم وتحقيق الأهداف الانسانية بنية واضحة وهى الأهداف التى عزم المرء على أن تؤدى به الى النجاح ولكن ليس من أجل النجاح ذاته ولكن من أجل الهدف .

نجد فى نقد كيركجارد لهيجل تدعيماً قوياً لبعض هذه الأراء وبصفة خاصة الرأى الذى يرى عدم إمكانية إتفاق المذهب التاريخى مع المسيحية . نعم لم يتحرر كيركجارد أبداً من التقليد الهيجلى الذى نشأ عليه ومع هذا لم يوجد شخص إعترف بوضوح بما يعنيه مذهب التاريخ الهيجلى حقيقة (مثل كيركجارد) .لقد كتب كيركجارد قائلا " نعم لقد وجد فلاسفة قبل هيجل عقدوا العزم على تفسير الوجود والتاريخ . كان يجب حقيقة على الله أو (العناية الالهية) أن تضحك على تلك المحاولات ولكنه لم يضحك عليها لأنها كانت بالفعل محاولات جادة صادقة " .

أما هيجل – ودعونى أفكر بمنطق يونانى – فكيف أنفجرت الآلهة ضحكاً! من هو هذا الأستاذ المقزز الذى سبرغور ضرورة كل شئ ويمكنه أن يستوعب كل شئ ؟ الاله ! . ثم يستطرد كيركجارد فى إشارته لهجوم شوبنهور الملحد على هيجل المدافع عن المسيحية قائلا " لقد سعدت سعادة بالغة بقراءتى لشوبنهور . فما قاله صادق تماماً " . ولم تكن تعبيرات كيركجارد الخاصة أقل فظاظة من تعبيرات شوبنهور ، إذ كتب يقول عن الهيجلية : " إن الجوهر الروحى لفساد وحدة الوجود هو أكثر الأشكال فسادا وبشاعة " كما تحدث عن " عفن الغطرسة " وعن " شهوته العقلية " وعن "التوهج الردئ للفساد elenden Glauze des Verderbens .

وفى الحقيقة فإن تربيتنا العقلية معيبة مثلها فى ذلك مثل تربيتنا الأخلاقية. فما يعيبها ويفسدها هو تقديس المظهر البراق والجوهر الروحى والإعجاب بالشكل والطريقة التى بها تقال وتفعل الأشياء بدلاً من الاهتمام بما يقال ويتم فعله ، ما يعيبها أيضا هى فكرة البريق الرومانتيكية التى تظهر على مسوح التاريخ الذى نلعب عليه أدوارنا .

لقد أحدثت أخلاق القدر والشهرة والصيت والأخلاقيات التى ما زال يسير عليها النظام التربوى الذى يقوم على نظرة أصحاب الاتجاه الكلاسيكى لتاريخ العالم وتصوراتهم الرومانتيكية للقوة والذى يقوم كذلك على أخلاق الفوضى الرومانتيكية والتى يمكن ردها الى هرقليطس ، نقول لقد أحدثت بلبلة فى مشكلة كيف يمكن تربية المرء على التقييم الصحيح لذاته على أساس تقييم الآخرين . عدم وضوح هذه المشكلة ناتج أيضا عن تأثير النسق الأخلاقى الذى يقوم فى أساسه على تقديس السلطة والقوة . فبدلاً من موقف نجمع فيه بين الفردية والايثار ، أى بدلا من الموقف الذى لسان حاله يقول " الأفراد الانسانية هى الهامة بالفعل دون أن يعنى هذا أن أستدل منه أن الأهمية تتركز فى شخص " تم الرضا عن تركيبة من الأنانية والجماعية Kollektivisnus ، وهو ما يعنى أنه قد تم تخطى معنى " الذات " وحياة الشعور الخاصة بها وتعبيرها عن نفسها ، كما تم تخطى التوتر القائم بين " الشخصية والفريق ، أو الشخصية والجماعة بطريقة رومانتيكية . تحتل هذه الجماعية مكان الأفراد الآخرين ومن ثم فأنها لا تسمح بأية علاقة شخصية عاقلة . شعار وجهة النظر هذه يقول " سد أو إستسلم ، كن رجلا عظيما ، بطلا يضرب مع القدر هنا وهناك ويكسب صيتا وشهرة (كلما كبرت الحالة كلما زاد الصيت وذاع ، هكذا قال هرقليطس) ، أو إنتم للمجموع الذى يستسلم للزعامة ويضحى بنفسه من أجل هذه الجماعية " . هنا يكمن فى هذا التأكيد المبالغ فيه على معنى التوتر القائم بين الذات والتجمع عنصر هستيرى عصابى . وأنا لا أشك فى أن هذه الهستيرية ، أى رد الفعل لضغط الحضارة

هو سر قوة الجذب العاطفى القوى الذى يسود أخلاق إجلال وتعظيم الأبطال، أخلاق السيادة والخضوع .

ينطوى هذا كله على صعوبة فعلية . فبينما هو واضح أن رجل السياسة يقصر نفسه على محاربة الشر دون أن يحاول محاربة قيم " ايجابية " أو قيم " عليا " مثل قيمة السعادة الغامرة ، يجد المعلم نفسه فى وضع مختلف تماما. نعم هو غير مضطر أن يحاول أن يفرض مقاييسه الخاصة للقيم العليا على مريديه ، ولكن من المؤكد أن عليه أن يحاول دفعهم أو اقناعهم بالاهتمام بهذه القيم . يجب أن ينشغل بأرواح مريديه (مثلما قال سقراط لأصدقائه أنه يجب أن ينشغلوا بأرواحهم ، أرواحهم التى انشغل هو نفسه بها) هناك اذن ما يشبه العنصر الجمالى أو الرومانتيكى فى التربية ، العنصر الذى لا يجب أن يجد له مدخلا فى السياسة . ولكن رغم أن هذا يصدق من حيث المبدأ فإننا لا نكاد نجد تطبيقا له فى نظامنا التربوى ، إذ أنه يفترض علاقة صداقة بين الاستاذ والطالب ، علاقة من حق أى من الطرفين إما أن يحافظ عليها أو أن ينهيها . (لقد اختار سقراط رفقاءه الذين بدورهم اختاروه) ولكن عدد الطلاب فى مدارسنا الحالية يجعل هذه العلاقة علاقة غير ممكنة . تبعا لذلك ليست كل المحاولات المنظمة لتبنى قيم عليا محاولات غير ناجحة ولكنها بالاضافة الى ذلك تؤدى الى أضرار ، اذ تؤدى الى أشياء جيدة مثل المثل التى يريد الإنسان أن يحققها . ويجب على المبدأ – القائل – بأننا لا يجب أولا أن نضر بهؤلاء الذين أئتمنا عليهم ، أن يكون مبدأ أساسيا فى التربية مثلما هو كذلك فى الطب " لا تحدث ضررا " (ومن ثم قدم للشباب ما هم فى أمس الحاجة له لكى يتحقق لهم الاستقلال عنا ويصبحون شبابا فعالا ، يختار لنفسه) هدف قيم بدرجة عالية ، تحقيقه صعب الى حد ما ، رغم أنه قد يبدو هدفا متواضعا . لقد حلت محل هذه القيم قيم عليا أضحت هى الموضة ، قيم رومانتيكية لا يقبلها العقل فى الحقيقة مثل " الرقى الكامل للشخصية " .

إن تأثير مثل هذه الأفكار الرومانسية – مثل أفكار أفلاطون – هي مـــا يؤدي الى التوحيد بين الفردية والأنانية والتوحيد بين الأيثار والجماعية (أي إحلال الانانية الفردية عن طريق أنانية المجموع) ، ولقـــد أدى هـــذا الـــى اغلاق الباب أمام وضع صياغة واضحة للمشكلة الرئيسية للتربية ، مشـــكلة كيف يمكن أن يصل المرء ذاته لتقييم نفسه على أساس تقييم الآخريـــن . وإذا كنا نشعر – وبصدق – أننا يجب أن نختار هدفنا بأنفسنا ، الهدف الكائن فيما وراءنا ، ونوليه كل اهتمامنا بل ومن الممكن أن نضحى من أجلـــه ، فإننـــا نخرج بالاستدلال أن الجماعة " بمهمتها التاريخية : يجب أن تكون هي هـــذا الهدف . يقال لنا إذن أننا يجب أن نضحى وقتها • عندئذ سنعرف أننا بـــهذه الطريقة قمنا بفعل رائع . يجب أن نضحى ومن خلال التضحيـــة سنكسـب شهرة وصيتا ، سنصبح أبطالا على مسرح التاريخ . من جهد بسيط سنكسب الكثير . هذه الأخلاق المشكوك فيها أخلاق فترة معينة ، القليل جدا هم مـــن اختارها ولم يهتم فيها أحد بالشعب . هذه أخلاق هؤلاء الذين وانتهم الفرصة. سياسيين كانوا أو أوليجاركيين عقليين – لكى تسجلهم كتب التاريخ . وهـــى الأخلاق التى لا يمكن أن تكون أخـــلاق هـــؤلاء المدافعيـــن عـــن العدالـــة والمساواة، لأن الشهرة التاريخية لا يمكن أن تكون عادلة ولا يمكن أن يحققها سوى القليل من البشر. أن عدد من هم أكثر قيمة يبقى دائما منسيا .

يبدو أننا يجب أن نسلم بأن الأخلاق الهرقليطسية – المذهب الذي يقـــول بأن (الثواب) الأعلى هو ما يمكن أن تقدمه الأجيال التالية ــ ربما تكـــون أفضل قليلا من المذهب الذي يطالبنا بأن ننشد الثواب في وقته ، ولكنها مـــع هذا ليست الأخلاق التى نريدها . نريد أخلاقا ترفض النجاح والثواب بصفـــة عامة ، هذه الأخلاق ليست أخلاقا جيدة ولكنها تعود في بدايتها على الأقـــل الى المسيحية ، ثم خبرناها مرة أخرى في الحاضر من خلال العمل العلمـــى والصنـــاعى المشترك . تبدو أخلاق الصيت والشهرة التاريخية الرومانتيكيـــة -لحسن الحظ – على وشك أن تتناقص ، وهو ما يظـــهره رمـــز الجنـــدى

المجهول . لقد بدأنا ندرك أن الضحية – خاصة متى كان مجهولا لنا – قد يكون أكثر قيمة من غيره . يجب على تربيتنا الأخلاقية أن تحل محل أخلاق الصيت والشهرة ، يجب أن نتعلم أداء عملنا والتضحية من أجل الواجب وليس من أجل الشهرة أو من أجل تجنب الفضيحة (نعم جميعنا فى حاجة لشئ من التشجيع والأمل والثواب بل واللوم ولكن هذا أمر آخر) . يجب أن نجد التبرير فى عملنا ، فيما نفعله لأنفسنا وليس فى معنى خيالى للتاريخ . ليس للتاريخ معنى – تلك هى فكرتى ولكن لا يستتبع ذلك أننا لا يمكننا أن نفعل شيئا وأننا يجب أن نقبل تاريخ القوة السياسية أو أننا مجبرون على قبولها كفكاهة قاسية ، إذ يمكننا تفسيرها بالنظر الى مشكلات سياسة القوة تلك المشكلات التى نريد فى وقتنا هذا أن نحاول حلها . يمكننا تفسير تاريخ سياسة القوة من منطلق صراعنا من اجل المجتمع المفتوح ومن اجل سيادة العقل والحق والعدالة والحرية والمساواة وأخيرا من أجل منع الحرب . رغم أن التاريخ ليس له غاية نهائية ، يمكننا مع هذا أن نعتبر غاياتنا تلك غايته ، **ورغم أن التاريخ لا معنى له يمكننا أن نعطيه معنى** (ولقد تحدث ثيودور لسنج Theodor Lessing عن " التاريخ من حيث أنه تقديم معنى لما لا معنى له " als Sinngebung des Sinnlosen وإن كان يعنى بذلك معنى آخر) .

إنها مشكلة الطبيعة والإتفاق Konvention تلك التى نقابلها هنا ، فلا الطبيعة ولا التاريخ يمكنه أن يخبرنا بما يجب أن نفعله ، لا يمكن للوقائع – سواء أكانت وقائع الطبيعة أو التاريخ – أن تحسم المواقف أو تحدد الغايات التى سوف نختارها ، إذ نحن الذين نحدد غايات ومعنى الطبيعة والتاريخ ، فالناس كأسنان المشط لا تتساوى ، ومع هذا يمكنها أن تقدم على الصراع من أجل نفس الحق . ليست المؤسسات البشرية كالدولة مثلا مؤسسات عاقلة ومع هذا يمكننا الصراع من أجل جعلها مؤسسات عاقلة ، نحن عاطفيون وعاقلون مثلنا فى ذلك مثل لغتنا ، إلا أننا يمكننا أن نحاول أن نجعل من أنفسنا أناسا

عاقلين بصورة أفضل ويمكننا أن ندرب أنفسنا على استخدام لغتنا ، ليس كوسيلة تعبير (مثلما يمكن أن يقول أصحاب النظرية التربوية الرومانتيكية) ولكن كوسيلة فهم عاقل . ليس للتاريخ ذاته معنى أو هدف - أعنى هنا بالطبع تاريخ سياسة القوة وليس تاريخ تطور البشرية الذى لا وجود له . ولكن يمكننا مع هذا أن نجعل له هدفا ومعنى . يمكن أن نجعله صراعا من أجل المجتمع المفتوح وأعدائه وتبعا لذلك يمكننا تفسيره وأخيرا فإن نفس الشئ يمكن أن يقال على " معنى الحياة " إذ تكمن فينا مسألة تحديد غاية حياتنا وتحديد أهدافنا .

أعتبر ثنائية الوقائع والتحديد ثنائية أساسية ، فالوقائع من حيث هى كذلك لا معنى لها ، فتحديداتنا لها هى ما يعطيها معنى ،فالذهب التاريخى هو إحدى المحاولات للتبرؤ من هذه الثنائية ، محاولة نابعة من الخوف ، إذ أنها تعود الى الرأى بأننا نحن من يحمل مسئولية المقاييس الأخلاقية المعترف بها، ولكن مثل هذه المحاولة النابعة من الخوف تبدو لى أنها بالضبط ما يطلق عليه الإنسان عادة " الاعتقاد فى الخرافات " لأنها تفترض أننا يمكن أن نحصد ما لم نزرعه ، انه الاعتقاد يحاول أن يقنعنا أن كل شئ سيكون بل يجب أن يكون على ما يرام إذا ما سرنا فقط مع التاريخ ، وأننا لسنا فى حاجة لاتخاذ أى قرار أساسى ، كما يحاول أن يجعلنا نتنصل من مسئولياتنا عن التاريخ وعن لعبة القوى الشيطانية التى تمارس علينا . يحاول تأسيس أفعالنا أو إرجاعها للنوايا الخفية لهذه القوى وهى النوايا التى لا يمكن أن تظهر لنا سوى فى الحدوس والإلهامات الصوفية ، فهو يضعنا ويضع أفعالنا معا على المستوى الأخلاقى لفرد تلهمه الأحلام وقراءة الطالع ويختار رقم الحظ الخاص به فى لعبة اليانصيب ، فالمذهب الأخلاقى - مثله فى ذلك مثل لعبة اليانصيب - نابع من شكنا فى عقلانية ومسئولية أفعالنا . إنه أمل خاطئ - إعتقاد فاسد ومحاولة إحلال الأمل والإعتقاد - الكامن فى حماستنا الأخلاقية وفى إحتقار النجاح - عن طريق اليقين الذى أنتج علما مزيفا ،

ولن يختلف الأمر كثيرا أن يكون هذا العلم المزيف نابعا من الطبيعة البشرية أو يحتمه قدرنا التاريخي .

أزعم أن المذهب التاريخي ليس فقط اتجاها (لا يقاوم النقد) بصورة عقلية ولكنه أيضا يناقض كل دين ينادي بالضمير ، إذ يجب على الدين أن يتفق مع وجهة النظر العقلية للتاريخ للمدى الذي يؤكد فيه أننا نتحمل مسئوليتنا المطلقة عن أفعالنا وتأثيرها على مجرى التاريخ . نعم يصدق أننا في حاجة للأمل ، فأن نحيا وأن نعمل دون أمل فذلك مما يتجاوز قوانا ولكننا لسنا في حاجة الى المزيد ولا يجب أن يعدنا أحد بما هو أكثر من هذا . لسنا في حاجة الى اليقين ، فالدين بصفة خاصة لا يجب أن يحل محل الأحلام وتحقيق الآمال ، فهو لا يجب أن يلعب دور ورقة اليانصيب في تلك اللعبة ولا دور بوليصة تأمين في إحدى شركات التأمين . إن المذهب التاريخي في الدين عنصر من عناصر عبادة الأوثان والاعتقاد في الخرافات .

يحدد أيضا هذا التأكيد على ثنائية الوقائع والتحديدات وجهة نظرنا تجاه الأفكار مثل فكرة " التقدم " . فعندما نعتقد أن التاريخ يتقدم فإننا نرتكب نفس الخطأ الذي يرتكبه إنسان يرى أن التاريخ ذو معنى ويعتقد في وجوب اكتشاف معنى التاريخ فيه . فالتقدم يعني أن نتحرك تجاه هدف محدد ، هدف يمثل بالنسبة لنا جوهرا إنسانيا . لا يمكن للتاريخ أن يفعل هذا ، نحن فقط – بنو البشر – يمكننا فعل هذا . يمكننا فعل هذا في دفاعنا وتدعيمنا للمؤسسات الديمقراطية التي تقوم عليها الحرية ويقوم عليها التقدم . ويمكننا فعل ذلك بشكل أفضل متى أدركنا أن التقدم يعتمد علينا نحن ، يعتمد على حذرنا ويقظتنا ، كدنا واجتهادنا والوضوح الذي به نتصور أهدافنا وأخيرا يعتمد على واقعية تحديداتنا . فبدلا من التصرف كأنبياء يجب علينا أن نصبح خالقي اقدارنا . يجب أن نتعلم أداء واجباتنا بأفضل ما يمكن ، كما يجب أن نتعلم إدراك أخطائنا ، ومتى تخلينا عن فكرة أن تاريخ القوة هو الحكم وهو القاضي ولم يعد السؤال " ما إذا كان التاريخ يبرر أفعالنا " يشغل بالنا ، قد

ننجح عندئذ يوما ما فى ترويض القوى التاريخية وقد نتمكن فى النهاية بـهذه الطريقة من تبرير تاريخ العالم : فالتاريخ فى أشد الحاجة الـــى مثـل هـذا التبرير .

المقالة التاسعة

" نحو نظرية للديمقراطية "

Zur Theorie der Demokratie

نشرت فى مجلة der Spiegel العدد ٣٢
٣ أغسطس ١٩٨٧ ص ٥٤ - ٥٥

يكمن اهتمامي الأكبر بالطبيعة وبالعلم الطبيعي : علم الكون Kosmologie . فمنذ أن تخليت عن الماركسية في يوليو ١٩١٩ لم يعد اهتمامي بالسياسة ونظرياتها سوى إهتمام المواطن العادي المؤمن بالديمقراطية ، إلا أن الحركات اليسارية واليمينية الجماعية الضخمة التي حدثت في العشرينات وفي الثلاثينات ثم تولى هتلر الحكم في المانيا أجبرتني جميعاً على أن أعيد التفكير وبإمعان في مسألة الديمقراطية :

رغم أن كتابي المجتمع المفتوح وأعداؤه لم يتناول أي ذكر لهتلر أو النازية إلا أنه يعد مع هذا إسهاماً في الحرب ضد هتلر : فهذا الكتاب نظرية في الديمقراطية ودفاع عنها ضد أعدائها القدامى والمحدثين . لقد خرج الكتاب عام ١٩٤٥ وأعيد طبعه مرات ، ولكن يبدو لي مع هذا أن النقطة التي أعتبرها أهم نقاط هذا الكتاب لم تفهم بالكامل إلا في حالات نادرة .

تعني " الديمقراطية " – مثلما يعرف ذلك كل شخص – "حكم الشعب" أو " سيادة الشعب " وذلك في مقابل الأستقراطية (حكم الطبقة الأفضل أو النبلاء) و " الموناركية " (حكم الفرد) . لا يساعدنا معنى هذه الكلمة أكثر من هذا ، اذ لم يحدث قط أن ساد الشعب ، فالحكومات هي ما تسود في كل مكان (بل وللأسف البيروقراطية هي التي تسود ، أي طبقة الموظفين التي لا يمكن أو من الصعب تربيتها على المسئولية) . ثم إن بريطانيا العظمى، الدانمارك، النرويج والسويد يسودها الحكم المونارکی إلا أنها في نفس الوقت أمثلة رائعة للدول الديمقراطية (ربما بإستثناء السويد حيث تمارس الآن البيروقراطية Steuerbürokratie غير المسئولة عنفا ديكتاتورياً) وذلك في مقابل المانيا الشرقية [1] التي تصف نفسها بالديمقراطية ولكنه للأسف ليس وصفاً صحيحاً . علام يتوقف الأمر إذن ؟

---

(١) ألمانيا الشرقية أو الجمهورية الديمقراطية الألمانية ، تأسست ١٩٤٩ ، كان يحكمها النظام الشيوعي ، إنضمت مرة أخرى الى المانيا الغربية لتعود المانيا موحدة مرة أخرى وذلك بعد هدم حائط برلين وبعد مظاهرات ١٩٨٩ التي نادت بوحدة المانيا .

هناك فى الواقع شكلان من أشكال الدولة : تلك التى يمكن فيها التخلص من الحكومة دون سفك دماء وذلك عن طريق التصويت وتلك التى لا يمكن أن يحدث فيها هذا . لا يتوقف الأمر إذن على التسمية التى تعطيها لشكل الدولة ، فقد إعتدنا تسمية الشكل الأول للدولة " الديمقراطية " والثانى "الديكتاتورية " أو " حكم الإستبداد " . الأمر إذن ليس نزاعاً حول تسميات . الأمر الحاسم هو إمكانية تغيير الحكومة دون سفك الدماء .

هناك طرق مختلفة من أجل إمكانية تغيير الحكومة . يشكل التصويت أفضل هذه الطرق : حيث يمكن للانتخاب الجديد أو التصويت فى برلمان مختار أن يسقط الحكومة . هذا هو معيار الحكم . من هنا فمن الخطأ (كما حدث منذ أفلاطون حتى ماركس وكما يحدث دائماً) التركيز على السؤال "من الذى يجب أن يحكم" ؟ الشعب أم القلة الأفضل ؟ العمال الخيرون أم أصحاب رأس المال الغاضبون ؟ الأغلبية أم الأقلية ؟ حزب اليسار أم حزب اليمين أم حزب الوسط ؟ فسائر هذه الأسئلة وضعت بشكل خاطئ ، إذ لا يتوقف الأمر على من يحكم ما دام من الممكن التخلص من الحكومة دون إراقة للدماء . فالحكومة التى يمكن التخلص منها لها رغبة قوية أن تسلك بطريقة يرضى عنها الناس وتزول هذه الرغبة متى عرفت الحكومة أنه ليس من السهل إسقاطها .

لكى أوضح أهمية هذه النظرية البسيطة للديمقراطية فى الواقع أريد أن أطبقها على مشكلة حق الإنتخاب النسبى (١). وإذا كنت هنا أنتقد حق الانتخاب المنصوص عليه فى دستور ألمانيا الاتحادية الذى نثق فيه جيداً ، فأرجو أن ينظر الى هذا النقد على أنه محاولة لفتح نقاش نادراً - حسب علمى - ما يوضع موضوع التساؤل . لا يجب أن يكون تغيير الدساتير مسألة هينة تتم

---

(١) التمثيل النسبى شكل من أشكال التمثيل النيابى حيث تكون كل الأحزاب ممثلة فى البرلمان بنسبة العدد الذى تم انتخابه من قبل الشعب . من مميزات هذا النظام ضمان تمثيل حتى أحزاب الأقلية فى البرلمان ومن ثم تأثيرها فى القرارات التى يتم إتخاذها .

باستهتار ولكن أن نخضعها للمناقشة النقدية ليحدث لنا وعى بأهميتها .

ينتشر فى ديمقراطيات أوربا الغربية حق الانتخاب والذى يتميز جوهريا عن حق الإنتخاب الموجود على سبيل المثال فى بريطانيا العظمى والولايات المتحدة والذى يقوم على فكرة التمثيل المحلى ، ففى بريطانيا العظمى ترسل كل دائرة انتخابية الى البرلمان الممثل الذى يحصل على أعلى الأصوات بصرف النظر عن الحزب الذى ينتمى هذا الممثل له ، بحيث يمثل هذا الشخص اهتمامات هؤلاء الذين يسكنون دائرته الانتخابية سواء أكانوا ينتمون لحزب سياسى أم لا . هناك بالطبع أحزاب وهى تلعب دوراً كبيراً فى تشكيل الحكومة ولكن إذا أعتقد ممثل دائرة إنتخابية معينة أنه من مصلحة دائرته الإنتخابية وربما الشعب كله أن يصوت ضد الحزب الذى ينتمى اليه أو حتى أن يترك هذا الحزب فإن من واجبه أن يفعل . لم يكن ونستون تشرشل W. Churchill أحد عظماء هذا القرن تابعاً لحزب معين وقام بتغيير الحزب مرتين . أما بقية القارة الأوروبية فالوضع فيها يختلف تماما . فنسبة كل حزب فى البرلمان تعنى أن لكل حزب عدد كبير من الممثلين له بحيث يجب أن يتناسب العدد المحدد لنواب الأحزاب المختلفة مع عدد الأصوات التى أعطيت للأحزاب مثلما هو الحال مثلا فى البرلمان الألمانى Bundestag .

على هذا النحو يعترف دستور الدولة بالأحزاب ويكفلها قانوناً . ويتم إختيار النائب الفرد رسمياً كممثل لحزبه . من هنا فهو غير ملزم بالتصويت فى ظروف معينة ضد حزبه فهو على العكس مرتبط أخلاقياً بحزبه من حيث أنه قد تم إختياره كممثل لهذا الحزب . واذا وجد أن التزامه بمبادئ الحزب لن يتفق مع ضميره ، فواجبه الأخلاقى أن ينسحب حتى وإن لم يكن الدستور قد نص على هذا .

أعرف بالطبع أن الناس فى حاجة الى أحزاب ، فلم يحدث حتى الآن أن تم وضع نسق ديمقراطى دون أحزاب ولكن الأحزاب السياسية ليست مظاهر فرح فسائر ، ديمقراطياتنا ليست حكومات شعبية ولكنها حكومات حزبية أى

حكومة قائد الحزب ومن ثم فكلما كان الحزب كبيرا كلما قل الاجتماع فيه على كلمة وقل اتصافه بالديمقراطية وقل تأثير هؤلاء الذين يصوتون لصالحه أو لصالح قيادة هذا الحزب أو برنامجه . فالاعتقاد أن Bundestag أو البرلمان الذى تم إختياره وفقاً لنسبة كل حزب فيه هو مرآة أفضل للشعب ولأمانيه إعتقاد خاطئ فهو لا يمثل الشعب وآراءه ولكنه يمثل فقط تأثير الأحزاب (والدعاية) على الشعب يوم الانتخاب . وما يجعله أصعب أنه يتحول الى ما يمكن وما يجب أن يكون : محاكمة الشعب لنشاط الحكومة .

لا وجود إذن لنظرية صالحة لسيادة الشعب ، لا نظرية صحيحة يتطلبها نسبة كل حزب فى البرلمان . ومن ثم يجب أن نسأل : كيف يؤثر التوزيع النسبى للأحزاب فى البرلمان فى الواقع ، كيف يؤثر أولاً فى تشكيل الحكومة وثانيا فى الإمكانية الهامة التى تحدد حل الحكومة ؟ .

١- كلما كانت هناك أحزاب أكثر كلما كانت عملية تشكيل الحكومة أمراً أكثر صعوبة . هذه أولاً إحدى وقائع الخبرة وثانياً احدى وقائع العقل . فلو لم يكن هناك سوى حزبين لكانت مسألة تشكيل الحكومة أمراً سهلاً إلا أن التوزيع النسبى فى البرلمان بوجود أحزاب أخرى صغيرة تؤثر فى تشكيل الحكومة ومن ثم تؤثر فى القرارات السياسية للحكومة .

سيوافق كل شخص على هذا ، كما يعرف كل شخص أن هذا التوزيع النسبى يزيد من عدد الأحزاب ولكن طالما نقبل القول أن جوهر الديمقراطية يكمن فى سيادة الشعب يجب أن نتحمل كديمقراطيين صعوبات هذا التوزيع النسبى كشئ جوهرى .

٢- يجعل التوزيع النسبى للمقاعد ومعه عدد الأحزاب حل الحكومة عن طريق قرار الشعب عن طريق الانتخاب الجديد للبرلمان مثلا أمراً صعباً ما دام المرء يعرف أولا أن هناك أحزاباً كثيرة ومن ثم من الصعب أن نتوقع أن يحقق أحد الاحزاب وحده الأغلبية المطلقة . بحيث أنه متى حدث هذا التوقع فإن قرار الشعب لا يكون عندئذ ضد أى

حرب من الأحزاب . لا يعد هذا القرار رفضا لأى حزب ولا حكما لصالح أى حزب .

لا يتوقع المرء ثانيا أن يوم الانتخاب هذا يوم لحكم الشعب على الحكومة فلقد كانت الحكومة أحياناً حكومة أقلية ومن ثم لم تكن فى وضع يسمح لها أن تحدد ما هو هام بالنسبة لها ولكنها كانت مضطرة فقط للتنازل ، أو كانت أحيانا حكومة إئتلافية حيث لم يكن أى من الأحزاب الحاكمة المكونة لها مسئولاً مسئولية كاملة .

ومن ثم فقد إعتدنا ألا نعتبر أيا من الأحزاب السياسية أو قادتها مسئولاً عن قرار الحكومة ، وألا يعتبر الناخبون خسارة خمسة أو عشرة فى المائة من أصواته الخاصة حكماً بالإدانة : إذ لا يدل ذلك سوى على تذبذب وقتى فى شعبية هذا الحزب .

ثالثا : متى ارادت أيضا أغلبية الناخبين اسقاط حكومة أغلبية قائمة فإنها لا يمكنها تحقيق ذلك بالمرة ، لأنه متى خسر حزب - كانت له أغلبية مطلقة - أغلبيته ، فانه من المحتمل جداً أن يبقى - وفقاً للتوزيع النسبى - الحزب الأكبر . وعندئذ سيتمكن بالتعاون مع أحد الأحزاب الصغيرة من تشكيل حكومة ائتلافية ويظل الزعيم المعزول للحزب الكبير على كرسى الحكم وذلك ضد قرار الأغلبية وعلى أساس قرار حزب صغير يمكن أن يكون بعيداً كل البعد عن تمثيل إرادة الشعب .

من الممكن بالطبع لمثل هذا الحزب الصغير - حتى دون إنتخابات جديدة أو تكليف من الناخبين - أن يسقط حكومة ما وأن يشكل بالتعاون مع الأحزاب المضادة حكومة جديدة - وذلك فى تضاد عجيب مع الفكرة التى تشكل أساس التوزيع النسبى لمقاعد البرلمان : وهى ضرورة تناسب تأثير حزب ما مع عدد ناخبيه .

كثيراً ما تحدث مثل هذه الأمور فحيث توجد أحزاب كثيرة وحيث تكون القاعدة إئتلافات ، تصبح مثل هذه الأمور أمورا بديهية

ومن الصحيح تماما أنه من الممكن أن تحدث أمور مشابهة فى بلاد أخرى لا وجود فيها لهذا التوزيع النسبى . ولكن عندئذ فى مثل هذه البلاد كبريطانيا العظمى أو الولايات المتحدة ينمو إتجاه مفاده تنافس حزبين كبيرين يقفان أمام بعضهما .

تبدو لى صورة النظام الذى يتكون من حزبين أفضل صور الديمقراطية، إذ أنها تؤدى دائما الى النقد الذاتى للأحزاب ، إذ متى حدث ومنى أحد الحزبين الكبيرين بهزيمة ثقيلة فى إحدى الانتخابات ، فإن هذا عادة ما يؤدى الى اصلاح جذرى داخل الحزب . هذا هو أحد نتائج التنافس وهى النتيجة التى لا يمكن أن نغفلها ومن ثم تضطر الأحزاب عن طريق هذا النظام ومن وقت لآخر أن تتعلم من أخطائها أو تتلاشى (تنتهى من الوجود). لا تعنى ملاحظاتى ضد التوزيع النسبى أنى أوجه النصيحة لسائر الدول الديمقراطية أن تتخلى عن هذا التوزيع النسبى ، ولكنى فقط أتمنى اعطاء مناقشته (مناقشة التوزيع النسبى للمقاعد فى البرلمان) اتجاهاً جديداً . إن الفكرة التى ترى أنه من الممكن أن نستنبط منطقياً من فكرة الديمقراطية السمو الاخلاقى لنظام التوزيع النسبى وأن الأنظمة الكونية أنظمة أفضل وأكثر ديمقراطية - وذلك بسبب التوزيع النسبى - من الأنظمة الأنجلوسكسونية فكرة ساذجة .

إذا أردنا تلخيصاً لما سبق نقول : أن الفكرة التى ترى أن التوزيع النسبى أكثر ديمقراطية من النظام البريطانى أو الأمريكى فكرة لا يمكنها أن تصمد أمام النقد من حيث وجوب قيامها على نظرية قديمة ترى فى الديمقراطية أنها حكم الشعب (والتى ترتد بدورها الى ما يعرف بنظرية سيادة الدولة) . هذه النظرية نظرية فاسدة من الناحية الأخلاقية بل ولا يمكنها أن تصمد أمام النقد يمكن إبدالها بنظرية عدم ممارسة الأغلبية للعنف .

هذه الحجة الأخلاقية أكثر أهمية من الحجة العملية التى ترى أننا لم نعد فى حاجة الى حزبين متنافسين ومسئولين مسئولين كاملة لكى يقدموا للناخبين القوة ليحاكموا الحكومة فى إنتخاباتهم . ينشأ عن التوزيع النسبى خطر أن يتم

التهوين من شان قرار الأغلبية فى الانتخابات ومن ثم التهوين أيضا من تـأثير الهزيمـة فـى الانتخابـات علـى سـائر الأحـزاب وهـو التـأثير الـذى قد تتطلبـه الديمقراطية . ومن المهم لقرار الأغلبية الصحيح أن يكون هناك بالفعل حـزب معارض قوى وإلا سيجد الناخبون أنفسـهم مضطرين للسـماح لحكومـة سيئة بالحكم مرة أخرى لأن لديها مبرراً ألا وهو عدم وجود حكومة أفضل منها .

ألا يتعارض دفاعى عن نظام الحزبين مع فكرة المجتمع المفتوح ؟ أليس السـماح بتعـدد الآراء والنظريـات ، أى التعدديـة Pluralismus هـى الصفـة الجوهرية المميزة للمجتمع المفتوح وبحثه عن الحقيقة وألا يجب أن تعبر هـذه التعددية عن نفسها فى تعدد الأحزاب ؟ أجيب : تكمن وظيفة الحزب السياسـى فى تشكيل حكومة ، أما اذا كان حزباً معارضاً فتكمن وظيفته فى مراقبة عمل الحكومـة مراقبـة نقديـة ، والتـى ينـدرج تحتهـا سـماح الحكومـة لــلآراء والأيديولوجيات والأديان المختلفة . (للمدى الذى لا تكون معه متعصبـة ، إذ الأيديولوجيات التى تدعو الى التعصب تفقد حقها فى التسامح معها) . تحـاول بعض الأيديولوجيات - محاولات ناجحة أو غير ناجحة - السيطرة على أحـد الأحـزاب أو تأسـيس حـزب جديـد ومـن ثـم سينشـأ سـجال بيـن الآراء والإيديولوجيات والأديان مـن ناحيـة وبيـن الحزبيـن الكبيرين المتنافسين مـن ناحية أخـرى . أمـا فكـرة تعـدد الأيديولوجيـات أو وجهـات النظـر عن العالم يجـب أن تظهـر فـى تعـدد الأحزاب فكـرة تبـدو لـى أنهـا ليستَ خاطئـة مـن الناحيـة السياسـية فقـط ولكنهـا خاطئـة أيضـاً كوجهـة نظـر للكـون إذ ينـدر أن يحدث إتفاق بين ما يخص سياسة الأحزاب وبين نقاء مذهب ما .

المقالة العاشرة

" ملاحظات حول نظرية وعمل الدولة الديمقراطية "

Bemerkungen Zur Theorie und Praxis des demokratischen Staates

محاضرة ألقاها كارل بوبر فى ميونيخ يوم ٩ يونيو ١٩٨٨

١ - الأدب والعلم والديمقراطية

هل من رابط بينها ؟

قبل ميلاد السيد المسيح بحوالى ٥٣٠ عاماً وجد فى أثينا سوق لم يحدث أن وجد مثله - على الأقل فى أوروبا - من قبل ، سوق حر للكتب أو مكان كانت تعرض فيه للبيع الكتب المكتوبة بخط اليد على لفائف ورق البردى . كانت ملحمتا هوميروس الشعريتان " الالياذة والأوديسا " هما أول ما تم عرضه للبيع .

وفقاً لما سجله شيشرون Cicero الذى عاش بعد ذلك بخمسمائة عاماً تدين كتابه هاتين الملحمتين لهوميروس لبايزيستراتوس Peisistratos الطاغية الذى كان يحتل عرش أثينا آنذاك ، كان بايزيستراتوس مصلحاً كبيراً قام مع غيره بتأسيس البناءات الدرامية أى المؤسسة التى نطلق عليها الآن إسم المسرح . وربما أو من المحتمل أنه كان أول ناشر لهوميروس الذى استقدم مادة الكتابة - ورق البردى من مصر - وابتاع الكثير من العبيد المثقفين من يمكن أن يملى عليهم نص هوميروس .

كان بايزيستراتوس رجلاً ثرياً ، أقام المهرجانات لأهل أثينا وأهدى لهم الكثير من الأحداث الثقافية الهامة . ثم وجد من بعده فى أثينا آخرون - رجال أعمال - عملوا كناشرين . لقد جذبتهم الواقعة بأن الطلب -على ما يبدو- عزيز ، فلقد تعلم الجميع القراءة وقرأ الجميع هوميروس حتى اصبحت أعماله - فى وقت قصير يدعو للدهشة - هى بمثابة الكتاب المقدس والكتاب الأول الذى يتعلم منه المبتدءون فى أثينا . ثم تلا ذلك نشر كتب أخرى خلاف أعمال هوميروس . نلاحظ أنه لولا وجود سوق للكتب ما كان هناك نشر للكتب ، فوجود مخطوط (أو كتاب مطبوع) فى مكتبة للقراءة لا يمكن بأى طريقة أن يحل محل عرضه فى سوق للكتب . نعتبر ونصدق أن أول عرض لمخطوط فى سوق الكتب هو بمثابة أول نشر له ولم يوجد سوق للكتب فى أوروبا أستمر لزمن طويل سوى فى أثينا (حوالى ٢٠٠ سنة فى تقديرى) ثم

كانت فيما يبدو كورنت Korinth وطيبة Theben أول مدينتين تتبع أسـواقها مثالها الأثينى .

أما الشعراء والكتاب فلقد كان هناك بالطبع الكثير منهم ولكن ما كان من الممكن للأدب أن ينشأ أول ما نشأ سوى فى أثينا (ما دام قيامه يفترض مسبقا وجود مؤسسة للنشر) حيث وجد كتاب ومؤرخون وعلماء سياسة وفلاسفة وعلماء طبيعة ورياضيون القليل فقط من هؤلاء هو من ولد فى أثينا مثل ثيوكيديوس Thukydides [1] إلا أن أثينا قد مارست عليهم جميعا قوة جذب لا يمكن مقاومتها ، ولقد كان انكساجوراس الفيلسوف والباحث فى الطبيعة ومعاصره الأصغر منه سنا هيرودوت Herodot أول المؤرخين العظام من الكتاب الأجانب على أثينا والذين جاءوا اليها وقاموا بنشر كتبهم فيها . كلاهما جاء الى اثينا من آسيا الصغرى كلاجئ سياسى . أعتقد أن هيرودوت حين كتب عمله التاريخى الضخم لم يكن ذلك بنية النشر بينما كان كذلك انكساجوراس حين كتب تاريخ الطبيعة القصير. اذا صدق هذا الحكم فإنه يوضح الموقف غير المؤكد لهذين الكتابين من عملية النشر التى لم تكن قد اخترعت سوى من فترة قصيرة وهى العملية التى لم يكن أحد وقتها قد أدرك دلالتها .

٢- من أول كتاب تم نشره في أوروبا وحتى ثورة جوتنبرج Gutenberg:

أعتقد أن إنشاء أثينا لسوق للكتب يفسر الى حد كبير المعجزة الثقافية التى حدثت فى أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد كما يفسر أيضا الديمقراطية الأثينية .

لا يمكن بالطبع إثبات صدق الاعتقاد بوجود علاقة بين طرد الطاغية

---

(١) ثيوكيديس : هو أعظم مؤرخى اليونان القدماء . تاريخ ميلاده غير معروف على وجه الدقة ولكنه ولد بالتأكيد قبل عام (٤٦٠ ق.م) وهو مؤلف كتاب (تاريخ الحرب البلوبونيزية) المرجع الأساسى الذى منه عرفنا تاريخ الصراع بين أثينا وأسبرطة الذى حدث فى القرن الخامس ق.م

هيبياس Hippias من أثينا عام ٥١٠ وما أعقبه من نشأة الديمقراطية وإنشاء سوق الكتب . إلا أن هناك الكثير مما يمكن أن يقال لصالح هذا الاعتقاد. إن فن القراءة والكتابة الذى إنتشر بسرعة فى أثينا ثم الشعبية الكبيرة التى اكتسبها هوميروس والتى نتج عنها شعبية كتاب المسرح التراجيدى الأثينى الكبار ، والرسامون والنحاتون والذين كانت لديهم افكار جديدة كثيرة تم مناقشتها فى هذا العصر الحديث ثم الازدهار الثقافى : هذه جميعا وقائع . واذا افترضنا أن قيام الديمقراطية كان أمراً لا صلة له بسائر هذه الأشياء التى تأثرت وبقوة باختراع سوق الكتب فإن الإنتصار العظيم الذى حققته الديمقراطية الأثينيـــة الوليدة فى حربها من أجل الحرية ضد إمبراطورية الفرس الضخمة لم يكن مستقلاً عن هذه الأشياء أو الوقائع ، إذ لا يمكن فهم هذا الانتصار سوى فى ضوء الوعى الذاتى الجديد ، الذى قدم للأثينيين خير ثقافة وخير تعليم فريدين من نوعهما ومكتسبين ذاتياً كما قدم لهم حماسة اكتسبوها أيضاً بأنفسهم وأخيراً فهماً لجمال ووضوح - لم يسبقهم أحد اليه - فى الفن والشعر .

وعلى أية حال فإنه من الجدير بالملاحظة أن إختراع جوتنبرج فى القرن الخامس عشر والتوسع الكبير فى أسواق الكتب والناتج عن طباعة الكتاب أديا الى ثورة ثقافية مماثلة : أديا الى ظهور الاتجاه الانسانى Humanizmus . وانتعشت سائر الفنون بانعاش الأدب القديم ، ونشأ علم طبيعى جديد . وفى انجلترا أدت حركة الاصلاح الى ثورة ١٦٤٨-١٦٤٩ الدموية وثورة ١٦٨٨ السلمية والتى بدأت بها نشأة الديمقراطيـة الدائمة للبرلمان الانجليزى . تكمن هنا على أية حال علاقة أكثر وضوحاً .

٣- انجازات ومساوئ الديمقراطية الأثينية :

لقد نشأت المعجزة الأثينية عن الحوادث الثقافية والسياسية والعسكرية العظيمة والتى حدثت فى القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد وهى الحوادث التى تلت إختراع سوق للكتاب . لقد واكب هذه الحوادث

النشأة السريعة لمذهب الفريد من نوعه والمثالى بمعنى الكلمة - المثالى لمستقبل أوروبا . لقد تضمنت هذه الحوادث حربين دامتا حوالى ثلاثين عاما ، خرجت أثينا من الحرب الأولى مدمرة لكن منتصرة بينما لاقت فى الثانية هزيمة نكراء . أقدم هنا قائمة ببعض الحوادث الهامة مرتبة ترتيبا تاريخياً .

ق ٠ م

(٥٠٧) نشأة الديمقراطية فى أثينا .

(٤٩٣) التسليح والصناعة البحرية تحت حكم ثمستوكليس Themistokles

(٤٩٠) موقعة الماراثون .

(٤٨٠) إخلاء أثينا وتدمير الفرس لها . المقاومة من الأسطول .

موقعة سلامى Salamis .

(٤٧٩) موقعتى بلاتيه Platää وميكالى Mykale .

تهديد اليونانيين الأيونيين فى آسيا الصغرى وإستنجادهم بأهل أثينا من فوق الجزيرة وهو ما أدى الى معاهدة دليان البحرية Attisch-Delischen Seebund والى ما يعرف بالإمبراطورية الأثينية .

تحصين أثينا وإعادة بنائها .

من (٤٦٢) عهد بريكلس . بيت الإله فى أثينا Die Akropolis [1] معبد البارثون Parthenon Tempel .

من (٤٣١) الحروب البلوبونيزية .

(٤٢٩) الطاعون . موت بريكلس Perikles بالطاعون . استمرار الحرب . الحرب تزداد وحشية .

---

(١) أن بناء بيت الاله تقليد عرفته سائر مدن اليونان القديمة ، كان يتم بناؤه على أعلى قمة فى المدينة لغرض دينى وعسكرى معاً ، كغرض عسكرى كانت تستخدم كقلعة ، ولغرض دينى ذلك لأن التل - أو قمة الجبل - كان - وفقا لهم - موطن أسرار الطبيعة ، ومن ثم يجب أن يكون هو بيت الاله . يعد بيت الاله فى أثينا أشهر هذه البيوت .

(٤١٣) كارثة سيسليا (صقلية) تدمير الأسطول والجيش الأثينى
(٤١١) انهيار الديمقراطية الأثينية
(٤٠٤) انتصار إسبرطة على أثينا وتعيين حكومة إرهابية لا ديمقراطية عميلة لإسبرطة قتلت من الأثينيين فى الشهور الثمانية التى حكمت فيها أكثر مما فعلته أسوأ سنوات الحرب وهى السنوات العشرة الأخيرة .

ينتهى هنا عادة تاريخ حرب الثلاثين عاماً الثانية ومن ثم ينشأ لدى الانسان الإنطباع أن الديمقراطية الأثينية قد انتهت هنا أيضاً ، إلا أن هذا الإنطباع إنطباع خاطئ ، إذ لم تكن هذه هى نهاية الديمقراطية الأثينية .

فبعد ثمانية شهور إنهزم الطغاة الثلاثون فى موقعة بيراوس Piraus على يد مجموعة من الأثينيين الديمقراطيين وعقدت معاهدة سلام بين أسبرطة والديمقراطية الأثينية . على هذا النحو بقت الديمقراطية بعد هذا الزمان الغاضب لحرب لا هوادة فيها وللخيانة الوطنية لزعماء واعتبر أعداؤها من وقتها ولأكثر من نصف قرن آخر الديمقراطية الأثينية ديمقراطية لا يمكن هزيمتها .

إلا أن الديمقراطية الأثينية كانت قد أرتكبت أخطاء فادحة ، لم تكن مجرد أخطاء تكتيكية وإستراتيجية ولكن جرائم ضد البشرية مثل تدمير جزيرة ميلوس التى هاجمها الأثينيون دون أن يكون قد حدث فيما يبدو تحرش مباشر من سكانها وتم قتل سائر رجالها وسبى وبيع نسائها وأطفالها . وماذا يكون الحكم الخاطئ على سقراط (وهى العملية السياسية التى كان المدعى فيها زعيم حزب) إذا ما قورن بهذه الجريمة الشنعاء ؟ لقد شرح ثيوكيديدس بنفسه والذى كان قائداً حربياً أثينياً بالتفصيل ما حدث ووصفه بأنه كان قراراً خبيثاً غير إنسانى لا يمكن العفو عنه لأغلبية كانت تعرف جيداً ماذا تفعل والتى - وفقا لرأيه - كان لابد أن تعاقب على جريمتها . لقد حدثت حالات أخرى كثيرة مشابهة .

لا يوجد ما يبرر مثل هذه الجرائم . ولكن لحسن الحظ كانت هناك قرارات أخرى أبلغنا عنها ثيوكيديس . فلقد نقضت ميتيلين Mytilene معاهدتها مع أثينا وقامت ضدها ولكن تمكنت أثينا من إحتلالها . أرسل الأثينيون سفينة يحمل قائدها أمراً معه بقتل جميع أهلها - ولكن في اليوم التالي تملك الأثينيون الإحساس بالندم فتمت الدعوة لاجتماع شعبي - يلقي فيه " ديودوتس Diodotus " خطبة طلب فيها الرفق والشفقة بأهل ميتيلين Mytilene . ورغم أن التصويت لم يعطه سوى أغلبية صغيرة إلا أنه تم على الفور ارسال سفينة ثانية لتلحق بالأولى وأخذ طاقمها يجدف بكل قوة حتى تمكنوا من اللحاق بالسفينة الأولى وسحب الأمر الأول . على هذا النحو كانت ميتيلين على وشك التدمير - كما يقول ثيوكيديدس .

٤- لم تكن الديمقراطية أبداً سيادة الشعب .

لا يمكنها ولا يجب أن تكون كذلك .

للديمقراطية مشكلات كبرى . لقد وجدت هذه المشكلات منذ البداية وما زالت موجودة ، أهمها وأكثرها صعوبة هي المشكلات الأخلاقية .

المشكلة التي ما زالت تؤدي الى الخلط وتبدو كما لو كانت مشكلة أخلاقية - ولكنها ليست كذلك - مشكلة محض لفظية : " فلفظ " ديمقراطية " اذا ما تمت ترجمته الى الألمانية فإنه يعني " سيادة الشعب " ومن هنا يعتقد الجميع أن هذا الأسم ذو دلالة لنظرية اشكال الدولة التي نعطيها نحن هنا في الغرب هذا الاسم .

لقد قدم اليونانيون أسماء عديدة للصور المتنوعة لإدارة الدولة رغبة منهم في تحديد أي الأشكال الممكنة للحكومة حسن وأيها سيئ ، ايها أفضل وأيها أسوأ ، ومن ثم وصلوا الى إعطاء الدستور خمسة اسماء وفقاً للخصائص الأخلاقية . استخدم افلاطون هذه الفكرة كثيراً وتم وضعها في النسق التالي .

١+٢ المونارکية : سيادة فرد واحد خير ، أما صورتها المزيفة فهي الاستبداد - أي سيادة شرير واحد .

٣+٤ الأرستقراطية : سيادة قلة خيرة ، وصورتها المزيفة الأوليجاركية فهى سيادة قلة لكنها ليست قلة خيرة .

٥ الديمقراطية : سيادة الشعب ، أو الكثرة . وفقاً لأفلاطون لا وجود هنا سوى لصورة واحدة للديمقراطية وهى صورة سيئة إذ تتضمن هذه الكثرة كثرة شريرة وهو ما يحدث كثيراً .

الآن من الأهمية بمكان أن نبحث عن صياغة السؤال الذى يشكل أساس هذا النسق ، هنا نجد أن أفلاطون إنطلق بالسؤال التالى والساذج الى حد ما .

من الذى يجب أن يسود ويحكم الدولة ؟

من الذى يجب أن يمارس السيادة ؟

قد يفرض مثل هذه السؤال الساذج نفسه على شئون دول صغيرة مثل دولة المدينة اليونانية حيث تعرف كل الشخصيات الهامة بعضها البعض معرفة جيدة . إذ من الجدير بالذكر أن هذا السؤال - وان كان غير مدرك - هو ما يشكل وحتى الآن أساس كل مناقشة سياسية ، فلم يحرك ماركس ولينين، موسوليني وهتلر ، ومعظم رجال السياسة الديمقراطيين سوى صياغة هذا السؤال وإن كان هذا قد حدث منهم بدون وعى أيضاً ومتى وصلوا الى صياغة قواعد عامة فلن تكون هذه القواعد عادة سوى إجابات على السؤال "من الذى يجب أن يحكم ؟" . لقد كانت إجابة أفلاطون : " الأفضل هو من يجب أن يحكم . " من الواضح أن هذه الإجابة كانت إجابة أخلاقية . أما إجابة ماركس ولينين فكانت " طبقة البروليتاريا هى من يجب أن يحكم " (وليس أصحاب رأس المال كما هو الآن) وهم نعم يجب أن يحكمون الدولة : يجب أن يفرضون شروطهم . هنا نجد العنصر الأخلاقى متوارى الى حد ما ولكن طبقة البروليتاريا الخيرة هى من يجب بالطبع أن تحكم لا أصحاب رأس المال الشريرين .

لست فى حاجة للحديث عن هتلر ، فإجابته بسيطة : " أنا " من الواضح أن هتلر كسابقيه يضع السؤال " من الذى يجب أن يحكم ؟ " كأساس لإجابته .

لقد إقترحت منذ حوالى خمسين عاماً أن ننبذ السؤال الأفلاطوني " من الذى يجب أن يحكم ؟ " كسؤال خاطئ وأن نواريه التراب الى الأبد فهو مشكلة زائفة تؤدى الى حلول مزيفة مضحكة : الى حلول تبدو ظاهرياً أنها مطلوبة أخلاقيا . أما من حيث ألاخلاق فأنه ليس أخلاقياً بالمرة النظر الى خصم سياسى على أنه سيئ أو شرير من الناحية الأخلاقية (بينما ننظر لحزبه الذى ينتمى اليه على أنه حزب خير) . فهذه المشكلة تؤدى الى الكراهية التى هى دائماً شئ سئ . كما تؤدى الى الموقف الذى يؤكد دائماً على قوة الحكام بدلاً من أن تعالج كيف يمكن تقييد هذه القوة .

نحن نهتم إذن فى الأصل - هكذا يبدو لى - بمقارنة أشكال الحكومات وليس بالأشخاص والطبقات والأجناس بل والأديان الخيرة والشريرة .

لذا أقترح أن نستبدل بالمشكلة الأفلاطونية "من الذى يجب أن يحكم ؟" مشكلة أخرى تماماً هى : هل هناك أشكال للحكومات نستهجنها لأسباب أخلاقية ، والعكس : هل هناك اشكال للحكومات تسمح لنا بالتخلص من حكومة مستهجنة أو غير مختصة تحدث ضرراً ؟ .

أزعم أن هذه التساؤلات متضمنة - بلا وعى - فى أفعال حكوماتنا التى نسميها حكومات ديمقراطية ، فهى تساؤلات تختلف تماماً عن السؤال الأفلاطونى عما اذا كان الشعب هو من يجب أن يحكم . أنها متضمنة أيضاً فى الديمقراطية الأثينية مثلما هى كذلك فى ديمقراطياتنا الغربية الحديثة .

نحن الذين نطلق على انفسنا أسم ديمقراطيين ننظر الى الديكتاتور أو الطاغية على أنه شخص شرير من الناحية الأخلاقية ليس فقط على أنه من الصعب تجمله ولكن على أنه لا يمكن تحمله من الناحية الأخلاقية لأنه لا يمكن أن يكون مسئولا ، وعندما نتحمله نشعر بأننا قد أتينا بخطأ . لقد كان هذا هو موقف متآمرى ٢٠ يوليو ١٩٤٤ الذين حاولوا الخروج من الورطة الأخلاقية التى وقعوا فيها وذلك بالتصويت الديمقراطى على قانون التفويض فى مارس ١٩٣٣ .

فالدكتاتور يفرض علينا موقفاً لا يمكننا أن نكون مسئولين فيه ولا يمكننا أيضاً بصفة عامة أن نغيره ، موقفاً إنسانياً لا يمكن تحمله . من هنا فعلينا واجب أخلاقى أن نفعل كل ما فى وسعنا لكى نمنع حدوث مثل هذا الموقف .

نحاول ذلك عن طريق ما يسمى أشكال الدولة الديمقراطية وهذه المحاولة هى اساسها الأخلاقى الممكن الوحيد . ليست الديمقراطيات إذن سيادة الشعب ولكنها فى المقام الأول مؤسسات مسلحة ضد الشخص الدكتاتورى ، فهى لا تسمح بأية سيادة ذات شكل دكتاتورى أو تجمع للقوى ولكنها تحاول أن تحد من عنف الدولة . فالديمقراطية بهذا المعنى هى إمكانية التخلص من الحكومة دون إراقة دماء وذلك متى أخلت بحقوقها وواجباتها أو متى حكمنا على سياستها بأنها سياسة خاطئة أو سياسة سيئة .

ليست المسالة إذن مسألة سيادة أو مسألة " من ؟ " الذى يحكم ولكنها مسألة الحكم ومسألة " كيف ؟ " يتم الحكم ، فالمسألة الأساسية هى ألا يتركز الكثير من أمور الحكم فى يد الحكومة أو أنها مسألة " كيف ؟ " تدار الدولة .

لقد كانت هذه المسألة هى الأرضية التى انطلقت منها الديمقراطية الأثينية وان كان هذا قد تم بشكل غير واع ولكن يمكن البرهان عليه : هذا هو أيضاً موقفنا أو هكذا يجب أن يكون تجاه سائر التجمعات سواء أكان الجيش ، العمال ، الموظفين (وأيضاً الصحفيين ورجال الاذاعة والتليفزيون ، القساوسة ، رجال الدين ، الارهابيين أو المراهقين) ليس الأمر هو مدى قوتهم أو سيادتهم . لا نريد ولا يجب أن نخشاهم ولكننا نريد بل يجب أن ندافع عن أنفسنا – وقت اللزوم – ضد شطحاتهم . هذا هو هدف أشكال حكوماتنا الغربية التى نطلق عليها – بحكم العادة أو على سبيل الخطأ لفظ "ديمقراطيات" والتى تهدف الى حماية الحرية السياسية وبصفة خاصة حماية أشكال السيادة بالإعتماد على استثناء وحيد ألا وهو : سيادة القانون .

٥– النقطة الرئيسية : يجب أن يكون من الممكن إسقاط الحكومة دون اراقة دماء :

اتبنى إذن الرأى القائل بأن أهم شكل من اشكال الحكومة الديمقراطية يكمن فى أن يكون من الممكن اسقاط الحكومة دون إراقة دماء على أن تتولى حكومة أخرى مقاليد الحكم . قد يبدو أن مسألة كيف يحدث هذا الاحلال مسألة غير هامة نسبياً ، عن طريق الانتخاب الجديد أو عن طريق البرلمان Bundestag [1] ما دام القرار فى النهاية هو قرار الأغلبية ، سواء أكانت أغلبية الناخبين أو أغلبية نوابهم أو قرار محكمة الدولة أو المحكمة الدستورية، فلم تدلل على الصفة الديمقراطية للولايات المتحدة سوى عملية إعتزال رئيس الجمهورية ريتشارد نيكسون والتى كانت فى حقيقتها إعفاء له من منصبه .

أهم ما تنطوى عليه عملية تغيير الحكومة هى هذه القوة السالبة ، أى التهديد بالاعفاء من المنصب ، أما القوة الموجبة التى تكمن فى تعيين حكومة ما أو تعيين رئيس لها فهى المتضايف غير الهام نسبياً . ليس هذا للأسف هو الرأى المتفق عليه . كما إن التأكيد الخاطئ على هذا التعيين الجديد تأكيد خطير الى حد ما : إذ يمكن تفسير تعيين الحكومة على أنه منح الناخبين الحكومة الشرعية باسم الشعب وعن طريق " ارادة الشعب " . ولكن ما الذى نعرفه وما الذى يعرفه الشعب – أى ما هى الأخطاء – أو الجرائم – التى سوف ترتكبها غداً هذه الحكومة التى انتخبها الشعب ؟ .

يمكننا بعد فترة أن نحكم على حكومة أو سياسة ما وقد نعطيها موافقتنا ومن ثم نعيد إنتخابها ، كما يمكن أن تكون قد نالت ثقتنا بصورة مسبقة إلا أننا لا نعرف شيئاً ، ولا يمكننا أن نعرف ، فنحن لا نعرفها ومن ثم لا يجب علينا أن نفترض بصورة مسبقة أنها لا تسئ إستخدام هذه الثقة التى أوليناها إياها .

لقد صاغ بريكلس – وفقا لما قرره ثوكيديدس Thukydides هذه الأفكار بطريقة أبسط من هذا . يقول : " متى كان بإمكان قلة منا فقط رفض أو تنفيذ سياسة ما فإنه بإمكاننا جميعاً أيضاً أن نحكم على سياسة ما " .

---

(1) Bundestag هو البرلمان فى ألمانيا (المترجم) .

أعتبر هذه الصياغة البسيطة صياغة اساسية وأريد أن أكررها . نلاحظ هنا أن فكرة سيادة الشعب أو حتى فكرة مبادرة الشعب فكرة مرفوضة تحل محلها فكرة حكم الشعب . مرة أخرى أورد نص بريكلس : " متى كان بإمكان قلة ما أن ترفض أو تقوم بتنفيذ سياسة ما ، فإن بإمكاننا جميعاً الحكم على سياسة ما " .

هل كان هذا هو رأى بريكلس أم ثيوكيديدس ؟ أعتقد أنه رأيهما معاً . لقد قيل هنا بإختصار لماذا لا يمكن للشعب أن يحكم حتى إذا لم يكن هناك صعوبات لفعل هذا . فمن الممكن للأفكار وبصفة خاصة الأفكار الجديدة أن تكون من عمل شخص واحد يقوم مع قلة غيره بتوضيحها وجعلها أفضل ، ثم يصبح من الممكن بعد ذلك للكثير الذين وصلتهم هذه الأفكار أن يرون ما اذا كانت هذه الأفكار أفكاراً جيدة أم لا . كما يمكن لهذه الأحكام أو " القرارات بنعم أو لا " أن يقوم بتنفيذها الناخبون .

فالتعبير " مبادرة الشعب " إذن تعبير خاطئ وتعبير له طابع الدعاية فالمبادرة عادة تأتى من قلة والتى تدفع الشعب على أحسن تقدير للحكم النقدى، من هنا فإنه من المهم فى مثل هذه الحالات أن نعرف ما إذا كانت التدابير المقترحة خارج إختصاص الناخبين الذين يقيمهم .

قبل أن أترك هذه الأمور أريد أن أوجه الإنتباه الى خطر كامن فى تعليم الشعب والأطفال أنهم يعيشون تحت سيادة الشعب – أى تعليمهم ما هو ليس صحيحاً (ولا يمكن أن يكون كذلك) ، اذ متى علموا ذلك فلن يشعرون فقط بعدم الرضا ولكنهم سيشعرون بأنه قد تم تضليلهم : فهم لا يعرفون شيئاً عن الخلط اللفظى التقليدى ، وهو ما يمكن أن تكون له نتائج سياسية وعقائدية سيئة قد تصل الى الارهاب . فأنا فى الحقيقة أصادف مثل هذه الحالات .

٦- الحرية وحدودها : الدولة

نحن جميعا – كما رأينا – مسئولون معاً الى حد ما عن الحكومة رغم أننا لا نمارس الحكم . ولكن هذه المسئولية الجماعية تتطلب الحرية – حريات

كثيرة : حرية التعبير ، حرية الحصول على معلومات وإمكانية اعطائها ، حرية النشر وحريات كثيرة أخرى . تؤدى " زيادة سلطة " الدولة الى تقييد الحرية ولكن هناك أيضاً تجاوزات للحرية . هناك للأسف سوء استخدام لها يكافئ سوء استخدام سلطة الدولة ، يمكن مثلا إساءة استخدام حرية التعبير وحرية النشر اللذين قد يستخدمان فى تقديم معلومات خاطئة وفى التحريض . وبالمثل يمكن إساءة إستخدام كل تقييد للحرية تمارسه سلطة الدولة .

نحن نحتاج للحرية لكى تمنع سوء إستخدام سلطة الدولة ، كما نريد من الدولة أن تمنع سوء إستخدام الحرية . هذه مشكلة لم يتمكن أحد من حلها لا بصورة تجريدية ولا بإستصدار قوانين . يتطلب حل هذه المشكلة محكمة دولة وما هو أكثر من ذلك يتطلب إرادة خيرة .

يجب أن نقبل الرأى الذى يرى أن هذه المشكلة لا يمكن حلها بصورة تامة أو بمعنى أدق لن يحل هذه المشكلة بصورة تامة سوى نظام ديكتاتورى يقوم على مبدأ وضع كل السلطات فى يد الدولة وهو ما يجب أن نرفضه لأسباب أخلاقية . يجب أن نقبل بحلول جزئية وحلول توفيقية وألا تسمح لحبنا للحرية أن يجعلنا نغفل مشكلات سوء استخدامها .

٧- توماس هوبز - إمانويل كانط - فيلهلم فون همبلدت - جون ستيوارت مل :

لقد رأى بعض المفكرين القدامى والمحدثين هذه المسالة وحاولوا إنطلاقاً من مبادئ عامة وضع اساس يبرر ضرورة قوة الدولة كما حاولوا تحديد هذه القوة .

لقد افترض توماس هوبز أنه بدون الدولة فإن كل إنسان هو عدو لدود ممكن لغيره (" فالإنسان ذئب بشرى " Homo homini lupus) من هنا فنحن فى حاجة ماسة لدولة أقوى ما يمكن أن تكون لكى تكبح جماح الجريمة وإستخدام العنف . أما كانط فقد رأى المشكلة مختلفة تماما ، فلقد أعتقد أيضا فى ضرورة وجود الدولة وفى ضرورة تقييد الحرية ولكنه اراد رد هذا القيد

الى أدنى حد ممكن . من هنا فقد رأى ضرورة وضع دستور يسمح بأكبر قدر ممكن من الحرية الإنسانية تجعل حرية الفرد " لا قيام لها إلا من خلال حرية الآخرين "(١) لم يرد للدولة أن تكون أقوى مما يلزم لكى نضمن أن يكون لكل مواطن قدر كبير من الحرية يتفق مع تقييده لحرية الآخرين بأقل قدر ممكن وليس أكبر من القدر الذى يقيدونه من حريته . لقد رأى كانط فى التقييد الذى لا يمكن تجنبه للحرية ثقلا هو ناتج ضرورى للحياة المشتركة للبشر .

يمكن توضيح فكرة كانط بالقصة الطريفة التالية . جئ بمواطن أمريكى الجنسية الى المحكمة متهماً بتحطيمه لأنف شخص آخر ، فما كان من المواطن الأمريكى إلا أن برر فعله بأنه حر أن يحرك قبضة يده فى أى اتجاه يريده . هنا وجه القاضى حديثه الى هذا المواطن معلماً إياه قائلاً " لحرية تحريك قبضة يدك حدود وهى الحدود التى - نعم - يمكن تغييرها إلا أن أنوف مواطنيك تقع دائماً وأبداً خارج هذه الحدود " .

وفى كتاب لاحق لكانط (فى القول المشترك : ما يصدق نظرياً قد لا يصلح للواقع سنة ١٧٩٣) نجد نظرية فى الحرية والدولة أكثر تقدماً حيث قدم كانط فى الجزء الثانى - وذلك ضد إتجاه توماس هوبز - قائمة " بمبادئ للعقل الخالص " المبدأ الأول هو مبدأ " حرية الإنسان ، مبدأ تكوين الجماعة(٢) والذى أعبر عنه على النحو التالى (٣) :

---

(1) Kants Wortlaut (Kritik der reinen Vernunft, Elementarlehre, 2. T., 2. Abt., I. Buch; I. Aufl., S. 316; 2. Aufl., S. 372) a .. daB jedes Freiheit mit der andern ihre zusammen bestehem kann ... " (in Original gesperrt gesetzt). Siehe auch zum ewigen Frieden und andere Kantische Schriften .

(٢) " الجماعة " ترجمة اللفظ Gemeinwesen ، كتبها كانط منفصلة Gemeines Wesen (المؤلف) انفصال الكلمتين يعطيها معنى مختلفاً ، تعنى الجوهر المشترك (المترجم) .

(٣) قارن ذلك بكتابى (البحث عن عالم أفضل Aufder Suche einer besser Welt) دار نشر (Munschen - Piper 1984 . S. 169-170) (المؤلف) .

لا يمكن لأحد أن يجبرنى أن أكون سعيداً وفقا لتصوره للسعادة ولكن يستطيع كل شخص أن يبحث عن سعادته بالطريقة التى يعتقد أنها تجلب له السعادة ... فالحكومة التى تأسست على مبدأ العمل لخير الشعب ، الحكومة الأبوية (imperium paternale)[1] هى أكثر أشكال الحكومة التى يمكن تخيلها استبدادا " ورغم أن هذه الملاحظة الأخيرة المذكورة ملاحظة مبالغ فيها (وفقاً للينين Lenin وستالين Stalin موسولينى Mussolini وهتلر Hitler) إلا أننى أتفق بصددها تماماً مع كانط . إذ أن ما يعنيه – وذلك ضد هوبز – أن ما نريده ليس دولة الأمر بأسره فى يدها ، دولة واهبة عطوفة تهب لنا كل شئ وتمنحنا كل شئ ، حياتنا بأسرها فى قبضتها تحمينا من الذئاب الذين نحيا معهم ، ولكن دولة توجهنا فقط نحو حقوقنا وتكفلها لنا .

هذا هو واجب الدولة حتى وإن كان المواطنون الذين يحيون فيها – على عكس ما يرى هوبز – رحماء بينهم . إذ لن يكون حتى للضعفاء أى حقوق على الأقوياء ولكن شكر لتحمل الأقوياء لهم ولصبرهم على ضعفهم . فقيام دولة هو فقط ما سيحل هذه المشكلة ويؤسس ما أسماه كانط " كرامة الفرد " .

هنا تكمن قوة فكرة كانط عن الدولة والسبب الأساسى لرفضه النظام الأبوى Paternalismus ثم جاء فيلهلم فون همبلدت Wilhelm Von Humboldt وطور أفكار كانط . تكمن أهمية ذلك فى أن الكثيرين قد ذهبوا الى أن هذه الأفكار التى جاء بها كانط لم تجد لها من بعده فى ألمانيا أى صدى وبصفة خاصة فى بروسيا وفى الدوائر السياسية الهامة . جاء كتاب "همبلدت " تحت عنوان " أفكار ، وحدود عمل الدولة " والذى تم نشره عام ١٨٥١ وان كان " همبلدت " قد كتبه قبل ذلك بكثير .

---

(١) imperium paternale ويتم ترجمتها النظام الأبوى وتعنى الدولة التى تأخذ على عاتقها تدبير كل مهام المواطنين . يرفض المؤلف هذا الشكل للدولة ، اذ فى ظل هذا النظام – كما يعتقد – تقييد الى حد بعيد لحرية المواطنين .

إنتقلت أفكار كانط عن طريق كتاب همبلدت الى انجلترا ، فنشر جون ستيوارت مل J. Mill كتابه " فى الحرية " عام ١٨٥٩ متأثراً بهمبلدت وبأفكار خاصة وبصفة خاصة بهجوم كانط على الاتجاه الأبوى . لقد أصبح هذا الكتاب أحد الكتب المؤثرة فى الحركة الليبرالية الراديكالية الانجليزية .

لقد بذل كل من كانط ، همبلدت وجون ستيوارت مل جهداً كبيراً لوضع أساس يبرر ضرورة الدولة ولكن بطريقة تحد الى أقصى حد ممكن من سلطتها . كانت الفكرة التى إنطلقوا منها مفادها : نحن فى حاجة الى الدولة ولكن ما نريده هو أقل قدر ممكن منها وذلك فى مقابل الدولة الكاملة Totalstaat ، لا نريد دولة أبوية ، دولة متسلطة أو دولة بيروقراطية ولكننا نريد اقل قدر من الدولة .

٨- دولة ابوية أم دولة صغرى ؟

حدود كل منها . الدولة الصغرى كمبدأ موجه

نحن فى حاجة الى الدولة ، دولة الحق بالمعنى الكانطى الذى يمنح به حقوقنا البشرية وجوداً فعلياً وبالمعنى الآخر الذى به يخلق ويستحسن الحق القانونى الذى يقيد حريتنا ولكن بأقل قدر ممكن ويكون عادلاً بقدر الإمكان وهذه الدولة يجب أن تكون أبوية ولكن بأقل قدر ممكن .

ولكنى أعتقد أن كل دولة تتضمن لحظة ابوية بل وتتضمن حتى لحظات أبوية . هذه اللحظات لحظات حاسمة فاصلة .

الواجب الأساسى الذى نعطيه للدولة - ما نطلبه منها - هو أن تعترف بحقنا فى الحرية وفى الحياة وأن تساعدنا متى كان هذا ضرورياً فى الدفاع عن حريتنا وحياتنا كحق من حقوقنا . ولكن هذا الواجب واجب ابوى ، بل حتى الواجب الذى وصفه كانط بـ " بالخير Wohlwollen " يلعب هنا دوراً هاماً لا يمكن إنكاره . متى ألقت بنا الظروف فى وضع نضطر معه الى الدفاع عن حقوقنا الأساسية ، لا يجب عندئذ أن نتعلم من الدولة (أجهزة الدولة Staatsorganen) العدوان أو عدم الاكتراث ولكن نتعلم " الخير " .

الموقف هنا فى الحقيقة موقف - ابوى من أعلى (من أجهزة الدولة التى يجب أن تكون خيره) ومن أسفل (من المواطن الذى يبحث عن مساعدة الأقوى) .

يصدق أن القانون يكمن فى موضوعيته ، يعلو هذه العلاقات شبه الشخصية ، ولكن القانون المتحقق فى الدولة وحدودها حق من عمل الإنسان. فهو من الممكن أن يكون خاطئاً ، كما أن أعضاءه أيضا أشخاص من الممكن أن تخطئ . والحقيقة القائلة بأن الناس أحياناً قد يكونوا شريرى القصد ويجب أن نكون مبتهجين بل وممتنين متى أظهروا هذا الذى يستهجنه كانط ألا وهو " الرضا " البشرى - هذا كله يوضح أن لحظة الأبوة تلعب فى كل هذه الأشياء دوراً متعدد الجوانب . الأمر للأسف على هذا النحو وأنا أقبله بإرادتى ، ولكن يبدو لى أنها الحقيقة ولقد أدى اهمال هذه الحقيقة فى مناقشات الأونة الأخيرة الى سفسطة منطقية والى مواقف مضحكة . الأمر يتعلق هنا بالهجوم الحديث على دولة الرفاهية . أعتبر هذا الهجوم والمناقشة التى أحيته من جديد أمراً هاماً ، ولكن لا يمكن أن تؤخذ هذه الفلسفة المنتشرة هذه الأيام مأخذاً جدياً ، إذ تحاول أن توضح أن نظرية دولة الرفاهية التى تتباهى بأخلاقيتها وانسانيتها هى فى الحقيقة هجوم لا أخلاقى على أكثر حقوق الأنسان أهمية - حق الأنسان فى التحديد الذاتى الحر والحق فى أن يكون سعيداً بطريقته الخاصة والحق الذى دافع كانط عنه ضد الاتجاه الأبوى . (أنظر الفقرة السابقة من هذه المقالة) .

يعود الهجوم الراديكالى الحديث ضد الاتجاه الأبوى عادة لكتاب جون ستيوارت مل (فى الحرية) والذى يقول فيه :

" أن الهدف الوحيد الذى يسمح للانسان (سواء أكانوا أفراداً أو جماعة) بالتدخل فى حرية فعل فرد ما هو الدفاع عن النفس .. فالغرض الوحيد الذى يخول إستخدام العنف ضد إرادة أحد أفراد مجتمع متحضر هو منعه من إحداث ضرر بالأخرين ، إذ لا يبرر الخير الخاص بهذا الفرد (سواء أكان

خيرا ماديا أو أخلاقياً) أن نعتدى على حرية فعله ، أن نجبره على فعل معين أو نجبره على أن يسمح بشئ ما لأنه لو فعل سيكون ذلك أفضل بالنسبة له ولأنه (من وجهة نظر آخرين) سيكون من الحكمة أن يفعل ذلك وليس لأنه سيكون فعلاً صحيحاً (من الناحية القانونية أو الأخلاقية) " .

فى هذا الاقتباس – ترديد لمبدأ كانط الذى يرى فى أن لكل فرد الحرية أن يصبح سعيداً أو غير سعيد بطريقته الخاصة ويلعن التدخل الأبوى كتدخل غير مسموح به ما لم يكن لمنع ضرر يلحق بطرف ثالث . لا يجب على أى قريب أو صديق ، مصلحة حكومية أو مؤسسة (كالبرلمان) ، مسئول حكومى أم موظف أن يستبيح لنفسه الحق أن يفرض وصاية على شخص بالغ وأن يسلبه – من ثم – حريته مالم يكن لدرء خطر سيقع على طرف ثالث : من هذا الذى يمكنه أن يقول شيئا ضد مبدأ مل هذا ؟ هل يمكن إستخدام مبدأ مل هذا كدفاع جاد عن حرية الفعل ؟ .

فلننتظر لمثال نناقشه كثيراً . هل للدولة الحق فى أن تأمر المواطن بارتداء حزام الأمان اثناء قيادة السيارة ؟ يبدو ظاهرياً – وفقاً لمبدأ مل هذا – أنه ليس لها هذا الحق ، بل ليس لها هذا الحق أيضاً حتى مع اقتناع الخبراء أن ارتداء حزام الأمان ضرورى لأسباب أمنية ، وأنه من الخطر أن يقود المواطن السيارة دون ربطه لحزام المقعد .

ولكن انتظر ! ألا تكاد الدولة متى كان الأمر كذلك – أن تكون ملزمة بمنع الراكب كطرف ثالث من الوقوع فى هذا الموقف الخطر ؟ أليست الدولة ملزمة بمنع قائد السيارة من القيادة طالما أنه لم يقرر – قراراً نابعاً من حريته– ربط حزام المقعد ؟.

مثال آخر مشابه للمثال السابق ونناقشه أيضاً كثيراً هو مثال المنع من التدخين . نعم وفقا لمبدأ مل – أنه لا يجب منع أى شخص من التدخين لمصلحته الخاصة . ولكن هل يمكن منعه من أجل مصلحة الآخرين ؟ فاذا أعلن خبراء الدولة أن استنشاق الدخان الذى ينفثه شخص آخر يقوم بالتدخين

– غير صحي – لا ، بل خطر – أليست الدولة عندئذ ملزمة – في كل المواقف التي سيوضع فيها طرف ثالث في هذا الوضع – بمنع التدخين ؟ .

ينطبق هذا الأمر أيضاً على كل صور التأمين المختلفة ، مثل التأمين ضد الحوادث . وفقاً لمبدأ مل لا يجب إجبار هؤلاء الذين قد يتعرضون للخطر على أن يقوموا بالتأمين على أنفسهم عن طريق تهديدهم بالعقاب ولكن عن طريق منع طرف ثالث وليكن صاحب العمل بتهديده بالعقاب من أن يقوم بتوظيف أي شخص ما لم يكن هذا الشخص – بمحض ارادته الكاملة – قد قام من قبل – بالتأمين على نفسه .

تشكل المواد المخدرة حالة أخرى يتم مناقشتها أيضاً كثيراً . نعم ، – وفقا لمبدأ مل – فإن لكل شخص بالغ عاقل (في الرابعة عشر ، في العشرين، في الواحد والعشرين من عمره ؟) كل الحق في أن يدمر نفسه بتعاطي المخدرات بحرية تامة ولا يجب على الدولة أن تحد من حريته هذه . ولكن أليست الدولة ملزمة بمنع آخرين من التسيب – في مثل هذه المواقف شديدة الخطورة ؟ أليست الدولة ملزمة – كما هو حادث الآن – بمنع شراء المخدرات وذلك بالتهديد بأشد أشكال العقاب ؟ .

لا أريد أن أزعم أنه من الممكن التعامل مع كل هذه الحالات – التي ناقشناها – وفقاً لهذا المنهج وأننا سنخرج بنتائج متشابهة . ولكن مع هذا فان الأمر يبدو على هذا النحو . (بالنسبة لحالة قائد السيارة التي تبدو صعبة فإنها تحل نفسها بسهولة ، فالدولة ملزمة بإجبار كل شخص – يضع سيارة تحت تصرف طرف ثالث – إما بالبيع أو التأجير – وذلك عن طريق تهديده بالعقاب من أجل حماية السائق – بأن يقدم توقيع الشخص الثالث والذى تم بحرية على وثيقة بأنه ملزم بدفع مبلغ كبير من المال في حالة نسيانه ربط حزام المقعد قبل قيامه بقيادة السيارة) . '

أسلم تماماً بأننا نقدم خيراً كثيراً لمؤسسات الدولة (ليس ذلك من وجهة نظر مصلحتها ولكن من وجهة نظر مصلحتنا) عن طريق تبني مناهج المنع

هذه ، متى تذكرناها دائماً وابداً أنها ليس لها الحق أبداً فى إجبار أى شخص على فعل معين وحتى ولو كان فى هذا الفعل مصلحته الخاصة ، ولكنها ستكون فى صورة أفضل متى أمكنها تسكين – غرائزها الأبوية – تحت زعم حماية طرف ثالث – مثلما هو حادث الآن – .

لن تكون الضرائب التى تدفع عندئذ مطلوبة من أجل الأمن الذاتى ولكنها مطلوبة دائماً من أجل حماية طرف ثالث . وسيكون كل فرد حر تماماً فى أن يدفع الضرائب دون أن يستخدم حقه فى الحماية .

أن مبدأ مل (الذى أقبله على النحو التالى يجب أن يكون كل شخص حر فى تحقيق سعادته بطريقته الخاصة طالما أنه لم يعرض الطرف الثالث للخطر ولكن الدولة مسئولة ألا يقع مواطنيها فى مخاطر يمكن تجنبها وهى المخاطر التى لا يمكن للمواطنين أن يحكموا عليها بأنفسهم) يمكن أن يمثل إسهاماً بسيطاً جداً فى النقد الهام فى ذاته لدولة الرفاهية ولا علاقة بصفة عامة لاهتمامنا المبرر به بالدولة الصغرى بمبدأ مل ، ولكن يتعلق إهتمامنا بالدولة الصغرى كثيراً بدولة الرفاهية : إذ يؤدى الى الاقتراح الذى مفاده أن التأمين الاجتماعى يجب أن يكون تأميناً خاصاً .

وفى النهاية أحب أن أوجه الإنتباه الى أنه ما زالت هناك للدولة وظيفة تلعبها وهى الوظيفة التى رغم أننى كنت أحب أن أعرفها مثل غيرى بأننا لا حاجة لنا لها إلا أنه لسوء الحظ لا يمكننى أن أعرفها على هذا النحو فهى ما زالت ذات دلالة عظمى ولا يمكن أن تكون وقفاً على المؤسسات الخاصة .

أعنى بذلك وظيفة الدفاع عن الدولة . نعم يصدق أنها بكل معنى وظيفة أبوية . ونعم يصدق أن دلالتها الحالية تسمح لكل نظريات الدولة الضد أبوية بأن تبدو كفلسفات قليلة الأهمية ، إلا أن هذه الفلسفات تعطينا الأمل فى إمكانية القضاء على مشكلة الدفاع عن الدولة بمجرد تجاهلها . ولكن هذه الوظيفة ذات أهمية كبيرة وباهظة التكاليف ، فهى أسوأ تهديد للدولة الصغرى اذ تذكرنا بوظيفة أخرى أرخص بكثير ترتبط ارتباطاً شديداً بوظيفة الدفاع عن

الدولة : ألا وهى وظيفة السياسة الخارجية شديدة الأهمية . للوظيفتين نتائج تجعل من فكرة الدولة الصغرى مثالاً يوتوبياً بعيد المنال لا يمكن مع هذا الاستغناء عنه : فالدولة الصغرى تعيش أطول حتى ولو في صورة مبدأ موجه .

أريد أن أذكر شيئاً آخر : يجب على الدولة الملزمة بالدفاع عن أرضها أن تكون متحكمة فى مسألة تجنيد مواطنيها وصحتهم بل ويجب أيضاً أن تكون متحكمة فى إقتصادها الى درجة معينة من حيث أنه لابد أن يكون لديها بالفعل رصيداً كبيراً ، كما يجب كذلك أن تكون متحكمة فى ادارة المرور وفى أشياء كثيرة أخرى .

٩- حق القصر (غير البالغين)

لا يمكن للأسف لا من حيث المبدأ ولا لأسباب أخلاقية الاستغناء عن الاتجاه الأبوى . فاذا اعترفت الدولة بحقوق مواطنيها فى أن تحميهم الشرطة ضد حوادث السلب والنهب ، فيجب أيضاً أن تعترف بحقوق القصر فى وجوب حمايتهم بطرق متعددة ، بل وحتى ضد آبائهم أحياناً ، ومن ثم تحل محل مشكلة " الدولة الصغرى أم الدولة الأبوية ؟ " مشكلة " لا أبوية أكثر مما هو ضرورى أخلاقياً " ومن ثم فإنه بدلاً من السمو الاخلاقى الأساس للدولة الصغرى على الدعاوى الأخلاقية للدولة الأبوية ، فإننا نرتد الى التعارض القديم بين الدولة والحرية والى القاعدة التى أطلقها كانط ضد الديكتاتورية والتى تنادى بألا نقيد الحرية أكثر مما لا يمكن تجنبه .

١٠- إمكانية حل مشكلة البيروقراطية المدنية **Zivilbürakratie** والبيروقراطية العسكرية **Militärbürokratie**

تشكل مشكلة البيروقراطية إحدى النقاط الهامة فى كل نظرية للدولة الديمقراطية . أنظمتنا البيروقراطية . إذن أنظمة غير ديمقراطية (وفقاً للمعنى الذى أفهمه للكلمة) ، أنظمة بها عدد من صغار الدكتاتوريين الذين لا يشعرون بالحاجة لتبرير تصرفاتهم وأفعالهم .

يعتبر المفكر الكبير ماكس فيبر Max Weber [1] هذه المشكلة مشكلة غير قابلة للحل ومن ثم فقد أصبح متشائماً بصددها ، أما أنا فأعتبرها مشكلة من الممكن من حيث المبدأ حلها بسهولة فقط متى اعترفنا بمبادئنا الديمقراطية ومتى كانت لدينا رغبة جادة فى حل هذه المشكلة ، ولكنى أعتبر مشكلة البيروقراطية العسكرية مشكلة غير قابلة للحل . فخطورة القوة العسكرية التى تنمو بلا حدود والتى من الواضح أنه لايمكن التحكم فيها هى احدى الأسباب العديدة التى تبرر لماذا أنا متفائل بشأن الأمل فى سلام عالمى حتى وإن كان هذا السلام العالمى بعيد المنال ، وبشأن الأمل فيما اسماه الكانط "السلام الدائم" . ولكن إذا كنت أتحدث عن هذا فلابد لى أن أوضح أنى - ولمصلحة السلام - عدو لما يسمى حركة السلام . يجب أن نتعلم من خبراتنا ، ولقد أسهمت بالفعل حركة السلام مرتين فى تشجيع المعتدى ، فلقد توقع القيصر فيلهلم الثانى Kaiser Wilhelm II [2] أن انجلترا لن تأخذ قراراً بالحرب لأسباب سلمية رغم تأكيدها لبلجيكا . وبصورة مماثلة . إعتقد هتلر ذلك رغم تأكيد انجلترا لبولندا .

١١ - الأمل فى الشباب

لقد نجحت أنظمتنا الغربية ، وبصفة خاصة الولايات المتحدة - اقدم الأنظمة الديمقراطية الغربية - نجاحاً لا مثيل له ، هذا النجاح نتاج عمل شاق وجهد كبير وإرادات خيرة كثيرة ثم قبل هذا كله نجاح أفكار خلاقة كثيرة فى كل الميادين . وكانت النتيجة : عدد أكبر من البشر يحيون حياة أكثر حرية وأكثر رفاهية وحياة أفضل وأطول مما كان عليه الحال من قبل .

---

(١) ماكس فيبر : هو عالم الاجتماع ورجل الاقتصاد السياسى الألمانى الشهير . ولد عام ١٨٦٤ وتوفى ١٩٢٠ . مشهور بنظريته فى الأخلاق البروتستانتية ، حيث يرجع الاتجاه البروتستانتى للراسمالية كما أنه مشهور بأرائه فى البيروقراطية

(٢) هو الامبراطور الألمانى وحاكم بروسيا فى الفترة من ١٨٨٨ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ .

أعرف بالصبع أن أموراً كثيراً كان يجب أن تكون أفضل ، ولكن الأمر الهام هنا أن أنظمتنا " الديمقراطية " لا تتميز بشكل كاف عن أنظمة دكتاتورية الأغلبية ومع هذا فلم يحدث من قبل فى تاريخ الدول التى استطاع الناس أن يحيون فيها حياة حرة أو كانت لديهم الإمكانية لذلك أن عاش الناس حياة جيدة أو أفضل مما هى عليه الآن . أعرف أن القليل من الناس من سيشاركنى هذا الرأى . وأعرف أن هناك أيضاً جوانب مظلمة للحياة فى عالمنا هذا مثل الجرائم والوحشية والمخدرات . نحن نرتكب الكثير من الأخطاء ورغم أن الكثير منا يتعلمون من أخطائهم ، فإن البعض للأسف يظل قابعاً فيها .

هذا هو العالم ، يفرض علينا واجبات . يمكننا أن نحيا فيه راضين ومسرورين ولكن يجب عليا أن نقول هذا ايضا ، فأنا لا أكاد أسمع هذا ، ولكنى اسمع يومياً بدلاً من ذلك ولولة وعويلاً على هذا العالم المزعوم بأنه عالم فاسد والذى لابد أن اللعنة قد حلت علينا أن نعيش فيه .

أعتبر إنتشار هذه الأكاذيب هو أكبر جريمة ارتكبها زماننا لأنه يهدد شبابنا ويحاول أن يسلبهم حقهم فى الأمل والتفاؤل ، بل وقد يودى هذا فى بعض الحالات الى الانتحار أو الادمان أو الارهاب .

١٢- التفاؤل وخطر وسائل الأعلام

من الممكن بسهولة لحسن الحظ إختبار صدق الحقيقة : الحقيقة القائلة بأننا فى الغرب نحيا أفضل عالم وجد على الإطلاق ، لايجب أن نجعل هذه الحقيقة تختفى أكثر من هذا . يجب على وسائل الاعلام التى تعد فى هذا الصدد أكبر آثم أن تقتنع أنها إنما تحدث فساداً ويجب أن تقتنع بالعمل معاً .

يجب أن نجعل وسائل الاعلام ترى وتقول الحقيقة ، ويجب أن نجعلها ترى المخاطر التى تحيط بها وأن تقوم – مثل كل المؤسسات السليمة – بالنقد الذاتى وأن تحذر نفسها بنفسها . هذه المهمة مهمة جديدة عليها أن تؤديها ، فالفساد الذى تحدثه حالياً فساد كبير ، فبدون العمل الجماعى لن يكون من الممكن عليها أن تبقى متفائلة .

المقالة الحادية عشر
الحرية والمسئولية (الفكرية)

Freiheit und intellektuelle Verantwortung

محاضرة ألقيت فى St. Gallen فى يونيو ١٩٨٩

المستقبل مفتوح الى حد كبير ، فهو يعتمد علينا ، علينا جميعا . يعتمد على ما نفعله نحن وأناس آخرون وما سوف نفعله ، اليوم وغداً وبعد الغد . ما نفعله وسوف نفعله يعتمد بدوره على أفكارنا ورغباتنا وآمانينا ومخاوفنا ، كما يعتمد على كيف نرى العالم وكيف نحكم على امكانيات المستقبل المفتوحة الى حد كبير .

لا يعنى هذا بالنسبة لنا جميعاً سوى مسئولية كبيرة ، والتى تصبح أكبر متى وعينا الحقيقة بأننا لا نعرف شيئاً أو أن ما نعرفه قليل جداً وأن هناك ما يبرر إعتبارنا هذا القليل لا شئ . لا نعرف اذن شيئا بالمقارنة بما كان يجب أن نعرفه لكى نستطيع أن نتخذ القرارات الصحيحة .

لقد كان سقراط هو أول من رأى هذا . كان يرى أن رجل الدولة يجب أن يكون عاقلاً وراشداً بدرجة كافية كى يعرف أنه لا يعرف شيئاً ، وكذلك ذهب أفلاطون الى أن رجل الدولة ، والملك بصفة خاصة - يجب أن يكون شخصا راشداً ، إلا أن ما عناه بهذا كان يختلف كثيراً عما عناه سقراط. كان يعنى أن الملوك يجب أن يكونوا فلاسفة ومن ثم يجب أن يلتحقون بمدرسته - مدرسة أفلاطون - وأن يتعلمون الجدل الأفلاطونى - الجدل شديد التعقيد .

بل والأكثر من ذلك أن الفلاسفة أصحاب المعارف الكثيرة والمتعلمين مثل أفلاطون نفسه يجب أن يصبحون ملوكاً يحكمون العالم . هذا الاقتراح الذى وضعه أفلاطون على لسان سقراط هو ما أدى الى شئ من سوء الفهم . لقد كان الفلاسفة متحمسين لسماع أنهم يجب أن يصبحون ملوكاً ولقد إختفى الفرق الهائل بين ما طلبه سقراط وما طلبه أفلاطون من رجل الدولة وذلك تحت ضباب الجدل الفلسفى ، من هنا فإنى أريد أن أوضح هذا التمييز مرة أخرى : فالصياغة " رجل الدولة يجب أن يكون حكيماً " تعنى بالنسبة لأفلاطون حق الفلاسفة أصحاب العلم والمعرفة ومن ثم حق المثقفين والمفكرين " والصفوة الممتازة " فى السيادة . وفى تعارض تام مع أفلاطون عنى سقراط بنفس الصياغة " رجل الدولة يجب أن يكون حكيماً " أن رجل

الدولة يجب أن يعرف كم هو ضئيل ما يعرفه ، لذا يجب عليه أن يتواضع كثيرا فى مطالبته بحقوقه ، ومن ثم فإنه يرى نفسه مسئولا مسئولية كبيرة عن الحرب والسلام ويعرف ما يمكنه أن يحدثه من فساد يعرف كم هو ضئيل ما يعرفه ، ومن ثم " فهو يعرف نفسه ! " لقد نادى سقراط " أعرف نفسك ، واعترف بكم هو ضئيل ما تعرفه ! " (راجع كتاب زينوفون Memorabilia Xenophon، الفصل التاسع ، ٦) هذه هى وجهة النظر السقراطية ، أو الحكمة السقراطية . " أعرف نفسك ، واعترف لنفسك بعدم معرفتك ! " نعم ليس الأفلاطونى عادة ملكاً ولكنه دائماً زعيم الحزب العالم بكل شئ ، ورغم أن الحزب الذى يتزعمه هو عادة حزب يتكون منه هو ذاته وحده ، فإن سائر زعماء الأحزاب الأخرى تقريباً وبصفة خاصة زعماء الأحزاب التى تتصف بالعدوانية وزعماء الأحزاب الناجحة أفلاطونيون ومن ثم فهم أفضل الناس وأكثرهم علماً ومن ثم رشداً . هم من يرى أفلاطون أنهم من يجب أن يكونوا حكامنا .

" من الذى يجب أن يحكم ؟ " هذا هو السؤال الأساسى فى فلسفة أفلاطون السياسية ، ويجيب عليه افلاطون " الأفضل والأكثر حكمة هو من يجب أن يحكم ! " تبدو هذه الاجابة للوهلة الأولى إجابة صحيحة بشكل واضح وبطريقة لا يمكن تجنبها ولكن ماذا لو لم يعتبر الأفضل والأكثر حكمة نفسه كذلك ومن ثم رفض الحكم ؟ هذا هو ما كان سقراط سيتوقعه من الأفضل والأكثر حكمة لابد أنه مصاب بجنون العظمة ومن ثم لا يمكن بالتأكيد أن يكون شخصاً حكيماً (راجع الفقرة المستقاه من زينوفون) .

من الواضح أن السؤال " من الذى يجب أن يحكم ؟ " سؤال تمت صياغته بطريقة خاطئة ، ومع هذا ما زال هذا السؤال يوضع على هذا النحو ويتم الاجابة عليه بطريقة مماثلة لإجابة أفلاطون . لقد ظلت الإجابة على هذا السؤال لفترة طويلة : أن القائد الذى يختاره الجنود هو من يجب أن يحكم ، إذ أنه وحده من يمكن أن تكون له القوة للاعتماد عليها ، ثم أضحت الاجابة :

هو الامير الشرعى الدى احتاره الله ولقد سأل ماركس من الذى يجب ان نكون لـه السلطه ، السلطه الديكتاتورية ؟ طبقـة البروليتاريـا أم أصحـاب رؤوس الأمـوال ؟ الإجابـة طبقة البروليتاريـا الخـيرة أو صاحبـة الوعـى الطبقى ، وليس بالطبع طبقة أصحاب رؤوس الأموال الشريرة أو المغرضة ، أو حثالة القوم فهده يجب أن يكتفى بسببها (لقـد أختفت من بيننـا هذه الطبقـة المرفوضـة) .

لقد اعتاد معظم أصحـاب النظريـات فـى الديمقراطيـة علـى الاجابـة علـى السؤال الأفلاطونى " من الذى يجب أن يحكـم ؟ " تكمـن نظريتهم فـى احـلال الاجابة : " الشعب المقدس " محل الاجابة " الأمير الشرعى الذى اختاره الله " والتى كان ينظر لها منذ القرون الوسطى على أنهـا اجابـة بديهيـة ، حيث تـم حذف " الذى اختاره الله " Von Gottes Gnaden أو حلت محلها الشعب باختيار الشعب وكان يقال فى روما : Vox populi vox dei وهو ما يعنـى: صوت الشعب هو صوت الله .

فدائماً وأبداً تقابل السؤال الأفلاطونى " مـن الذى يجب أن يحكم ؟ " ما زال هذا السؤال يلعب دوراً كبيراً فى النظرية السياسية ، فى نظرية الشـرعية وبصفة خاصة فى نظرية الديمقراطية . يقال أن الحكومة لها الحق فى الحكم متى كانت حكومة شرعية أى متى كـانت حكومـة اختارها أغلبيـة الشـعب أو نوابه وفقاً لقواعد الدستور . ولكن لا يجب أن ننسى أن هتلر قد وصل للحكم بطريقة شرعية وأن القـانون الذى جعل منـه ديكتـاتوراً قـانون أقرتـه أغلبيـة برلمانية ، من هنا لـم يعد مبدأ الشـرعية مبدأ كافيا فهـو مجـرد إجابـة علـى السـؤال الأفلاطونـى " مـن الـذى يجـب أن يحكـم ؟ " لـذا يجب أن نغير هـذا السؤال نفسه .

لقد رأينا أن مبدأ السيادة هو أيضاً إجابة على السؤال الأفلاطونى أنه مبدأ خطير ، إذ من الممكن لنظام ديكتاتورية الأغلبية أن يكون مخيفا للأقلية .

لقد نشـرت قبـل ٤٤ عاماً كتاباً تحت عنـوان " المجتمع المفتوح وأعداؤه"

والذى هو بمثابة اسهامى أثناء الحرب العالمية الثانية . لقد اقترحت فى هذا الكتاب أن نضع السؤال بصورة مختلفة تماماً " كيف يمكننا أن نضع دستوراً للدولة يمكننا من اسقاط الحكومة دون إراقة دماء ؟ " محل سؤال أفلاطون "من الذى يجب أن يحكم ؟ " .

لا يؤكد سؤالى على طريقة تعيين الحكومة ولكن على إمكانية إسقاطها .

إن كلمة " ديمقراطية " والتى تعنى " سيادة الشعب " كلمة للأسف خطيرة، إذ يعرف كل فرد من أفراد الشعب أنه لا يحكم ومن ثم فإنه يشعر أن الديمقراطية مغالطة . هنا يكمن الخطر . أنه لأمر هام جداً أننا قد تعلمنا بالفعل فى المدرسة أن كلمة " ديمقراطية " هى – منذ الديمقراطية الأثينية – الاسم التقليدى لدستور مهمته منع ظهور الديكتاتورية أو الحكم المتسلط ، فالديكتاتورية أو الاستبداد هى أسوأ أشكال أنظمة الحكم مثلما رأينا مرة أخرى فى الصين ، إذ لا يمكن هناك اسقاط الحكم دون اراقة دماء ، بل ولا حتى بإراقة الدماء ، فالحكام الديكتاتوريون هذه الايام شديدو القوة وهو ما رأيناه بالفعل فى محاولة الوقوف ضد هتلر والتى حدثت فى العشرين من شهر يوليو عام ١٩٤٤ .

ولكن كل نظام ديكتاتورى نظام لا أخلاقى ، نظام سيئ ، من الناحية الأخلاقية . هذا هو المبدأ الأساسى الأخلاقى الأول للديمقراطية كشكل للدولة يمكن معه اسقاط الحكومة دون إراقة للدماء . أما النظام الديكتاتورى فنظام شرير من الناحية الأخلاقية ذلك أنه يفرض على المواطنين التعامل مع الشر ولو بالسكوت عنه وذلك ضد معرفتهم وضمائرهم وضد قناعاتهم الأخلاقية ، فهو يعفى المواطنين من مسئولياتهم الإنسانية والتى بدونها لا يكون الإنسان سوى نصف إنسان أو عشر إنسان ، فبكل محاولة تقوم بها لحمل مسئولية الإنسان البشرية فإنها تقوم بمحاولة إنتحار .

من الممكن أن نبين تاريخياً كيف أن الديمقراطية الأثينية ، على الأقل حتى بريكلس Perikles وثيوكيديس لم تكن ديمقراطية سيادة الشعب بل

كانت بالأحرى محاولة لمنع النظام الإستبدادى بأى ثمن . لقد كان الثمن غاليا ، بل وربما غاليا جدا وهو الثمن الذى لم يتم إلغاؤه إلا بعد أقل من مائة عام ، كان الثمن هو النفى الذى غالبا ما أسيئ فهمه والذى من خلاله من الممكن بل ويجب نفى كل مواطن كان يعد محبوبا أو مشهوراً ، ومن ثم فقد تم نفى رجال الدولة الذين شهد لهم بالكفاءة والأمانة مثل أرستيدس Aristides ومثل ثمستوكلس Themistokles ، ولا معنى للقول أن أرستيدس تم نفيه لأنه وقف فى طريق ثمستوكلس أو لأن اللقب الذى أشتهر به - " الأمين " - جعل من مواطنيه حساداً له . الأمر خلاف هذا تماماً : يبين اللقب الذى كنى أرستيدس به أنه كان محبوباً ومشهوراً ، ومهمة النفى كانت تنحصر فى عدم السماح لأى ديكتاتور تذيع شهرته بأن يرتفع . لقد كان هذا وحده هو السبب الذى من أجله تم نفيه ونفى ثمستوكلس .

يبدو أن بريكلس نفسه كان واعياً أن الديمقراطية الأثينية لم تكن سيادة الشعب وأنه لا يمكن أن يكون هناك ما يسمى بسيادة الشعب ، إذ أنه قد قال فى خطبته الكبرى والتى يمكن أن نقرأها لدى ثيوكيديوس ، " رغم أن قلة قليلة هى من يمكنها وضع سياسة ما ، إلا أننا جميعاً يمكننا أن نصدر حكماً عليها " وهو ما يعنى : لا يمكننا جميعاً أن نمارس الحكم والادارة ولكن يمكننا جميعاً أن (نحاسب) الحكومة ونكون منها بمثابة المحلفين .

هذا يشبه تماماً - من وجهة نظرى - يوم الانتخاب ، ليس اليوم الذى تنال فيه الحكومة الجديدة شرعيتها ولكن اليوم الذى نحاسب فيه الحكومة القديمة ، اليوم الذى يجب أن تحاسب فيه الحكومة نفسها .

أريد الآن أن أبين بإختصار شديد أن للإختلاف الذى أؤكد عليه هنا - الاختلاف بين الديمقراطية من حيث أنها سيادة الشعب والديمقراطية من حيث أنها محكمة الشعب - نتائج عملية .

ليس الاختلاف مجرد اختلاف لفظى . يتضح هذا جلياً من أن فكرة سيادة الشعب تؤدى الى تأييد فكرة تمثيل نسبى للشعب ، إذ يجب أن يكون لكل فريق

يحمل مجموعة من الأفكار المشتركة ، لكل حزب ، بل والأحراب الصغيرة ممثلون بحيث تصبح عملية تمثيل الشعب عرآة له وتتحقق على هذا النحو بقدر الامكان فكرة حكومة الشعب . بل ولقد قرأت الاقتراح المخيف والذى يذهب الى ضرورة أن يصوت كل مواطن وكل مواطنة على كل نقطة يناقشها ممثلو الشعب أمام شاشة التليفزيون وذلك بالضغط على زر كهربى . كما قيل بالإضافة الى ذلك أنه من وجهة نظر الديمقراطية من حيث أنها حكومة الشعب يجب الترحيب بحق المواطنين فى الاقتراح .

يبدو الأمر مختلفاً تماماً من وجهة النظر - التى أدافع عنها - للديمقراطية أى من حيث أنها محكمة الشعب . أرى فى العدد الكير للأحزاب ومن ثم فى حق التمثيل النسبى Proporzwahlrecht نكبة ، إذ يؤدى العدد الكبير للأحزاب الى حكومات إئتلافية حيث لا يحمل أحد بعينه المسئولية أمام الشعب من حيث أنه المحكمة ما دام كل شئ هو حل وسط أو إتفاق لا يمكن تجنبه ، كما أنه لن يكون من المؤكد ما إذا كان من الممكن إسقاط حكومة ما، إذ لن تحتاج الحكومة عندئذ سوى إلى إيجاد حليف جديد تأتلف معه لكى يمكنها أن تستمر فى الحكم . أما اذا كان عدد الأحزاب صغيراً ، عندئذ ستكون الحكومات هى بالأحرى حكومات أغلبية وستكون مسئوليتها مسئولية واضحة وجلية . ولا أرى معنى فى محاولة أن نجعل آراء الشعب تمثل نسبة التمثيل الشعبى دون أن يكون الأمر كذلك أيضا فى الحكومة . هذا يؤدى الى عدم مسئولية الحكومة لأن المرآة لا يمكنها أن تكون مسئولة فى مواجهة أصلها .

ولكن ربما كان اقوى اعتراض ضد نظرية سيادة الشعب هو أنها أيديولوجيا غير معقولة ، ومن ثم تشجع على الخرافات . تشجع على الإعتقاد المسبق المطلق والنسبى بأن الشعب (أو الأغلبية) لايمكن ألا يكون الحق معه ولا يمكنه أن يرتكب الظلم . هذه الأيديولوجيا أيديولوجيا لا أخلاقية ويجب نبذها . لقد عرفنا من ثيوكيديدس أن الديمقراطية الأثينية (والتى

أعجب بجوانب كثيرة منها) هى الأخرى قد اتخذت قرارات آثمة . فلقد قامت بغزو (وإن لم يكن هذا بدون إنذار) الجزيرة المحايدة ميلوس Melos، وقتلت كل رجالها وباعت كل النساء والأطفال فى أكبر أسواق العبيد . هذا هو مااستطاعت الديمقراطية الأثينية أن تفعله .

وكذلك استطاع البرلمان الألمانى لجمهورية فايمار der Weimarer Republik والذى اختير إختيارا حرا أن يجعل من هتلر - بطريقة شرعية عن طريق قانون التفويض - ديكتاتورا . ورغم أن هتلر لم يغز أبدا فى ألمانيا باختيار حر ، فإنه حقق فى النمسا فوزا كبيرا فى الانتخابات بعد ضمه لها بالقوة .

نحن جميعا عرضة للخطأ وكذلك الشعب أو كل مجموعة أخرى من الناس . وإذا كنت أويد فكرة إمكانية اسقاط الشعب للحكومة فما ذلك إلا لأنى لا أجد طريقة أفضل لتجنب الحكم الاستبدادى ، والديمقراطية من حيث هى محكمة الشعب أقرب الى أن تكون خالية من الخطأ ، ينطبق عليها قول ونستون تشرشل حيث يقول متهكماً : "الديمقراطية هى أسوأ شكل من أشكال الحكومات" .

يمكننى تلخيص ما فصلت فيه القول فى هذه النقطة على النحو التالى، ليس التمييز بين فكرتى الديمقراطية من حيث أنها سيادة الشعب والديمقراطية من حيث أنها محكمة الشعب - أو من حيث أنها أداة لتجنب حكومة لا يمكننا اسقاطها ، أى حكومة مستبدة - تمييزاً لفظياً - إذ لهذا التمييز نتائج عملية هامة . هذا التمييز تمييز مناسب أيضاً لسويسرا . ومع هذا نجد فى الدروس التى تلقى فى المدارس الابتدائية والثانوية - بقدر ما أعرف - غالباً دفاعاً عن النظرية الأيديولوجية والفاسدة لسيادة الشعب بدلاً من نظرية منع ظهور النظام الديكتاتورى الذى لا يمكن تحمله من الناحية الأخلاقية وهى النظرية الأكثر واقعية والأكثر تواضعاً .

من هنا أريد أن أعود الى حيث بدأت . المستقبل مفتوح الى حد بعيد،

يمكننا التأثير فيه . لذا فالمسئولية تقوم على عاتقنا ونحن لا نعرف شيئا . ما الذى يجب أن نفعله لكى نساعد ؟ هل يمكننا فعل شئ لمنع الحوادث الفظيعة كالتى تحدث مثلا فى الشرق الأقصى ؟ أعنى القومية والتمييز العنصرى ، وضحايا بول بوت Pol Pot فى كامبوديا ، وضحايا آيات الله فى ايران ، وضحايا الروس فى أفغانستان ، ثم الضحايا الجدد فى الصين ؟ ما الذى يمكننا فعله لمنع هذه الحوادث التى لا يمكن فهمها ؟ هل يمكننا بصفة عامة أن نفعل شيئا ، أو نمنع حدوث شئ ؟ .

أجيب على هذا السؤال بنعم ، يمكننا أن نفعل الكثير والكثير .

وعندما أقول " نحن " فإنى أعنى المفكرين ، أى هؤلاء الذين تشغلهم الأفكار ، أى بصفة خاصة هؤلاء الذين يقرأون وربما ايضاً يكتبون .

لماذا أعتقد أننا – المفكرين – يمكننا أن نساعد ؟

ذلك ببساطة لأننا – المفكرين – قد أحدثنا منذ آلاف السنين أضراراً فظيعة . ألم يكن القتل الجماعى باسم الدفاع عن فكرة ، عن مذهب أو نظرية من عملنا ، ومن اختراعنا ، من إختراع المفكرين ؟ ألم نتكفل عن تحريض الناس وإثارتهم ضد بعضهم البعض – بأروع الآراء – فقط من أجل كسب الكثير ؟ لا يستطيع أحد أن يقول أن هذا غير ممكن :

تقول أكثر النواهى العشر أهمية : لا تقتل ! فى هذا الأمر أو النهى تكمن الأخلاق بأسرها ، فليست فلسفة شوبنهور فى الأخلاق على سبيل المثال سوى تفصيل لهذا النص الهام . إن فلسفة شوبنهور الأخلاقية فلسفة بسيطة ، مباشرة وواضحة . يقول : لا تضر بأحد ولا تؤذ أحداً ولكن ساعد الكل بقدر ما تستطيع .

ولكن ما الذى حدث عندما هبط موسى (عليه السلام) لأول مرة من جبل سيناء يحمل اللوح الحجرى وذلك قبل أن يعلن النواهى العشر ؟ لقد اكتشف كفراً وزندقة تستحق القتل ، عبادة العجل الذهبى . هنا نسى موسى النهى " لا تقتل ! " ونادى قائلا :

تعالوا الى ، يا من تنتمون الى الله .. هكذا يقول اللـه ، إلـه اسرائيل : ليضـع كل منكم سيفه فى جنبه وليقتل أخـاه وصديقـه وجاره . ويومها سقط حوالى ثلاثة آلاف من البشر .

كانت هذه هى البدايـة ولكن من المؤكد أنه إستمر فى الأرض المقدسـة (فلسطين) وفيما بعد هنا فـى الغرب ، هنـا بصفـة خاصـة بعد أن أصبحت المسيحية هـى ديانـة الدولـة . أنـه تـاريخ فظيـع مـن الاضطهـادات الدينيـة ، اضطهادات لصـالح المذهـب الأرثوذكسـى . ثـم ظهـرت بعد ذلـك – وبصفـة خاصـة فـى القرنيـن السـابع والثـامن عشـر – أسـس إعتقـاد أخـرى لتـبرر الاضطهاد والعنف والإرهاب ، مثل القومية والتمييز العنصرى والطبقى ، ثـم الإلحاد الدينى أو الكفر السياسى .

فى فكرة المذهب الأرثوذكسى والالحاد تكمن أصغر الآثام ، الآثـام التى لدينا نحن المفكرين بصفة خاصة استعداداً لإرتكابها مثل التكبر والغطرسـة ، والمجادلة ، إدعاء المعرفة دون الغير بكل شئ ثم الاعجاب بالنفس . تلك آثـام بسيطة تافهة وليست كبيرة مثـل القسوة والوحشية . لا يعنـى هـذا أن القسـوة والوحشية ليست معروفة بيننـا نحـن المفكرين ، فلقد مارسنا شيئا منهـا ، إذ يكفى أن نذكر الأطباء النازيين الذين قتلوا العجائز والمرضى وذلك قبل افران القتل الجماعى أو قبل ما يسمى بالحل النهائى للمسألة اليهودية بأعوام .

إن المفكرين هم دائماً من ارتكبوا ويرتكبون أفظع الأمور بسبب الخـوف والجبن ، الوهم والتصور ثم الطموح والولع بالتفوق . فنحن المفكرون – مـن علينا واجب خـاص تجـاه غير المتعلمين خونـة للعقل – كمـا أسـمانا المفكر الفرنسى الكبيـر جوليان بندا Julien Benda (١) لقد اخترعنـا القومية وقمنـا بالدعاية لها كما بين بندا ، فلقد شاركنـا جميعاً فى الموضـات البلهـاء . نحن

(١) جوليان بندا – روائـى وفيلسوف فرنسى ولد ١٨٧٦ وتوفى ١٩٥٦. تزعم الحركة المناهضة للإتجاه الرومانسى فى النقد ، كما دافع عن العقل فى مواجهـة الإتجاه الحدسى لهنرى برجسون .

نريد أن نلفت الأنظار الينا ، ونتحدث بلغة غير مفهومة ولكنها لغة معبرة ، علمية وفنية والتى أخذناها عن اساتذتنا الهيجليين وتربطهم معا . هذا هو التلوث اللغوى ، تلوث اللغة الالمانية التى نتنفس معا بها . هذا هو التلوث اللغوى الذى جعل من غير الممكن أن نتحدث نحن المنكرون مع أنفسنا حديثا مفهوماً عاقلاً وأن نبرهن على أننا غالباً ما نتحدث حديثا لا معنى له وأننا نقوم بالصيد فى الماء العكر .

أن المساوئ التى ارتكبناها فى الماضى مساوئ فظيعة . ألم نصبح بعد ذلك – منذ أن أصبحنا أحراراً أن نقول ونكتب كل شئ – مسئولين ؟ .

لقد كتبت ذات مرة عن يوتوبيا أفلاطون قائلاً أن هؤلاء الذين أرادوا تشييد سماء فوق الأرض لم يشيدوا فى الحقيقة سوى جحيم . ولكن الكثير من المفكرين تحمسوا كثيراً لجحيم هتلر . فلقد اكتشف الباحث النفسانى السويسرى المشهور كارل جوستاف يونج Carl Gustav Jung فى جحيم هتلر إنتعاشاً وازدهاراً جديداً للروح الالمانية . ولم يكن يونج فى حاجة الى الخوف إذ كان يعيش فى سويسرا ، ولكنه نسى ما كتبه بعد وفاة هتلر وكتب عن الشر المتأصل فى طبيعة الروح الألمانية .

فقد أسس ونستون تشرشل وفرانكلين روزفلت بميثاق الأطلنطى عالماً جديداً وضع اساسه الطيارون الشباب أثناء معركة بريطانيا ١٩٤٠-١٩٤١ والذين ضحوا من أجلنا . ومنذ الإنتصار الذى تحقق على هتلر بدلاً من الاكتواء بناره عاشت أوروبا الغربية فى سماء السلام الأوربى وفى أفضل وأكثر عالم إتصف بالعدل عرفناه تاريخياً . ولو كان ستالين قد شارك معنا عسكريا لما كان لدينا الآن – من خلال الأمم المتحدة – مجرد سلام فى أوروبا وشمال الأطلنطى ولكن كان لدينا سلاماً عالمياً ولأصبح مشروع مارشال الأمريكى مشروعاً عالمياً .

ولكن ما إن تحقق الرخاء وسارت الأمور على خير ما يرام فى الغرب حتى انطلقت صرخات وصيحات المنكرين يسبون زماننا الشرير ، مجتمعاتنا

وحضارتنا وبيئتنا . ويبدأ الحديث بصورة مبالغة عن الدمار والخراب والتلوث المزعوم بأننا أحدثناه بحثا عن الكسب والذى سيقضى تماماً وبأسرع وقت ممكن على البقية الباقية من عالمنا الجميل . الحقيقة أن الحياة بأسرها معرضة دائما لخطر الزوال ، فنحن جميعاً - فيما اعتقد - سنموت حتماً إن عاجلا أو آجلاً . إن خطر زوالنا كامن دائماً وأبداً منذ نشأة الحياة ولا يستثنى من ذلك أيضاً زوال بيئتنا .

لقد أصبحنا - بفضل العلم الطبيعى ، التكنولوجيا والصناعة - ولأول مرة منذ خلق المجموعة الشمسية - فى وضع يمكننا معه أن نفعل شيئاً لخدمة البيئة وهو ما فيه يبذل سائر علماء الطبيعة جهدهم ، ومع هذا فهم جميعا متهمون بتدمير الطبيعة . ولكن فى نفس الوقت قد تم بالفعل ومنذ زمن طويل وفى هدوء تام انقاذ بحيرة زيورخ الرائعة وبحيرة متشيجن الضخمة . لقد كان انقاذ الحياة فى هذه البحار عملاً اشترك فيه كل من العلم والصناعة والتكنولوجيا . لقد كان هذا هو أول انجاز فى تاريخ المجموعة الشمسية منذ خلق الحياة .

ليست مسألة ادارة العالم مسألة سهلة ، إذ يوثر كل نوع حيوانى وكل نوع نباتى ، بل وكل نوع من أنواع البكتريا فى بيئة الأنواع الأخرى . وربما كان تأثيرنا نحن أكبر ، إلا أنه من الممكن دائماً أن يقضى فيروس جديد ، أو وباء فيروسى جديد بل ووباء بكتريى جديد على الانسانية كلها فى زمن قصير .

ليس من السهل إخضاع الطبيعة بأسرها لسيطرتنا ، وليست الديمقراطية مسألة سهلة ، فكما ذكرت من قبل لقد قال تشرشل أن الديمقراطية هى أسوأ أشكال الحكومات . أريد هنا أن أضيف ما لم يقله تشرشل بوضوح : الديمقراطية هى أكثر شكل من اشكال الحكومات صعوبة وإثارة للقلق ، إذ أنها تهدد الحكومات بإستمرار بخطر اسقاطها . يجب أن تجعلنا الديمقراطية مسئولين أمام أنفسنا . هذا أمر حسن تماماً ولكنها على هذا النحو تجعل عملها

عملاً صعباً . فنحن لها بمثابة المحلفون ولكن يكمن الخطر فى أن يضللنـ مـا يعرف باللادين العام الذى يجد من يعتقد فيه ، فروح الزمان وهى فكرة هيجل الخطيرة ، والايديولوجيات التى تسود لفترة لتأتى غيرها والتى غالباً ما كـانت أيديولوجيات بلهاء وكانت دائمـاً تعتبر مـا هـو خطـأ صوابـاً حتى وان كـانت الحقيقة واضحة تماماً أمام أعيننا ، هذه جميعاً تضللنا وتجعلنا نعتبرها قضاتنـا ومحلفينا .

لقد تعلم هتلر - مثلما تعلمت - على يد اساتذة متحمسـين كـانوا يعتقدون وبشدة أن الجوهر الألمانى سيشـفى العـالم بأسره وأن " ألمانيـا ، المانيـا فـوق الكل ، فوق الكل فى العالم " . لقد كان أدولف يعتقد هذا ، مثله فـى ذلـك مثـل عدد كبير من الشباب الفقراء ، ومع ملايين غيره مـن الشباب البواسل الذيـن لقوا حتفهم فى الحرب العالمية الثانية من أجل السيطرة على أوروبا ، لقد مات معهم ملايين آخرين من الشباب البواسل ولكن من الطرف الأخر من الاعـداء الذين كانوا يحاربون وبصدق أيضاً من أجل الحريـة والسـلام مثلهم فـى ذلـك مثل شباب ألمانيا الذى حارب من أجل المانيا العظمى المسيطرة علـى أوروبـا ومن أجل القيصر ، من أجل سيد الحرب الأعظم وقائدها .

ولكننا اليوم يمكننا بل ويجب أن نرى الحقيقة . لقد كـانت الايديولوجيـات الألمانية وهما كما بين مؤرخ المـانى كبير شجاع (أعنـى بـه الأستاذ فرتـز فيشـر) أو بشـكل أوضـح : لقـد كـانت أيديولوجيـات كاذبـة . لقـد كـانت الإيديولوجيات الغربية - رغم كل سخرية منها ورغـم سـوء اسـتخدامها الـذى غالبـاً مـا كـان بـاطلاً - هـى الحقيقـة . لقد حـارب الغـرب مـن أجـل السـلام واستطاعوا تحقيقه فى أوروبا وهـو مـا كـان قلقـاً مضطربـا منـذ بدايـة تـاريخ الحرب البشرية ولكن الغرب استطاعوا تحقيقه تقريبا فى كل مكان .

غير أن المفكرين غير المسئولين لم يستطعوا أن يرون فى غرب أوروبـا سوى الشر . لقد أسسوا دنيا جديدة لا يـرى فـى عالمنـا سـوى ظلـم وأن هـذا العالم سـيغرب لا محالـة . لقد تعلمـوا هـذا الديـن منـذ ظهـور كتـاب أوزوالـد

شبنجلر Oswald Spengler " أفول الغرب " لأن كلا منهم اراد أن يكون مفكراً أصيلاً وارادوا أن يقولون أشياء تبدو للعين على النقيض تماماً ولقد نجحوا ليس فقط فى قلب ما تراه العين ولكن أيضاً فى تزييف الحقيقة الموضوعية .

ولكنى لا أريد أن أتهم المفكرين أكثر من هذا . أريد أن أطلب منهم أن يدركوا مسئوليتهم تجاه البشرية والحقيقة ، فالحرية تسمح لهم أن يقولون كل شئ بل وأن يسبون العالم الحر وأن يصفونه بأنه عالم شرير .

هذا هو حقهم المشروع . ولكن هذا كذب وليس من الأخلاق أن نعلن الكذب حتى وان كان هذا حقاً مشروعاً لنا . ليس فقط لا أخلاقياً ولكنه أيضاً من قبيل إنعدام المسئولية أن نعرض الأهداف العظيمة التى حققها تشرشل وروزفلت زعيما الحرب ومشروع مارشال للخطر وأن نقلل من شأن هذه الأهداف ونجعل الخير يبدو وكأنه شر .

أريد أن أذكر بأن الروس أيضاً قد بدأوا يعترفون بعالمنا وبسلامنا وبهذا يمكن أن تتسع رقعة السلام وأن يمتد الى ما كنا نعتبره غير ممكن ومن قبيل اليوتوبيا . إن واجبنا أن نجند كل طاقاتنا لكى نضمن ألا يعيقها ولا يقصر منها الحديث الكاذب عن الجنة والنار .

والآن أصل الى الجزء الأخير .

بداية ألخص ما سبق مرة أخرى . نحن فى الغرب نعيش فى السماء ، فى السماء الأولى بالطبع وليس فى السماء السابعة بعد . سماؤنا يمكن جعلها سماء أفضل ، لا يجب أن نسب عالمنا ونظهره كعالم يسئ أكثر من هذا فهو أفضل عالم وجد على الأرض أو بصفة خاصة فى أوروبا . الحقيقة أننا لسنا راضين عن الانجازات التى تحققت حتى الآن وبشكل غيرموجود كما هو الآن فى الولايات المتحدة . نحن بشر ذوو إرادات خيرة ومحبو للتضحية وهو ما أظهره جنود المقدمة فى الطرفين . لقد تحققت على هذا النحو أهم الشروط الواجب توافرها لتحقيق السلام على الأرض ، ولكن هناك شرطاً ضرورياً

وهو أن يشترك معنا الروس ، فاذا اشتركوا معنا ، فربما يتحقق حلم تشرشل وروزفلت ليس فقط فى أوروبا ولكن فى العالم بأسره .

ولكن يبدو – وذلك لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية – وكأن الروس يريدون أن يشتركون معنا ، اذ يقول سخاروف Sacharow – الشجاع والعظيم ولكن – وحده – لا يجب أن نثق فى هذا المسيطر بشكل زائد " جورباتشوف " Gorbaschow . ويقول أيضاً ، يبدو أن الاتحاد السوفيتى قد أوشك على الانحلال ولكننا لا نريد هذا الانحلال ، إذ سيرتبط هذا الانحلال فى الاتحاد السوفيتى بمعاناة كبيرة وبمخاطر هائلة ضد السلام ، بل قد يؤدى هذا الانحلال الى ديكتاتورية عسكرية ، ديكتاتورية الجيش والبحرية والطيران وعندئذ سيتم القضاء على كل أمل فى السلام

ولقد حلل جورج سوروس George Soros – الذى يعرف روسيا جيدا وإن لم يكن بنفس قدر معرفة ساخاروف بها – كل هذه المخاطر فى مقالة هامة صدرت فى دورية New York Review of Books . ولكنه يعتقد أن روسيا تنشد وبإخلاص العمل مع الغرب . فالروس يعرفون أفضل منا أين الجنة وأين الجحيم .

ولكن لكى نجعل هذا العمل المشترك مع الروس ممكناً يجب علينا أولا أن نقر بما حققناه وما يمكن تحقيقه فى اطار الحرية . عندئذ فقط يمكن أن نسأل كيف حققنا ما حققناه ويمكننا أن نقدم للروس مساعدتنا متى كانوا على استعداد لتخفيض قدرتهم العسكرية ولكن بحذر بالغ .

هذه جميعا أمور ممكنة التحقيق . فهى تقتضى منا نحن المفكرون أن نرى الحقيقة الموضوعية وألا نخلط دائماً – كما كان يحدث فى الماضى – بين الجنة وبين الجحيم .

يجب أن نعرف أننا لا نعرف شيئاً أو أننا تقريباً لا نعرف شيئا وكذلك جورباتشوف . ولكى نقترب خطوة من السلام يجب علينا أن نتخلى عن الايديولوجيات وبصفة خاصة عن أيديولوجيا نزع السلاح من جانب واحد

والتـى تشـكل خطـراً علـى السـلام . يجـب أن نتحسـس طريقنـا جيـدا قبـل أن نخطـو- تماما مثلما تفعل الصراصير - محاولين الوصول الـى الصدق بكـل تواضع . كفانا تمثيلاً لدور الأنبياء العالمين ببواطـن الأمـور وهـو مـا يعنـى : يجب أن نغير أنفسنا .

المقالة الثانية عشر

الحياة بأسرها حلول لمشاكل

Alles Leben ist Problemlösen

محاضرة أُلقيت فى بادهومبرج Bad Hamburg عام ١٩٩١

يكاد عمرى أن يقترب من عمر السيارة . نعم لست من عمر إختراع السيارة والذى حدث عام ١٨٨٦ ولكنى على أية حال قد ولدت قبل أن يقتنى القيصر فيلهلم الثانى Kaiser Wilhelm II والذى أتذكره جيداً سيارته الأولى بعام .

أول مرة أستقل فيها سيارة كانت لزيارة لقصر ألتنبرج Altenberg فى جريفنشتين على نهر الدوناو كانت السيارة مرسيدس تخص صاحب القصر الذى كان صديقاً لوالدى . حتى ذلك الحين كنا نغدو ونروح داخل عربة يجرها أربعة من الخيل ولكنى ذهبت هذه المرة - كما قيل لى - بسيارة مرسيدس وهى أفضل سيارة صنعتها ألمانيا . كانت هذه السيارة التى أمتطيتها هى أول موديل صنعته الشركة وقد قدمت الى النمسا .

أما أول سيارة اشتريتها - وقد اشتريتها مستعملة - فقد كان ذلك فى لندن عام ١٩٣٦ ، وفور شرائى لها سافرت بها الى كمبردج ، وعندما صعدت السيارة من الناحية اليمنى بالطبع لا حظت أن العجلة الخلفية بالأكس الخاص بها ليست أسفل جسم السيارة ولكنها خارج نطاق السيارة . ولقد أثرت هذه الدهشة وكثيراً فى ذاكرتى . لقد كانت هذه السيارة من نوع " ستاندرد " سيارة مخصصة للسباقات وقد اختفت من فترة طويلة . تشكل هذه الذكريات بعض محاسن الشيخوخة التى ولت الى الأبد ، ومن محاسنها أيضاً أنى أرى عالمنا والناس التى تعيش فيه -وذلك على عكس ما يراه معاصرى الشباب- على قدر كبير من الروعة . ورغم أنى أعرف بالطبع أن هناك أموراً سيئة كثيرة فإنى كذلك أعرف أن عالمنا هو أفضل عالم وجد على مر التاريخ . وعندما أقول ذلك فإن مستمعى عادة ما يعتبرون هذا من قبيل هذيان الشيخوخة . قد يصدق هذا ولكنى على استعداد فى هذه المناقشة أن أدافع عن وجهة نظرى هذه ضد كل شخص وكذلك عن وجهة النظر القائلة بأن الصراخ والصياح ضد هذا العالم الشرير - وهو ما يمكن أن نطلق عليه الدين السائد فى زماننا هذا - يتناقض مع الوقائع . تكمن فكرتى الأساسية

ليس فقط فى أن أمورنا الاقتصادية تسير دائما بشكل أفضل ولكن أننا أيضا أفضل مما قبل من الناحية الأخلاقية . أنا على استعداد لقبول شئ واحد فقط : أننا أكثر بلاهة مما قبل وأننا نقف فى مواجهة ما نعتبر أنه حديث موقفا لا نقديا ، ولكن هذا لا يخص أحداً ولم يعتقده أحد .

قد يكمن السبب فى الأخطاء المرعبة التى نرتكبها كمربيين . وما دامت التربية تتدرج ضمن الأساليب الفنية الحديثة فإن هذه الأخطاء أخطاء فنية . أن اسوأ شئ هو أننا لا نتعلم من هذه الأخطاء . وهنا أصل الى مربط الفرس.

يشكل تصحيح الخطأ أهم منهج من مناهج التكنولوجيا والتعليم بصفة عامة ، وهو المنهج الذى يبدو أنه منهج التقدم الوحيد فى التطور البيولوجى . نتحدث وبصدق عن المنهج ، منهج المحاولة والخطأ ولكننا بهذا نستهين بالخطأ أو بالمحاولة الخاطئة .

أن التطور البيولوجى خطأ تام وتصحيح الخطأ يأتى بطيئاً لذا يجب أن نعتذر عن اخطائنا الكثيرة التى نحاكى بها محبوبتنا – الطبيعة الخضراء– وأننا عادة ما نحاول تصحيح أخطائنا هذه بأسرع مما تفعله الطبيعة الخضراء. ومن ثم فإن بعضنا يحاول التعلم بشكل واع من أخطائه ، وهو ما يفعله سائر العلماء وعلماء التكنولوجيا والفنيون ، أو اذا لم يكونوا يفعلون ذلك فعليهم أن يفعلوا ، إذ هنا تماماً تكمن خاصيتهم الوظيفية .

لقد أنتجت الحياة – أى الكيانات العضوية – بدءاً بالكيانات ذات الخلية الواحدة – اختراعات مبهرة . هذه الاختراعات الجديدة أو التغيرات المفاجئة بالأحرى محاولات سيئة خاطئة أكثر منها محاولات جيدة ومن ثم فإنها تستبعد. يمكننا أن نعترف بخطأ الكثير من أفكارنا حتى قبل أن ننفذها بجدية ، كما يتم إستبعاد أفكار أخرى من خلال النقد قبل أن تصل هذه الأفكار الى عملية الإنتاج . فى النقد الواعى ، فى النقد الذاتى وفى النقد الصديق والمعادى الذى يقوم به زملاؤنا والمحايدون فإنه يبدو أننا فى ذلك نتفوق شيئاً ما على الطبيعة . أما فى منهج المحاولة والخطأ ، فى تجربة الاختيار النقدى

فلقد تفوقت علينا تطبيعه كثيرا حتى الآن . ولقد ضاعت مجهوداتنا حتى الآن سدى فى محاولة تقليد الطبيعة فيما يتعلق على سبيل المثال بعملية تحويل الطاقة الشمسية الى طاقة كيميائية وذلك فى صورة يمكن معها تخزينها بسهولة وإن كان نجاحنا واردا جدا فى القريب العاجل .

الحياة بأسرها حلول لمشاكل . سائر الكيانات العضوية مخترعون أو فنيون ، ناجحون أو اقل نجاحاً فى حل المشكلات الفنية . هكذا الأمر بالنسبة للحيوانات كالعنكبوت على سبيل المثال . التكنيك الانسانى يحل مشكلات إنسانية ، كالمجارى والحصول على المياه والمواد الغذائية وتخزينها كما يفعل النحل على سبيل المثال .

لذا فمن الخطأ أن نقاوم تكنيك الطبيعة ، إذ أنها مقاومة ضد الحياة وهو مالم تلاحظه الطبيعة للأسف . ولكن نقد التكنيك ليس خطأ بطبيعة الحال ولكنه ضرورى ضرورة حتمية ، من هنا فإن كل شخص قادر ومرحب به . ومادام النقد من إختصاص الفنيين وظيفياً ، فإنه ما ينشغل به دائماً الفنيون بصفة خاصة .

ومع هذا فإن هناك أحيانا البعض الذين يرون المشكلات أولاً ، من هنا فقد يحدث أن يسعى مخترع وبصدق الى تطبيق اختراعه ولكنه قد يغفل - فى سعيه هذا - أن تطبيق اختراعه قد يؤدى الى نتائج ضارة . ولقد حدث أن تم إيجاد اختراعات ناجحة جداً ضد البعوض وضد حشرات أخرى ولكن كانت نتائج تطبيقها نتائج ضارة بالغير إذ أدت الى موت الطيور المغردة جوعاً ، وهو ما أعلنته باحثة الطبيعة الأمريكية الجنسية ريتشل كارسون Rachel Carson (فى كتابها الرائع : الربيع الصامت Silent Spring) ، ولقد أثار هذا الكتاب موجة من الاستياء فى أمريكا بصفة خاصة ثم فى ألمانيا وهو ما أدى الى إيجاد حركة سياسية ضد التكنولوجيا وضد العلم (وضد أمريكا) والى تأسيس حزب الخضرة .

أن ينبه المرء لأخطار لم نلاحظها جيداً ، فإن هذا أمر هام ، وأن يبالغ المرء

فى هذه الاخطاء ، فأنه أمر مفهوم بل وضرورى ، لكى يتم الانتباه اليها أما أن يهاجم المرء العلم والهندسة ككل رغم أننا لا يمكن أن نصلح من أخطائنا إلا عن طريقه ، فإن هذا ليس فقط من قبيل البلاهة ولكنه أيضاً نقص احساس وإنعدام للمسئولية .

أن يندفع البعض – انطلاقاً من نقص احساسهم – الى الزعم بأننا على شفا هاوية وأننا لهذا فى حاجة الى ديكتاتور لكى ينقذنا ، فإن هذا أمر رائع [1] خاصة وأن هتلر ما زال حياً فى فكرنا .

نعم يصدق تماماً أن بعض المشكلات كمشكلة تلوث الهواء فى حاجة الى وضع قوانين خاصة وما زال هناك من يقدس ما يعرف " بالسوق الحرة " تقديساً أيديولوجياً والتى ندين لها بالطبع كثيراً . يعتقد هؤلاء أن وضع هذه القوانين التى تحد من حرية السوق الحرة يشكل خطوة خطيرة تؤدى الى الرق والعبودية .

مرة أخرى فإن هذا سخف أيديولوجى . ولقد بينت بالفعل فى كتابى الذى صدر باللغة الأنجليزية منذ ٤٩ عاما " المجتمع المفتوح وأعداؤه " أن السوق الحرة يمكن أن توجد فقط من خلال نظام قانونى تضعه وتضمنه الدولة . هذا النظام القانونى هو ما من خلاله تم على سبيل المثال منع وجود جيوش مسلحة للأحزاب وهو ما تضمن تقييد التجارة الحرة للسلاح ، أى تقييد السوق الحرة والحرية الفردية . ولكن من الواضح أن تقييد الدولة يفضل على تقييد رؤساء الجماعات ، والذى يمكن أن نتوقعه متى فشل تقييد الدولة .

وتماما مثلما قيدنا سوق السلاح لصالح الحرية العامة لمواطن الدولة، يجب أيضاً أن نقيد صيد الحيوانات البرية . إن حدود كل حرية هى دائما (مثار خلاف) ومسألة خبرة كما يجب أن تمنع القوانين إستخدام الغازات السامة فى عملية الانتاج ، كما أن الحدود بين الغازات السامة وصور تلوث

---

(١) " رائع " ترجمة للصفة Toll كما وضعها المؤلف . من الواضح أن بوبر هنا يسخر بإستخدامه هذه الصفة (المرتجم) .

الهواء الذى يصدر عن السيارات حدود مثيرة للخلاف وغير محددة ، إذ أنها تعتمد ضمن ما تعتمد عليه - على كثافة المرور .

على كل يجب علينا أن نحل محل المبدأ الأيديولوجي للسوق الحرة مبدأ أخر وهو مبدأ تقييد الحرية فقط متى كان هذا ضرورياً ضرورة ملحة ، مما يعنى أن الآراء فى حالات كثيرة لن تتفق فيما يتعلق بأين تكمن حدود الضرورة .

هذا موقف يحدث دائما متى لعبت الحرية دوراً ما . من هنا فهو لا يظهر فقط مع مشكلات الصناعات الثقيلة أو مشكلات البيئة فقط ، كما أنه ليس صفة مميزة لها .

لسائر تعاملاتنا فى الحقيقة نتائج غير مرغوبة ، بعضها كان من الممكن رؤيته من قبل لو بذلنا جهداً أو مالاً ، أما بعضها الآخر فلم يكن من الممكن التنبؤ به .

مثال على ذلك أن أوتو هانز Otto Hans وفرتز شتراسمان Fritz Strabmann بينما كانا يؤديان التجربة التى أدت - كما ذكرا فيما بعد - الى الإنشطار النووى ، لم يستطعا التنبؤ بنتائج هذه التجربة . لم يتوقعا شيئا كهذا ولم يخطر ببالهما أن يقوما بتفسير هذه النتيجة غير المفهومة لهما .

لقد كان تفسير هذه النتيجة فكرة جديدة تماماً ، قدمتها زميلة " هانز " فى العمل والتى تركته فيما بعد " ليز مايتنر Lise Meitner "[1] وابن اختها ، صديقى أوتو روبرت فريش Otto R. Frisch فى مناقشة أثناء رحلة تزحلق فى السويد . وما كان من الممكن أن تخطر ببالهما هذه الفكرة الجديدة ما لم يكن العالم التجريبى فريش قد عمل مساعداً للعالم النظرى نيلز بور الذى قص على فريش نظريته الجديدة فى تقطير نواة الذرة Tropfentheorie des Atomkerns والتى تجعل عملية انقسام تفتت الذرة أمرا مفهوما .

---

(١) ليز مايتنر Lise Meitner (١٨٧٨ - ١٩٦٨) عالمة الفيزياء الألمانية . وصلت مع أوتو هان وفرتز شتراسمان إلى اكتشاف انشطار اليورانيوم .

لقد لعبت هذه الفكرة الحدسية المساعدة والتي تنطوى على كناية metaphorische دوراً فى تقديم التفسير الصحيح لتجربة هان وشتراسمان ، وهو التفسير الذى لم يكن متاحاً لهما مثلما لم تكن نتيجة التجربة متوقعة لهما.

بهذا أصل الى نهاية الجزء الأول من حديثى ألا وهو الوقوف ضد الهجوم على الأساليب الفنية مع ملاحظة أننا نعم جميعاً نرتكب أخطاء ، ولكن كل ما يأخذه حزب الخضر على الأساليب الفنية ، إنما يرتد تقريبا جميعا الى الانفجار السكانى ، وهى المشكلة التى لا يتناولها حزب الخضر كثيراً ربما لأنها قد تحطم هجومهم على التكنولوجيا إذا كانوا مستعدين لبحث هذه المشكلة بصورة جدية .

II

ليس الجزء الثانى مخصصا للدفاع عن بعض المآخذ ولكنه ثناء على التكنيك أو الأساليب الفنية من حيث أنه عامل من عوامل الثقافة .

أريد من أجل هذا الغرض أن أميز بين فئتين من الاختراعات : فئة الاختراعات التى ساعدت على نمو صناعة موجودة والى تعد الآلة البخارية التى اخترعها جيمس وات أفضل مثال لها ، إذ أن استخدامها جعل كثيراً من الصناعات صناعات ثقيلة . يمكن أن نعد مثل هذه الاختراعات من الوسائل المحسنة للإنتاج .

تندرج ضمن الفئة الثانية الاختراعات الثقافية العظيمة جداً والتى بدأت مع اختراع اللغة البشرية مثل الخطوط المختلفة ، والكتاب المكتوب ، ونشأة أول سوق للكتب فى أثينا (حوالى سنة ٥٠٠ ق . م) ثم طبع الكتاب وآلة النسخ والآلة الكاتبة فالكمبيوتر .. وهكذا . مالا يعرفه الكثيرون ويشكل أمراً مذهلاً أن آلة النسخ (تصوير الورق) تنسب أيضا لجيمس وات الذى إخترع الآلة البخارية .

تقوم هذه الآلة على فكرة غاية فى البساطة : ربما ما زلتم تتذكرون فى شبابكم ما كان يعرف بالورق النشاف والذى إستغنينا عنه بالحبر الذى يجف

سريع . لقد كانت فكرة جيمس وات فى جوهرها جمع بين حبر يمكن بله مرة أخرى وورقة نشف تمتص هذا الحبر . ولكى لا نحتاج للكتابة المقبولة كما تظهر على الورقة النشاف ، فلقد استخدم ورقة نشاف خاصة رقيقة وعريضة أمكنها تجفيف الحبر بطريقة يمكن معها قراءتها من الناحية الأخرى للورقة .

إن تاريخ هذا الاختراع الذى يتضمن صنع الورقتين وتركيب الحبر هو ١٧٨٠ . هذا الاختراع الذى يعد أقدم آلة نسخ عرفناها حتى الأن قد تم نسيانه تماما . هذه الآلة ما زالت تعمل ، ورغم أنها لا يمكنها أن تخرج سوى عدد بسيط من النسخ لكانت تمثل اليوم للكتاب شيئاً ذا قيمة كبيرة . وإذا كنت قد عانيت كثيرا من ضوضاء الآلة الكاتبة لكى أعود نفسى على الكتابة عليها، واذا كنت كثيراً ما أضعت اصولاً كتبتها ، فإنى أعرف أغنية يمكن للكتاب أن ينشدوها عن ضرورة آلة النسخ بالنسبة لهم .

لدينا هنا مثال لإختراع ذى دلالة ذات ممكنات كبرى ، دلالة ثقافية لا تقارن سوى بدلالة طبع الكتاب .

الاختراع الآخر الذى كان لفترة طويلة ذا أهمية ثقافية خالصة هو آلة التصوير الفوتوغرافى . لقد حققت هذه الالة لزمن طويل وحدها دون غيرها حاجة المرء لصورة شخصية له . لم يحقق هذا الاختراع فقط رغبة الانسان الشخصية فى البقاء – وهو ما تمثله مومياءات المصريين – ولكنه حقق أيضاً أمنية أن نستطيع تذكر العائلة وسائر الأصدقاء بطريقة مجسدة بقدر الامكان .

ولكن الحاجة الشخصية التى حققتها ثورة الاتصالات تعد أكثر أهمية من كل هذا : ثورة جورج ستيفنسون George - Stephenson ثم ثورة هنرى فورد Henry Ford التى تعد أكثر أهمية (أعرف أنه لم يكن هو المخترع ، ولكنه كان فورد الذى قلب أمريكا ومن ثم قلب العالم) .

يمكن القول أن أول قطارات سكة حديد كانت بمثابة عربات بريد تسير بقوة المحرك لأشخاص تحمل أمتعتها ،ولقد ظهرت عربات الأفراد قبل عربات البضائع . لقد حققت قطارات السكك الحديد الحاجة الشخصية إلى

السفر والى رؤية الأقارب والأصدقاء بصفة خاصة . نفس الأمر ينطبق على السيارات وينطبق على سبيل المثال على Modellt الثورى الذى قلب الولايات المتحدة الأمريكية بأسرها ولم يحقق للشعب الأمريكى طريقة حياة جديدة فقط ولكنه أقرب الى أن يكون قد أهداها لهم . هذه الثورة كانت ثورة عقلية أدت الى سعة أفق جديدة ووقفة عقلية جديدة ، ثورية كما لو كان الانسان يتوقع منها تغييراً فى طريقة الحياة . لقد كانت فى الحقيقة تحرراً عاماً من الروابط اللا واعية . الرواية التى تقص هذا التحرر شبه الواعى تسمى الهواء الحر Free Air والتى كتبها سنكلير ليوس S. Lewis .

يعد التحرر الكبير للعبيد والإماء والتى تسمى أيضاً " البنات اللاتى يقمن بالخدمة Dienstmädchen " أكثر أهمية من الناحية الأخلاقية ولقد ساعد على هذا التحرر – بقدر كبير – ميكنة الأجهزة المنزلية .

هذه الثورة الضخمة وهذا التحرر الذى حدث لسائر النساء يكاد اليوم أن يكون منسياً تماماً رغم أنه كان تحرراً من عبودية كانت تمزق نياط القلب .

من يشعر اليوم بما كان يعنيه أنه كان علينا يوماً ما أن نحمل الماء ، والفحم للتدفئة ، وأن يتم غسل سائر الملابس باليد وأنه لم يكن هناك مصابيح ذات فتائل تشعل بالبترول ، ثم عندما تلا ذلك إستخدام الغاز فإن هذا كله يعد تقدماً ثقافياً خالصاً .

لقد واكب تحرر الإنسان أو بمعنى أدق تحرر المرأة الذى حدث ببطئ شديد إستخدام موقد الغاز وذلك حوالى عام ١٩١٣ ، وحوالى عام ١٩٢٢ أصبح موقد الغاز منافساً خطيراً لموقد الفحم وذلك فى المطابخ المنزلية . بل ولقد ظلت التدفئة المركزية ولمدة طويلة تدار بالفحم النباتى أو فحم الكوك . لاشك أن العمل المنزلى المرهق هو ما كان يجعل حياة الانسان فى الماضى قصيرة ، فلم يعد هناك مجال للحديث عن إرهاق العمل أو المعاناة منه . لاشك أن النساء يدينون بذلك الآن لأساليب التكنولوجيا الجديدة ، ليس النساء فقط بل وكذلك الذين يقفون موقف العداء من أساليب التكنولوجيا .

المقالة الثالثة عشر

ضد التهكم والسخرية فى تفسير التاريخ

Gegen den Zynismus in der Interpretation der Geschichte

محاضرة ألقيت جامعة ايخشتات Eichstätt مايو ١٩٩١

لم يحدث على مدى حياتي العضوية أن شعرت بالملل سوى من تلك المحاضرات التي كنت أتلقاها بالمدرسة ، تلك المحاضرات التي كانت تسبب لي شللاً عقلياً مؤلماً جداً . لقد كاد تأثير المحاضرات في فرعي التاريخ والجغرافيا بصفة خاصة أن يكون تأثيراً قاتلاً .

من هنا قد نلتمس لبعض أساتذة التاريخ العذر في أنهم لذلك يحاولون إضافة قدر من التهكم والسخرية لمحاضراتهم - ومن هنا يمكن أيضاً أن نفهم - وأن نلتمس لهم العذر في ذلك - لماذا يذهبون الى ما هو ابعد من هذا ويجعلون فهم التاريخ فهماً تهكمياً هو الأسلوب الذي يجب أن يتبع .

يذهب الفهم التهكمي للتاريخ الى أن أصحاب الرغبات الجشعة هم فقط دائما من يحكمون : راغبي المال أو الذهب أو البترول أو السلطة . يرى المتهكم أنه هكذا كان الأمر وهكذا سيكون دائماً . هكذا هو الحال في الحكم الاستبدادي والديمقراطي على السواء ، ولكن النفاق في الحكم الديمقراطي نفاق أكثر سوءاً . لا أعتبر طريقة الفهم هذه طريقة خاطئة فحسب ولكنها أيضا طريقة غير مسئولة ، إذ أنها تبدو كما لو كانت على قدر من المعقولية. من هنا أرى أن مقاومة هذه الطريقة يعد واجباً ملحاً ، إذ أن مسألة كيف نرى أنفسنا وكيف نفكر في التاريخ مسألة هامة ، مسألة هامة لقراراتنا وتهم تعاملاتنا . لقد كان هذا هو السبب الذي من أجله إخترت هذا الموضوع للتحدث فيه .

يأتي التفسير التهكمي للتاريخ ثالث التفسيرات للتاريخ والتي سأذكرها هنا، إذ أنه قد جاء بعد التفسير الماركسي للتاريخ مباشرة والذي جاء بدوره بعد انهيار التفسير القومي أو العنصري للتاريخ .

لقد ترسخ في ألمانيا التفسير القومي أو العنصري للتاريخ في الفترة بين حروب نابليون وإنهيار حكم هتلر . ولأن هذا التفسير كان هو التفسير السائد قبل هتلر ، فلقد هيأ جواً عقلياً ، أو رؤية للعالم Weltanschauung بدونها ما كان من الممكن لهتلر أن يكون له وجود ، تلك الرؤية التي نرجعها في

قدر منها الى نابليون وفى قدر آخر الى هيجل . التاريخ - وفقا لهذا الفهم - حرب بين القوميات أو العنصريات حول السيادة وهى الحرب التى كان ينظر لها على أنها حرب إبادة . ومن ثم فلابد أن هزيمة هتلر كانت تعنى - وفقا لهذه النظرية للتاريخ - الإبادة الشاملة للشعب الألمانى . ومن المعروف أن هتلر قد فعل كل ما فى وسعه لكى يحقق عملياً الإبادة التامة للشعب الالمانى وهى الابادة التى تم توقعها نظرياً . ورغم كل ما فعله هتلر لم يتحقق لحسن الحظ هذا التوقع .

تتزعزع الثقة عادة فى النظرية المأخوذة مأخذاً جدياً متى لم يتحقق أحد توقعاتها ، ولقد حدث شئ كهذا للتفسير القومى للتاريخ عندما كان سائدا مما أدى الى تحول السيادة بعده الى التفسير الماركسى للتاريخ وان لم يحدث هذا فقط فى ألمانيا الشرقية سابقاً . وإذا كان الانهيار الفكرى لهذا الفهم الماركسى للتاريخ هو ما أدى الى نجاح التفسير التهكمى للتاريخ فأنى أرى ضرورة أن أقترب شيئا ما من الفهم الماركسى للتاريخ ، إذ قد لعب الصراع ضد الفهم الماركسى للتاريخ دوراً هاماً فى حياتى .

يعرف التفسير الماركسى للتاريخ بإسم " التفسير المادى للتاريخ " أو "المادية التاريخية" وكلاهما ينسب لماركس وانجلز . هذا التفسير هو تحوير لفلسفة هيجل فى التاريخ : لم يعد التاريخ ينظر اليه على أنه تاريخ الصراع بين العنصريات ولكنه تاريخ الصراع بين الطبقات ، والذى له هدف واحد ألا وهو تقديم برهان - برهان علمى - على أن الاشتراكية (أو الشيوعية - المسألة هنا ليست مسألة مصطلحات) يجب فى النهاية أن تنتصر وفقاً للضرورة التاريخية .

لقد ظهر هذا البرهان المزعوم لأول مرة فى الصفحات الثلاث الأخيرة من كتاب ماركس " بؤس الفلسفة " والذى ظهر أول ما ظهر باللغة الفرنسية تحت عنوان " Misére de la Philosophie " عام ١٨٤٧ .

هذا هو البرهان :

ليس التاريخ سوى تاريخ صراع بين الطبقات . فالصراع في زمانـ هذا (كتب ماركس هذا الكتاب عام ١٨٤٧) صراع بين الطبقة البورجوازية، أى الطبقة المستغلة والتى هى الطبقة السائدة منذ الثورة الفرنسية ، وطبقة البروليتاريا أى الطبقة المنتجة والتى هى الطبقة المستغلة . لن ينتهى هذا الصراع سوى بإنتصار الطبقة المنتجة ، فقط متى تكون لديها وعى طبقى وقامت بتنظيم نفسها عندئذ يمكنها أن توقف عجلة الانتاج . " تقف سائر عجلات الانتاج متى أراد ساعدك القوى " مما يعنى أن القوة المادية بيد الطبقة المنتجة وإن لم تكن قد وعت هذا بعد ، كما أنها تمثل الأغلبية العظمى . يجب أن ينتهى الأمر إذن الى تحررهم ، الى انتصارهم فيما يعرف " بالثورة الاشتراكية " .

هذه الثورة يجب أن تنتهى بالقضاء نهائياً على الطبقة البرجوازية وبسيطرة طبقة البروليتاريا الناجحة .

على هذا النحو نصل الى مجتمع يتكون من طبقة واحدة فقط والذى يصبح تبعاً لذلك مجتمعاً لا طبقياً من المنتجين . لن يوجد عندئذ طبقة سائدة ، ونتيجة للقضاء على الطبقة البورجوازية لن يصبح هناك سائداً ومسود .

بهذا المجتمع اللا طبقى نصل الى السلام الدائم على الأرض من حيث أن سائر الحروب لا يمكن أن تكون سوى حروب طبقية .

هذا بإختصار هو البرهان المقدم كبرهان علمى على ضرورة الوصول " بالضرورة التاريخية " الى الاشتراكية .

لقد وجه ماركس بنفسه عام ١٨٤٧ إعتراضاً على الصفحات الأخيرة لكتابه " بؤس الفلسفة " : ألا يمكن أن يؤدى إختفاء المجتمع الطبقى القديم الى سيادة طبقة جديدة تمارس سلطة سياسية جديدة ؟ .

يجيب ماركس على هذا السؤال الذى من الواضح أنه ذو دلالة محددة بشكل واضح بكلمة واحدة : " كلا " لا شك أنه يعنى بذلك أن طبقة المنتجين هذه لن تنقسم ، فأن تنقسم هذه الطبقة الواحدة – كما حدث فى الثورة الفرنسية

الى قسمين : الى طبقة جديدة حاكمة من الديكتاتوريين أتباع نابليون تحميهم بيروقراطية وشرطة وجلادو هذه الطبقة من ناحية بينما يشكل بقية الشعب القسم الأخر فهذا إفتراض يرفضه ماركس .

يتضمن إدعاء الماركسية بأنه من الممكن تقديم برهان علمى على النبوءة القائلة بضرورة حدوث الثورة الاشتراكية وأن ظهور الاشتراكية حتمى - تماما مثلما يمكن التنبؤ بحدوث كسوف للشمس بإستخدام الميكانيكا الفلكية Himmelsmechanik لنيوتن - يتضمن هذا الادعاء خطورة أخلاقية رهيبة، وهو ما خبرته بنفسى فى شتاء ١٩١٨-١٩١٩ مع نهاية الحرب العالمية الأولى وكنت وقتها أبلغ السادسة عشر والنصف من العمر ، فعندما يخدع شاب صغير بالضرورة التاريخية للاشتراكية ويعتقد فى ذلك فإنه يشعر بأن عليه إلتزاماً أخلاقياً عميقاً ، حتى وإن كان يرى - مثلما كنت أرى - أن الشيوعيين كثيراً ما يكذبون ووسائل قبيحة وذميمة يستخدمون ، ذلك أنه لما كان حدوث الاشتراكية ضرورياً ، كانت مقاومة هذا الحدوث بمثابة عمل اجرامى آثم ، فمن واجب كل شخص أن يشجع ويساعد على حدوث الاشتراكية بحيث لا يلقى هذا الذى يجب أن يحدث سوى أدنى مقاومة ممكنة. ولما كان المرء وحده ليس قوياً بدرجة كافية ، كان لابد أن يعمل فى إطار حركة منظمة أو من خلال الحزب ويسانده مساندة مخلصة ، حتى وإن كان هذا يعنى أن المرء يؤيد أشياء أو على الأقل يتجرع أشياء يشمئز منها أخلاقياً . هذا ميكانيزم يؤدى بالضرورة الى فساد شخصى . فالمرء يتجرع حيلاً وأعذاراً وأكاذيب عقلية إضافية ، بحيث متى تخطى المرء بعض العقبات أصبح مستعداً لكل شئ آخر . هذا هو الطريق المؤدى الى الارهاب السياسى أو الى الجريمة .

لقد تخلصت أنا نفسى من هذا الميكانيزم بعد حوالى ثمانية أسابيع ، فلقد تركت الماركسية واستنكرتها الى الأبد قبل عيد ميلادى السابع عشر بقليل. فلقد سألت نفسى عقب وفاة بعض الرفقاء برصاص الشرطة اثناء مظاهرة

قاموا بها : " هل تعرف أنت أن هذا البرهان العلمى المزعوم يصدق بالفعل؟ هل تحققت منه بالفعل بطريقة نقدية ، هل يمكنك تحمل مسئولية تشجيع الشباب على تعريض حياتهم للموت ؟

لقد وجدت أن الاجابة بـ " لا " هى الإجابة الصادقة الوحيدة على هذه الأسئلة ، فلم يحدث أن تحققت بالفعل من هذا البرهان الماركسى بطريقة نقدية. لقد اعتمدت فى قدر على اتفاقى مع الآخرين والذين إعتمدوا بدورهم على آخرين ، أنا من بينهم : أماتى متبادل سائر أعضائه مفلسين إفلاسا فكرياً بصفة خاصة ، يتم إغواؤهم دائماً بالكذب دون أن يكونوا على وعى - بهذا - . حالة إختبرتها فى نفسى وكان قادة الحزب هم أكثر من شعروا بها بوضوح .

لقد اعتمد كل شئ - على البرهان الماركسى على حدوث المجتمع اللا طبقى - ولكن هذا البرهان إنهار تماماً عندما رأى ماركس إمكانية وجود حجة مضادة وأنكرها . من الواضح أنهم قادة الحزب هم من يشكلون - بمساعدة الحزب - بداية " الطبقة الجديدة " ومن ثم يقضون على أمل ماركس ، تلك الطبقة الجديدة السائدة التى كذبت على أتباعها فى المستقبل والتى لم تعطهم ثقتها وان كانت تطلب ثقتهم فيها حتى قبل انتصارهم وقبل حدوث الدكتاتورية كان قادة الحزب هم السادة الذين يلقون خارج الحزب بكل من تسول له نفسه بأن يسأل سؤالاً يبعث على الضيق (لم يكن بإمكانهم وقتها اعدام هؤلاء الأشخاص) لقد كانت هذه هى طريقتهم وحديثهم واجابتهم، وكان هذا هو مصدر نظام الحزب .

لقد كان حظى كبيراً أن رأيت وفهمت كل شئ فى الوقت المناسب فمع عيد ميلادى السابع عشر وليت الماركسية ظهرى الى الأبد . إلام كان الأمر سيصير معى لو استمريت معها لفترة أطول ؟ . لقد استسلم أحد اتباع الماركسية الشجعان - زاخاروف - لفترة طويلة للبرهان الماركسى لكى يضع فى يد ستالين أولا ثم خروشوف من بعده أفظع أسلحة للدمار الشامل تم

أختراعها في أي وقت كان .

لقد جاوزت قوة قنبلة زاخاروف - في أضعف أنواعها - "قنبلة هيروشيما بآلاف المرات "[1] .

لقد قابلت بنفسي فيما بعد علماء طبيعة بارزين كانوا يؤمنون بالبرهان الماركسي وينتمون للحزب الشيوعي . وأفخر بأنني استطعت أن أقنع أحدهم بترك هذا الحزب ، ألا وهو عالم البيولوجيا الكبير هلدن J.B.S. Haldane .

لقد برر ساخاروف - بمناسبة وفاة ستالين - جرائمه بأنها كانت أعمالاً انسانية ، إذ كان لابد - كما كان يعتقد - للثورة الاشتراكية العامة من وجهة نظر إنسانية أي تؤدي الى مثل هذا الأشياء .

ولكن لحسن الحظ أنه قد اتضح لي مبكراً أن المرء من الممكن أن يضحي بنفسه فقط من أجل مثله لا أن يضحي بالآخرين .

ورغم أن هدف وغاية البرهان الماركسي كان ضمان الحدوث الضروري للاشتراكية وتحقيق السلام على الأرض ، فان هناك في الفهم الماركسي للتاريخ ملامح أخرى يمكن وصفها بأنها ملامح ماركسية فجة . وهي ما يمكن تلخيصها على النحو التالي . سائر البشر بخلاف هؤلاء الذين يكافحون من أجل الاشتراكية لا ينشدون سوى مصلحتهم الشخصية ، وإذا أنكروا هذا فهم غشاشون ومنافقون . نعم هم مجرمون عتاة في الاجرام ، وذلك أنهم متى حاولوا منع حدوث الاشتراكية ، فإنهم عندئذ يحملون ذنب سائر ضحايا الثورة . أن مقاومة الثورة الحتمية هو ما يؤدي الى أن تجد الثورة نفسها مضطرة للبطش . إن طمع وجشع هؤلاء المجرمين هو ما يجبر رجال الثورة على إراقة الدماء .

والآن أصل الى الطريقة الثالثة في تفسير التاريخ .

من الواضح أنه إذا أسقطنا من النظرية الماركسية مسألة حدوث

---

(١)هذه الفقرة مقتبسة من كتاب زاخاروف "حياتي" Piper, Munchen / Zurich ١٩٩١ ص ٢٥١ (للمؤلف) .

الاشتراكية فإننا نصل مباشرة الى التفسير التهكمى للتاريخ . لا حاجة لإضافة نقطة جديدة لهذا ، اللهم إلا الفكرة المتشائمة التى كانت وستكون دائماً والتى مفادها أنه حتى فى مجتمع الرفاهية الواضحة يلعب الجوع والتشرد والحرب والبؤس دائماً الدور الرئيسى من حيث أن شهوة الحكم والبترول والصناعات الحربية تسود العالم الاشتراكى . تخبرنا الماركسية والاتجاه التهكمى أن أسوأ صورة لهذا الوضع نجده فى أكثر دول العالم ثراء ألا وهى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما نجد هذا الحال أيضاً فى البلاد التى تليها ثراء .

بهذا أنهى وصفى المحدود للفهم التهكمى الحالى والأكثر حداثة للتاريخ وحوادثه المؤثرة والخطيرة على السواء والأن أحاول - بحركة نكوص حادة - تفسير بعض آرائى الخاصة .

سترون من عبارتى القادمة والتى يمكن أن أجعلها الى حد ما عنواناً للنصف الثانى لهذه المقالة الى أى مدى تبلغ حدة نكوصى . هذا العنوان هو : أنا متفائل .

أنا - من لا يعرف شيئا عن المستقل ومن ثم لا يتنبأ بأى شئ - متفائل . أزعم أنه يجب علينا أن نفصل بين حاضرنا الذى يمكن بل ويجب أن نحكم عليه وبين المستقبل المفتوح الذى يمكننا التأثير فيه . من هنا فإن علينا إلتزاماً أخلاقياً أن نتعامل مع المستقبل لا على أنه امتداد للماضى والحاضر ، فالمستقبل المفتوح يتضمن امكانيات أخلاقية غير محدودة ومختلفة تماماً. من هنا لا يجب أن يحكم موقفنا الأساسى السؤال " ماذا سيحدث ؟ " ولكن السؤال " ماذا يجب أن نفعل لكى نجعل عالمنا أفضل قليلاً بقدر الإمكان ؟ " . حتى وان كنا نعرف أن الاجيال القادمة من الممكن أن تفسد سائر الخير الذى بإمكاننا إحداثه .

ينقسم النصف الثانى من محاضرتى إذن بدوره الى نصفين : النصف الأول يدور حول تفاؤلى بشأن الحاضر ، والثانى : نشاطنا فيما يتعلق بالمستقبل .

لقد كانت زيارتي الأولى للولايات المتحدة الأمريكية هي ما جعلت مني شخصاً متفائلاً مرة أخرى ، ولقد ذهبت الى أمريكا بعد هذه الزيارة حوالي عشرين أو خمسة وعشرين مرة ، كان انطباعي في كل مرة يزداد عمقاً . لقد أخرجتني هذه الزيارة الأولى التي قمت بها للولايات المتحدة وللأبد من الاكتئاب الذي كنت أحسه نتيجة التأثير القوى للماركسية في أوروبا بعد الحرب ولقد ظهر أخيراً عام ١٩٤٥ كتابي " المجتمع المفتوح وأعداؤه " والذي بدأته عام ١٩٣٨ عقب دخول هتلر النمسا ، ولكن رغم المناقشات الجيدة التي تعرض لها هذا الكتاب ورغم انتشاره بصورة جيدة فإنه يبدو أنه لم يستطع أن يحدث أدنى تأثير في سلسلة الإنتصارات المتصلة للماركسية .

يجب الآن أن أوضح النقاط الرئيسية لتفاؤلي :

(١) أكرر القول مرة أخرى ، ينسحب تفاؤلي على الحاضر فقط وليس على المستقبل فأنا لا أعتقد في وجود ما يمكن أن يسمى قانون التقدم . لا وجود لمثل هذا القانون لا في العلم ولا في التكنولوجيا أيضاً ، إذ لا يمكن وصف التقدم بالاحتمال .

(٢) أزعم أننا نعيش في الحاضر أفضل عالم اجتماعي وجد على الاطلاق وذلك رغم الخيانة العظمة التي يمارسها معظم المفكرين ، إذ ينادون بدين متشائم يرى أننا نعيش في جحيم أخلاقي سيؤدي بنا إلى تلوث مادي وأخلاقي .

(٣) أزعم أن هذا الدين المتشائم ليس فقط كذبة كبيرة ، ولكن أنه لم يوجد من قبل مجتمع كان سعيداً بالاصلاح مثل مجتمعنا .

(٤) هذه السعادة بالاصلاح هي نتيجة استعداد أخلاقي جديد للتضحية ، استعداد ظهر بالفعل في الحربين العالميتين من كلا الجانبين .. ففي حرب السبع سنوات أضطر فريدريك الثاني أن يجبر شعبه على رؤية الموت أمام أعينهم ، إن نداءه مشهور " أيها الشعب : هلي تريدون أن تحيون حياة أبدية ؟ " لقد بين بهذه الطريقة أن المناداة بقيمة أخلاقية

تكفى: الواجب والوطن فى ألمانيا ، والوطن والحرية والسلام فى الغرب ثم الصداقة فى الجانبين .

وكما أوضحت من قبل ، فإنى أعتقد – وهو اعتقاد ناتج عن الخبرة – أن قوة الشيوعية تكمن فى ندائها الأخلاقى ، نفس الأمر ينطبق على حركة السلام كما أعتقد أيضاً أن بعض الإرهابيين إنما يتبعون فى الأصل نداء أخلاقياً معيناً وهو النداء الذى يورطهم فى هذه الكذبة الداخلية التى ذكرتها من قبل .

لقد كتب برتراند رسل – والذى كنت أشعر لسنوات طويلة بارتباطى به الى أن وقع فى سنوات عمره المتأخرة فى يد سكرتير شيوعى – قائلاً : تكمن مشكلة زماننا فى أننا نتطور فكرياً بسرعة بينما نتطور أخلاقياً ببطء ، وفى الوقت الذى اكتشفنا فيه الفيزياء النووية لم نستطع أن نحقق المبادئ الأخلاقية الضرورية فى الوقت المناسب . أو بعبارة أخرى : وفقا لرسل نحن أذكياء واصحاب عقول راشدة ولكننا شريرون من الناحية الأخلاقية . الكثير هم من يشاركون رسل هذا الرأى بما فيهم أصحاب المذهب التهكمى ، أما أنا فأذهب الى عكس هذا تماماً . أعتقد أننا خيرون وحمقى ، فنحن نتأثر وبسهولة بالنظريات التى تنطبق بصورة مباشرة أو غير مباشرة على أخلاقنا ولا نقف من هذه النظريات موقفاً نقدياً بصورة كافية ، فنحن بالنسبة لهذه النظريات لسنا راشدين من الناحية الفكرية ولكننا ضحاياها ، ضحايا سليمو النية وعلى استعداد للتضحية .

أريد فيما يلى أن ألخص الجانب الإيجابى من تفاؤلى ، فأقول : نحن نعيش فى عالم رائع ، ولقد خلقنا هنا فى العالم الغربى أفضل نظام اجتماعى وجد حتى الآن ، كما أننا نبذل وباستمرار قصارى جهدنا لتحسينه وتطويره .

من هنا يذهب أحد الآراء الهامة الى أن ما ينتج عن تعاملاتنا السياسية الاجتماعية غالباً ما يختلف عما كان من الممكن أن نتوقعه أو نريده، ومع هذا فقد حققنا أكثر مما كان البعض (وأنا واحد منهم) يأمل .

ألخص مرة أخرى : أن الايديولوجيا السائدة في الوقت الحاضر والتي تذهب الى أننا نعيش في عالم شرير من الناحية الأخلاقية أكذوبة واضحة ، لقد ثبط انتشارها من عزيمة الكثير من الشباب وجعلت منهم شبابا لا يستطيع حتى الحياة .

وكما قلت من قبل لست متفائلاً فيما يتعلق بالمستقبل ، اذ المستقبل مفتوح. لا يوجد قانون تاريخي للتقدم ، فنحن لا نعرف ما سيحدث غداً . هناك ملايين الممكنات الخيرة والسيئة التي لا يستطيع أحد أن يتنبأ بها . بناء على هذا فإني أرفض اتجاه التفسيرات الثلاثة للتاريخ نحو التنبؤ وأزعم أننا لا يجب - لأسباب أخلاقية - أن نبدلها بتفسيرات أخرى ، ومن الخطأ أن نحاول التنبؤ من التاريخ ، أي أن نحاول استنتاج ما سيحدث غداً من الميول والاتجاهات الحالية ، فأن يكون التاريخ تيار يجب على الأقل أن يكون من الممكن التنبؤ ولو جزئيا بجريانه هي محاولة وضع نظرية انطلاقاً من صورة معينة .

إن التصرف الوحيد الصحيح هو أن ننظر للماضي نظرة مختلفة تماماً عن المستقبل ، إذ يجب أن نقيم حوادث الماضي من الناحيتين التاريخية والأخلاقية لكي نتعلم ما هو صحيح من الناحية الأخلاقية ، دون أن نحاول على الاطلاق التنبؤ بالمستقبل انطلاقاً من ميول واتجاهات الماضي . فالمستقبل مفتوح ، بمعنى أن كل شئ ممكن أن يحدث . هناك بالتأكيد في هذه اللحظة في الاتحاد السوفيتي آلاف مؤلفة من قنابل زاخاروف وهناك بالتأكيد كثير من المجانين من يودون من كل قلوبهم أن يستخدموها . فمن الممكن أن تفنى البشرية غداً ، ولكن هناك أيضاً آمالاً عظيمة ، فهناك ممكنات لا عدد لها للمستقبل أفضل كثيراً من ممكنات الحاضر .

يبدو للأسف أنه ليس من السهل فهم وجهة النظر هذه تجاه المستقبل، كما أن هناك الكثير من المفكرين من لا يمكنهم أن يشتركوا معنا في هذا الفصل بين الماضي والحاضر من ناحية والحاضر والمستقبل من ناحية أخرى ،

المفكرين الذين تعلموا من الماركسية يطلبون من الشخص الذكى أن يكون بإمكانه قراءة المستقبل .

ولقد قيل لى مرات ليست بالقليلة أن تفاؤلى لابد أنه على الأقل موجه ضمنى للقول بانه لا يمكن أن يوجد من يتفاءل بالنسبة للحاضر دون أن يكون كذلك بالنسبة للمستقبل .

ولكنى أزعم أن : الأمل هو كل ما يمكن لتفاؤلى بخصوص الحاضر أن يقدمه للمستقبل ، فالتفاؤل يمكنه أن يقدم لنا الأمل والدافع ، فاذا كنا قد استطعنا أن نجعل بعض الأشياء على صورة أفضل ، فليس من المستحيل أن نحقق فى المستقبل نجاحاً مماثلاً . فلم يعد هناك مثلا منذ تحرر المرأة فى القرن العشرين أى شكل من اشكال العبودية ، فالغرب حر على الأقل بهذا المعنى وهو ما يمكن به أن نفخر .

أما ما يخص المستقبل فلا يجب أن نتنبأ به ولكن أن نحاول فقط أن نتصرف بصورة صحيحة وبصورة مسئولة من الناحية الأخلاقية . يتحول هذا الى واجب أن نتعلم رؤية الحاضر بصورة صحيحة وليس من خلال النظارات الملونة للأيديولوجيا . يمكننا أن نتعلم من الواقع ما يمكن أن نحققه، فإذا رأينا الواقع بنظارات إحدى المفاهيم الأيديولوجية الثلاثة للتاريخ ، فإننا على هذا النحو نخل بواجب التعلم .

أن المستقبل مفتوح ومن ثم فنحن مسئولون عن فعل الأفضل دائماً وجعل المستقبل أفضل من الحاضر . ولكن هذه المسئولية تفترض الحرية . فنحن عبيد فى ظل الحكم الاستبدادى ، والعبيد ليسوا مسئولين مسئولية تامة عما يفعلونه ، وبهذا أصل الآن الى آخر نقطة أود الحديث فيها وتتعلق بالحرية السياسية – الحرية من الاستبداد – فالحرية السياسية هى أكثر القيم السياسية أهمية ، لذا يجب أن نكون دائما على استعداد للنضال من أجل الحرية السياسية ، فالحرية من الممكن دائماً أن تضيع . فلا يجب أن نعتقد أنها مضمونة .

أزعم أن سائر البشر معرضون تحت الحكم الاستبدادى لخطر خداع البشرية ومن ثم لفقدان انسانيتهم ذاتها ولأن يصبح كل منهم شخصا لا انسانيا، فشخص مثل أندريه زاخاروف Andrei Sacharow – الذى برهن بسلوكه العظيم والمثير للإعجاب أن لديه الشجاعة للوقوف فى مواجهة الحكم الاستبدادى – استطاع مع هذا أن يتصرف عندما كان شاباً صغيراً – كمجرم يتصف بالسادية . فلم يعمل زاخاروف فقط – كما أوضحت – على وضع أنظع وسائل الإبادة الشاملة فى الأيدى الملوثة بالدماء لستالين – أسوأ الجلادين – وبريجا Berija السادى ، ولكنه وضع للأسطول الروسى خطة أكثر فظاعة لإستخدام هذه الوسائل ، وهى الخطة التى رفضها أحد ضباط البحرية الكبار لأنه وجدها تتنافى مع أخلاقيات الحرب كما يراها ، مما جعل زاخاروف – كما يرون – يخجل من نفسه . لقد حدث هذا كله بسبب الإيديولوجية الماركسية الحمقاء والملعونة التى أعمت بصيرته وجعلته يؤمن بمهمة ستالين – الرجل الانسانى العظيم – فهكذا كان يعتبره . على هذا النحو كان زاخاروف – فى ظل هذا الجو الاستبدادى – يتحول بين الحين والأخر الى وحش مفترس مجنون – نعم من وقت لأخر ، ولكن لفترة طويلة تكفى للاعداد لأكبر ضرر يمكن تصوره وتكفى لكى يشكل خطراً دائماً على كل كائن حى .

فالحكم الاستبدادى يسلبنا انسانيتنا ومن ثم فهو يسلبنا مسئوليتنا البشرية ، فمن أراد تحت الحكم الاستبدادى – أن يتبع ضميره ، فلن يجد نفسه سوى فى مواجهة عدة مستحيلات : صراعات لا يمكن حلها ، كاالتعارض مثلا بين واجباته نحو من يأتى بعده وواجبه الذى يحتم عليه مساندة المضطهدين ، وألا يشارك فى الاضطهاد ، يجب أن يكون لديه الشجاعة ألا يخلط بين واجباته الصحيحة وذلك الذى يسمى خطأ (واجبه) نحو رؤسائه المستبدين ، ذلك الواجب الذى وعد زاخاروف خروشوف بتحقيقه والذى يمارسه هو نفسه مثله تماماً مثل مجرى الحرب الألمان .

يتضح كيف يمكن للحكم الاستبدادى أن يقضى على الواجب الانسانى والمسئولية الانسانية ، بل وعلى كل من يحاول تحقيق هذا الواجب وتلك المسئولية بالمثال الذى لا يمكن أن ينسى لدائرة الأصدقاء التى كانت تسمى بالوردة البيضاء WeiBen Rose ، تلك الدائرة التى تكونت من مجموعة من الطلاب فى ميونيخ وأساتذتهم عندما نادوا فى شتاء ١٩٤٣/١٩٤٢ - من خلال منشورات (قاموا بتوزيعها) بضرورة الوقوف ضد حرب هتلر . كانت النتيجة أن تم إعدام الأخوين هانز وصوفى شول Hans & Sophie Scholl مع كريستوف بروبست Probst جميعاً يوم ٢٢ فبراير ١٩٤٣ ، وتم اعدام الكسندر شمورل A. Schmorell والبروفسور كورت هوبر K. Huber يوم ١٣ يوليو ١٩٤٣ ، أما فيلى جراف Willi Graf فقد أعدم يوم ١٢ أكتوبر ١٩٤٣ . لقد كان هانز شول وقتها فى الرابعة والعشرين من عمره أما صوفى فكانت فى الحادية والعشرين ، أما بقية الطلاب فكانوا كذلك فى نفس هذا العمر . وما زال بعض هؤلاء الذين قرروا الوقوف ضد حرب هتلر على قيد الحياة .

إن الأبطال الذين من الممكن أن يكونوا مثلا عليا لنا من النادر أن تجد لهم الآن فى جيلنا الحالى وجوداً ، لقد كان هؤلاء أبطالاً ، اذ دخلوا فى صراع كانوا يعلمون أنه لا أمل فى كسبه ، ولكنهم مع هذا دخلوا هذا الصراع على أمل أن يحذو غيرهم حذوهم ، لقد كانوا بحق مثلاً عليا : حاربوا من أجل الحرية والمسئولية التى أرادوا تحقيقها لأنفسهم وللبشرية جمعاء . كانت النتيجة أن قضى عليهم الحكم الاستبدادى بوحشيته ولا إنسانيته . هؤلاء أناس لا يجب علينا أن ننساهم بل يجب أن نذكرهم دائماً وأن نتحدث عنهم ونحذو حذوهم .

إن الحرية السياسية شرط مسبق لمسئوليتنا الشخصية ولإنسانيتنا ، إذ يجب أن تشتق كل محاولة ، وكل خطوة نخطوها نحو عالم أفضل ، نحو مستقبل أفضل من القيمة الأساسية للحرية .

أراه أمـراً مؤسفاً أن توجه أوروبـا دائماً تقريباً انتباهها نحو المثـال الفاشل للثورة الفرنسية (مثال فاشل حتى تأسيس ديجول للجمهورية الخامسـة) بينما يتم تجاهل المثـال الرائـع للثـورة الأمريكيـة – علـى الأقل فـى الـدروس المدرسية – كما أنه غالباً ما يساء فهمها . لقـد قدمت أمريكـا الدليـل علـى أن فكرة الحرية الشخصية – كمـا حـاول صولـون الأثينـى [1] لأول مـرة تحقيقها وكمـا بحثها ايمـانويل كـانط – ليسـت حلمـاً يوتوبياً . لقد أوضـح لنـا المثـال الأمريكى أن حكومة الحرية ليست فقط شكلاً لحكومة يمكن تحققها ، بل وأنها حكومةً يمكنها التغلب وبنجاح على أكبر الصعوبات ، فهى شكل لحكومة تقـوم اولاً وقبل كل شئ علـى منـع الاستبداد – وذلـك عن طريـق تقسيم وتوزيـع السلطة وعن طريق الاشراف المتبادل للسلطات المقسمة على بعضها البعض. لقد استوحت سائر الديمقراطيات هذه الفكـرة ، بـل وعليها أيضـاً قـام القـانون الأساسى للديمقراطية الألمانية .

إلا أن أمريكا قـد سـارت (نحـو تحقيـق هـذا) فـى طريـق صـعـب ، لقـد سارت فى هذا الطريق منذ ثورة ١٧٦٣ وهو الطريق الذى لم ينته بعـد رغـم نجاحه العظيم ، فمازال الصراع من أجل الحرية مستمراً .

تقف الفكرة العظيمة للحريـة الشـخصية لسـائر البشـر وهـى الفكـرة التـى كـانت بمثابـة الملهم للثورة الأمريكيـة علـى طـرف النقيـض مـع المؤسسـة الأمريكية للعبودية والتى تعود الى زمان ما قبل الثورة والتى أسسـها الأسـبان والمتمركزة فى الولايات الجنوبية مـنذ أكثـر مـن مائـة عـام . لقد انقسمت الولايات المتحدة وفقاً لهذا الى قسـمين وذلـك عندمـا شنت الولايـات الجنوبيـة حرباً وقائية ضد الولايات الشمالية [2] . لقد كانت أفظع حرب وجدت فى ذلـك

---

(١) صولون الأثينى ولد عام ٦٣٠ ق.م .وتوفـى عـام ٥٦٠ ق.م ، كـان يعـرف بأنـه أحـد حكماء اليونان السبعة . قام بتحرير العبيد ، وفى عهده عرفت أثينا أول قانون مكتوب لها.

(٢) يشير بوبر الى الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١-١٨٦٥) التى أندلعت بين ولايـات الشمال وولايات الجنوب نتيجة انفصال ولايات الجنوب وذلـك اعتراضـاً منهـا علـى الغـاء العبودية ، إذ كان المواطنون فى الجنوب يعتمدون علـى العبيد اعتمـاداً رئيسـياً فـى ---

التاريخ . كانت حربا أهلية وقف فيها الأصدقاء وأعضاء العائلة الواحدة وجهاً لوجه يحارب بعضهم البعض مما بدا للكثيرين أن الطريق الذى سلكته أمريكا نحو تحقيق الحرية لم يكن بأسعد حظ من الطريق الذى سلكته الثورة الفرنسية، ولكن تم فى النهاية صد هذا الهجوم الذى كان ناجحاً فى بداية الأمر والقضاء عليه وذلك بعد أن كلف أمريكا ستمائة ألف من الضحايا من الجانبين، كان أحدهم هو ابراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة . نعم لقد تحرر العبيد ولكن بقت مشكلة صعبة لا مثيل لها لم تحل ألا وهى كيف يمكن للأجيال التالية من العبيد السود أن يندمجوا فى المجتمع وكيف يمكن القضاء على مؤسسة اجتماعية عمرها يتجاوز المائة ، مؤسسة لم يكن من الممكن نسيانها بسهولة نشأت بسبب اختلاف لون البشرة .

لم يحدث أن رأيت حتى الآن عملاً تاريخياً باللغة الألمانية تم فيه وصف وتقييم هذا الموقف بطريقة صحيحة ولو الى حد ما .

من الحوادث البارزة التى تركت فى داخلى انطباعات لاتنسى أنى عاصرت فى الفترة من ١٩٥٠ حتى ١٩٨٩ المجهودات التى بذلتها الحكومات المختلفة التى تعاقبت على الولايات المتحدة من أجل مساعدة هؤلاء الذين كانوا يعتبرون عبيداً وجعلهم مواطنين من الدرجة الأولى على قدم المساواة مع غيرهم . أريد أن أذكر هنا فقط قصة . لقد حدث عام ١٩٥٦ أن نزلت ضيفاً على جامعة أطلانطا والتى تقع فى مركز ما كان يعرف بالولايات الجنوبية . لقد كان سائر طلاب هذه الجامعة فى ذلك الوقت من السود وكان اساتذتهم البيض يمثلون الأقلية فى تلك الجامعة . لقد سألت رئيس الجامعة وقتها (وهو من السود) ومن المثقفين البارزين : كيف ومتى تأسست هذه الجامعة الكبيرة الرائعة ؟ لدهشتى جاءت الأجابة أن جامعة السود هذه التى تقع فى مركز الولايات الجنوبية قد تأسست عقب انتهاء الحرب الأهلية بستة

== الزراعة التى كانت تشكل اساس الاقتصاد فى الجنوب . أنتهت الحرب بإنتصار الشمال واعادة ضم ولايات الجنوب مرة أخرى والغاء العبودية .

أعوام وأن مجموعة من المعاهد الخاصة بالسود - وأعتقد أن عددهم كان ثمانية - قامت معاً بتأسيسها وهى المعاهد التى قامت بتأسيسها جميعها كنائس مسيحية مختلفة يعمل فيها اساتذة ورجال دين من البيض والسود جنبا الى جنب .

أترك لحضراتكم التأمل فى هذه القصة ومقارنتها بهذه الكلمات التى وردت فى دائرة معارف ماير Meyers Enzyklopädischem Lexikon عن نهاية الحرب الأهلية : " لم تخبر العبودية التى كانت سبب الحرب سوى حلاً ظاهرياً " تبدو لى على كل حال كلمة " حلاً ظاهرياً " كلمة خاطئة تماماً مثل غيرها كثيراً فى نفس المقالة ، وأنى أتساءل : ما هو الحل الحقيقى الذى يقترحه مؤلف هذه المقالة . على كل حال فقد تركت فى داخلى قصة جامعة أطلانطا انطباعاً قوياً ، مثل غيرها من الحوادث التى عاصرتها .

لقد ذهبت الى بلاد كثيرة ولكن لم يحدث أن أستنشقت هواء حراً مثل الهواء الذى استنشقته فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولم يحدث أن وجدت مثالية مصحوبة بروح التسامح والرغبة فى المساعدة والتعلم مثلما رأيت فى أمريكا ، مثالية عملية فاعلة وإستعداداً كبيراً للمساعدة . ولقد زرت من فترة قريبة جامعات أمريكية كثيرة رأيت فيها إندماجاً كاملاً للسود بحيث بدا أن لون البشرة لم يعد يلعب أى دور على الاطلاق .

أقول هذا كله بوعى تام أن الكثيرين لن يقبلوه تماماً . فعندما كنت من ثلاثة أعوام فى مؤتمر بمدينة هانوفر أدافع فى محاضرة ألقيها عن أمريكا رداً على محاضرة أخرى شن فيها أصحابها هجوماً على أمريكا ، ووجهت بصياح وإعتراض .

لقد رحبت بهذا إذ أعتبرته دليلاً وعلامة على أن مستمعى لم يصبهم الملل من حديثى ولقد كنت محظوظا لأنى أستطعت أن أتصور أنى قد دافعت عن الحرية والتسامح .

المقالة الرابعة عشر

حروب أدت إلى السلام

Kriege Führen Für den Frieden

حوار أجرته مجلة Der Spiegel الأسبوعية التى تصدر بألمانيا
مع البروفسور كارل بوبر فى إبريل ١٩٩٢

شبيجل ، الأستاذ بوبر ، بإنهيار الإتحاد السوفيتي تحققت نبوءة كنت سيادتكم قد تنبأت بها منذ حوالى نصف قرن . هل يعتبر هذا إنتصاراً للعقلانية النقدية على أعداء المجتمع المفتوح ؟ .

بوبر ، لم اقم بوضع أية نبوءة ، إذ أننى أذهب دائماً الى أنه لا يجب على المرء أن يضع أية تنبؤات . أعتبر الرأى الذى يذهب الى أن المفكر يتم تقييمه وفقاً لجودة التنبؤات التى يضعها رأياً خاطئاً تماماً .

كانت فلسفة التاريخ فى ألمانيا – على الأقل منذ هيجل – تعتقد دائماً أن مهمتها يجب أن تكون بشكل ما فلسفة تنبؤية . أعتبر هذا خطأ . فالانسان يتعلم من التاريخ ولكن التاريخ اليوم والآن قد إنتهى . يجب أن يكون موقفنا من المستقبل مختلفاً تماماً عن محاولة التنبؤ من التاريخ وتتبع مجراه فى المستقبل .

شبيجل ، حسناً وحتى اذا لم يكن هذا تنبؤا من سيادتكم ، فلقد توقعت على الأقل إنتصار الديمقراطية الليبرالية على أشكال الحكم الإستبدادى .

بوبر ، يجب أن يكون موقفنا من المستقبل على النحو التالى : نحن الآن مسئولون عما سيحدث فى المستقبل . فالماضى معطى لنا ولكننا لا نستطيع أن نفعل به الآن شيئاً آخر رغم أننا بمعنى آخر مسئولون عنه أيضاً : بمعنى أننا مسئولون عما فعلنا . أما فيما يتعلق بالمستقبل فنحن مسئولون عنه الآن مسئولية أخلاقية ويجب أن نفعل أفضل ما لدينا دون أن نرتدى أية نظارات أيديولوجية حتى ولو لم تكن النظرة الى المستقبل متفائلة ، والأفضل بمعنى محدد هو إستخدام أقل قدر ممكن من العنف ، أو هو تقليل المعاناة بقدر الإمكان .

شبيجل : لقد شكا الشيوعيون أثناء حكم لينين مما تأسس فى روسيا فى ذلك الوقت أى من أيديولوجيا الدولة وديكتاتورية الحزب الواحد وهو ما لا صلة له بنظريات كارل ماركس الأساسية الذى راهن على قيام ثورة البروليتاريا فى الدول الغربية الصناعية .

بوبر : رداً على هذا نقول ما يلي : يكمن الجنون الشيوعي – وهو ما نجده لدى ماركس – في القول بأن ما يسمى بالعالم الرأسمالى عالم شيطانى . لم يحدث أن كان هناك وجود لما أسماه ماركس بالرأسمالية أو لأى شئ مشابه لها .

شبيجل : عفواً ، ولكن لقد وجدت بالفعل ليبرالية مانشستر Menchester-Liberalisnus ذات شروط العمل البائسة .

بوبر : بالتأكيد كان هذا (الزمان) صعباً للغاية لا بالنسبة للعمال فحسب ولكن لغيرهم من الناس أيضاً . لقد إهتم ماركس بصورة اساسية بالعمال . فقط إذا نظرنا للأمر نظرة تاريخية محضة ، فإن ظروف العمال تحسنت بإستمرار منذ ذلك الوقت ، ولكن ماركس كان يزعم أن أحوالهم ستسوء بإستمرار وستزداد سوءاً .

شبيجل : هل تعنى سيادتكم نظريته فى الافتقار المطلق (١) ؟

بوبر : نعم ، ولأن نظرية الإفتقار لم تتحقق ، فلقد أرجع الأتسان الافتقار الى المعسكرات التى تعرف الأن بالعالم الثالث .

شبيجل : أى ما يعرف بنظرية الإمبريالية ، لغو فكرى صورى بالطبع .

بوبر : نعم هى صياغة فكرية لا معنى لها بالطبع ، وهذا واضح بصورة جلية اذ لا يمكن أن يكون التصنيع إفتقاراً ، (فهذا واضح تماماً) بل والمعسكرات أيضاً تتحسن بإستمرار بصورة مطردة .

ماذا كانت اذن ما يعرف الرأسمالية ؟ إنها التصنيع والانتاج بالجملة Massenproduktion فالانتاج بالجملة يعنى إنتاجاً غزيراً أى الحصول على أشياء كثيرة ، والانتاج بالجملة يتطلب سوقاً كبيراً وعددا كبيرا من المستهلكين . لقد قارن ماركس بين الرأسمالية والجحيم . ولكن لم يكن للجحيم سوى وجود ضعيف على سطح الأرض مثله فى ذلك مثل جحيم

---

(١) كان كارل ماركس يرى أن أحوال العمال فى ظل الرأسمالية ستزداد سوءاً وفقراً الى أن يصلوا فى يوم من الأيام الى ما أسماه بالافتقار المطلق .

دانتـــــى .

ولقد كانت هذه فكرة دانتى التى نسبها مـاركس بوعـى كـامل للرأسـمالية. فاذا كانت الرأسمالية تؤدى بالضرورة الى الافتقار ، فإن الثورة هـى المخـرج والخلاص الممكن الوحيد : الثورة الاشتراكية . إننى أقف من مجتمعنـا موقفـا نقدياً شديداً . ولكن نظام مجتمعنا الليبرالى الحالى هو أفضل وأعدل نظام وجد على الأرض حتى الآن . لقد نشأ - كما ذهب ماركس - عن طريق التطور.

شبيجل : ألم يتبق بصفة عامة شيئاً من النداء الأخلاقـى للنقد الماركسـى للرأسمالية فى التشهير بالظلم الاجتماعى ؟ فلـم تضيـق الهـوة أو المسـافة بين الفقر والثراء فى العالم .

بوبر : لقد أخذ النداء الأخلاقى منذ العصور الوسطى أشكالاً مختلفة فلقـد كان النـداء الأخلاقـى هـو المسـألة الرئيسية فـى الفكر المسيحى وفـى الفكر التنويرى . ولقـد كـان الخصـم اللـدود لهـذا النـداء الأخلاقـى هـو الاتجـاه الرومانتيكى .

شبيجل : فى ذكرك للتنويريين لابد أنك تعنى غالبـاً . نـداء كـانط والـذى يرى أن نشر دستور مدنى عادل فى العالم أسـره هـو الواجب الأعظـم للنـوع البشرى ، ولابد أن هيجل هو إمام الرومانتيكيين وفقاً لسيادتكم .

بوبر : تماماً ، إن وجهة النظـر الرومانتيكيـة المضـادة هـى تقريبـا علـى النحو التالى : لا مناص من الحرب والعنف . هذا هو ما استخلصه هيجل مـن خبراته التاريخية . فاذا ذهبنا مع الفكرة التى تدعو الى تطبيق خبرات الماضى على المستقبل ، فلن يتبقى لدينا أى أمل : لقد أصبحت أسلحتنا أسـلحة فتاكـة ، إذ يحـل محـل حمامـات الـدم التـى مـا زال أباؤنـا يتذكرونـها حمامـات الإبـادة الكاملة للإشعاع الذرى .

شبيجل : ما الذى أحدثه اذن الانـهيار فـى أوروبـا الشرقيـــة - ضعـف اقتصادى بسبب سباق التسلح ، وفقر فكرى وشك فى المهام الخاصة ؟

بوبر : لقد حدثت أشياء كثيرة معاً : فتح المجريون حدودهم أمام لاجئى

ألمانيا الشرقية وأعلن جورباتشوف استعداده لاجراء اصلاح . لم يجد هذا الاصلاح الاقتصادى شيئا إذ لا يمكن اصلاح الاقتصاد من أعلى . لقد واكب هذا بوار فكرى . لقد تبقى من الماركسية كلام فارغ وصياغة واحدة ذات محتوى " إلغاء الرأسمالية Liquidiert den Kepitalismus " الرأسمالية الشيطانية التى لم يحدث لها وجود . لقد كان هذا هو ما حاول جورباتشوف فى الواقع تغييره .

شبيجل : هل تعنى المقامرة بموقف الصواريخ الذرية السوفيتية عام ١٩٦٢ فى كوبا فيدل كاسترو ؟

بوبر : لقد خطط خروشوف لهجوم مدمر على الولايات المتحدة : ولقد تراجع خروشوف عندما وجد الولايات المتحدة على إستعداد للهجوم . لقد كتب عالم الفيزياء الذرية أندريه زاخاروف فى كتابه " حياتى " قائلا : أنه بأقل تقدير ممكن ، فإن إنتاجه البالغ القوة - كما يسميه - يفوق قوة قنبلة هيروشيما بعدة آلاف من المرات . ولقد وصلت بالفعل من هذه القنابل ٣٦ قطعة الى كوبا . فاذا أحللنا الرقم ٣ محل هذه " العدة آلاف " ، فإن هذا يعنى أن ما وجد فى كوبا كان " ١٠٨٠٠٠ " قنبلة من قنابل هيروشيما : يجب أن نحاول تصور هذا . لقد ذكر جورباتشوف فى خطاب وداعه أن هناك ما يقرب من ٣٠٠٠٠ قنبلة من هذا النوع .

لقد أوضحت أزمة كوبا الهدف الذى كانت الماركسية تتجه الى تحقيقه ألا وهو محاولة تدمير الرأسمالية تدميراً عنيفاً باستخدام الأسلحة النووية . لا يجب علينا أن ننسى هذا . ولو كان الهجوم الروسى على أمريكا قد تم ، لما حدث تدمير لأمريكا فقط ، ولكن العالم بأسره كان سيطفو فى حمام الاشعاع الذرى رغم أن هذا كان سيستغرق سنوات صعبة .

شبيجل : ما الذى يدين به العالم لجورباتشوف . صاحب البرسترويكا والذى نراه الآن هو ذاته ضحية لها ؟

بوبر : يدين له العالم بالكثير . فلقد بدأ جورباتشوف يرى أمريكا بطريقة

تختلف كثيرا عن الطريقة التى كان سابقوه يرون بها أمريكا . لقد وضع جورباتشوف هذه الصياغة اللا ماركسية والشيقة " أريد لروسيا أن تصبح دولة طبيعية "، لقد أقترب جورباتشوف بهذا من فكرتنا عن دولة القانون . لقد أراد جورباتشوف تطبيع روسيا تطبيعا كاملاً : فنحن ندين له بهذه الفكرة الجديدة تماما ، إذ لم تكن روسيا حتى ذلك الوقت دولة طبيعية وهو ما يمكن استنباطه بوضوح تام من السيرة الذاتية لزاخاروف .

شبيجل : لم يجعل إنهيار الاتحاد السوفيتى ونهاية البروليتاريا العالم أكثر أمنا ولكن يجب علينا أن نناقش مسائل عودة شياطين القوميات والأسلحة الذرية الفتاكة ووجود الفقر .

هل هذه هى الأعداء الجدد للديمقراطيات الليبرالية ؟

بوبر : يجب أن يكون السلام اليوم هو هدفنا الأول ، إذ أن هذا صعب تحقيقه هذه الأيام فى عالم يحيا فيه أناس مثل صدام حسين وأمثاله من الدكتاتوريين . لا يجب أن نفزع من أن الحرب هى ما سيقود الى السلام وهى الحرب التى لا يمكن تجنبها فى ظروفنا الحالية . أنه أمر مؤسف ولكننا مضطرون لفعل ذلك إذا أردنا أن ننقذ عالمنا . فالقرار هنا ذو دلالة حاسمة .

شبيجل : هل تؤدى الحرب الى وقف استمرار إنتشار أسلحة الإبادة الشاملة ؟

بوبر : لا شئ هذه الايام أكثر أهمية من منع إنتشار هذه القنابل المجنونة التى يتم تداولها الأن بالفعل فى السوق السوداء . يجب على دول العالم المتحضر التى لم تصب بالجنون بعد أن تعمل سوياً . ومرة أخرى أقول: أن قنبلة واحدة من قنابل زاخاروف تكافئ عدة آلاف من قنبلة هيروشيما مما يعنى أن انفجار قنبلة واحدة من هذه القنابل فى دولة ذات كثافة سكانية عالية سيكلفها حوالى مليون من الضحايا بخلاف ضحايا الاشعاع الذرى الذين سيموتون تباعاً على مدار سنوات عدة . لا يجب علينا أن نقف مكتوفى الأيدى وننتظر فعل شئ بصدد هذا .

شبيجل : هل يجب على الأمريكان اذن مرة أخرى أن يتخذون خطوة ضد صدام متى ظهر لهم أنه يصنع هذه القنابل ؟

بوبر : ليس فقط ضد صدام . يجب أن يكون هناك فى مثل هذه الحالات شكل من العمل الجماعى للعالم المتحضر . لا معنى للوقوف فى مثل هذه الظروف موقفاً سلمياً . يجب أن نشن الحرب من أجل تحقيق السلام ولكن فى أقل صورة ممكنة بطبيعة الحال . وما دامت المسألة مسألة عنف فيجب منع إستخدام هذه القنابل بالعنف .

شبيجل : ما تقوله يبدو كما لو كان استراتيجيات البنتاجون التى تأمل فى وضع نظام جديد للعالم والتى يزعجها أيضا التنافس الاقتصادى بين اليابان وأوروبا .

بوبر : أعتبره عملاً آثماً أن نتحدث على هذا النحو : لا يجب علينا الخلط بين المسائل الاقتصادية وضرورة منع الحرب الذرية . يجب أن نبذل قصارى جهدنا فى الاشتراك بفاعلية مع أمريكا فهذه ببساطة هى ضرورة الموقف الحالى ، فالمسألة ليست أمرا تافهاً ولكنها مسألة تخص بقاء البشرية .

شبيجل :هل يجب على الغرب أن يساعد بوريس يلتسين ليحمى روسيا من السقوط فى نظام استبدادى يزداد سوءاً ؟

بوبر : أعتقد أننا يجب أن نساعد . نعم ليس من حق جورباتشوف أن يشكو فنحن ندين اليه بالكثير ولكنه قام بعملية تسليح إضافى . يجب أن يكون هناك شرط لمساعدتنا ألا وهو أن تعمل روسيا معنا – نحن الدول المتحضرة – على وضع هذه الأسلحة الفتاكة تحت السيطرة . فقط يجب على القوة العسكرية الروسية أن تشترك معنا .

شبيجل : وفقاً لقناعة سيادتكم ، نحن نعيش اليوم فى أفضل وأعدل المجتمعات التى وجدت حتى الآن ، ولكن لم تقدم الديمقراطية الليبرالية حتى الآن حلولاً مقنعة للقضاء على المجاعات الموجودة فى العالم الثالث أو للتلوث البيئى .

بوبر : بإمكاننا أكثر من مجرد إطعام العالم بأسره ، فالمشكلة الاقتصادية مشكلة محلولة : من وجهة نظر التكنولوجيا وليس من وجهة نظر اقتصادية .

شبيجل : ولكنك لن تختلف معنا أنه ما زال هناك فى انحاء كثيرة من العالم الثالث فقر عام .

بوبر : لا أختلف معكم . ولكن هذا يعود بصفة عامة الى الحماقة السياسية لقادة هذه الدول الفقيرة . لقد حررنا هذه الدول بسرعة ولكنها ما زالت ليست دول يحكمها القانون . مثلها فى ذلك مثل الطفل الذى ترك حضانة والديه .

شبيجل : هل الصراع الاقتصادى الآن إستمرار للحرب ولكن بوسيلة مختلفة ؟ تخشى أوروبا والولايات المتحدة أن تخسر حرب الخراف ضد اليابان .

بوبر : لا يجب أخذ هذه المسائل جميعها مأخذاً جدياً بل ولا يجب حتى مناقشتها ، فهذه الطريقة فى الحديث هى ما أطلق عليه الفهم التهكمى للتاريخ. يريد المفكرون أن يكونوا اصحاب فطنة وبصيرة بدلاً من أن يقدموا يد المساعدة . إن اليابانيين قوم متحضرون بالفعل . يمكن معهم اجراء حوار ولكن الحماقة موجوداً دائماً لدينا ولديهم بالطبع .

شبيجل : الحماقة – هل تعنى سيادتكم فى هذه الحالة خطط احتلال اقتصادى ؟

بوبر : نعم ، فاليابان لديها مشكلة كبيرة ألا وهى التضخم السكانى ، وهو ما يحكم أن نتحدث عنه فيما بعد . إن رجال الاعلام للأسف هم دائماً من يفهمون هذه الأشياء فهماً خاطئاً ويريدون خبراً مثيراً رغم أن لدينا ما يكفينا وأكثر من الأخبار المثيرة .

شبيجل : ليس الأمر بأسره من اختراع الصحفيين ، فتلك الحملة التى شنت فى الولايات المتحدة : " لا تشترى أى سلعة يابانية " تبرهن على وجود شعور عميق بالمواجهة .

بوبر : هذه المواجهة لا معنى لها . فالأمر بأسره ليس مهماً ، إذ ليست اليابان للوهلة الأولى دولة إمبريالية . نعم لديها من الصناعة ومن الامكانيات ما يجعلها تصنع أسلحة الإبادة الشاملة فى أى وقت ، ولكن اليابانيين يعرفون تماماً ما سيعنى هذا .

فمن وجهة نظرى لابد لأى إقتصاد قومى نظرى أن يصل بشكل ما الى التوقف ، سيظل قابعاً فى مشكلات الحاضر ولكن سائر المشكلات مشكلات قابلة للحل . لم يحدث حتى الآن أن مات مليونير وهو ثرى . ونحن جميعاً الآن فى المانيا بالمقارنة بزمن ما قبل الحرب - مليونيرات .

شبيجل : يسهم بشكل واضح الاستغلال الكبير لثراء الموارد الطبيعية فى تلوث النبات . فى كلمة واحدة : ثقب الأزون .

بوبر : نحن لا نعرف هذه الأشياء حتى الآن معرفة حقيقية . فقد تكون هذه الثقوب فى طبقة الأوزون قد وجدت بالفعل منذ ملايين السنين . فقد لا تكون وليدة العصر الحديث .

شبيجل : بعض العلماء البارزين يرون الأمر بطريقة مختلفة . فهم يعتقدون أن هناك علاقة بين تركيز الكلور والتأثير السئ فى طبقة الأوزون.

بوبر : ليس العلماء البارزون دائماً على حق . لا أعنى بهذا أنهم ليسوا على حق ولكنى أعنى أننا غالباً ما نعرف أقل مما نعتقد أننا نعرف .

شبيجل : نحن هنا بصدد موضوعات تختلف فيها سيادتكم تماماً مع حزب الخضر وهى الموضوعات التى تهاجمها أحيانا بشراسة . لماذا حقيقة؟

بوبر : ذلك بخصوص عدائهم الجنونى للعلم الطبيعى واساليب التكنولوجيا . هناك نواه لا عقلانية لدى حزب الخضر وهو ما يؤدى تماماً الى عكس ما يزعمون أنهم يريدونه . بالاضافة الى هذا فإنهم يريدون السلطة كما أنهم منافقون وهى الصفة التى يزعمون أنها لأعدائهم .

تقوم كوارث البيئة على الإنفجار السكانى ، وهى المشكلة التى يجب أن نحلها حلاً أخلاقياً. لا يجب أن يظهر فى العالم سوى الأطفال المرغوب فيهم.

شبيجل : كيف تريد تحقيق ذلك ؟ هل عن طريق قوانين حكومية مثلما هو حادث فى الصين ؟

بوبر : ليس عن طريق أوامر حكومية ولكن عن طريق التربية . الأطفال غير المرغوب فيهم معرضون للخطر بل ومن الناحية الأخلاقية . يجب أن يتوفر لدى هؤلاء الذين لا يريدون أطفالاً الوسيلة لمنع إنجابهم ، والوسيلة موجودة الآن وأعنى بها حبوب الإجهاض .

شبيجل : هذا هو تماماً ما يرفضه البابا والكنيسة الكاثوليكية .

بوبر : سيتراجع البابا والكنيسة عن موقفهما متى قدمنا لها مبررات أخلاقية مقنعة . والمبررات كما اراها هى مثل الاغتصاب وإنجاب أطفال يحملون مرض الايدز أو أطفال فى بلاد فقيرة لا تتوفر لديهم فيها فرصة الحياة على ظهر الأرض . إنها جريمة ألا نساعد هؤلاء الأطفال وذلك بمنع إنجابهم . هنا ستتراجع بل ويجب أن تتراجع الكنيسة عن موقفها ولكنها فقط مسألة وقت .

شبيجل : نريد الآن أن نتحدث مع سيادتكم فى بعض المسائل التى تخص المانيا . فألمانيا القوية المتحدة مرة أخرى اثرت فى تغيرات ميزان القوى فى أوروبا . هل هناك ما قد يزعج الجيران ؟

بوبر : هناك بالطبع . فالوضع الحالى فى المانيا - سياسياً وأخلاقياً - أفضل بكثير مما كنا نأمل . ولكننا لا نعرف ما قد يأتى به المستقبل . هناك معضلة فى رفاهية الانسانية : تقوم رفاهية الانسانية على حذر حقيقى ضد بعض المخاطر ولكن هذه الرفاهية تدمر الحذر أيضاً . تتحول الحرية بسهولة الى شئ بديهى . وهو ما يعنى أن يصبح الانسان مرة أخرى دكتاتورا وهو ماحدث مع يورج هايدر فى النمسا .

شبيجل : لا يكاد الانسان يستطيع أن يقول هذا . لابد أن سيادتكم تعنى أن الناس هناك فى النمسا منبهرون بهايدر .

بوبر : نعم ولكن هذا يتعلق بفساد تعليمهم .

إن هتلر هو مثال هايدر فهو يتمنى ان يفعل ما فعله هتلر

شبيجل : ولكنه لا يقول هذا صراحة . على كل حال

بوبر : ولكنه يقول بصراحة ما يكفى لاستنتاج هذا . نعم أنه يقول هذا لمن يريد أن يسمعه .

شبيجل : لقد عاشت ألمانيا نظامى حكم مختلفين تماما لمدة ٦٠ عاما. أما الأن فقد تم التغلب والقضاء على هذه الدولة البوليسية . كيف ترى الأن هذا الخطأ السياسى الذى ارتكب ؟ هل من الممكن أن نكون قضاة أخلاقيين ؟

بوبر : نعم يمكننا أن نكون قضاه أخلاقيين لمجموعة القادة السابقين لألمانيا الشرقية ، فأن نأتى بهونكر Honecker [1] الى ساحة القضاء أمراً أعتبره فى غاية الأهمية .

شبيجل : سيادتكم إذن لا تطلب عملية تطهير شاملة ، ولكن أن تتم محاسبة البعض ممثلين فى ذلك الكل ؟

بوبر : نعم من المهم بمكان أن نأتى الى ساحة القضاء بأقل عدد ممكن ، وألا ينطوى فعلنا هذا على انتقام أو أى شئ من هذه الأشياء الفظيعة التى إرتكبت .

شبيجل : وبدون تعصب .

بوبر : نعم وبدون تعصب . فالمحكمة يجب أن تتصرف بحذر بالغ ، إذ يجب أن تقتصر المحاكمة على الجرائم التى إرتكبها القادة السابقون بحيث لا يتجاوز عددهم ١٥٠ شخص . لا يجب أن نتجاوز هذا المدى والا لكان فى ذلك تبسيط مخل بالأمور .

شبيجل : أى أن سيادتكم لا تبغى محاسبة أتباعهم ، إذ لم يعد الناس اليوم أبطالاً ولكنهم يحيون فى مجتمع كلى واحد لكى يستطيعون أن يحيون حياة أكثر طبيعية ؟

---

(١) هونكر E. Honecker ، (١٩١٢ – ......) كان يشغل منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى ألمانيا الشرقية .

بوبر   هذا صحيح   لا يجب بل لا يمكننا أن نؤذى هؤلاء الأتباع ، فلقد كان الخوف هو المتحكم فى قدر كبير من تصرفاتهم ، وهذا هو اسلوب الإرهاب ، إحداث الرعب والخوف ، تبدأ البطولة عادة متى أرغم شخص ما على إتيان أفعال الشر والدناءة . هنا يجب أن يكون الإنسان عندئذ بطلاً ويفعل العكس .

شبيجل : يرى " فرنسيس فوكوياما [(١)] Fracis Fukuyama الفيلسوف المحافظ والذى يعد ابرز من يسلط عليه الأضواء فىأمريكا هذه الأيام – أنه بإنتهاء الصراعات الأيديولوجية الآن وفى الإنتشار العالمى للديمقراطية الليبرالية – نهاية التاريخ – فبإنتصار الديمقراطية وصلنا الى آخر نقطة فى التطور الطبيعة الايديولوجى للإنسانية .

بوبر : هذه عبارات حمقاء . لا وجود لعجائب فلسفية . ثم أن ماركس أيضاً على اية حال قد ذهب الى أنه " بالثورة الأشتراكية " تتحقق نهاية التاريخ من حيث أن التاريخ ليس سوى تاريخ صراع بين طبقات .

شبيجل : لدى فوكوياما هناك شخص بارز رغم أن سيادتكم لم تعطه تقديراً خاصاً ألا وهو هيجل بنظريته عن العملية التاريخية التى تصل الى هدفها فى سلسلة من النقائض بتحقق الحرية على ظهر الأرض .

بوبر : بالطبع . نعم يقول هيجل هذا ، إذ أنه يرى فى التاريخ تاريخاً للسلطة ، نعم لقد كان التاريخ فى قدر كبير منه على هذا النحو . لم تكن كتبنا التاريخية أعمالاً يمثل التطور العقلى للبشرية فيها الموضوعات الأساسية ولكنها أعمالاً تروى تاريخ السلطة .

أمر بديهى أننا فى حاجة الى نهاية للتاريخ ، نهاية لتاريخ السلطة . لقد جعلت الأسلحة هذه الحاجة حاجة ضرورية . لقد كانت دائماً ضرورة أخلاقية

---

(١) صاحب كتاب " The End of History and the Last Man " 1992 الذى نال به شهرته حين أعلن فيه نهاية التاريخ كعملية تطور وذلك بالوصول الى الديمقراطية الليبرالية .

ولكنها قد اصبحت اليوم مع تضخم الأسلحة ضرورة حياتية .

شبيجل : لقد كتبت سيادتكم قبل هيروشيما أن الانسان سختفى يوما ما من على ظهر الأرض .

بوبر : لم لا ؟ هناك مخاطر لا يمكن توقعها . فكما نموت جميعا ، من المحتمل أيضاً أن تموت الانسانية ، فقد نهلك يوما ما جميعا بمجموعتنا الشمسية ، ولكن لا معنى للحديث أو للتفكير فى مثل هذه الأمور . ربما تعنى ما قلته قبل ظهور مرض الأيدز من أن ميكروبا ما سيلتهمنا ، وهو ما قد يحدث بسرعة جداً فى أى وقت . ولكنه قد تمر آلاف أخرى من السنوات قبل أن يحدث هذا .

شبيجل : مرة أخرى ، لا وجود إذن لقانون يحكم التقدم . لا وجود لنقطة نهاية منطقية .

بوبر : لا وجود لهذا . لا وجود فعلى سوى لمسئوليتنا الضخمة. لا يجب أن نكون أفظاظاً ، فأن نسمح على سبيل المثال بولادة أطفال يحملون مرض الايدز أمر لا أستطيع ببساطة أن أفهمه " . لا فظاظة " يجب أن يكون أيضا هو موقف الكنائس الأول من الحياة .

شبيجل : الأستاذ بوبر . وأنت اليوم على مشارف التسعين كنت ومازلت تصف نفسك بأنك متفائل ونلاحظ أن حديثك اليوم تشوبه نقاطاً كثيرة فيها مسحة من التشاؤم . هل هذه خبرات جديدة فى مغرب الحياة ؟ .

بوبر : التفاؤل واجب ، فعلى المرء أن يركز فى الأمور التى يجب أداؤها والمسئول عنها . لقد كان غرض ما قلته فى هذا الحديث أن أوصلك أنت وغيرك الى أن تبقى دائماً على حذر ، يجب أن نحيا من أجل أن نجعل حياة الأجيال القادمة بقدر الامكان أفضل من حياتنا وذلك ليس فقط من الناحية الاقتصادية .

شبيجل : الاستاذ بوبر . نشكر سيادتكم شكراً جزيلا على هذا الحديث

المقالة الخامسة عشر

آراء حول انهيار الشيوعية

محاولة لفهم الماضى من أجل تشكيل المستقبل

Gedanken über den Kollaps des Kammunismus Ein versuch, die Vergangeüheit Zu verstehen, um die Zukunft zu gestalten

محاضرة ألقيت يوم ٦ مارس ١٩٩٢ فى سيفيليا Sevilla

تماما مثلما قد يكون حضراتكم إستنتج بالفعل من عنوان هذه المحاضرة، فأنا عدو للماركسية ، إن هجوم الماركسية على حضارتنا الغربية هو موضوع حديثى هذا ، تمثل ثورة لينين وتروتسكى ١٩١٧ [1] بداية هذا الهجوم ، لقد عاصرنا جميعاً كشهور عيان نحن المجتمعون هنا - انهيار الماركسية .

قد يكون قليل منا فقط هنا من الكبر فى العمر بحيث يمكنه أن يعرف من خبرته الشخصية إلام إنتهت سائر مشاكلنا . ولكنى أنتمى لهؤلاء الذين مازالوا على قيد الحياة والذين يتذكرون جيداً ذلك اليوم الثامن والعشرين من يونيو ١٩١٤ ، اليوم الذى إغتيل فيه - إرسرسوج فرانز فرديناند Erzherzog Franz Ferdinand النمسوى - فى سراييفو [2] . ومازلت حتى اليوم اسمع صوت صغار الصحفيين وهم يقولون " إن الفاعل شخص من الصرب " وما زلت أتذكر أيضا جيداً إندلاع الحرب العالمية الأولى يوم ٢٨ يوليو ١٩١٤ (كنت أبلغ وقتها الثانية عشر من عمرى) . ولقد علمت وقتها بإندلاع الحرب عن طريق خطاب من والدى وكذلك من الاعلان الذى وضعه القيصر فرانز جوزيف على لوحة كبيرة " الى شعبى " . وكذلك أتذكر بوضوح ذلك اليوم من عام ١٩١٦ الذى كانت النمسا وألمانيا ستخسر الحرب التى كانت من تدبيرهما . وأتذكر ذلك اليوم فى مارس ١٩١٧ الذى أعلنت فيه الثورة الديمقراطية فى روسيا . أتذكر الانقلاب الذى قام به لينين ضد حكومة كرنسكى Kerenski ثم إندلاع الحرب الأهلية فى روسيا ، وأتذكر معاهدة برست - ليتوفسل Brest - Litowsk للسلام التى عقدت فى مارس ١٩١٨

---

(١) ثورة ١٩١٧ هى الثورة البلشفية أو الثورة الروسية . يعد فلاديمير لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) وليون تروتسكى (١٨٧٩ - ١٩٤٠) من أبرز قادة هذه الثورة . اسس الأول الى جانب قيادته للثورة الحزب الشيوعى الروسى ، أما الثانى فقد شغل بعد الثورة منصب وزير الشئون الخارجية ووزير الحرب (١٩١٧-١٩٢٤) .

(٢) يعد مقتل الدوق فرديناند بداية الحرب العالمية الأولى والتى أدت الى انهيار الأمبراطورية النمساوية .

بين المانيا وروسيا لينين وتروتسكى وأتذكر إنهيار الامبراطورية الألمانية والنمساوية فى أكتوبر ١٩١٨ والتى بها إنتهت الحرب العالمية الأولى ، تصبح هذه الحوادث ضمن أكثر الحوادث - التى أستطيع تذكرها - دلالة وضمن الحوادث التى ألقت بالبشرية جمعاء على حافة الإبادة العامة .

يجب على فى محاضرة قصيرة أن أقوم بعملية تبسيط جذرى : أن أقوم برسم صورة التاريخ كما أراه بفرشاة عريضة والوان واضحة .

قبل الحرب العالمية الأولى كان التصنيع فى أوروبا الغربية ، المانيا وفى شمال أمريكا من الممكن أن يؤدى مباشرة الى مجتمع ليبرالى حقيقى . بل لقد عرفت هذه البلاد بالفعل الحرية والإنتعاش الاقتصادى الضخم الذى تمثل فى حدود مفتوحة ، وإلغاء لجوازات السفر ونقص الجرائم وأعمال العنف ، مستوى تعليمى وثقافى مرتفع بصورة مستمرة ، أجور مرتفعة ثم رفاهية فى الحياة ، كما أدى التقدم التكنولوجى الى تخفيف فى الأعمال اليدوية الثقيلة . لقد قضت الحرب العالمية الأولى التى شنتها المانيا والنمسا على كل هذا وأظهرت أنه لم يعد هناك ثقة بأشكال الحكومات التى سمحت بتدبير الحرب . واليوم نرى أنفسنا نواجه نفس المشكلة .

لم تكن هزيمة القوى المحاربة الثلاث - المانيا والنمسا وتركيا - فى نهاية الحرب العالمية الأولى هزيمة من الخارج فقط ، فلقد حدث فى الداخل - خاصة فى النمسا - ثورة دموية لم تكن بتأثير الثورة الروسية ، بل وأهتزت ايضا أسس نظام قوتين من القوى المنتصرة - فرنسا وايطاليا . فقط بريطانيا والولايات المتحدة استمرتا فى نهج الاصلاح الليبرالى الذى كانتا قد بدأته قبل الحرب ولكنه لم يحدث سوى بعد أن توقف صراع الجنرالات فى انجلترا الذى حاول - بتأثير جزئى من روسيا - اقامة ثورة .

لقد كان لمثال الدولتين الناطقتين بالانجليزية - بلا شك - تأثير ثابت بغض النظر عن انهيار البورصة والأزمة الاقتصادية العالمية .لقد كانت انجلترا عام ١٩٣٥ أفضل دولة صناعية أوروبية رأيتها فى حياتى رغم

البطالة ورغم تهديد هتلر لها : فكل عامل وكل سائق لمركبة من مركبات النقل العام وكل سائق تاكسى ، وكل رجل شرطة كان يحق سيداً كاملاً. ولكن أدى انتصار الماركسية فى روسيا والمبالغ الضخمة التى تم انفاقها على الدعاية ولغرض تنظيم الثورة العالمية الى تقسيم الغرب تقسيماً سياسياً جذرياً الى يسار ويمين . لقد مهد هذا التقسيم الطريق الى ظهور الفاشية - فى ايطاليا أولا تحت حكم موسولينى - وهى السياسة التى انتهجتها حركات فاشية فى بلاد أوروبية أخرى - فى المانيا والنمسا بصفة خاصة ، كما أدى الى حدوث حرب أهلية فى مناطق معينة - حرب أهلية من جانب واحد من حيث أنها كانت تشب دائما من قبل إرهابيو اليمين .

لقد اصبح الوضع إذن على النحو التالى : اصبح الشرق - وبصفة خاصة الاتحاد السوفيتى - تحكمه دكتاتورية لماركسية منعدمة الضمير تقوم على ايديولوجية قوية وعلى ترسانة حربية لم يكن لها مثيل من قبل . من هنا أصبح الغرب بصورة دائمة مهدداً بعنف ممكن (ولكن نادراً ما كان واقعياً) من جانب قوى اليسار القوية التى كانت خاضعة لتأثير الأحزاب الماركسية والدعاية التى مارستها السلطة فى روسيا وكذلك للأمل الذى كان يحدوها فى مجتمع اشتراكى وهو ما أدى باليمين إلى عنف مضاد وأدى إلى تقوية الفاشيين . وهى الفاشية التى استسلم لها كل من المانيا والنمسا والجزء الجنوبى من أوروبا أو سقطوا ضحية لها .

لقد وصل تقسيم العالم الى قطبين الى أقصى حد له فى الحرب الأهلية الرهيبة التى حدثت فى اسبانيا [1] والتى لم تكن بالنسبة للروس ولنازيى ألمانيا آخر تجربة فى شن الحرب الحديثة .

---

(١) وهى الحرب التى أندلعت عام ١٩٣٦ بين الجمهوريين والقوميين الذين كان يقودهم فرنسيسكو فرانكو الذى كان يتلقى أسلحة ومساعدات من كل من هتلر وموسولينى بينما كان الجمهوريون يتلقون المساعدات من الاتحاد السوفيتى . أنتهت الحرب عام ١٩٣٩ بإنتصار القوميين وأصبح فرانكو رئيساً للدولة حتى وفاته ١٩٧٥ .

بل ولقد وجدت حتى فى فرنسا وبريطانيا أحزاب فاشية ، رغم ادعاء هاتين الدولتين ودول الشمال الصغيرة بأنها تمارس الديمقراطية .

فى هذا الوضع الذى كان سائداً قبل الحرب التى شنها هتلر ضد الغرب ذهب المفكرون الى أن الديمقراطية ليست سوى مرحلة تحول فى تاريخ البشرية وتنبؤوا بقرب نهايتها . لقد بدأ بالمصادفة كتابى " المجتمع المفتوح وأعداؤه " بهجوم على هؤلاء الناس وعلى طريقة التنبؤ التاريخى الفاسدة هــذه .

ثم شن هتلر الحرب العالمية الثانية وخسرها بفضل رجل واحد هو ونستون تشرشل ، فإليه يعود الفضل فى توثيق التحالف بين الديمقراطية الغربية وروسيا والى هزيمة هتلر وأعوانه . ومع هذا فقد كانت إحدى نتائج هذه الحرب ، أن قوى اليسار أصبحت أقوى فى التقسيم العالمى الى يسار ويمين . نعم لقد إنهزمت الفاشية بفضل هزيمة هتلر وموسولينى ولكن نشأت الحرب الباردة الأكثر تهديداً بين الشرق والغرب . وبينما انصهر الشرق معاً فى وحدة واحدة تحت القبضـــة الحديديـة للدكتاتوريـة الشيوعية انقسمت الديمقراطيات الغربية فيما بينها إنقساماً لم يحدث لها من قبل ، وذلك عن طريق اليسار المدفوع والمدعوم بواسطة روسيا الذى اثار القلاقل حتى فى الشرق الأوسط بل وفى العالم بأسره ضد ما يسمى بدول الغرب الرأسمالية .

ورغم كل شئ فقد لقت الديمقراطيات الحرة - المجتمعات المفتوحة ثمار النصر . فلم تكن هى التى إنهارت بسبب توترها الداخلى الضخم الذى كانت تناقشه بنفسها بين الحين والأخر . ما انهار كانت الديكتاتورية الشيوعية فى المانيا الشرقية المنغلقة تماماً على نفسها تماماً وهوت الأمبراطورية السوفيتية المتحدة القوية الى القاع .

سيداتى سادتى ، حاولوا من فضلكم أن ترون معى أى التوترات الهائلة تلك التى استطاعت الديمقراطيات أن تجتازها (تتغلب عليها) . أؤكد لحضراتكم أن ما صمدت هذه الديمقراطيات أمامه كان أكبر إمتحان يمكن

لتجمع قوى سياسية أن تواجهه . لقد كان تجمع القوى السياسية هذا ارتباطا ضعيفاً بين شعوب ديمقراطية ، لقد كانت كل قوة ممزقة من الداخل ومهددة من الخارج من قبل قوى خارجية كبرى وهو ما عمق من توتراتها الداخلية . كانت لكل قوة على حدة مشكلات كبرى خاصة بها يجب عليها حلها ، مشكلات خاصة يصعب على تجمع القوى فهمها . كانت كل قوة " منزلا ein Haus " له خلافاته الداخلية الخاصة وتهدده قوى كبرى خارجية . ومع هذا فقد صمدت هذه " المنازل " ، هذه المجتمعات المفتوحة ، إذ كانت مجتمعات مفتوحة .

أما المنزل المغلق على نفسه والذى كانت تربطه سلسلة حديدية فقد إنهار على نفسه وتفتت الى أجزاء .

لقد إنتصرت اذن المجتمعات المفتوحة وانهزمت الامبراطورية السوفيتية ولحسن الحظ أن هذا قد حدث دون أن تنطلق رصاصة واحدة من الشرق أو الغرب ، حتى الآن على الأقل . ولكن لسوء الحظ حدث وما زال يحدث إراقة دماء بين الدول التى كانت أعداءنا السابقين . ورغم أننا أنفسنا نعانى من أزمة اقتصادية كانوا هم سببها ، فإننا الآن نساعدهم فى معاناتهم وبؤسهم الذى جلبته اليهم الماركسية .

أستطيع أن ألخص نظريتى عن هذه الأحداث الكبرى والدالة والتى نشهدها بدءاً من ١٩٨٩ والتى لم تظهر لها نهاية بعد . نظريتى عن المرض الذى أدى الى موت الماركسية فى العبارة التالية : لقد ماتت الماركسية بسبب الماركسية Der Marxismus ist am Marxismus gestorben .

يمكن التعبير عن هذه الصياغة على نحو أدق على النحو التالى ، لقد ماتت السلطة الماركسية لفقر النظرية الماركسية ، قد تكون النظرية الماركسية -الأيديولوجيا - الماركسية- نظرية معقولة ولكنها تعارضت مع وقائع التاريخ والحياة المجتمعية . فالأمر يتعلق بنظرية خاطئة جداً ونظرية غير ملائمة بدرجة كبيرة .. لقد كانوا يحاولون مداواة أخطاء النظرية الكثيرة

بأكاذيب صغيرة وكبيرة ، أكاذيب لاعدد لها . لقد تحولت الممارسات الوحشية للسلطة السياسية والأكاذيب التى يساندها العنف الى أن أصبحت بالفعل العملة العقلية المعتادة للطبقة الشيوعية المتحكمة فى روسيا والتى تدعمها القوة الدكتاتورية وكذلك العملة العقلية المعتادة للطبقة الطموحة .

لقد تحول هذا العالم من الأكاذيب الى فجوة عقلية سوداء . وكما تعرفون لقد تمتعت الفجوة السوداء بقوة غير محدودة على التهام كل شئ وتدمير كل شئ . ولقد انطمس التمييز بين الحقائق والأكاذيب ، والتهم الفراغ العقلى نفسه فى النهاية مما أدى الى موت الماركسية بسبب الماركسية ، بل لقد ماتت قبل ذلك بزمان ، ومع هذا – وهو ما أخشاه – ما زال الملايين من الشرق والغرب يتمسكون بالماركسية . وكما حدث حتى الآن فإنه من الممكن أيضاً أن يحدث فى العالم الواقعى : أن يتم تجاهل الوقائع . بهذا اصل الى نهاية الجزء الإفتتاحى من محاضرتى .

ينقسم الجزء التالى الآن الى قسمين . الجزء الأول عرض مختصر ونقد للماركسية ، أما الجزء الثانى فمحاولة لتوضيح كيف يمكن الاستفادة من الوضع الحالى فى تحسين حياتنا وذلك عن طريق اجراء اصلاح سياسى . اصلاح الديمقراطيات الحالية . لا أعنى بهذا الاصلاح تغيير مؤسساتنا ولكنى أعنى به فقط تغيير موقفنا .

ربما جاء الجزء الافتتاحى من محاضرتى شديد التجريد شيئاً ما . من هنا يبدو لى من الأفضل أن اضيف اليه بعض الملاحظات لكى يأخذ شكل سيرة ذاتية بدلاً من الاستمرار على نفس الطريقة التى عرضتها والتى قد تكون ارهقتكم وذلك قبل أن أعرض النظرية الماركسية وتفنيداتها النقدية .

لهذا سأحاول أن أجعل محاضرتى حية بشكل ما بأن أقص على حضراتكم شيئاً من فترة شبابى : كيف إعتنقت الماركسية – أو كنت على وشك اعتناقها وكنت تحولت بعد ذلك بقية حياتى الى عدو لها ، فذلك كله حدث قبل أن أبلغ السابعة عشر من عمرى فى الثامن والعشرين من يوليو

عام ١٩١٩ .

لقد كان والدى من إتباع مذهب المسالمة وذلك قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة كان والدى يعمل بالمحاماه وكان ليبراليا ومثقفاً جداً ومتأثراً بفلسفات امانويل كانط وفيلهلم فون هامبلدت وجون ستيوارت مل . ولقد حدث أن إنشغلت لأول مرة بمشكلة الحرية السياسية أثناء الحرب العالمية الأولى وكنت وقتها فى الرابعة عشر أو الخامسة عشر .

وبينما كنت أمعن التفكير - يحدونى الأمل - فى السلام والديمقراطية جاءنى إقتناع مفاجئ بأن الديمقراطية لا يمكن تحقيقها تحققاً فعلياً ، إذ فى نفس اللحظة التى تستقر فيها الديمقراطية ، يبدأ المرء فى التفكير فيها كما لو كانت أمراً بديهياً . هنا تتعرض الحرية للخطر ، إذ لن يسعى الناس اليها وسيهتمون بما لا يمكنهم أن يتصوروه وهو ما الذى يمكن أن ينتج عن فقدانها : فقد يكون الإرهاب أو الحرب .

ورغم هذا الادراك جذبنى الحزب الشيوعى اليه والذى كان يزعم فى ذلك الوقت انه حزب الحرية وذلك إبان معاهدة برست - ليتوفسك للسلام فى مارس ١٩١٨ . ولقد كثر الحديث فى تلك الأيام قبل نهاية الحرب العالمية الأولى عن السلام ، ولكن لم يكن هناك أحد بخلاف الشيوعيين على استعداد للتضحية من أجل تحقيقه وهو ما كان تروتسكى يأمل فيه فى معاهدة برست - ليتوفسك للسلام . لقد كانت هذه هى مهمته فى بقية العالم . لقد استمعت الى هذه المهمة بإرتياح شديد رغم أننى لم اشعر أبداً بالأسف تجاه البلاشفة والذين كثيراً ماقص على صديق روسى أكاذيبهم التى اعتادوها ومظاهر تعصبهم .

لقد حدث بعد انهيار الامبراطورية الألمانية والنمساوية أن أثرت -لأسباب مختلفة - ألا أذهب للمدرسة أكثر من هذا وأن استعد لإمتحان القبول بالجامعة ولم يمر وقت طويل حتى قررت أن أجرب بنفسى ما الذى يدعو اليه الحزب الشيوعى هذا . كان هذا على وجه التقريب فى ابريل ١٩١٩ عندما ذهبت الى مركز الحزب وعرضت عليهم أن أعمل كساع . لم

أكن وقتها على دراية كبرى بالنظرية الماركسية ، ورغم أنى كنت وقتها أصغر من أن أصبح عضوا فى الحزب فلقد فتح لى المسئولون أذرعهم وعرضوا على سائر الأعمال الممكنة . كنت غالباً ما أحضر اجتماعاتهم غير السرية - وهو شئ جدير بالذكر - وهو ما جعلنى أتعرف على الكثير من طريقة تفكيرهم . لم يحدث سوى فى حالات ضرورية قليلة جدا أن خالفت مصيدة الفئران الايديلوجية الماركسية هذه (وهو الاسم الذى أعطيته لها فيما بعد) . كنت فى ذلك الوقت مدفوعاً بشكل قوى بما كنت أعتبره واجبى الأخلاقى . وهو ما كان سيؤدى بى الى الطامة الكبرى .

أريد الآن أن اصف هذه الحالة اليديولوجية وأن أسرد بعد ذلك كيف فررت منها : حادثتان بارزتان حسمتا هذا الأمر : الأولى كانت صدمة أخلاقية أنزلتها بى حادثة فظيعة والثانية كانت بشاعة أخلاقية هائلة .

للنظرية الماركسية أو الأيديولوجيا الماركسية جوانب كثيرة ، ولكن يكمن أهمها فيما يلى : النظرية الماركسية نظرية تاريخية ، تزعم بأنه يمكنها التنبؤ بيقين مطلق وعلمى فى نفس الوقت بمستقبل البشرية . بتعبير أدق : تزعم الماركسية بأنه بإمكانها التنبؤ بالثورات الاشتراكية مثلما يمكن لعلم الفلك النيوتونى أن يتنبأ بخسوف للقمر وكسوف للشمس . لقد أسس ماركس نظريته على الفكرة الأساسية التالية : **ليس تاريخ المجتمعات حتى الآن سوى تاريخ صراع بين طبقات .**

لقد أعلن ماركس عام ١٨٤٧ لأول مرة فى كتابه بؤس الفلسفة أن صراع الطبقات يجب أن يتوج فى النهاية بثورة إشتراكية والتى تؤدى الى قيام مجتمع لا طبقى أو مجتمع شيوعى . لقد كانت حجته موجزة جداً : بما أن الطبقة العاملة (طبقة البروليتاريا) هى الطبقة الوحيدة المقهورة مثلما كانت من قبل وهى الطبقة الوحيدة المنتجة ، بالاضافة الى أنها تمثل الأغلبية، فأنها يجب بالضرورة أن تنتصر . يجب أن يؤدى انتصارها الثورى هذا الى القضاء على سائر الطبقات الأخرى ومن ثم الى مجتمع لا وجود فيه سوى

لطبقة واحدة . هذا المجتمع ذو الطبقة الواحدة هو مع هذا مجتمع لا طبقى أو مجتمع لا وجود فيه لطبقة مقهورة أو طبقة سائدة ، فهو مجتمع شيوعى كما أوضح ذلك ماركس وانجلز بعد ذلك بعام فى المانيفستو الشيوعى الذى أخرجاه .

وبما أن التاريخ ليس سوى تاريخ صراعات بين طبقات فإنه يعنى أنه بتحقيق الشيوعية ينتهى التاريخ ، لن يكون هناك حروب أخرى ، صراعات أخرى ، عنف أخر أو قهر آخر ، وستنتهى سلطة الدولة . وهو ما اذا عبرنا عنه بالتصورات الدينية نقول : ستتحقق الجنة على الأرض .

فى مقابل هذا لم يكن المجتمع الموجود وقتها - والذى أطلق عليه ماركس المجتمع الرأسمالى - وفقا لمذهبه سوى مجتمع تتمتع فيه الرأسمالية بالسيادة التامة ، ألا أنه مجتمع دكتاتورية الطبقة الواحدة . لقد بين ماركس فى عمله الضخم " رأس المال " - الذى جاء فى ثلاثة مجلدات من ١٧٤٨ صفحة- أن عدد الرأسماليين - وفقا لقانون تركز رأس المال - يتناقص بإستمرار ، بينما يجب أن يتزايد فى المقابل عدد العمال . وفقاً لقانون لآخر مماثل ألا وهو قانون الإفتقار المتزايد ، فان حالة العمال تسوء بإستمرار ، فهم يزدادون فقراً ويزداد أصحاب راس المال ثراء . يجعل بؤس العمال غير المحتمل من هؤلاء العمال ثواراً راديكاليين على وعى بمصالحهم الطبقية . ثم يتحد عمال العالم بأسره ومن ثم تؤدى الثورة الاشتراكية الى تحقيق النصر، تنهار الرأسمالية ومعها رؤوس الأموال ويتحقق السلام على الأرض.

فقدت نبوءة ماركس كل ثقة فيها على مدار التاريخ ولم يعد الماركسيون فى الغرب يتبنون هذه الفكرة وذلك رغم أنهم ينادون وبنجاح بالنظرية القائلة بأننا نعيش فى عالم رأسمالى لا إنسانى ، عالم متدهور ومنحط أخلاقياً . وعلى أية حال لقد كانت الماركسية فى سنوات الجوع والشظف - سنوات الحرب العالمية الأولى والسنوات التى تلتها والتى كانت أشد سوءاً - محط ثقة الكثيرين ، حتى أن بعض المشاهير من علماء الفيزياء والبيولوجيا

اعتنقوها ، فأينشتين نعم لم يكن ماركسياً . من حيث أنه كان على وعى بأن نظرياتها لم تكن كافية ، ولكن من المؤكد أنه كان متعاطفاً معها بل وكان معجباً بها . أما بعض العلماء البريطانيين البارزين ونذكر من بينهم هلدن J.B.S. Haldane [1] وبرنال J.D. Bernal [2] فقد كانوا أعضاء فى الحزب الشيوعى . ما جذبهم فى النظرية الماركسية لم يكن سوى الدعوى التى أطلقتها بأنها علم تاريخى . فلقد أعلن العالم " برنال " وذلك قبل وفاة ستالين بفترة قصيرة ، بأن ستالين أعظم عالم موجود على قيد الحياة بل وأنه واحد من أعظم العلماء الذين وجدوا على مر التاريخ . يمكن أن نعطى هنا مثالاً واحداً فقط لنبين به كيف كان المقصود من هذه الدعوى أن ترقى الى مرتبة العلم . لقد كان هناك كتاب لألكسندر فايسبرج A. WeiBberg وهو عالم فيزيائى من فيينا ، كنت أعرفه معرفة جيدة وإن كان فى ذلك الوقت متوفياً . لقد ذهب هذا العالم عام ١٩٣١ الى روسيا مؤيداً ومتحمساً لستالين والذى قام بسجنه عام ١٩٣٦ ضمن من سجن فى عملية التطهير الكبرى التى قام بها . تعرض هذا العالم لعمليات التعذيب بصورة متكررة وظل يكابد السجن فى ظروف قاسية الى أن جاءت معاهدة هتلر - ستالين ١٩٣٩ والتى بمقتضاها قام ستالين ببيعه هو وغيره من الشيوعيين الألمان والنمساويين لهتلر - والتى كانت بلا شك أحقر صفقة حدثت فى التاريخ - تم وضع ألكسندر فايسبرج مع غيره فى معسكرات هتلر ومن هناك حاول الهرب أكثر من مرة ولكنه فى كل مرة كان يتم القبض عليه وأعادته مرة أخرى الى أن حررته القوات الروسية ١٩٤٥ ضمن من حررت . كتب فايسبرج فى نهاية كتابه الشيق للغاية هذا والذى حكى فيه عن سنوات المرارة التى قضاها فى

---

(١) جون سكوت هلدن (١٨٦٠ - ١٩٣٦) عالم فسيولوجى وفيلسوف انجليزى مشهور بتوضيحه لعملية تبادل الغازات أثناء التنفس .

(٢) جون برنال (١٩٠١ - ١٩٧١) عالم انجليزى مشهور بدراساته للتركيبات الذرية للمكونات الصلبة .

سجون ستالين أنه ما زال يؤمن بنظرية التاريخ الماركسية . ولقد قابلته فى لندن ١٩٤٦ ولقد أعتقدت أنه لابد أنه تخلص من اعتقاده هذا ، ولكن عندما ظهر كتابه هذا ١٩٥١ فى ألمانيا وقابلته بعدها بسنوات لآخر مرة قبل وفاته كان ما زال يؤمن بنظرية التاريخ الماركسية إلا أنه كان يرى فقط أنها فى حاجة الى بعض التعديلات . ولقد حاولت بالطبع أن اردة عن إعتقاده هذا ، ولكن هل افلح فيما لم تفلح فيه سجون ستالين ؟ .

أريد أن أذكر أيضاً ثلاثة أشخاص آخرين ممن كانوا أيضاً مؤمنين بالماركسية وكانوا فى نفس الوقت علماء بارزين – أذكر أولاً الزوجين – عالمى الطبيعة الشهيرين – جوليوت وكورى – إيرينا ابنة مدام كورى وزوجها فريدريك جوليوت Joliot والذين حصلا معا على جائزة نوبل فى الكيمياء ١٩٣٥ . كان هذان الزوجان عضوين فى المقاومة وفى وكالة الطاقة الذرية الفرنسية ، كما كانا حتى وفاتهما – عضوين بارزين نشيطين فى الحزب الشيوعى .

ثم هناك أندريه زاخاروف ، ابو القنبلة الهيدروجينية الروسية ، ولقد كنت وما زلت شديد الاعجاب بزاخاروف ولقد ألقيت كلمة فى نيويورك بمناسبة بلوغه سن الستين ، دافعت فيها عنه ووجهت نداء للحكومة الروسية أن تطلق سراحه . ولدهشتى فقد علمت من كتابه " حياتى " الذى يحكى فيه ذكريات حياته كيف كان شديد الاقتناع بالمذهب الشيوعى الرسمى وهو فى سن الأربعين . وكيف أنه نزف الدمع بغزارة عند وفاة ستالين ، أكبر صديق للبشرية ، كما وصفه . كان زاخاروف يعتقد أن الثورة آتية لا محالة وأن هذه الخشونة وتلك القسوة التى مارسها صديق البشرية هذا كان لا مناص منها . هذا الاقتناع كان مستولياً عليه تماماً وهو فى الأربعين من عمره – وكان هذا حوالى ١٩٦١ – وهو الاقتناع الذى أضطر الى تغييره تغييراً جذرياً فيما بعد .

أما أنا فلا أفهم من هذه الحالة الماركسية فقط هذه النظرية العلمية

المزعومه والتي تتوج ـلبنوءة التاريخية الماركسيه ولكنى بـالأحرى فهمهـ على انها السلاسل الأخلاقية التي تبدو انهـ تربط ذلك المفتتع بتلك لنبوءة الحرب أتذكر جيدا هده القيود الأخلاقية التى تشكل هى والنبوءة معا الحالـة الماركسية .

من البداية وأنا فى شك من هذه الجنة التى لا بد أن تتبع الثورة . بـالطبع ساعنى المجتمع النمساوى وقتهـا ، مجتمـع الجـوع والفقر والبطالـة والتضخـم السريع ومجتمع المضـاربين فـى البورصـة والذين خلقوهـا للإستفادة الماديـة منها. لقد اقلقنى المقصد الصريح للحزب والذى شـعرت أنـه يثير فـى رجالـه غرائز قاتلة ضد " أعداء الطبقة Klassenfeind " . لقـد أوضـح لـى أحدهـم أن هذا ضرورى وأنه لا يجب أخـذه علـى أيـة حـال مـأخذاً جديـاً . ففـى ظـل الظروف الماركسية يموت كل يوم عدد من العمال أكثر من العدد الذى يمـوت اثناء قيام ثورة ما . لقد قبلـت هـذا ولكـن علـى كـره منـى ولكنـى مـع هـذا لـم أستطع التخلص من الاحساس بضرورة دفع ثمـن غـال وهـو مـا ينـافى يقينـى الاخلاقى . كان رجال الحزب يقولون وبوضوح فى يوم ما ما يقولون عكسـه تماماً فى اليوم التالى وما ينقضونه تماماً فى اليوم الذى يليه . فلقد أنكروا على سبيل المثال وبشكل جـدى الرعـب الأحمر den Roten Terror مـن أجـل تدعيم القول أن هذا كـان ضروريـا . وعندمـا أعترضت علـى هـذا جـاء مـن يسمعنى أن هذا التنـاقض كـان ضروريـاً وأنـه لا يجـب انتقـاده ، إذ أن وحـدة الحزب أمر ضرورى مـن أجل نجـاح الثـورة . نعـم قـد تكـون هنـاك أخطـاء ارتكبت ولكن لا يجب على المرء التشهير بها . فالاخلاص للحـزب يجـب أن يكون إخلاصـاً مطلقـاً ، إذ نظـام الحـزب وحـده هـو مـا يمكنـه تحقيـق النصـر بصورة أسرع ورغم أنى قبلت هذا أيضاً على كره منى ؛ فلقد تملكنـى الشعور بأن أضحى بالحزب مثلما ضحيت بإخلاصى واستقامتى الشخصية .

ثم حدثت الكارثة : أطلق رجال الشرطة ذات يوم من ايام شهر يونيـو ١٩١٩ الرصاص على إحدى المظاهرات التى قام بها شباب من الحزب عزل

من السلاح ، كان نتيجة هذا أن مات ثمانية أشخاص (إن لم تخنني الذاكرة) . لم يكن تصرف الشرطة هو وحده ما أغضبني ولكنى غضبت أيضاً من نفسى ، إذ لم يحدث فقط أن كنت مشتركاً فى هذه المظاهرة ولكنى وجدت من الصواب أن (يحميها) الحزب ، ولقد شجعت غيرى من الشباب على الاشتراك فى هذه المظاهرة وربما كان البعض منهم من القتلى . لماذا ماتوا ؟ لقد شعرت بالمسئولية تجاههم وكانت النتيجة التى توصلت اليها هى على النحو التالى : نعم من حقى أن أخاطر بحياتى الخاصة من أجل مثل أؤمن بها ولكن ليس من حقى بالتأكيد أن أشجع غيرى على أن يخاطرون بحياتهم من أجل المثل التى أؤمن بها ومن أجل نظرية كالنظرية الماركسية صحتها من الممكن بشكل كبير أن تكون موضع شك .

هل قمت بالفعل بمناقشة النظرية الماركسية مناقشة جادة ونقدية ؟ يجب أن اقر وأعترف - بأسف شديد - أن الاجابة : لا لم يحدث .

وعندما ذهبت بعد ذلك الى مقر الحزب وجدت وجهة النظر فيما حدث على النحو التالى : لابد للثورة من ضحايا ، فهو أمر لا يمكن تجنبه ، بل تشكل مثل هذه الحوادث تقدماً ، إذ أنه من شأنها أن تجعل العمال أكثر حنقاً على الشرطة وتزيد من وعيهم بالعداء الطبقى .

منذ ذلك اليوم أنتهت صلتى تماماً بالحزب ولم أعد أذهب الى هناك وفررت من الحالة الماركسية .

وعلى أية حال فلقد بدأت الآن مناقشة الماركسية مناقشة نقدية .

ولقد نشرت نتائج هذه المناقشة النقدية لأسباب كثيرة - أهمها أنى لم أرد تأييد الفاشية بأية طريقة - لأول مرة منذ ٢٦ عاماً وذلك فى كتابى المجتمع المفتوح وأعداؤه . وبين هذا الوقت واليوم كنت قد وصلت الى نتائج اخرى : لقد وضعت معياراً يمكن أن نحدد وفقا له متى تكون نظرية ما نظرية علمية ، أو علماً وذلك بالمعنى الذى نقول وفقاً له عن علم الفلك النيوتونى مثلا أنه علم .

لقد أردت أن أذكر النقاط الكثيرة التى تبين خطأ النظريـة التاريخيـة لماركس ، ولكن هذا يخرج عن نطاق هذه المحاضرة ، فكتـابى عـن المجتمـع المفتوح يقدم نقداً وتحليلاً تفصيلياً للنبوءة الماركسية . أريد هنـا أن أبـرز فقـط الجوانب شديدة الوضـوح : لن يكون هناك وفقـا لمـاركس وجـود للرأسـمالية ، فلقد عانى المجتمع والذي يعرفه ماركس - ثورات كبيرة - لقد إختفـى مـن مجتمعاتنا الغربية العمل اليدوى الشاق غير المحتمل والمهلك الـذى ، كـان الملايين من الرجال والنساء يضطرون لأدائه ، وهو العمل الذى رأيته بعينـى والذى لا يمكن لأحـد - لـم يمارسـه - أن يستطيع تصـوره : إنهـا ثـورة فـى الحقيقة ، ثورة ندين فيها للتقدم .. للتكنولوجيا .

وعلى كل - فلقد حدث تماما عكس ما تنبأ به مـاركس ، فـأحوال العمـال لم تعد سـيئة ، والكثير راضـون ومغتبطـون بحيـاتهم فـى ظـل الديمقراطيـات الغربيـة ، وإن كـان اليسـار - الأحمـر - والأخضـر - مـا زال يعلـن ويقـوى الإعتقاد بأننا نحيا عالماً لا إنسانياً وأن الأمور تنتقـل مـن سئ الـى أسـوأ ممـا ينتج عنه الاحساس بذلك ، إذ تعتمد السعادة والرضـا فـى قـدر منهـا علـى مـا نعتقده ونشعر به . وعلى كل فمجتمعنا المفتوح - منظـور اليـه مـن وجهـة نظـر المؤرخيـن - هـو أفضـل وأعـدل مجتمـع وجـد حتـى الآن علـى سـطح الأرض .

من الواضح تماماً أن الأمر لم يعد يتعلق بالمجتمع الذى وصفـه مـاركس بالمجتمع الرأسمالى ، ومن ثم لا يوجد مبرر لأن نخدع أنفسـنا ونعطيـه أيضـاً هذه التسمية .

لم يكن " للماركسية " بـالمعنى التـاريخى الـذى استخدم بـه مـاركس هـذا التصـور وجود على الإطـلاق . ولم يتحقق وجود المجتمع بالمعنى الذى قصـده مـاركس بقـانون الافتقـار المـتزايد أو مجتمـع لدكتاتوريـة ، مسـتترة خفيـة للراسماليين . فذلك كله محض خداع ذاتـى . هب أننـا سـلمنا بـأن الحيـاة مـع بداية عهد التصنيع كانت شاقة جداً ، فالتصنيع مع هذا كان يعنى أيضاً إنتاجية

متزايدة وانتاج بالجملة - من الواضح أن هذا الإنتاج بالجملة قد وجد أخيراً طريقه نحو الضخامة . من هنا ليس تصوير ماركس للتاريخ ونبوءته التى وضعها فقط خاطئة ولكنها مستحيلة ، إذ لا يمكن أن يكون هذا الانتاج وفقاً لنظرية ماركس لصالح عدد صغير يتناقص من أصحاب رأس المال الأثرياء. يمكن أن نقرر إذن : إن رأسمالية ماركس بناء عقلى مستحيل ، بناء وهمى . ومن أجل القضاء على هذا البناء الوهمى ، أعد الاتحاد السوفيتى ترسانة من الأسلحة لم يحدث لها مثيل من قبل ، تتضمن أسلحة نووية تكافئ فى مجموعها ما مقداره حوالى خمسين مليون - وإن لم يزد - قنبلة من قنابل هيروشيما . كل ذلك من أجل القضاء على جحيم تخيلوه ولا إنسانية مزعومة. نعم الجنة ليست متحققة فوق الأرض ولكننا مع هذا أقرب اليها من إقتراب الواقع الشيوعى منها .

للمرة الثانية أصل إذن إلى نفس النتيجة - ولكن هذه المرة من جانب آخر - من جانب التحليل المنطقى ونقد الأيديولوجيا الماركسية .

لا يجب أن نسمح مرة أخرى لمثل هذه الأيديولوجيات أن تشدنا الى فلكها. والآن اصل الى آخر جزء من محاضرتى . ما الذى يمكننا تعلمه من الماضى من أجل المستقبل ؟ وما الذى يمكننا أن ننصح به ساساتنا ؟ .

يجب أن نحرر أنفسنا بادئ ذى بدء من عادات التفكير التى لا معنى لها، فالمرء ذو الفطنة يمكن أن يتوقع ما سوف يحدث ، فقد يعتقد البعض أن معيار الحكمة يكمن فى التنبؤ الصحيح ، وأن البرنامج المعقول للمستقبل يجب أن ينطلق من تنبؤات صادقة .

وينظر كل شخص لتاريخ البشرية على أنه تيار قوى ينساب أمام أعيننا . فنحن نرى كيف يأتينا من الماضى ، وإذا نظرنا اليه نظرة صحيحة ، يجب عندئذ أن يكون بإمكاننا أن نتنبأ على الأقل بالاتجاه العام لمجراه المستقبلى ،

يبدو أن الكثير من الناس مقتنعون بهذا ولكن هذا خطأ جوهرى ؛ بل أنه خطأ اخلاقى - يجب أن نحل محل هذا الفهم طريقة تفكير مختلفة تماماً، وهو

ما أقترحه على النحو التالى :

ينتهى التاريخ باليوم الحالى ، يمكننا أن نتعلم منه . ليس المستقبل امتدادا للماضى ولا تكملة له . فالمستقبل لم يوجد بعد ، تكمن مسئوليتنا عنه فى أننا نؤثر فيه ، فى أننا يمكن أن نفعل أى شئ وأن نجعله على صورة أفضل من الحاضر والماضى .

لتحقيق هذا الغرض يجب أن نستفيد مما تعلمناه من الماضى ، كما يجب أن نكون قد تعلمنا ماهو أهم : أن نكون متواضعين .

ما الذى أقترح فعله اذن ؟

لقد تميز الماضى – كما رأينا – بإنقسام العالم الى قطبين : يسار ويمين وهو ما كان نتيجة الاعتقاد فى جحيم رأسمالى لم يحدث له وجود . هذا الانقسام كان يسمح بالتدمير من أجل البشرية حتى وان أدى الى دمار وفناء البشرية ذاتها . لقد كاد هذا أن يحدث . ولكن يمكننا الآن أن نأمل ألا يمارس هذا التصور الواهم أى تأثير آخر . (رغم أنى أخشى أن هذا سيستمر مدة طويلة حتى يختفى تماماً) .

اقترح أن نبذل مجهوداً كبيراً لمحاولة نزع السلاح ، ليس مجهوداً خارجياً فقط ولكن فى الداخل أيضاً ، بمعنى أننا يجب أن نحاول ممارسة السياسة دون أن يكون هناك قطبان يسار ويمين .

أعتقد أن تحقيق هذا صعب المنال وإن كنت على يقين من إمكانية حدوثه ولكن ألم يكن هناك دائماً أحزاب يسارية وأحزاب يمينية ؟ ربما ، ولكن لم يكن هناك قبل لينين هذا الانقسام العالمى الى قطبين ، لم تكن هناك هذه الكراهية وهذا التعصب الذى يدعمه هذا اليقين العلمى المزعوم . لقد استطاع ونستون تشرشل أن يتحول داخل البرلمان من معسكر لآخر وهو ما أثار موجة عارمة من الاستياء وترك لدى البعض مرارة شخصية قوية بل وترك الشعور بأن هذا التصرف كان من قبيل الخيانة . لقد حدث هذا على مستوى يختلف عن هذا التقسيم الى يسار ويمين .فإذا اتهم بعض الشيوعيين الخيرين

بأنهم يشكلون خطراً على الحزب – وتصادف أنهم كانوا يعيشون فى الاتحاد السوفيتى – فقد كان يتم وضعهم فى السجن وإعدامهم .

يعكس هذا التصور الجو الذى كان يعيش فيه تقطيب العالم الى يسار ويمين فى أكثر أشكاله تطرفاً . من الممكن بالتأكيد فى ظل المجتمع المفتوح التحرر من مثل هذا الجو .

ما الذى يجب احلاله محل هذا التقسيم الى يمين ويسار ؟ أو بعبارة أفضل ما هو البرنامج الذى يمكننا وضعه محل هذا التقطيب الى يسار ويمين، والذى من شأنه أن ينحى جانباً هذا التقسيم ؟ .

يمكننا الآن الإستغناء عن الآلية الأيديولوجية للحرب وأن نمارس البرنامج الانسانى العام الذى يكافئ ما يلى : (أرجو أن تلاحظون أنه حتى ولو حدث انسجام عام وكامل بيننا فى برامجنا ، فانه يجب أن يكون هناك مع هذا على الأقل حزبان لكى تستطيع المعارضة إختبار اخلاص وقدرة حزب الأغلبية) . نقترح البرنامج التالى مع استعدادنا لمناقشته وتعديله .

١- حرية أكثر تحكمها المسئولية ، نأمل فى أن يكون لدينا الحد الأقصى من الحرية الشخصية ، وهو ما يكون ممكناً فقط فى ظل مجتمع متحضر – أى مجتمع يفرض فيه منع إستخدام العنف . هذه فى الحقيقة أبرز سمة من سمات المجتمع المتحضر : المجتمع الذى ينشد باستمرار حل مشكلاته حلاً سلمياً .

٢- السلام العالمى ، ما دامت القنابل الذرية والقنابل ذات الرؤوس النووية قد تم اختراعها ، يجب إذن على سائر المجتمعات المتحضرة أن تعمل معاً على حماية السلام ومنع الانتشار المتزايد للقنابل الذرية والهيدروجينية ، فهذا فى الحقيقة هو أكبر واجباتنا والذى بدونه قد تنهار الحضارة والذى يتبعه فناء البشرية .

٣- محاربة الفقر ، لقد اصبح العالم الآن بفضل التكنولوجيا غنيا بقدر كاف - على الأقل فى إمكانياته - بحيث يمكنه القضاء على الفقر . وأصبح غنياً بالقدر الذى يمكنه معه أن يصل بمشكلة البطالة الى أقل درجة ممكنة . لابد أن علماء الإقتصاد قد خبروا صعوبة تحقيق ذلك ، وأن هذا هو حال هذه المشكلة بلا شك .لقد فرضت هذه المشكلة نفسها فجأة (عام ١٩٦٥) وجعلها علماء الاقتصاد هدفهم الملح كما كانت كذلك من قبل . ولكن يبدو أن المشكلة قد خرجت عن مجال الاهتمام ، فكثير من رجال الاقتصاد القومى يتصرفون كما لو أن هناك برهاناً على أن هذه المشكلة غير قابلة للحل ولكن على العكس هناك أكثر من برهان على أن هذه المشكلة قابلة للحل بشكل كبير ، حتى وإن ثبت صعوبة تجنب بعض العمليات الموجودة فى إقتصاد السوق الحر . ولكن يبدو أننا نقحم أنفسنا فى اقتصاد السوق الحر بأكثر كثيراً مما هو ضرورى . إن تقديم حل لهذه المشكلة أمر ملح ولكنه أمر مثير للغيظ أن هذه المشكلة مشكلة قديمة . فاذا لم يستطع رجال الاقتصاد المتخصصون تقديم طرق أفضل للحل ، عندئذ يجب علينا أن نتجه نحو الأعمال غير الدورية وهو ما يندرج تحته الأعمال الخاصة مثل بناء المدارس ورصف الشوارع وتدريب المعلمين وهكذا . ففى فترات البطالة المتزايدة ، علينا تكثيف هذه الاستثناءات لغرض سياسة لا دورية .

٤- محاربة الانفجار السكانى ، باختراع حبوب الاجهاض مكملة بذلك الطرق الأخرى للتحكم فى نسبة المواليد أوصلت التكنولوجيا البيوكيميائية العالم كله الى فهم فكرة تحديد النسل . تستطيع المجتمعات المفتوحة إبطال المقولة بأن هذا يناسب فقط السياسة الامبريالية الغربية من حيث أنها ذاتها تهتم بمسألة انقاص نسبة المواليد .

هذه المسألة مسألة ملحة للغاية ويجب أن تكون فى مقدمة جدول أعمال سائر الأحزاب ببرنامج انسانى ، إذ ترتد سائر ما يسمى بمشكلات البيئة

الى الانفجار السكاني . ونظرة تأملية قد تكفي لاقناع كل شخص بذلك ، فقد يصدق على سبيل المثال بشكل واضح أن حاجة كل شخص للطاقة تزداد ويجب أن يتم تقليلها ، فاذا كان هذا هو الحال ، من هنا كان أكثر إلحاحا أن نحارب أسباب هذا الانفجار السكاني والتي يتصل بلا شك بالفقر والأمية . من أجل هذا يجب علينا من أجل البشرية أن نعمل على ألا يولد سوى الأطفال الذين نرغب فيهم ، إذ أنه أمر قاسي وسيؤدى غالباً الى عنف مادى ونفسى أن نسمح بميلاد طفل لا نرغب فيه .

٥- التدريب على عدم إستخدام العنف ،

أنا على قناعة (رغم أن هذا قد يكون خطأ) بأن افعال العنف قد تزايدت في الأونة الأخيرة . وعلى كل فما هو إلا فرض يمكن إختباره . فمن وجهة نظرى يجب أن نبحث فيما إذا كنا نقوم بتدريب أطفالنا على الصبر على العنف أم لا . فاذا كانت الاجابة بنعم ، فهو سلوك ممنوع بشكل ملح : اذ تهدد وجهة النظر التي ترتضي العنف حضارتنا بشكل واضح . ولكن هل نعتني بالفعل بدرجة كافية بأطفالنا ، هل نقدم لهم العون الذى يحتاجونه ؟ هذه النقطة على درجة كبيرة من الأهمية ، إذ أن أطفالنا في سنهم الصغير في ايدينا تماماً ومسئوليتنا تجاههم أمر لا يمكن تقديره بأى شكل .

ترتبط هذه المسألة بشكل كبير ببعض النقاط السابق ذكرها ، وبمشكلة الانفجار السكاني بشكل خاص . أعتقد أنه يجب علينا أن نحاول تعليم أطفالنا – إن لم تكن فضيلة عدم إستخدام العنف – فعلى الأقل الحقيقة بأن الخشونة هي أكبر الشرور على الاطلاق . لا اقول " الخشونة غير المطلوبة " ، إذ ليست الخشونة غير ضرورية فحسب ولكن لا يجب حتى السماح بها . وتندرج الخشونة النفسية أيضا تحت هذا وهي ما نفعلها غالباً بدون تفكير أو بغباء أو بدافع الأنانية .

أخشى أن الحديث في مثل هذه المشكلات التربوية لم يعد حديث الساعة

من حيث أن حديث الساعة هو أن يفعل كل شـخص مـا يهـواه حتـى وإن كان ما يفعله المرء مرفوضـاً وفقـاً لأخـلاق تقليديـة ومـن حيـث أنـه مـن المسلم به أن الأخلاق غالبا مـا يكـون لهـا صلـة بالنفـاق ، ارد علـى هـذا بقول كانط : " كن شجاعاً واستعن بفهمك الخاص " قـد اقـول بشـئ أكـثر تواضعاً : كن شجاعا فى تجاهل محدثات الأمور ، ستزداد كل يوم وعيـا بالمسئولية شيئاً قليلاً ، فهذا أفضل اسهام يمكن أن تؤديه للحرية .

٦- النقطة السادسة والأخيرة : سيادة وتقييد البيروقراطية ،

بقدر ما أن هناك الكثير مما يمكـن قولـه فـى هـذه النقطـة ، فأنـا لا أنـوى الحديث فيها فى هذا الموضع .

المقالة السادسة عشر

فى ضرورة السلام

Von der Notwendigkeit des Friedens

كلمة شكر بمناسبة منح كارل بوبر ميدالية أتوهان

للسلام فى ١٧ ديسمبر ١٩٩٣ فى برلين

أشكركم جميعا وأخص بالشكر الهيئة العليا للجمعية الألمانية للأمم المتحدة للشرف الذى منحتنى اليوم إياه ، إن ارتباط هذا الشرف باسم أوتو هان [١] أثر فى تأثيراً عميقاً .

ينتمى أوتو هان قبل اكتشافه للانشطار النووى بعشرين عاماً لهؤلاء الأبطال Helden ، هؤلاء الباحثين النظام فى كيمياء الاشعاع Strahlenchemie والنظرية الذرية الذين اكتشفوا عناصر إشعاع جديدة وذرات جديدة وصور جديدة للاشعاع . كما أخترعوا أيضا نظريات جديدة ، قوانين طبيعية هامة جديدة ذات طابع فرضى تصف وتفسر بعض العلاقات الفيزيقية ، علاقات تقوم بين اشعاعات مختلفة وبين التحولات الحادثة فى الذرات المشعة .

لقد كان أوتوهان بالفعل عام ١٩١٨ - وقت أن كنت أبلغ من العمر السادسة عشر - يعد من العظام أمثال بيير ومارى كورى ، وارنست رزرفورد والبرت أينشتين ونيلز بور . لقد سمعت عن هؤلاء الباحثين العظام ، علماء الفيزياء الذرية وكيمياء الاشعاع لأول مرة فى معهد الفيزياء فى فيينا ، مثلما سمعت عن صديقى الذى توفى منذ زمن فرانز أورباخ Franz Urbach الذى عمل فى معهد بحوث الراديوم فى فيينا تحت يد شيتفان ماير Stefan Meyer . وبعد ذلك بسنوات قليلة قرأت أكثر عن أوتوهان فى كتاب مدرسى تحت عنوان " النظرية الذرية " من وضع أستاذى أرثر هاس Arthur Haas وهو باحث الذرة العظيم الذى يكاد اليوم أن يكون منسياً . لقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٢٤ ، أما الطبعة الثانية والتى أقتنيها فقد صدرت عام ١٩٢٩ . لقد وجدت نسختى الخاصة لهذا الكتاب التى أظهرت لى أن الذاكرة لم تخننى : فهناك عبارة فى صفحة (١٨٣)عن اكتشاف مارى وبيير كورى لعنصرى الراديوم والبولونيوم وعن

---

(١) أوتوهان (١٨٧٩ - ١٩٦٨) هو عالم الكيمياء الألمانى مكتشف الانشطار النووى - حصل على جائزة نوبل فى الكيمياء عام ١٩٤٤ .

يرتبط إذن أسم أوتوهان بذكرياتى القديمة للعصر البطولى للاكتشافات الذرية العظيمة . لدى أيضاً ذكريات شخصية تعود الى الفترة ما بين الحربين العالميتين عن أرنست رزرفورد ، ونيلز بور وأوتو روبرت فريش وليز مايتنر . أما أوتوهان فلم اقابله قط فى حياتى .

لقد حكى لى فريش بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عن الاحباط الذى أصاب أوتوهان عندما سمع عن كارثة هيروشيما . لقد شعر هان بمسئوليته المشتركة عندما وصل الى سمعه هو وعلماء الذرة الألمان الآخرين هذا النبأ الفظيع والذين كانوا آنذاك معتقلين فى انجلترا . لقد تأثر هان بشدة ولقد قص على فريش بعدها عن أعمال هان الاستكشافية بخصوص الأسلحة الذرية والحجج الذى ذكرها ضد استخدام ألمانيا لهذه الأسلحة وعن ضرورة السلام .

منذ شبابى وأنا معجب بأوتوهان الباحث والانسان . وها أنذا بعد خمسة وسبعين عاماً من الاعجاب به ، أمنح الشرف العظيم بأن أرتبط باسمه : ميدالية أوتوهان للسلام . وعلى كل فليس اسمه فقط هو ما يعنى لدى الكثير ، فطوال حياتى – وبالتحديد منذ إندلاع الحرب العالمية الأولى – وهو يوم مازلت أتذكره جيداً – لم تغادرنى قط مشكلة ضمان السلام من حيث أنها مسئولية شخصية .

أرجوكم أيها المسئولين عن منح ميدالية السلام أن تقبلوا شكرى كما أود أن اشكر جميع الحاضرين لإقرارهم بضرورة السلام وضرورة تقوية منظمة الأمم المتحدة .

لقد تحدثت بالفعل عن عظمة الباحثين وبصفة خاصة عن علماء الفيزياء الذرية وعلماء كيمياء الاشعاع مثل أوتوهان الذين سمعت عنهم لأول مرة فى المعهد الفيزيقى فى فيينا عام ١٩١٨ . ولكن كان شيئاً قد حدث قبل ذلك بفترة هو ما شكل اعجابى بالعلماء وتحمسى لوجود عصبة الأمم تلك التى حلت الأمم المتحدة محلها . فلقد تلقت أختى الكبرى مع مطلع عام ١٩٠٨ كتاباً

أعجبت به إعجابا شديداً وهو الكتاب الذى أهدتنى اياه بعد ذلك بعام ، إذ أنها لم تكن تشاركنى تماما نفس الاهتمام المتوهج ، كان كتاباً للنرويجى فردجوف نانسن Fridtjof Nansen [1] الذى أسهم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فى تأسيس عصبة الأمم والذى ظل حتى وفاته عام ١٩٣٠ أهم وأكثر شخصيات عصبة الأمم فعالية . كان هذا الكتاب الذى بهرنى كثيراً - أنا الذى كنت وقتها ابن السابعة - يحمل عنوان " فى الليل والثلج In Nacht und Eis البعثة القطبية النرويجية ١٨٩٣ - ١٨٩٦ " لقد كان إذن كتاباً عن مهمة مدتها أكثر من ثلاثة أعوام وهى المهمة التى بدأت - قبل مائة عام من الآن - على ظهر السفينة " فرام Fram " التى تم بناؤها لنانسن بحيث ترتفع فوق الجليد بدلاً من أن يسحقها الجليد . لقد ظلت السفينة حوالى ٣٥ شهراً محصورة فى المنطقة القطبية وعبرت - وفقاً لخطط نانسن - المنخفض القطبى من جزر سيبيريا الجديدة حتى جبال القمة .

لم يؤثر كتاب فى طفولتى مثلما أثر فى هذا الكتاب . لقد خلق فى الرغبة فى الاكتشافات ليس فقط رحلات استكشافية ولكن اكتشافات نظرية أيضاً ، لقد كان نانسن هو ما جعل دلالة النظريات الجريئة والفروض الجريئة تتضح لدى منذ طفولتى إذ أن الخطط التى وضعها نانسن كانت تقوم على أفكار نظرية وأفكار جريئة . وكما ذكر نانسن لقد تعرضت أفكاره لانتقادات حادة وبصفة خاصة من قبل المتخصصين الذين سبقوه فى ميدان الأبحاث القطبية . لقد وصف هؤلاء المتخصصون خطط نانسن بأنها خطط خيالية وإنتحارية وتنبأوا بأن السفينة " فرام " ستتحطم فى الجليد ، أى ستلقى نفس مصير سابقاتها . ولكن نانسن دافع عن خططه بطريقة حادة ، إذ كانت رحلته التى قضى فيها ثلاثة فصول شتوية متعاقبة فى المنطقة القطبية بمثابة اختبار تجريبى لصحة

---

(١) نانسن (١٨٦١ - ١٩٣٠) هو المستكشف وعالم البحار ورجل السياسة النرويجى الذى قام ببعثات استكشافية فى القطب الشمالى . نال عن أعماله الانسانية جائزة نوبل للسلام ١٩٢٢ .

نظرياته الجريئة والثاقبة بالدرجة الأولى .

لقد وضح لى اذن منذ طفولتى المبكرة أن البحث تجريبياً كان أو نظريا يكمن فى وضع فروض جريئة يتم اختبارها تجريبياً . أنه نانسن من أدين له بوجهة النظر هذه ، وهى وجهة النظر التى قد تكون خيالية بعض الشئ والتى وفقاً لها يكون العلم الحقيقى هو نتاج الاكتشافات وليس نتاج النتائج الصادقة أبداً ، فالعلم الصحيح – فى أهم جزء منه – هو نتاج الاكتشافات المتجددة باستمرار وليس نتاج ما يسمى بالوقائع الثابتة ولكنه نتاج الفروض غير المؤكدة . لذا يجب على الباحث أن يخاطر من وقت لآخر وهى المخاطرات التى تكشف مسئوليته العقلية عن التجربة .

وألا يكون من الممكن أن نقوم بتجارب دون فروض فهى الفكرة التى أكد عليها تشارلز دارون . ولكن نانسن ذهب الى ما هو ابعد من ذلك . فلقد قال أن الفروض الفجة wilde أفضل من لاشئ وذكر كمثال الأساطير الثلاث الشمالية القديمة : الفروض الثلاثة عن عبور السفن الى اليابان والصين :(١) فى شمال آسيا ، الممر الشمالى الشرقى Nordostpassage .(٢) شمال أمريكا الشمالية الممر الشمالى الغربى . (٣) المنخفض القطبى الخالى من الجليد والذى يفتح الطريق مباشرة الى القطب الشمالى .

لقد كتب نانسن عن هذه النظريات الثلاث فى مقدمة كتابه قائلاً " لقد كانت هذه النظريات أيضا نظريات فجة ولكنها مع هذا أسهمت إسهاماً كبيراً فى سعادة البشرية ، إذ أنها أسهمت كثيراً فى توسيع معرفتنا بالكرة الأرضية ... لا يوجد عمل فى نطاق البحث يعد عملاً غير نافع حتى وإن بدأ بافتراضات خاطئة " .

ورغم أنى كنت أطالع فى طفولتى هذا الكتاب مراراً وتكراراً بشغف بالغ لم أكن أدر قدر التأثير الذى مارسه على هذا الكتاب وهو ما أدركته الآن بدهشة . بل اصبح واضحاً أن الفضل لميلى للاهتمام بالفيزياء الذرية ولتعظيمى لعلماء الفيزياء الذرية وكيمياء الاشعاع – أمثال أوتوهان – يرجع

الى ناتسن .

كنت قد قررت – منذ اسابيع مضت – أن أتحدث في كلمة الشكر هذه عن كل من هان وناتسن وذلك قبل أن أعرف أنهما كانا صديقين وفي الشهر الماضي أهداني ديتريش هان – حفيد أوتوهان – كتابا عن جده كان قد بدأه فالتر جرلاخ Walter Gerlach وأكمله ديتريش . وبمحض الصدفة فتحت مساعدتي الكتاب على صفحة ١٤٢ وقرأت على ما يلي : " وبعد ذلك حدثت مراسلات علمية بين هان وفريدجوف نانسن حول مسائل جيولوجية ، أكد فيها هان – ضمن ما أكد – على نظرية فيجنر Wegener في الإزاحة القارية " Kontinentalverschiebung " . لايمكنكم تصور دهشتي ! لم أكن أعرف شيئا من هذا على الاطلاق بينما كنت أكتب في البداية كلمة الشكر هذه وأحكي عن أوتوهان وناتسن الذين عملا من أجل العلم ومن أجل السلام .

ولقد كانت اشارة ديتريش هان لألفرد فيجنر أيضا بالنسبة لي على قدر كبير من الأهمية ، إذ كنت أعتبر فيجنر أيضاً في مرحلة طفولتي من هؤلاء الأبطال الباحثين ، وهو العالم الذي قضى حياته – مثله في ذلك مثل نانسن – في اختبار صدق نظرياته . ولقد مات سنة ١٩٣٠ عن عمر يناهز الخمسين (وهي نفس السنة التي مات فيها نانسن) .

لقد إخترت الحديث عن نانسن لسببين : السبب الأول أنه كان الشخص الذي آثار في الاهتمام بالبحث العلمي ، والسبب الثاني لأنه أدى الكثير من أجل تحقيق السلام وذلك أثناء عمله كرئيس للجنة الصليب الأحمر الدولي ثم مندوب في عصبة الأمم بعد عام ١٩١٨ . ليس من السهل نسيان أحد إنجازاته الكبرى ألا وهو إصداره جواز سفر نانسن " Nansen - PaB " الذي اصدره في الخامس من يوليو ١٩٢٢ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى والذي كان بمثابة وثيقة سفر يمكن للاجئين الذين لا وطن لهم أن يحملوها وينتقلوا بها من مكان لآخر ، ولقد إعترف بهذه الوثيقة " ٥٢ دولة وهي الوثيقة التي صدرت في البداية من أجل لاجئي روسيا ثم استخدمها جميع

لاجئي العالم .

أما انجازه الآخر الذي يكاد أن يكون منسياً فهو المساعدات المنظمة بشكل كبير - لروسيا الجائعة في ذلك الوقت . لقد كانت هذه المساعدات التي قدمها هي أول عمل دولي من هذا القبيل وقد إستمرت بإنتظام في الفترة من ١٩٢١ حتى ١٩٢٣ ، نظمتها عصبة الأمم تحت اشرافه . لقد سمح له لينين بعد عناء شديد أن يقدم الأغذية والأدوية عن طريق المنظمة الدولية للمرضى والمشردين . يبدو أن لينين كان يخشى أن يكون هذا ستاراً يتمكن عن طريقه نانسن من التجسس ومن معرفة الأوضاع الرهيبة التي كان عليها الاتحاد السوفيتي . ولقد قال لينين نفسه في نهاية هذه العملية عام ١٩٢٣ أن مساعدات نانسن لروسيا قد أنقذت حياة أكثر من ثلاثة ملايين من البشر وهو العدد الذي قدرته بعض التقارير الأخرى بسبعة ملايين .

ما يدهشني أن مثل هذا الفعل الخير الذي قامت به الأمم المتحدة قد تم نسيانه بسرعة ، من هنا جاء ذكري له . ولقد كنت كلما قابلت شخصاً اثناء الحرب الباردة أفترض أنه يعرف هذا الانجاز الذي قام به نانسن كأن أقابل أحد الدبلوماسيين الذين يتصفون بالنشاط ، كنت أبادر بسؤاله عن هذا الحدث فأجد أنه لا يعرف عنه شيئا . من هنا بدت لي أهمية التذكير بهذا الحدث في التاريخ السابق على نشأة الأمم المتحدة ، فمن المهم جداً لنا أن نتعلم من التاريخ وأن نتعلم أيضاً من تشويه ونسيان التاريخ . أعتقد أن ما جعل مساعدة نانسن طي النسيان أنه موقف لا يحب الروس أن يتذكروه وكذلك المفكرون اليساريون الذين يعيشون في الغرب .

لا أعرف ما كانت الرسائل المتبادلة بين هان ونانسن بعد الحرب العالمية الأولى تدور حوله ولكن لا شك أنها كانت تحوي - بالإضافة الى الحديث في الموضوعات الجيوفيزيقية - شيئا عن نشاط نانسن من أجل السلام . لقد مات نانسن عام ١٩٣٠ . هل تذكر هان نانسن عندما بدأ بعد عام ١٩٤٥ بعد الحرب العالمية الثانية عمله من اجل السلام وضد الأسلحة الذرية؟ . أعتقد

أن الاجنبية بالنفي . ما جعل هان يعمل من أجل السلام كان أنه ببساطة كان يعرف عن الأسلحة الذرية أكثر مما كان مواطنوه يعرفونه ، من هنا شعر أن من واجبه أن يتحدث في هذه المسألة الخاصة بمصير البشرية أن يكشف معرفته .

ولكن لم ؟ ذلك من أجل تحقيق أقدم آمال البشرية ألا وهو تحقيق السلام على الأرض . هذا مانقرأه فى العهد الجديد وما نسمعه من بيتهوفن فى لحنه المؤثر الحزين Missa Solemnis ولهذا نشأت عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى والتى طالب بها ايمانويل كانط - أعظم فلاسفة العالم قاطبة - فى كتابه " نحو تحقيق سلام دائم Zum ewigen Frieden " (١٧٩٥) ، ولهذا نشأت الأمم المتحدة - بعد الحرب العالمية الثانية - بأمل تحقيق السلام العالمى . ولهذا كتب أوتوهان - قبل وفاته بفترة قصيرة - عن " ضرورة السلام العالمى " .

السلام مطلب ضرورى ، وربما مازلنا سنحتاج لوقت طويل آخر من أجل تحقيقه والدفاع عنه . ولكن يجب أن نتذرع بالصبر . وقد نرتكب نحن والأمم المتحدة أخطاء ولكن التفاؤل واجب .

ولكنى اريد أن أشرح هذه العبارة " التفاؤل واجب " وذلك قبل أن أنهى حديثى .

المستقبل مفتوح ، فهو غير محدد بشكل مسبق ، من هنا لايمكن لأحد أن يتنبأ به . لايمكن التنبؤ بالإمكانيات الكثيرة - الخيرة والشريرة على السواء - الكامنة فى المستقبل . " فالتفاؤل واجب " . لاتنطوى هذه العبارة فقط على أن المستقبل مفتوح ولكن على أننا أيضا مانحدده من خلال أفعالنا . فجميعنا مسئول عما سيحدث .

من هنا فإن واجبنا - أن نفعل مافى وسعنا لتحقيق الأشياء التى يمكن أن تجعل المستقبل مستقبلا أفضل بدلا من أن نتنبأ بالسوء .

ثبت بأهم المصطلحات الواردة فى هذا الكتاب

Aberglaube	Superstition	خرافة
Abgeschlossenheit	Closure	إنغلاق
Kausale Abgeschlossenheit	causal closure	إنغلاق علّى
Abgrenzungsproblem	Demarcation Problem	مشكلة التحديد
Abgrehzungs – problemkriterium	Criterion Demarcation Problem	معيار مشكلة التحديد
Abrüstung	Disarmament	نزع السلاح
Abstimmung	Voting	التصويت
Abtreibungspille	Post-coital pills	حبوب الإجهاض
Aids	Aids	الإيدز
Aktivität	Activity	نشاط
Aktiv	Active	نشيط
Aktivismus	Activism	النشاطية
Altruismus	Altruism	الإيثار
Analytische Psychologie	Analytical psychology	علم النفس التحليلى
Annäherung an die wohrheit	Coming nearer to the truth	الاقتراب من الصدق
Anpassung	Adaptation	تكيف
Antireduktionismus	Anti reductionism	الاتجاه اللارادى
Forschungsprogramm	Research program	برنامج بحث
Antizipation	Anticipation	توقع
Anziehungskraft	Gravitation power	قوة الجذب
Aprioismus	Apriorism	القبلية

Äquivalenzprinzip	Equivalence principle	مبدأ التكافؤ
Arbeitshypothese	Working hypothesis	فرض عمل
Ärbeitslösigkeit	Unemployment	بطالة
Aristokratie	Aristocracy	أرستقراطية
Arithmetisierung	Arithmatization	تحسيب
Armutsbekämpfung	Fighting poverty	محاربة الفقر
Astrologie	Astrology	التنجيم
Astronomie	Astronomy	علم الفلك
Atom	Atom	ذرة
Atombombe	Atomic bombs	قنابل ذرية
Atomkrieg	Atomic war	حرب ذرية
Atomphysik	Atomic physics	فيزياء ذرية
Atomtheorie	Atomic theory	نظرية ذرية
Aufklärung	Enlightenment	التنوير
Außenpolitik	Foreign politics	سياسة خارجية
Außenwelt	Outer-world	العالم الخارجى
Autononie	Autonomy	استقلال
Autonom	Autonomous	مستقل
Axiom	Axiom	مبدأ
Bedeutunsanalyse	Denotation analysis	تحليل الدلالة
Bedürfnis	Demand	طلب
Behaviorismus	Behaviourism	الاتجاه السلوكى
Dogmatischer Behaviorismus	Dogmatic Behaviourism	السلوكية الدجماطية
Philosophischer Behaviorismus	Philosophical Behaviourism	السلوكية الفلسفية

Beobachtung	Observation	ملاحظة
Beschreibung	Description	وصف
Selektiver Charakter der Beschreibung	Selective character of description	الطابع الانتقائى للوصف
Bevölkerungsexplosion	Overpopulation	الانفجار السكانى
Bewüßtsein	Consciousness	وعى
Tierisches Bewußtsein	Animal Consciousness	وعى حيوانى
Big Bang-theorie	The Big Bang theory	نظرية الانفجار العظيم
Biologie	Biology	علم الأحياء
Biologische phänomene	Biological phenomena	ظواهر بيولوجية
Biologische Strukturen	Biological structures	تركيبات بيولوجية
Börsenkrach	Crash	إنهيار البورصة
Bourgeoisie	Bourgeoisie	برجوازية
Bürgerkrieg, amerikanischer	American civilwar	الحرب الأهلية الامريكية
Bürokratie	Bureaucracy	بيروقراطية
Chemie	Chemistry	الكيمياء
Christentum	Christianity	المسيحية
Darwinismus	Darwinism	الإتجاه الداروني
Darwinistische Entwicklungstheorie	Darwin theory of evolution	نظرية التطور الداروني
Darwinsche Auslese	Darwinian selection	الإنتقاء الداروني
de Broglie-Wellen	De Broglie-waves	موجات دى بروجلى
Demokratie	Democracy	الديمقراطية
Athenische Democratie	Greek Democracy	الديمقراطية الأثينية
Liberale Democratie	Liberal Democracy	الديمقراطية الليبرالية

Theorie der Democrtie	Theory of Democracy	نظرية الديمقراطية
Denken, vorwissensc-haftliches	Pre-scientfic thought	الفكر قبل العلمى
evolutionäres Denken	Evolutionary thought	الفكر التطورى
Denkinhalte, objektive	Objective thought content	المحتوى الموضوعى للفكر
Denkvorgäge, subjektive	Subjevtive thought events	حوادث الفكر الذاتية
Determinismus	Determinism	حتمية
Differentialrechnung	Differentialcalculus	حساب التفاضل
Diktatur	Dictator	دكتاتور
Diskussion, wissenschaftliche	Sciemtific discussion	مناقشة علمية
kritische Diskussion	Critical discussion	مناقشة نقدية
Dispositionen	Dispositions	ميول
DNA	DNA	الحمض النووى
Dogma/dogmatisch	Dogma/dogmatic	اعتقاد – اعتقادى
Dramatiker	Dramatist	كاتب مسرحى
Dritte Welt	The Third world	العالم الثالث
Drittes Reich	The Third Reich	الرايخ الثالث
Dualismus(von Gravitations-und elektromagnetischen Kräften	Gravitation-electromagnatic power dualism	ثنائية قوى الجانبيـــة والمغناطيسية الكهربية
Effekte, optische	Optical effects	تأثيرات ضوئية
Egoismus	Egoism	أنانية
Einheitliche Feldtheorie	Unified –field theory	نظرية المجال الموحد
Einzeller	Single – celled	ذو خلية واحدة
Einzigartigkeit des genetischen Codes	Uniqueness of the genetic code	تفرد الكود الجينى

Elektrodynamik	Electrodynamics	الدينامبكا الكهربية
Elektromagnetische(s) theorie	Electromagnetic theory	نظرية المغناطيسية الكهربائية
Elektronen	Electrons	الكترونات
Elementarteilchen	Elementary paticle	جزئ أولى
Elimination	Elimination	استبعاد
Eliminationsverfahren	Method of elimination	منهج الاستبعاد
Empirie	Empiricism	الاتجاه التجريبى
Energie, chemische	Chemical energy	طاقة كيميائية
Sonnenenergie	Solar energy	طاقة شمسية
Entstehung des lebens	Origin of life	نشأة الحياة
Entwicklungstheorie	Theory of evolution	نظرية التطور
Epiphänomenalismus	Epiphenomenalism	نظرية الظواهر العرضية
Erfindung	Invention	اختراع
Erkenntnis	Knowledge	معرفة
Erkenntnistheorie	Theory of Knowledge	نظرية المعرفة
evolutionäre Erkenntnistheorie	Theory of evolutional knowledge	نظرية المعرفة التطورية
Erklärungen	Explanations	تفسيرات
Erklärungspotential	Potential explanation	تفسير ممكن
Erwartung	Expectation	توقع
unbewüste Erwartung	Unconscious Expectation	توقع غير واعى
Potentielle Erwartung	Potential Expectation	توقع ممكن
Erziehung	Education	تربية

moralische Erziehung	Moral Education	تربية أخلاقية
Essentialisnus	Essentialism	المذهب الماهوى
essentielle Unvollständigkeit (der Wissenschaft)	Essential incompleteness of science	عـــدم الاكتمـــال بالضرورة للعلم
Ethik	Ethics	الأخلاق
Evolutionstheorie	Theory of evolution	نظرية التطور
Existentialphilosophie	Existential philosophy	الفلسفة الوجودية
Experimente	Experiment	تجربة
Falsifikation	Falsification	تكذيب
Falsifikator, potentieller	Potential folsificator	مكذب ممكن
Falsifizierbarkeitskrit-eium	Criterion of falsificability	معيار إمكانية التكذيب
Faschismus	Fascism	الفاشية
Fehler, technologische	Technological error	خطأ تكنولوجى
Fehler korrektur	Error correction	تصحيح الخطأ
Feigheit	Cowardice	الجبن
Fernwirkung	Romote effect	التأثير من بعد
Fortschritt	Progress	تقدم
wissenschaflicher Fortschritt	Scientific Progress	تقدم علمى
Frauenbefreiung	Woman liberation	تحرير المرأة
Freiheit	Freedom	حرية
Beschränkung der Freiheit	Limitation of liberty	تقييد الحرية
Gedanken Freiheit	Freedom of thought	حرية الفكر
Gewissensfreiheit	Freedom of conscience	حرية الوعى

Freiheit in Verantwortung	Freedom in responsibility	الحرية المسئولة
Mißbrauch der Freiheit	Misuse of freedom	سوء استخدام الحرية
persönliche Freiheit	Personal freedom	حرية شخصية
politische Freiheit	Political freedom	حرية سياسية
religiöse Freiheit	Religious freedom	حرية دينية
Frieden	Peace	سلام
Notwendigkeit des Friedens	Necessity of peace	ضرورة السلام
Friedensbewegung	Peace movement	حركة سلام
Gedächtnis	Memory	ذاكرة
Gegenwart	Present	حاضر
Gehirnphysiologie	Brain physiology	فسيولوجيا المخ
Gehirnvorgänge	Prain events	حوادث المخ
Geist-hirn-Parallelismus	Mind-brain parallelism	تواز العقل والمخ
genetische Strukturen	genetic structures	تركيبات جينية
Geometrisierung	Geometrization	تعميم الهندسة
Geschichte der Menschheit	History of mankind	تاريخ البشرية
Geschichte der Naturwissenschaften	History of natural sciences	تاريخ العلوم الطبيعية
Geschichte politischen Macht	History of political authority	تاريخ السلطة السياسية
Ende der Geschichte	End of history	نهاية التاريخ
Interpretation der Geschichte	History interpretation	تفسير التاريخ
Geschichtsauffassung	History understanding	فهم التاريخ
zynische Geschichte	Cynic understanding	الفهم التهكمي للتاريخ
Geschichtsinterpretation	History interpretation	تفسير التاريخ

Hegelsche Geschichtsinterpretation	Hegelian interpretation of history	التفسير الهيجلى للتاريخ
Marxistische Geschichtsinterpretation	Marxistic history interpretation	التفسير الماركسى للتاريخ
Geschichtsphilosophie	Philosophy of history	فلسفة التاريخ
Geschichtsschreibung	History writing	كتابة التاريخ
Gesellschaft	society	مجتمع
Klassenlose Gesellschaft	Class-less society	مجتمع لاطبقى
liberale Gesellschaft	Liberal society	مجتمع ليبرالى
offene Gesellschaft	Open society	مجتمع مفتوح
zivilisierte Gesellschaft	Civilized society	مجتمع متحضر
Gesetz (e)	Law (s)	قانون – قوانين
allgemeine Gesetze	General Laws	قوانين عامة
historische Gesetze	Historical Laws	قوانين تاريخية
psychologische Gesetze	Psychological Laws	قوانين سيكولوجية
soziologische Gesetze	Sociological Laws	قوانين اجتماعية
universelle Gesetze	Universal Laws	قوانين كلية
Gesetz der Konzentration des Kapital	Law of capital concentration	قانون تركز رأس المال
Gesetz des Fortschritts	Law of progress	قانون التطور
Gewißheit	Certainty	يقين
Glaube (Vermutung)	belief	اعتقاد (تخمين)
Glaube, (religiöser)	Religious belief	اعتقاد دينى
Gott, göttlich	God , divine	إله – إلهى
Grausamkeit	Cruelty	عنف

Gravitationsäther	Gravitation-ether	أثير الجاذبية
Gravitationstheorie	Theory of gravitation	نظرية الجاذبية
griechische Denker / philosophen	Greek thinkers, philosophers	مفكرون – فلاسفة يونان
Harmonie, harmohisch	Harmony / harmonic	اتساق / متسق
Helium	Helium	غاز الهليوم
Historizismus	Historicism	المذهب التاريخى
theistischer Historizismus	Theistic historicism	مذهب التاريخ التأليهى
Hoffnung	Hope	أمل
Holismus	Holism	المذهب الكلى
Humanismus	Humanism	الاتجاه الانسانى
Hypothese	Hypothesis	فرض
Hypothesenbildung	Hypothesis-bilding	بناء الفرض
metaphysische Hypothese	Metaphysical hypothesis	فرض ميتافيزيقى
wissenschafliche Hypothese	Scientific hypothesis	فرض علمى
Idealismus	Idealism	المذهب المثالى
deutscher Idealismus	German idealism	المثالية الألمانية
Idee(n), anthropomorphistische	Anthropomrphistic ideas	أفكار تشبيهية
Ideen, induktive	Inductive ideas	أفكار استقرائية
konventionelle Ideen.	Conventional ideas	أفكار متواضع عليها
regulative Ideen.	Regulative ideas	أفكار موجهة
Ideengeschichte	History of ideas	تاريخ الأفكار
Identifikation	Identifiction	التوحيد
Identität	Identity	هوية

Identität	Identity	هوية
Ideologien	Ideologies	أيديولوجيات
Immaterialismus	Immaterialism	الإتجاه
Immunisierung (einer theorie)	Theory immunization	تحصين النظرية
Imperialismus-theorie	Theory of imperialism	النظرية الامبريالية
Indeterminismus	Indeterminism	الإتجاه اللاحتمى
Individualismus	Individualism	الاتجاه الفردى
Induktion	Induction	استقراء
Widerlegung der Induktion	Induction refutation	تفنيد الاستقراء
Industrialisierung	Industrialisation	تصنيع
Infinitesimalrechnung	Infinitesimal calculus	حساب
Institutionen, democratische	Democratic institutions	مؤسسات ديمقراطية
Integralrechnung	Integral calculus	حساب التكامل
Intellektuelle als propheten	Intellectuals as prophets	المفكرون من حيث أنهم أنبياء
Interaktionismus	interactionism	التفاعل المتبادل
Psychophysischer	Psychophisical interactionism	تفاعل سيكوفيزيقى
Internationales Rotes Kreuz	International red cross	الصليب الأحمر الدولى
Interpretation	Interpretation	تفسير
Hstorische Interpretation	Historical Interpretation	تفسير تاريخى
Historizistische Interpretation	Historicistical Interpretation	تفسير المذهب التاريخى للتاريخ
Ionische Schule	Ionic School	المدرسة الأيونية

Isotope	Isotopes	النظائر
Kalter Krieg	The Cold War	الحرب الباردة
Kantianismus	Kantianism	الاتاجه الكنطى
Kapitalismus	Capitalism	الرأسمالية
kausale Beziehungen	Causal relations	علاقات علية
Keplersche Gesetze	Kepler – laws	قوانين كبلر
Kernkräfte	Nuclear powers	قوى نووية
Kirche. katholische	Catholic church	كنيسة كاثوليكية
Klassengesellschaft	Class society	مجتمع طبقى
Klassenkämpfe	Class conflicts	صراعات طبقية
Koalition (sregierung)	Caalition government	حكومة ائتلافية
Kommunikation	Communication	اتصال
Kommunismus	Communism	شيوعية
Kollaps des Kommunismus	Collapse of Communism	انهيار الشيوعية
Konstitutionelle Regierung	Constitutional government	حكومة دستورية
Kosmologie	Cosmology	علم الكون
Kosmos	Cosmos	الكون
Kräfte, elektrische	Electrical powers	قوى كهربائية
Magnetische Kräfte	Magnetic powers	قوى مغناطيسية
kreative Innovation	Creative innovation	الابتكار الخلاق
Kreativität	Creativity	
Kreisbahn-Hypothese	Hypothesis of circular orbit	فرض المدار الدائرى
Kritik	Criticism	نقد

Empirische Kritik	Empirical Criticism	نقد تجريبى
Kulturrelativismus	Cultural relativism	نسبية ثقافية
Landesverteidigung	Land defence	الدفاع عن الأرض
Leib-Seele - Problem	Body-mind problem	مشكلة النفس – الجسد
Lichtäther	Light-ether	أثير الضوء
Lichtgeschwindigkeit	Speed of light	سرعة الضوء
Links-Rechts-polarisierung	Left-right polarization	تقسيم العالم إلى قطبين يسار ويمين
Literatur	Literature	أدب
Logik	Logic	منطق
Lösungsversuche	Solution attempts	محاولات الحل
Vorläufige Lösungsversuche	Temporary solution attempts	محاولات حل وقتيه
Luftverschmutzung	Air pollution	التلوث الجوى
Macht, diktatorische	Dictatorial power	قوة ديقراطية
Machtpolitik	Power politics	سياسة القوة
Makromechamik	Macromechanic	ميكانيكا الكون الأكبر
Marktwirtschaft	Market Economy	اقتصاد السوق
Marshall-Plan	Marshall-plan	خطة مارشال
Marxismus	Marxism	الماركسية
Masse, schwere	Heavy mass	كتلة ثقيلة
träge Masse	Lazy mass	كتلة خاملة
Massenproduktion	Mass production	
Massenvernichtung	Mass extermination	تدمير شامل
Massenvernichtung - swaffen	Mass extermination weapons	أسلحة الدمار الشامل

Materialismus	Materialism	الاتجاه المادى
historischer Materialismus	Historical materialism	المادية التاريخية
Materie	Matter	المادة
chaotische Materie	Chaotic matter	مادة فوضوية
Mathematik	Mathematics	رياضيات
Maxwellsche Gleichungen	Maxwell Equation	معادلات ماكسويل
Mechanik. Newtonsche	Newton mechamics	ميكانيكا نيوتن
Mengenlehre	Set theory	نظرية المجموعات
Menschenrechte	Human Rights	حقوق الانسان
Menschenwürde	Dignity of man	كرامة الإنسان
Meson	Meson	ميسون
Metaphysik	M :taphysics	ميتافيزيقا
Keplersche Metaphysik	Kepler metaphysics	ميتافيزيقا كبلر
vorsokratische Metaphysik	Pre-socrates metaphysics	ميتافيزيقا ماقبل سقراط
Methode, induktive	Inductive method	منهج استقرائى
kritisch Methode	Critical method	منهج نقدى
Wissenschaftliche Methode	Scientific method	منهج علمى
Mikrostruktur der Materie	Micro-structure of matter	التركيب الأصغرللمادة
Militärbürokrotie	Military bureaucracy	البيروقراطية العسكرية
Ministaat	Mini-state	الدولة الصغرى
Mittler Osten	The Middle East	الشرق الأوسط
Molekularbiologie	Molecular biology	علم الأحياء الجزيئية
Monade	Monads	مونادات ليبنتز

Monarchie	Monarchy	المونارכية
Moral/moralische Aufgabe	Moral duty	واجب أخلاقى
Moral/moralische Verpflichtung	Moral obligation	إلزام خلقى
moralischer Futurismus	Moral futurism	مذهب المستقبلية الأخلاقية
Mutationen/Mutabilität	Mutations	التغيرات الفجائية
Nationalismus	Nationalism	قومية
Nationaläkonomie	National economy	اقتصاد قومى
Natürgesetz	Law of nature	قانون الطبيعة
Natürwissenschsft	Natural science	علم طبيعى
Neues Testament	The New Testament	العهد الجديد
Neutron	Neutron	نيوترون
Neutronenwellen	Neutron- cells	خلايا نيترونية
Nichtexistenz der Materie	Non-existence of matter	عدم وجود المادة
Nichtreduktionismus	Non-reductionism	الإتجاه اللارادى
Objektivität	Objectivity	الموضوعية
Objektiv	Objective	موضوعى
Objektiviert	Objectivized	متموضع
Obskurantismus	Obscurantism	تعمية
Oligarchie	Oligarchy	أوليجاركية
Optimismus	Optimism	تفاؤل
Optimist	Optimistic	متفائل
Organismus	Organism	عضوية
Ozanloch	Ozone-hole	ثقب الأوزون
Panpsychismus	Panpsychism	النفسانية الشاملة

Parallelismus. psycho-physischer	Psycho-physical parallelism	التوازي السيكوفيزيقى
Parteidisziplin	Party discipline	نظام حزبى
Parteien	Parties	أحزاب
Parteien Regierung	Party government	حكومة حزبية
Paternalismus	Paternalism	الاتجاه الأبوى
Pauli- prinzip	Pauli-Principle	مبدأ باولى
Pazifismus	Pacifism	مذهب المسالمة
physik	Physics	فيزياء
Makro physik	Macrophysics	فيزياء الكون الأكبر
Mikro physik	Microphsics	فيزياء الكون الأصغر
physikalismus	Physicalism	الاتجاه الفيزيقى
Reiner physikalismus	Pure phisicalism	الاتجاه الفيزيقى الخالص
Planetenbahnen	Planaetary orbits	المدارات الكوكبية
Planetenbewegung	Planet – movement	حركة الكواكب
Platonische Dialektik	Platonic dialectic	الجدل الأفلاطونى
Pluralismus	Pluralism	تعددية
Politik	Politics	سياسة
Postivismus	Positivism	الاتجاه الوضعى
Positron	Positron	بوزيترون
Potentialitäten	Potentialities	ممكنات
Prästabilierte – Harmonie	Pre-established harmony	الانسجام الأزلى
Primzahlen	Prime numbers	أعداد أولية
Zwillingsprimzahlen	Even numbers	أعداد زوجية
Problem	Problem	مشكلة

Wissenschafts theortisches Problem	Theoretic-scientific Problem	مشكلة علمية نظرية
Problemlösung	Problem solution	حل مشكلة
Problem situation	Problem situation	موقف المشكلة
Prognose	Prognosis	تنبوء
Prolctariat	Proletariat	البروليتاريا
Prophezeiung	Prophecy	تنبؤ
Protonen	Protons	بروتونات
Prüfung	Test	اختبار
exerimantelle Prüfung	Experimantal test	اختبار تجريبى
Psychismus	Psychism	الاتجاه النفسانى
Psychoanalyse	Psycho analysis	تحليل نفسى
Quantenmechanik	Quantenmechanics	ميكانيكا الكم
Quantentheorie der Atome	The atom Quanten theory	نظرية الكم الذرية
Des periodischen system der Elemente	quantisation of the periodocal system of elements	تكمين الجدول الدورى للعناصر
Quellen material	Source material	مادة أصلية
Radio chemie	radio-chemistry	كيمياء الاشعاع
Radium	Radium	عنصر الراديوم
Randbedingungen	Marginal – conditions	شروط هامشية
Rassismus	Racism	العنصرية
Rationalismus	rationalism	الاتجاه العقلى
kritischer Rationalismus	Critical rationalism	العقلانية النقدية
Realismus	Realism	الواقعية
Realist	Realist	واقعى

Realitätsproblem	Problem of reality	مشكلة الواقعية
Richt	right	حق
Rechtgläubigkeit	Orthodoxy	الاتجاه الارثوذكسى
Rechtsordnung	Legal system	نظام قانونى
Rechtsstaat	Constitutional state	دولة القانون
Reduktion	reduction	رد
kartesische Reduktion	Cartesian reduction	الرد الديكارتى
letzte Reduktion	The last reduction	الرد النهائى
Wissenschaftliche Reduktion	Scientific reduction	رد علمى
Reduktion der Biologie auf die physik	Reducing biology into physics	رد علم الأحياء إلـــى الفيزياء
Reduktion der Chemie auf die Quantenphsik	Reducing chemistry into quantenphysics	رد الكيمياء إلى فيزياء الكم
Reduktion der Mechanik und der Chemie auf die elektromagnetische Theorie	Reducing mechanic and chemistry into electromagnetic theory	رد الميكانيكا والكيمياء إلـــى النظريـــــة الكهرومغناطيسية
Reduktion Der Thermodynamik auf die Mechamik	Reducing thermodynamics into mechanics	رد الديناميكا الحرارية إلى الميكانيكا
Reduktionismus	Reductionism	الاتجاه الردى
Philosophischer Reduktionismus	Philosophical reductionism	الرد الفلسفى
Reduktionsversuche	Reduction attempts	محاولات الرد
Reform	reform	اصلاح
Politische Reform	Political reform	اصلاح سياسى
Regierungsformen	Forms of government	صور الحكومة

Regierungswechsel	Change of government	تغيير الحكومه
Relativitätstheorie	Theory of relativity	النظرية النسبيه
Allgemeine Relativitätstheorie	General Theory of Relativity	النظرية العامه
Spezielle Relativitätstheorie	Special Theory of Relativity	النظرية الخاصة
Religion	Religion	دين
Pessimistische Religion	Pessimistic religion	دين متشائم
Religionskämpfe	Religious struggles	صراعات دينية
Renaissance	Renaissance	عصر النهضة
Revolution	Revolution	ثورة
Soziale Revolution	Social Revolution	ثورة اجتماعية
Rotverschiebung	Red shift	الإزاحة الحمراء
Sätze	Propositions	قضايا
Empirische Sätze	Empirical Propositions	قضايا تجريبية
wahre Sätze	True Propositions	قضايا صادقة
Schema	Schema	إطار
Dreistufiges Schema	Three graded Schema	إطار ثلاثى المراحل
Vierstufiges Schema	Four graded Schema	إطار رباعى المراحل
Selbstbefreiung	Self-liberation	تحرير الذات
Selbstbewüßtsein	Self-consciousness	وعى ذاتى
Selbstkritik	Self-criticism	نقد ذاتى
Selektion	Selection	اختيار
Natürliche selektion	Natural Selection	انتقاء طبيعى
Sicht der Welt	View of world	رؤية العالم

Dynamische Sicht der Welt	Dynamic of world	رؤية ديناميكية للعالم
Statische Sicht der welt	Static of world	رؤية ثابتة للعالم
Sinn (der Geschichte)	Meaning of history	معنى التاريخ
Sinnesorgane	Sense – organs	أعضاء الحس
Wahrnehmung	Sense – perception	ادراك حسى
Sklaverei	Slavery	العبودية
Solipsismus	Solipsism	مذهب وحدة الأنا
Sozialphilosophie	Social philosphy	فلسفة اجتماعية
Sozialwissenschaft	Social science	علم اجتماعى
Spiriualismus	Spiritualism	الاتجاه الروحى
Sprache	Language	لغة
(Funktionen der menschlichen Sprache)	Functions of the human language	وظائف اللغة البشرية
Sprachfähigkeit	Faculty of speech	ملكة الكلام
Staatsmacht	State authority	سلطة الدولة
Staatsorgane	Instrument of state	أداة الدولة
Strahlenchemie	Radiation chemistry	كيمياء الاشعاع
Struktur, innere	Inner structure	تركيب داخلى
Substanz, materielle	Material substance	جوهر مادى
Suggestion(sbedürfnis)	Suggestion-need	الحاجة للإيهام
Synapse	Synapse	عقد عصبية
Tautologien	Tautologies	تحصيل حاصل
Technik	Technik	أسلوب فنى
Technologie	Technology	التكنولوجيا

Teilchentheorie	Theory of particles	نظرية الجزيئيات
Teleologie	Teleology	غائية
Terrorismus	Terrorism	إرهاب
Theater	Theatre	مسرح
Theorie der bedingten Reflexe	Theory of conditioned reflection	نظريـــة ردود الفعـــل المشروطة
Theorie der Demokratie	Theory of Democracy	نظرية الديمقراطية
Theorie der Funksendung	Theory of radio transmission	نظريـــة الارســـــــال الاذاعى
Theorie der Gen-Identität	Theory of gen-identity	نظرية هوية الجين
Theorie der Komplementarität von Teilchen und Wellen	Theory of the complementary of particles and waves	نظرية تتام الجزيئيـات والموجات
Theorie der Kontinental verschiebung	Theory of Continental-shift	نظرية الازاحة القارية
Theorie der Legitimität	Theory of legitinacy	نظرية الشرعية
Theorie der sprache	Theory of language	نظرية اللغة
Theorie der Zeit	Theory of time	نظرية الزمن
Theorie und Praxis des demokratischen Staates	Theory and practice of the democratic state	نظرية وممارسة الدولة الديمقراطية
Theorien	Theories	نظريات
Theorienbildung	Theory bilding	بناء النظرية
biologische Theorien	Biological Theory	نظريات بيولوجية
chemische Theorien	Chemical Theory	نظريات كيميائية
falsche Theorien	Wrong Theory	نظريات خاطئة

konkurrierende Theorien	Concurrenting Theory	نظريات متنافسة
physikalische Theorien	Physical Theory	نظريات فيزيقية
Kritik der Theorien	Criticizing Theory	نقد النظريات
Kühnheit einer Theorie	Boldness of theory	جراءة النظرية
Gehalt einer Theorie	Theory content	محتوى النظرية
Superiorität einer Theorie	Superiority of theory	سمو النظرية
Überprüfung der Theorie	Examination of theory	اختبار النظرية
Wahrheits gehalteiner Theorie	Truth – content of theory	محتوى صدق النظرية
Toleranz	tolerance	تسامح
religiöse Toleranz	Religious tolerance	تسامح دينى
Trägheitsgesetz	Law of inertia	قانون القصور الذاتى
Tyrannis	Tyranny	استبداد
Umwelt	environment	بيئة
Umweltprobleme	Environment problems	مشكلات البيئة
Umweltzertöung	Environment destruction	تدمير البيئة
Unfruchtbarkeit (der marxistischen Theorie)	Infertility of the marxist theory	ضحالة نظرية ماركس
Universalgeschichte	Universal history	تاريخ شامل
Universum	Universe	الكون
Unredlichkeit	Dishonesty	خيانة
Unvollstänsigkeitssätze	Incompleteness theorem	مبرهنة عدم الاكتمال
Uranspaltung	Uranium Fission	الانشطار النووى
Ursache	Cause	علة
Ursprung (des Lebens)	Origin of Life	نشأة الحياة

Utopie	Utopia	يوتوبيا
Verantwortlichkeit / Verantwortung	Responsibility	مسئولية
Verelendungstheorie	Theory of reduction to misery	نظرية الافتقار المتزايد
Vergangenheit	Past	الماضى
Verhaltensphilosophie	Behaviour philosophy	الفلسفة السلوكية
Verkehrsrevolution	Transportation revolution	ثورة النقل
Verleger	Publisher	ناشر
Vernichtung	Extermination	دمار
Vernunft	Reason	عقل
Versuch und Irrtum	Trial and Error	محاولة وخطأ
Verwunderung	Amazement	دهشة وحيرة
Völkerbund	League of Nations	عصبة الأمم
Volksherrschaft	Sovereignty of People	سيادة الشعب
Volksinitiative	People initiative	مبادرة الشعب
Vorbilder	Ideal	مثال
Vorhersage	Forecast	تنبؤ
Waffen	Weapons	سلاح
Waffen handel	Arms trade	تجارة السلاح
Wahlrecht	Election-right	حق الانتخاب
Wahrheit , Idee der	Idea of truth	فكرة الصدق
objektive Wahrheit	Objective truth	صدق موضوعى
Wahrheitsproblem	Truth problem	مشكلة الصدق
Wahrheitssuche	Truth seeking	البحث عن الصدق

Wahrnehmung	Perception	ادراك حسى
Wasserstoff (kerne)	Nuclear of hidrogen	نواة الهيدروجين
Wechselwikung, schwache	Weak interaction	التفاعل المتبادل الضعيف
Wechselwikung zwischen Leid und seele	Interaction between body & mind	التفاعل المتبادل بين الجسد والعقل
Wellenmechanik	Wave mechanics	الميكانيكا الموجية
Wellentheorie der Ausbreitung Lichts		النظرية الموجية لإنتشار الضوء
Weltfriden	World peace	السلام العالمى
Weltkrieg, Erster	First World War	الحرب العالمية الأولى
Zweiter Weltkrieg	Second World War	الحرب العالمية الثانية
Weltsicht, realistische	Realistic view of the world	نظرة واقعية للعالم
Weltwirtschaftskrise	World economic crisis	الازمة الاقتصادية العالمية
Widerlegung	Refutation	تفنيد
Widerspruch	Contrast	تناقض
Wiener Kreis	Vienna Circle	حلقة فيينا
Wirkung	Effect	معلول
Wissen	Knowledge	معرفة
angeborenes Wissen	Inborn knowledge	معرفة فطرية
apriorisches Wissen	Apriori knowledge	معرفة قبلية
dispostitionelles Wissen	Dispositional knowledge	معرفة نزوعية
konjekturelles Wissen	Conjevtural knowledge	معرفة تخمينية

naturwissenschaftliches Wissen	Natural science knowledge	معرفة علمية
objektives Wissen	Objective knowledge	معرفة موضوعية
sicheres Wissen	True knowledge	معرفة صادقة
subjektives Wissen	Subjective knowledge	معرفة ذاتية
Wahrnhmungswissen	Perceptual knowledge	معرفة حسية

فهرســت الموضوعـــات

٩٨/١٤٧٦١

I.S.B.N.

977-03-0519-7

الحرمين للكمبيوتر

٣٨ شارع سوتير ــ الأزاريطة

☎ : ٤٨٢١٢٢٠

شركة الجلال للطباعة
أول شارع السفن-العامرية
☏ ٠١٢/٣٣٢٤٥٠٣

هذا الكتاب

لا نكون مبالغين إذا قلنا أنه لم يحدث أن كان لفيلسوف تأثير على غيره من الفلاسفة بل وعلى الفكر الأوروبى بأسره فى هذا القرن مثلما كان لفيلسوف العلم الألمانى الشهير كارل بوبر.

قبل وفاته بشهرين، قام فيلسوفنا بإختيار ست عشرة مقالة – معظمها لم تنشر من قبل – ليضمها فى كتاب يمثل سائر مواقفه وآرائه فى مجال فلسفة العلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية، فلم يدل فيلسوف بدلوه فى شتى جوانب فلسفة العلوم بإتساق وبوضوح مثلما فعل كارل بوبر : فمن فلسفة العلوم الطبيعية والرياضية لفلسفة التاريخ والسياسة، يخضعها جميعاً لمنهج واحد ألا وهو منهج – العقلانية النقدية – ولاعجب وهو العالم والرياضى والفيلسوف والمفكر، وكأن فيلسوفنا قد شعر أنه آخر كتاب سيرى النور فى حياته، فأراده أن يأتى حاوياً لشتى هذه الجوانب التى توزعت فى كتبه السابقة.

قام المترجم – والذى أعرفه جيداً – بترجمة هذا الكتاب عن الألمانية بأسلوب رشيق وواضح، سبقه بدراسة قصيرة حاول فيها أن يبين كيف تمثل جوانب فلسفة كارل بوبر نسيجاً واحداً متصلاً لافصل فيه بين فكره وأخرى ليتبع هذه الترجمة بترجمة أكثر من خمسمائة مصطلح من الألمانية إلى كل من الإنجليزية والعربية .

هذا الجهد يجعل من هذا الكتاب إضافة جيدة للمكتبة العربية، ليس المختص فى مجال فلسفة العلم وحسب بل والمثقف بصفة عامة.

أ.د. على عبد المعطى محمد

مدير مركز التراث والمخطوطات

جامعة الاسكندرية